

مطبوعات
مكتبة الملك فهد الوطنية
السلسلة الثانية
(١٨)

تاريخ الطباعة العربية
في إستانبول وبلاد الشام

د. وحيد بن الطاهر قدورة

الطبعة الثانية



الرياض
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

مطبوعات
مكتبة الملك فهد الوطنية
السلسلة الثانية
(١٨)

تاريخ الطباعة العربية

في إستانبول وبلاد الشام

د. وحيد بن الطاهر قدورة

الطبعة الثانية

الرياض
١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

تاريخ الطباعة العربية

فـــي إستـانبـول وبــــلاد الشــــام

د. وحيد بن الطاهر قدورة

الطبعة الثانية

مكتبة الملك فهد الوطنية
الرياض : ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

المحتويات

قائمة الرسومات

	١٥٩٣م	
الرسم رقم (٦)	كتاب الهندسة لإقليدس المطبوع في مدينة روما (ايطاليا) عند الميدتشي سنة ١٥٩٤م	٣٢٩
الرسم رقم (٧)	كتاب نزهة المشتاق للإدريسي المطبوع في مدينة روما (إيطاليا) عند الميدتشي سنة ١٥٩٢م	٣٣٠
الرسم رقم(٨)	كتاب تاريخ المسلمين للمكين جرجس بن العميد المطبوع في مدينة ليدا (هولندا) عند توماس الأربني سنة ١٦٢٥م	٣٣١
الرسم رقم (٩)	كتاب العهد والشروط المطبوع في مدينة باريس (فرنسا) سنة ١٦٣٠م	٣٣٢
الرسم رقم(١٠)	كتاب النحو العربي المطبوع في مدينة روما (إيطاليا) عند مجمع نشر الإيمان سنة ١٦٤٢م	٣٣٣
الرسم رقم(١١)	كتاب ابن ميمون المطبوع في مدينة أكسفورد (إنجلترا) سنة ١٦٥٥م	٣٣٤
الرسم رقم(١٢)	كتاب القرآن الكريم المطبوع بمدينة هامبورغ (ألمانيا) سنة ١٦٩٤م	٣٣٥
الرسم رقم(١٣)	كتاب القدسات الثلاثة الإلهية المطبوع بمدينة بوخاريست (رومانيا) سنة ١٧٠١م	٣٣٦
الرسم رقم(١٤)	كتاب الزبور الشريف المطبوع في مدينة حلب (سورية) سنة ١٧٠٦م	٣٣٧
الرسم رقم(١٥)	صفحة الإهداء لكتاب الزبور الشريف المطبوع في مدينة حلب (سورية) سنة ١٧٠٦م	٣٣٨

الرسم رقم (٢٤)	كتـــاب صـــحاح الجـــوهري. ترجمـــة محمـــد بـــن مصطفى الواني، المطبوع في مدينة استانبول سنة ١٧٢٨م	٣٤٦
الرسم رقم (٢٥)	كتـاب أصـول الحكـم فـي نظـام الأمـم لإبـراهيم متفرقة، المطبوع في مدينة استانبول سنة ١٧٣٢م	٣٤٧
الرسم رقم (٢٦)	كتـــاب تـــاريخ مصـــر الجديـــد لســـهيل أفنـــدي، المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٣٠م	٣٤٨
الرسم رقم (٢٧)	كتاب تاريخ تيمور كوركان لأحمد بن عربشاه، المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٢٩م	٣٤٩
الرسم رقم (٢٨)	خريطـة إفريقيـا كمـا ظهـرت فـي كتـاب جهـان نمـا لحـاجي خليفـة،المطبوع فـي مدينـة إسـتانبول سـنة ١٧٣٢م	٣٥٠
الرسم رقم (٢٩)	كتـاب تـاريخ نعيمـة، المطبـوع فـي مدينـة إسـتانبول سنة ١٧٣٤م	٣٥١
الرسم رقم (٣٠)	كتـاب أحـوال غـزوات در ديـار بوسـنة، المطبـوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٤١م	٣٥٢

تقديم الطبعة الثانية

اتفقت الآراء منذ فترة طويلة على أن اختراع المطبعة يعدّ محطة رئيسية في تاريخ الإنسانية، إذ ساهمت آلة الطباعة في تغيير مجرى المجتمعات الحديثة، بدءاً بالمجتمعات الأوروبية التي استفادت من "فن الكتابة الجديد" لنشر المعرفة على نطاق واسع وإنارة العقول، وهو ما كان له أعظم الأثر في ارتقاء الشعوب على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وقد ذهب الباحث التونسي الهادي البالغ(١) عام ٢٠٠٠م، وهو يضع حصيلة الإنجازات والإبداعات التي توصلت إليها البشرية خلال الألفية الثانية الميلادية، بأن المطبعة هي أعظم اكتشاف توصل إليه الإنسان خلال الألف سنة الماضية. وذهب قبل ذلك الأديب الفرنسي فيكتور هيجو إلى القول بأن "اختراع الطباعة هو أعظم حدث في التاريخ، إنها الثورة الأم. لقد تجدّد معها تمامًا نمط التعبير لدى الإنسانية". و لئن بدا في كلام هيجو بعض الحماس فلا بدّ أن نقرّ بأن تأثير المطبعة على أساليب العمل الفكري كان بقدر التأثير الذي أحدثه اختراع الكتابة.

هذه الوظائف والتأثيرات التي أحدثتها المطبعة في المجتمعات الحديثة لم تكن واضحة المعالم في البداية مع ظهور فن الكتابة الجديد، إلا أن المناخ الفكري في أوروبا كان مهيئًا للتعامل بإيجابية مع هذه "التكنولوجيا الفكرية"، منذ القرن الخامس عشر، حيث عرفت المجتمعات الأوروبية آنذاك حركة الإحياء والأنسية، وتطورت إلى ما يعرف بعصر النهضة، ثم فيما بعد بعصر الأنوار. إلا أن الأمر كان مختلفًا في البلاد العربية والإسلامية؛ حيث الظروف الاجتماعية والسياسية لم تكن لتساعد على قبول الاكتشافات والإبداعات، خاصة إذا كانت قادمة من أوروبا، بسبب الجوّ المشحون بالتوتر والنزاعات بين

(١) BALEGH, Hédi.- « La plus grande invention du deuxième millénaire » in **La Presse de Tunisie**, 16 janvier 2000, p.9.

الشرق والغرب. وهو الأمر الذي دفعنا إلى تحليل الملابسات التي أحاطت باستخدام فن الطباعة الجديد عند العرب، والانعكاسات الاجتماعية والثقافية "لثورة الطباعة" على المجتمعات العربية والإسلامية. وهذه القضية المعقدة لم يكن بالإمكان دراستها دون إثارة جملة من المسائل، منها علاقة العالم الإسلامي بالعالم المسيحي، والروابط التاريخية بين الشرق والغرب وعلاقة الكنائس الشرقية في بلاد الشام بالكنائس الأوروبية، والعلاقات القائمة بين الطوائف المسيحية الشرقية نفسها في سعيها لدعم هويتها الثقافية، وكذلك مسألة الحوار بين المسلمين حول تجديد مجتمعاتهم وإصلاحها، وانعكاسات الطباعة على الحركة الفكرية في البلاد العربية، وعلى المكتبات وإنتاج الكتاب.

هذه المسائل في جوهرها تعود لتطرح اليوم في إطار جديد بعد حصول تطورات في أدوات العمل الفكري، فاليوم مع انتشار استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وتبني استراتيجية العولمة، تثار قضايا أساسية تهم مستقبل المجتمعات في عصر المعلومات والمعرفة، مثل حوار الحضارات وتقاسم المعرفة والفجوة الرقمية، كما تثار قضايا خاصة تهم نقل المعلومات والتواصل المعرفي وبناء مجتمع المعلومات، ذلك أن التوجهات الحالية في علوم المكتبات والمعلومات تركز على التفكير في انعكاسات تكنولوجيا الرقمنة على أنماط إنتاج المعلومات العلمية والتقنية ونقلها واستخدامها. فالنشر الرقمي أدى إلى إعادة النظر في طرق تسجيل ونقل المحتويات المعرفية وإتاحتها لجمهور المستفيدين، وكذلك في سلوكيات القرّاء تجاه استخدام مصادر المعلومات الإلكترونية وتعاملهم مع أدوات استرجاع المعلومات الحديثة، وخاصة الإبحار على شبكة الإنترنت والاطلاع على المحتويات الإلكترونية، أو ما يعرف اليوم بـ"القراءة الرقمية". كذلك يدرس اليوم تأثير الرّقمنة على المكتبات ومراكز المعلومات، وعلى طرق معالجة المعلومات وحفظها وبثها.

هذه الإشارات السريعة تعني أن تكنولوجيا المعلومات الحديثة تستمد جذورها من آلة الطباعة التي فتحت عهدًا جديدًا في تاريخ الفكر الإنساني،

وتدلّ على أن الحوار لا يزال مفتوحًا حول انعكاسات "التكنولوجيا الفكرية" على أنماط تنظيم المعرفة والاستفادة منها. وهذا ما يفسر الاهتمام الكبير بموضوع الطباعة والكتاب المطبوع والعودة إلى نشر هذا الكتاب، وهو من شأنه ليس فقط أن يبرز التواصل والامتداد لمسألة ثورة المعلومات الحالية والتي تستمدّ جذورها من اختراع الكتابة ثم الطباعة وصولاً إلى الحاسوب، بل وكذلك لتبرز تواصل التحولات في المواقف والسلوكيات على جمهور المؤلفين والباحثين والعلماء وجمهور القراء والمستفيدين. هذا الكتاب الذي عرف تحويرًا طفيفًا في العنوان من "بداية الطباعة العربية في إستانبول وبلاد الشام" كما جاء في الطبعة الأولى إلى "تاريخ الطباعة العربية في إستانبول وبلاد الشام" كما هو مبيّن في عنوان الطبعة الثانية، يتميز بالتنقيحات والإضافات التي أدخلناها عليه للإحاطة أكثر بجوانب تاريخية هامة عن نشأة الكتاب العربي المطبوع في أوروبا وفي المشرق، وخاصة ما يتعلق بالمطبعة العربية في إستانبول، وذلك على ضوء الوثائق والدراسات التي أمكننا الاطلاع عليها حديثًا.

ختامًا أغتنم الفرصة للتعبير عن تقديري الكبير للمسؤولين عن مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، الذين أبدوا اهتمامًا خاصًا بهذا الكتاب الذي أقدمه بين أيدي القراء الكرام، وقبلوا إعادة نشره؛ فشكرًا لهم على جهودهم المتواصلة في مجال نشر الكتب المتخصصة في علوم المكتبات والمعلومات.

والله الموفق

تونس في ٤ جانفي / يناير ٢٠٠٩م

د. وحيد قدورة
أستاذ المكتبات والمعلومات بالمعهد العالي للتوثيق
جامعة منوبة - تونس

المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالدرس القضايا التي طرحت عند ظهور المطبعة العربية في المشرق، وتأثير هذا الحدث الكبير على الحياة الثقافية داخل الإمبراطورية العثمانية في القرن ١٢هـ/١٨م. ففن الطباعة بالأحرف العربية لم يبرز في المشرق إلا بعد مرور قرنين ونصف على اكتشافه بأوروبا، وقد حافظ المخطوط العربي في أثناء ذلك على مكانته المتميزة لدى المتعلمين باعتباره الوعاء الرئيسي لنقل المعلومات والمعارف، إلى أن ظهرت أول مطبعة عربية سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م بمدينة حلب عند مسيحيي الطائفة الأرثوذكسية الملكية. ثم أسست مطبعة لدى المسلمين بإستانبول سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٦م، وتبعتها بعد ذلك ورشتان للطباعة لدى المسيحيين بجبل لبنان، وبالتحديد بالشوير سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، وبيروت سنة ١١٦٥هـ/١٧٥١م.

وتعتبر ظاهرة تأسيس أربع مطابع عربية في ظرف نصف قرن علامة بارزة في عملية التحول التي أقدم عليها المجتمع العثماني في القرن ١٢هـ/١٨م. والتي كان يتوق من خلالها إلى الانتقال إلى مرحلة جديدة من تاريخه، وهي مرحلة الإصلاح والنهضة التي يؤدي فيها الكتاب المطبوع دورًا بارزًا. وحيث لا يمكن نقل الآراء الجديدة والمعارف العصرية في ذلك العهد بسرعة والتعريف بها على نطاق واسع إلا عبر الكتاب المطبوع. إن أفكار الإصلاحيين التي برزت في هذه الفترة تعبر عن رغبة جديدة في تغيير المجتمع بداية من تطوير أدوات الثقافة، وهذا ما يفسر إقدام المثقفين على إعطاء شكل جديد لوعاء المعلومات الرئيسي، وهو شكل الكتاب المطبوع.

وعليه فإن من الضروري البحث في البداية عن أسباب "التأخير" المسجل في إدخال المطبعة العربية بالمشرق. ذلك لأن المسلمين ترددوا في استعمال فن الطباعة، رغم أنهم كانوا على دراية تامة ومبكرة بظهور أحرف الطباعة

المنفصلة بأوروبا في القرن ٩هـ/١٥م، بل أكثر من ذلك كانوا على علم "بفن الكتابة الجديد" الذي اكتشفه الصينيون في القرن ٥هـ/١١م. ولا يختلف الأمر كذلك بالنسبة للمسيحيين العرب الذين كانوا مطلعين على ورشات الطباعة الموجودة عند الأقليات الدينية بالدولة العثمانية من يهود وأرمن ويونانيين منذ القرنين ٩-١٠هـ/١٥-١٦م. وهنا نتساءل : ما أسباب التحفظ إزاء استعمال فن الطباعة؟ وما أسباب المخاوف التي أبديت إزاء تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع واستبدال الناسخ بالمطبعي؟

كان من المهم عند دخول المطبعة العربية إلى إستانبول وبلاد الشام التعرف إلى تصور المتعلمين لمفهوم المطبعة ومزاياها وماذا ينتظرون منها، وذلك بغرض التعرف عمليًا إلى مدى استجابة الكتاب المطبوع هناك من خلال محتواه لهذه التصورات والآمال. إلا أنه يجب الإشارة منذ البداية إلى أن وظيفة الطباعة العربية في المشرق على المستويين الثقافي والاجتماعي، لا يمكن أن تكون مشابهة لدور الطباعة في أوروبا في الفترة نفسها، نظرًا إلى أن هذه الأخيرة قد سبقت المشرق في استخدام هذا الفن بأكثر من قرنين ونصف. إن منافع فن الكتابة الجديد لم تكن أمرًا بديهيًا حتى لدى الأوروبيين في البداية، إذْ كانوا ينظرون إليه عند ظهوره على أنه اكتشاف عجيب، وأنه أجمل من الكتابة بخط اليد لا غير. إلا أنه فيما بعد وعلى ضوء نتائج استعمال المطبعة، اتضحت للغرب مزايا وفوائد هذه الآلة(١).

(١) ذكر الرحالة الفرنسي فولني في أواخر القرن ١٢هـ/١٨م بعض الفوائد التي جنتها أوربا من الطباعة، فقال إنها مصدر الثورات التي اندلعت في المجتمع الأوروبي على امتداد ثلاثة قرون باعتبار أن آلة الطباعة استطاعت بفضل نشرها للكتاب بين عامة الناس أن تبلغ جملة من المعارف بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

VOLNEY (pseudonyme Constantin François Chassebeuf) .- Voyage en Egypte et en Syrie/ préf. Jean Gaulmier.- Paris : Mouton et co. La Haye, 1959 . Première édition 1787.

وبالمقابل لم تكن لأهل المشرق النظرة نفسها تجاه المطبعة، نظرًا لطبيعة مجتمعهم وطريقة حكمهم على الظواهر التي تحدث عندهم. وبالتالي فإن نظرتهم للمطبوعات كانت مصطبغة بتصورات ومفاهيم مختلفة عن الأوروبيين، ولنا أن نتساءل فيما إذا تم فعلاً تسخير الكتاب المطبوع في إستانبول وبلاد الشام لتبادل الآراء ونشر العلوم الحديثة وإثارة نقاشات فكرية ثرية، أم أنه تم توظيفه لمهام أخرى؟ وكذلك هل كانت النقاشات التي دارت بين المثقفين حول فوائد المطبعة ومستقبل الحضارة الإسلامية تمهيدًا للتيارات الفكرية الكبرى التي نشطت حركة النهضة، والتي ظهرت في القرن ١٣هـ/١٩م، خاصة أن الأداة الأساسية في نقل الآراء والمعلومات كانت الصحافة والكتاب المطبوع؟ ذلك لأن الباحثين المعاصرين درجوا عند دراستهم لحركة النهضة على الاقتصار في تناولها على فترة حدوثها دون التأمل في جذورها. وهنا يجدر بنا أن نتساءل ثانية هل يمكن تحديد بداية النهضة العربية مع دخول الطباعة العربية للبلاد العثمانية أي في مطلع القرن ١٢هـ/١٨م؟ لهذا كان لزامًا علينا عدم عزل اكتشاف المطبعة وعدم الاقتصار على عدّها مجرد آلة صناعية، بل إقحامها في الإطار الاجتماعي والتاريخي للمجتمع العثماني وتنزيلها في خضم التحولات الاجتماعية التي بدأت تغير العالم الإسلامي في الفترة التي كانت أوروبا تعد فيها لثورتها الصناعية.

إن دراسة فترة التحول هذه أساسية للتعرف إلى بداية ظهور المجتمع العثماني الحديث، وما القرن ١٢هـ/١٨م إلا نقطة اتصال بين عهدين: عهد جمود وعهد يقظة العالم الإسلامي. ويمكن أن يكون اختيار الفترات الزمنية في مثل هذه الدراسات غير دقيق، هذا على الرغم من أهمية التأريخ في البحث التاريخي. فالحوار الذي أثير حول موضوع الطباعة كان قد بدأ قبل سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م. تاريخ تأسيس أول مطبعة عربية ببلاد الشام، كما تواصل في القرن ١٣هـ/١٩م. إلا أنه يمكن تحديد نهاية أول مرحلة من ظاهرة التحديث

في المجتمع العثماني في حدود سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م مع ارتقاء السلطان سليم الثالث العرش وإعلان برنامجه الإصلاحي "نظام جديد".

لقد بدأ اهتمامي بمسألة الطباعة والكتاب العربي منذ أن كنت أدرس علم المكتبات والمعلومات بالمدرسة الوطنية العليا للمكتبات بمدينة ليون الفرنسية، وحيث اخترت مسألة المطبعة العربية بأوربا في القرنين ١٠-١١هـ/ ١٦-١٧م لتكون موضوع رسالة التخرّج بتلك المدرسة. ثم حرصت على مواصلة البحث في موضوع المطبعة العربية حين انتقلت للعمل في المكتبة الوطنية بباريس (قسم المطبوعات العربية)، وكان اختياري لفترة لا تزال غامضة حول فن الطباعة، وهي بدايته في المشرق العربي، والتي لا توجد عنها سوى دراسات متفرقة، فكان هذا موضوع رسالة الدكتوراة (حلقة ثالثة) التي قدمتها أمام جامعة السربون، باريس، الرابعة، سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وقد تمثل أول عمل لي في ضبط ببليوغرافية للكتب العربية المطبوعة في القرن ١٢هـ/١٨م، واعتمدت في ذلك على ببليوغرافيات عربية وفهارس المكتبات الكبرى في العالم. وقد عثرت على جل هذه الكتب في المكتبة الوطنية بباريس، وهي التي تعد من أثرى المكتبات في العالم فيما يتعلق بأوائل الكتب العربية المطبوعة، واستكملت المجموعة بالعودة إلى بعض المكتبات السورية. كما أنني درست الوثائق الأصلية المتعلقة بنشاط المطابع بإستانبول والشوير، وكنت قد عثرت عليها في بعض مراكز الأرشيف وكذلك وجدت بعضها منها منشورًا في كتب ومجلات علمية.

ثم بدأت بدراسة وتحليل محتوى أوائل الكتب العربية المطبوعة والتي تمثل مصدرًا أساسيًا لهذا البحث، إذ احتوت على معلومات ثمينة حول ظروف تأسيس المطابع والدوافع التي أدت إلى تأسيسها، وقدمت تعريفًا بأصحابها ومشاريعهم والصعوبات التي اعترضتهم ووجهة هذه الكتب، وبصفة عامة ذكرت عدة مظاهر من حياة ورشات الطباعة. كما اعتمدت في عملي على كتب

الرحالة الأوروبيين الذين سافروا إلى المشرق في تلك الفترة، نظرًا لأهمية شهاداتهم، رغم أنها لا تخلو من انحياز في كل مرة يحللون فيها بعض مظاهر حياة المسلمين، إذ لم يتخلص جلهم من الأحكام المسبقة عن العثمانيين بسبب تأثرهم بجو الصراع الذي كان قائمًا بين المسلمين والمسيحيين. كما أنهم كانوا يسردون ما يشاهدون من زاوية خارجية دون أن ينفذوا إلى داخل المجتمع الشرقي. وتعدّ اللغة عائقًا بالنسبة لأغلبهم للاحتكاك بالسكان الأصليين. كما أنهم كانوا يجهلون نمط تفكيرهم، لذلك اقتصر الرحالة الأوروبيون على ذكر ملاحظات عامة، غافلين بذلك عن الحوار الذي كان يدور بين القوى التقليدية والمجددة حول مشروع المجتمع الجديد.

أشير إلى أنني لا أنوي تقديم أجوبة نهائية عن الأسئلة التي طرحتها ولا أدعي بأنني سأقول كلمة الفصل في قضايا الطباعة العربية التي أتناولها، بل إنني سأسهم في تقديم بعض عناصر الإجابة مع إثارة القضايا ووضعها ضمن الإطار التاريخي للقرن ١٢هـ/١٨م.

ينقسم هذا العمل إلى جزأين أساسيين: يتناول الجزء الأول بالدرس التمهيد لإدخال المطبعة العربية للشرق، في حين أن الجزء الثاني يتعلق بظهور أربع مطابع عربية. خصص الجزء الأول للبحث في التحضيرات التي سبقت إنشاء المطابع العربية من خلال تحليل مواقف المسلمين والمسيحيين تجاه فن الكتابة الجديد، فكان أن تعرضت للحوار الذي دار بين المسلمين حول منافع كل من المخطوط والكتاب المطبوع، وكذلك تناولت بالدرس الصراعات التي دارت بين المسيحيين حول المطبعة ومحتوى الكتب. كما تناولت هذه الدراسة بالتحليل مسألة المطبعة العربية بأوروبا في القرنين ١٠-١١هـ/١٦/١٧م، وذلك لمعرفة مدى تأثيرها وصداها بالمشرق. أما الجزء الثاني فقد بحث في عملية تأسيس المطابع العربية بإستانبول وبلاد الشام والظروف والملابسات التي أحاطت بهذا الحدث والصعوبات التقنية والمالية التي اعترضت أصحاب هذه

الورشات. إلا أن المسألة التي استأثرت بالاهتمام في هذا الجزء قد تعلقت بدراسة مدى إسهام المنشورات العربية في إثراء وتنشيط الحياة الثقافية والاجتماعية في البلاد العثمانية، وذلك بالاعتماد على بعض المؤشرات أذكر منها: محتوى الكتب ووجهتها وتوزيعها وصداها لدى المتعلمين. كل ذلك لمعرفة التصور الذي يحمله هؤلاء عن الطباعة وما ينتظرون منها للإسهام في تغيير المجتمع العثماني. وأخيرًا نشير إلى أنني أرفقت بهذه الدراسة ببليوغرافية شاملة للكتب العربية المطبوعة في القرن ١٢هـ/١٨م في المشرق.

وفي هذا الإطار، فإنني ألفت انتباه القارئ إلى أنني أقصد بالمطبعة العربية كل ورشة تستخدم الأحرف العربية لطباعة كتب عربية بالأحرف العربية، والغرض من هذا التوضيح هو التمييز بين هذه المطابع والمطابع الأخرى التي تطبع كتبًا فارسية وتركية بأحرف عربية.

إلا أنني مع ذلك تعرضت لمطبعة قوزحية التي أسسها المارونيون بجبل لبنان عام ١٠١٨هـ/١٦١٠م، رغم أنها طبعت كتابًا واحدًا فقط بالحرف الكرشوني والسرياني، وسبب ذلك هو الأهمية البالغة لهذه الورشة التي تعكس أول مبادرة للمسيحيين العرب للتعامل مع فن الطباعة.

أما عن اهتمامي بمطبعة إستانبول التي لم تطبع سوى بضعة نصوص باللغة العربية، والبقية بالتركية والفارسية، فيعزا إلى مكانة هذه المطبعة الأولى التي حظيت بموافقة السلطان العثماني والعلماء؛ مما يبرز التحول الجذري في موقف المسلمين تجاه آلة الطباعة عامةً، وتجاه الاكتشافات الثقافية والعلمية القادمة من أوروبا خاصةً، وكذلك نظرًا لمكانة وصدى منشورات هذه المطبعة في أوساط المتعلمين.

كما ألفت انتباه القارئ الكريم أخيرًا إلى أن بعض الجوانب من تاريخ مطبعة بيروت، ما زال غامضًا، رغم المجهود الذي بذلناه، ويعود سبب ذلك إلى فقدان

الوثـائق الأصـلية لهـذه الورشـة عنـدما انهـار المبنـى الـذي كـان يأويهـا سـنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م. وللتغلـب علـى هـذا العـائق، لجأنـا إلـى مصـادر مـن القـرن ١٣هـ/١٩م، أين استقينا معلومات حول هذه المؤسسة.

الجزء الأول

التمهيد لإدخال المطبعة العربية بالمشرق ومواقف المسلمين والمسيحيين من اكتشاف الطباعة.

- الفصل الأول : المسيحيون العرب والمطبعة.
- الفصل الثاني : المسلمون والمطبعة : الحوار حول هذا الاختراع.

الفصل الأول : المسيحيون العرب والمطبعة

المنشورات العربية بأوروبا وصداها لدى مسيحيي المشرق في القرنين ١٠-١١هـ/١٦-١٧م

المقدمة:

من المفارقات أن نجد النشر العربي قد عرف بداياته في بلدان غريبة عن اللغة العربية، فكان الأوروبيون هم السباقين لطبع الكتب العربية منذ القرن ١٠هـ/١٦م. وبعد مرحلة المحاولات والتجارب أثناء ذلك القرن، ازدهرت المطبعة العربية عندهم في القرن ١١هـ/١٧م. وقد اهتمت عدة مدن أروبية بطبع الكتب العربية، وخاصة منها مدن إيطاليا وفرنسا وهولندا وألمانيا وإنجلترا. هذه البيانات جعلتنا نتساءل عن الأهداف والحوافز التي حدت بالأوروبيين إلى نشر الكتب العربية في وقت مبكر. وقد حاولنا التعرف إلى الصعوبات التي لاقوها للحصول على الأحرف العربية، ومراقبة عملية النشر، والمواضيع التي تناولوها في المطبوعات الأولى. وعلى ضوء الإجابة سنتمكن من تحليل وضع الدراسات العربية بأوروبا طيلة القرنين ١٠-١١هـ/١٦-١٧م ودور الكتاب العربي المطبوع في التعريف بالحضارة الإسلامية في هذه القارة.

كانت المنشورات العربية بأوروبا موجهة جزئيًا إلى المشرق، وقد تم توزيع نسخ كثيرة منها في بلاد الشام، فكانت ردود فعل المسلمين والمسيحيين تجاهها مختلفة، بل ومتناقضة، وسنقتصر في هذا الفصل على تحليل مواقف المسيحيين العرب أولاً من مبدأ استعمال فن الطباعة، وثانيًا من استخدام النصوص

المطبوعة بالمدن الأوروبية. فكيف كانوا ينظرون إلى هذا الاكتشاف؟ وكيف تعاملوا معه؟ وهل حاولوا إدخال هذا الفن إلى سوريا؟

١ - المطبعة العربية بأوروبا ٩٢٠-١١١٢هـ/١٥١٤-١٧٠٠م:

١.١ - الدراسات العربية بأوروبا:

لقد شعر المسيحيون بأوروبا بضرورة التعرف إلى الشرقيين، وخاصة المسلمين منهم، منذ فتح الأندلس عن طريق طارق بن زياد في القرن ٢هـ/٨م. وحرص رجال الدين عندهم على معرفة عقلية هؤلاء الفاتحين الجدد، فعملوا على تعلم آدابهم وعلومهم بداية من القرن التاسع. وتحولوا لهذا الغرض إلى المراكز الجامعية بقرطبة وإشبيلية وطليطلة،... وغيرها. ثم انكبوا منذ أواخر ذلك القرن على ترجمة المؤلفات الإسلامية الكبرى إلى اللغة اللاتينية. فمثلاً قام البابا سلفستروس الثاني (٣هـ/١٠م) الذي درس بالأندلس بترجمة كتب في الفلسفة والرياضيات والعلوم الطبيعية(١).

وقد كرس عدد من الرهبان حياتهم لدراسة اللغة العربية رغم معارضة الكنيسة وترجموا كثيرًا من المؤلفات الإسلامية الكبرى إلى اللغة اللاتينية من ذلك الإيطالي جيرار ديكريمون (Gérard de Crémone) والألماني ألبرت الأكبر (Albert le Grand) والإيطالي توماس الأكويني (Thomas d’Aquin) . وشعرت عندها الكنيسة بالمكانة الهامة التي صارت إليها الثقافة العربية، وأحست أيضًا بقوة المسلمين في جميع الميادين، خاصة بعد الاحتكاك بهم أثناء الحروب الصليبية. فقررت تركيز اهتماماتها على معرفة منجزاتهم العلمية وتعلم لغاتهم. وقد كرس المجمع الكنسي الملتئم بفيانا سنتي (١٣١١-١٣١٢م) هذا الاتجاه الجديد حيث أوصى بتخصيص دروس لتعليم اللغات الشرقية لطلاب الجامعات والأديرة،

---

(١) سمايلوفتش، أحمد، **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م، ص٦٣- ٦٤.

وخاصة منها العربية والعبرانية والكلدانية[1]. وذلك بهدف تكوين رهبان قادرين على دفع المسلمين واليهود لاعتناق المسيحية[2]. وهكذا يقرر الغرب مواجهة العالم الإسلامي، وذلك بشن "حملة صليبية فكرية"[3]، قبل العودة لمقارعته بالسلاح.

لقد درست اللغة العربية في الجامعات الأروبية كذلك بقصد تمكين العلماء من قراءة كتب ابن سيناء وابن رشد وغيرها في لغتها الأصلية. وقد انتشرت هذه اللغة تدريجيًا في المدن الإيطالية إلى درجة أن تجار البندقية وجنوة وبيزا كانوا يتكلمونها في تجارتهم مع موانئ المشرق. ولابد من التوقف قليلاً عند حدثين هامين في تاريخ الاستشراق في القرن ٩هـ/١٥م، أولهما: سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٥م تاريخ اكتشاف المطبعة بأوروبا، ثم سنة ٨٥٢هـ/١٤٥٣م عندما فتح الأتراك العثمانيون بيزنطة.

جاء اكتشاف غوتنبرغ[4] في فترة التحولات الفكرية التي عرفت باسم النهضة، وهذا ما دفع بالأوروبيين إلى طبع المؤلفات الإغريقية والرومانية القديمة ونشر الكتب العبرية والعربية، كما أن تقدم العثمانيين في أوروبا الشرقية أزعج كثيرًا الملوك الأروبيين، أما الباباوات فقد حرصوا على إرسال مبعوثين لهم بقصد رصد كل المشاريع العسكرية للسلاطين الأتراك العثمانيين في البلاد المسيحية.

---

(٢) Guignes, Joseph De, « Essai historique sur la typographie orientale et grecque de l'imprimerie royale » in, **Notices et extraits**, T1, 1887, pp.XI-XII.

(١) سمايلوفتش، فلسفة. المصدر، ص٧٥.

(٢) Raphael, Pierre, **Le rôle du Collège maronite romain dans l'orientalisme aux XVIè et XVIIIè siècles,** Beyrouth, Université ST.Joseph, 1950 p.24.

(٣) اكتشف العالم الصيني بي شينغ في سنة ١٠٤١م الطباعة بالأحرف المنفصلة، وبعد أربعة قرون توصل الألماني غوتنبرغ إلى الاكتشاف نفسه بأوربا، بعد أن أضاف إليه آلة المعصر وبعض الأدوات الأخرى. فهل كان اكتشاف غوتنبرغ معزولاً عن اكتشاف الصينيين كما يراه بعض المؤرخين؟ انظر. ستيبوتشفيتش، ألكسندر، **تاريخ الكتاب**، ترجمة محمد الأرناؤوط،، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣م (عالم المعرفة) الجزء الثاني، ص ٨٧-٨٨.

Dahl, Svend, **Histoire du Livre** Paris, Poinat, 1967, p.92

كل هذه التحولات أعطت للدراسات العربية مكانة ذات بال، بالقياس مع بقية اللغات الشرقية في جامعات روما وباريس وليدا والبندقية ولندن وبراسلو وغيرها. وفي هذه الظروف برز أول كتاب عربي مطبوع سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م، وذلك في فانو[١]، وهي مدينة إيطالية صغيرة تقع جنوب البندقية.

٢.١ - المطبوعات العربية الأولى:

طبعت الأبجدية العربية لأول مرة في أوروبا بالقوالب الخشبية في كتابين لاتينيين، نشر الأول منهما سنة ١٤٨٦م وهو تأليف الرحالة برنارد دي برايدنباخ Bernard de Breydenbach, ، وهو كتاب يتحدث عن رحلته إلى الأماكن المقدسة بفلسطين، وقد ظهرت حروف الهجاء العربية في الورقة ٨١ مع نقحرة بالحروف اللاتينية.

أما الكتاب الثاني فقد طبع في غرناطة سنة ١٥٠٥م، وهو من تأليف الاسباني بدرو ألكالا Pedro de Alcala **"وسائل تعلم قراءة اللغة العربية ومعرفتها"**، وهو عبارة عن دروس في النحو العربي موجهة إلى المبشرين الأسبان المكلفين بدفع الموريسكيين لاعتناق المسيحية[٢]، ظهرت الأبجدية العربية في ظهر الورقة العشرين.

أما أول الكتب العربية التي طبعت في أوروبا فهي :

---

(٤) أدت مدينة فانو دورًا هامًا في تاريخ الطباعة الشرقية، وخاصة العبرية بفضل المطبعي جرشون صنصينو (Gershon Soncino).

(١) Bernard de Breydenbach, Opusculum Sanctarum peregrination ad spenlcumchristi, Mayence,1486.

Traduction française Voyage et pèlerinage d'outre mer au Saint Sépulcre de la cité de Jérusalem.

Pedro de Alcala, Pedro De Alcala, Arte para ligermente saber la lengua aravica, Granada, 1505.

انظر كميل أبو صوان:"بيت الحكمة". Les premiers pas de l'imprimerie arabe « à Grenade et à Gênes ; au XVIe siècle, in **Le livre et le Liban**, Paris Unesco, Agecoop, 1982, p.119.

(١) كتاب صلاة السواعي: فانو ٩٢٠هـ/١٥١٤م[١]:

وهو كتاب مسيحي ظهر في بداية القرن السادس عشر الميلادي يحتوي الكتاب على صلوات حسب الطقس الشرقي البيزنطي الملكي والعنوان الكامل هو: "**كتاب صلاة السواعي**"[٢]، كتب النص كاملاً باللغة العربية، وطبع باللونين الأحمر والأسود. ولم تكن الحروف جيدة، وكذلك الأمر بالنسبة للأشرطة الرابطة. أما الحركات فلم تكن كلها في مواضعها، وبعضها كان ملطخًا بالحبر. يضم الكتاب مائة وثماني عشرة ورقة من النوع الجيد ويوجد في الورقة الأخيرة ذكر لتاريخ الطبع: "وكان الفراغ من هذه السواعي المباركة نهار الثلاثاء ثاني عشر شتمبريو سنة ألف وخمسمائة وأربع عشر من مولد سيدنا يسوع المسيح لذكره المجد الأمين، وهي ختم المعلم غريغوريوس بيت غريغوريوس من مدينة البندقية ختمت في مدينة فانو تحت حكم قداسة البابا لهون ماسك كرسي القديس مار بطرس الرسول بمدينة روما، من وجد فيه غلطة يصلحه يصلح الله شأنه بشفاعة السيد آمين".

---

(٢) **كتاب السواعي أو الساعات**، تعريب للكلمة اليونانية الأورولوجيون، أي ما يتعلق بالساعة، ويشمل الصلوات السبع في الكنيسة البيزنطية.

(٣) تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة من هذا الكتاب تحت رقم Res, B3597 انظر:

- Schnurrer, , C.F, **Bibliotheca arabica**, Haloe. Ad-salam 1811, réédité à Amsterdam, Orientale Press, 1966. n°235.

=- **Bibliothèque de Sylvestre De Sacy** par Daunou, Paris 1843-1847, T1, 1351.

- Zenker J,Y,**Bibliotheca Orientalis**, Leipzig, 1846 n°1566. =

- Balagna, Josée, **L'Imprimerie Arabe en Occident XVI, XVII et XVIII siècles** Paris, Maison-neuve et Larose, 1984, pp.18-20.

- « Le fonds des imprimés arabes à la Bibliothèque Nationale les XVIè, XVIIè et XVIIIè siècles » In, **Bulletin de la Bibliothèque Nationale**, n°2, Juin, 1979, p.66.

أما عن تصفيف الحروف ومراقبة عملية النشر فإنه لا يستبعد كما يرى المستشرق كراك(١). أن يكون قد أوكل أمر ذلك إلى علماء مسيحيين شرقيين كانوا قد جاؤوا من المشرق لحضور أعمال المجمع الكنسي الخامس الملتئم بلطران (١٥١٢-١٥١٧م)، والذي شهد تأدية الصلوات بمختلف اللغات قصد تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية مع كنيسة روما.

أما أصل الحروف العربية التي استعملت في الطباعة فهو مجهول، فمدينة فانو(٢) لم تترك لنا حسب علمنا كتبًا عربية أخرى. ولكن يلاحظ أن كتاب الصلاة يمثل في حد ذاته تطورًا في عملية النشر العربي، وهذا ما يجعلنا نتصور أنه وقعت من قبل، محاولات لطبع نصوص عربية.

(٢) كتاب المزامير متعدد اللغات: جنوة ٩٢١هـ/١٥١٦م :

نشر الكتاب العربي الثاني في جنوة سنة ٩٢١هـ/١٥١٦م وعنوانه: "مزامير عبراني يوناني عربي قصداني بترجمة لاتيني وتفسيرهم"(٣) وهو مكتوب بخمس لغات، ومن عمل القس أغسطينوس جستنيانوس(١٤٧٠-١٥٣٦م) وهو عالم أنسي قابل(٤)(humaniste et kabbaliste) من مواليد جنوة، متضلع في اللغات الشرقية، عهد إليه بمراجعة كل نصوص التوراة والإنجيل في اللغات الشرقية، ولكنه لم يتمكن إلا من نشر مجموعة المزامير. وقد استعمل في

---

(١) Krek, Miroslov, “The Enigma of the arabic book printed from movable types” in **Journal of Near Eastern Studies**, juillet, 1970, vol 38.pp.206-207.

(٢) يرى كراك أن فانو لم تنشر البتة هذا الكتاب وكل ما في الأمر هو أن المطبعي غريغوريوس قد استعار عنوان هذه المدينة عوضًا عن المدينة الحقيقية التي نشرت الكتاب وهي البندقية، والسبب في ذلك يعود إلى وجود حق امتياز لطبع الكتب الشرقية في البندقية، كانت قد تحصلت عليه عائلة أخرى وهي ديموقرايطوطراسينا. انظر مقالته المصدر السابق، ص ٢١٠-٢١٢.

(١) تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة منه تحت رقم Rés. A 490.

(٢) Secret, François, **Les Kabbalistes chrétiens de la Renaissance,** Paris, 1936 ; p100

الطباعة الحروف المغربية وهي كوفية مبسطة، كانت تستعمل آنذاك في المراسلات بين المغرب وجنوة(1).

(٣) كتاب القرآن الكريم: البندقية ٩٤٤هـ/١٥٣٧-١٥٣٨م:

ذكرت بعض المصادر أن القرآن الكريم طبع لأول مرة باللغة العربية في البندقية في مطلع القرن ١٦م من طرف باغانينو دي باغانينو(2) وابنه ألسندرو وهما مطبعيان أصيلان من مدينة براسيا Brescia، إلا أنه لم يعثر على أية نسخة من هذه الطبعة في المكتبات العالمية الكبرى، إلى أن اكتشفت الباحثة الايطالية أنجيلا نيوفو نسخة فريدة من هذا الكتاب في مكتبة الدير الفرنسيسكاني للقديس ميخائيل بالبندقية(3)، وقد قدمت هذه الباحثة معلومات ثمينة حول أول طبعة لكتاب القرآن الكريم. وبخصوص الأسباب التي دفعت عائلة باغانيني إلى طبع هذا الكتاب، فتتمثل في أنها أرادت أن تبيع كتبًا شرقية في السوق العربية والتركية خاصة، وأن هذه العائلة كانت لها علاقات تجارية مع الشرق من خلال صنع الورق وترويجه. إلا أن إقدامها في بداية مشروعها على طبع القرآن الكريم، يعد مجازفة نظرًا للجو المشحون بالصراعات بين المسلمين والمسيحيين، وهذا الأمر قد يكون وراء ظهور رواية إتلاف هذه الطبعة كما سيتبين فيما بعد.

---

(٣) Bonola, Bey « Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe. » in **Bulletin del'Institut Egyptien**, 5 série, T3, 1er Fasc, déc.1909,pp,75-76.

(٤) من بين المصادر نذكر: Rossi, J.B De Corano Venetius, Paganini types : Impressio, Parma 1805 ; SACY, Bibliothèque…op.cit, T.1, p.414.

(٥) نيوفو، أنجيلا، "ظهور النسخة العربية للقرآن الكريم ١٥٣٧-١٥٣٨".-تقديم د.عبد الجليل التميمي، ترجمة المنجي الردادي في: **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد ٥٣-٥٤، جويلية ١٩٨٩م، ص ١٧٩-٢٠٤، النص الإنجليزي لهذا المقال بالعدد نفسه من المجلة، ص ١٢٣-١٤٠.

كذلك استفادت مطبعة باغانيني من وجود جالية عربية إسلامية بالبندقية[1] ساعدتها في عملية الطباعة بالحرف العربي خاصة في مرحلتي التنضيد والمراجعة.

أما عن تاريخ صدور هذه الطبعة فقد تضاربت الآراء حوله إذ ذكرت بعض الدراسات تواريخ مختلفة تراوحت من ٩٠٤-٩٤٤هـ/١٤٩٩-١٥٣٨م، ومما زاد الأمر تعقيدًا عدم ذكر تاريخ الطبعة في النسخة التي اكتشفت حديثًا، إلا أن الباحثة أنجيلا نيوفو قدمت اعتمادًا على مراسلات بين المستشرقين البونيزي وبوستال تاريخًا دقيقًا: فيما بين ٩ أغسطس ١٥٣٧ و ٩ أغسطس ١٥٣٨م[2].

ومع ذلك فإن الغموض لا يزال محيطًا بهذه الطبعة للقرآن الكريم. فمثلاً ما صداها في أوروبا المسيحية وفي العالم الإسلامي؟ وأيضًا ما مصيرها؟ إذ ذكرت بعض الروايات أن هذه الطبعة قد أتلفت بأمر من البابا، إلا أن بعض الباحثين شككوا في صحة هذه الرواية، بل إن أنجيلا نيوفو تدحض هذه الرواية للأسباب التالية[3]:

- أوّل من روّج الرواية هم البروتستانت وذلك في نطاق صراعهم مع الكاثوليك، وإن كان هؤلاء الأخيرون قد روّجوا فيما بعد الرواية نفسها.
- تأشيرة كاهن محكمة التفتيش في كريمون لطبع القرآن، والمثبتة في الكتاب، وهذا يعني أن الكنيسة موافقة على نشر هذا الكتاب.

(١) إن المعلومات المتعلقة بحضور جالية عربية إسلامية بالبندقية ستثير بدون شك اهتمام الباحثين لدراسة الدور الذي كانت تقوم البندقية في العلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامي تجاريًا وثقافيًا انظر: د.عبد الجليل التميمي، تقديم لمقال ظهور النسخة العربية، المصدر نفسه، ص ١٧٩-١٨٠.

(٢) نيوفو، **ظهور**... المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(٣) المصدر السابق، ص١٨٥- ١٩٠.

- لم يعارض البابا طبع ترجمة القرآن الكريم إلى الإيطالية سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٧م من طرف A.Arrivabena، رغم أن النص يفهمه المسيحيون بأوروبا، وقد يحدث اضطرابًا في بعض الأوساط.
- طبع الكتاب بالعربية، وهو موجه للمسلمين وليس للأوروبيين، ولهذا افتقدت هذه النسخ من السوق الأروبية.

إن من المهم معرفة ما إذا كانت نسخ الكتاب قد وزعت في العالم الاسلامي أم لا؟ وما صدى ترويجه لدى المسلمين؟ وتبقى هذه التساؤلات وغيرها مطروحة في انتظار اكتشاف وثائق ومصادر أخرى. ومهما يكن من أمر فإن المطبوعات العربية الأولى (القرآن الكريم، وصلاة السواعي، والمزامير) لم تكن سوى نوادر في ميدان الطباعة، وهي تكشف عن المحاولات الأولى في النشر العربي بأوروبا، وتترجم عن اهتمام الغربيين بالدراسات العربية بأوروبا.

١.٣- المطابع العربية في المدن الإيطالية:

اهتمت روما منذ القرن ١٠هـ/١٦م بالنشر في مختلف اللغات الشرقية، وخاصة العربية منها، وقد أسست الكنيسة عدة مطابع لتعمل تحت إشرافها. كان البابوات يعمدون - وهم المعادون للمسلمين - إلى تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية المستقلة مع روما، والتي بدأت بالتئام المجمع الكنسي بفلورنسا (١٤٣٩-١٤٤٥م). ولم يكتف البابوات بإرسال المبعوثين والمبشرين إلى البطاركة بالمشرق، بل أسسوا في روما معاهد دينية ومطابع للغات الشرقية في القرنين ١٠-١١هـ/ ١٦-١٧م[١] كانت اهتماماتها موجهة بالخصوص نحو النشر العربي.

روما : مطبعة اليسوعيين ٩٧٣هـ/١٥٦٦م:

(١) Nasrallah, Joseph, **L’imprimerie au Liban**, Beyrouth, Harissa, 1949 pp.512, Voir également Raphael, Le rôle…op.cit, pp.79-97.

حرص البابا (Pie IV) منذ سنة ١٥٦٤ على توفير الحروف الشرقية لمطبعة معهد روما (Tipographia del collegio Romano) بقصد نشر نتائج أعمال التجمع الكنسي بترانت (Concile de Trente) ١٥٥٤-١٥٦٣م في الشرق[١]. وكلف الأب اليسوعي يوحنا باتيستا إليانو (Eliano) (١٥٣٠-١٥٨٩) باقتناء حروف عربية، خاصة أن هذا المبشر يحذق اللغة العربية، وقد أرسله البابا عدة مرات إلى الشرق لتعزيز العلاقات بين روما والكنائس المستقلة[٢]. قام الأب إليانو بإعداد الحروف العربية بمعونة المطبعي لوتشا (Lutcha) والحفار قرانيي[٣] (Granier) ، ولكن الحروف لم تكن جيدة وسرعان ما أتلفت، مما حدا بالمطبعيين إلى تجديدها[٤]، ورغم ذلك فإن هذه المطبعة سرعان ما اختفت، ولكن تم تعويضها بمطبعة الفاتيكان[٥]، ثم حلت محلها بالخصوص مطبعة «مجمع نشر الإيمان» المسيحي.

---

(١) أولغا بنتو، الدراسات العربية وفن الطباعة في إيطاليا:

Pinto , Olga, Studi arabistica e Arte tipografia araba in Italia dal XV al XX Secolo, In, **Levante** n°1-2,1964,p.2.

(٢) لقد أرسل البابا الأب إليانو إلى مصر سنة ١٥٦١م؛ لتكريس التقارب بين الكنيسة القبطية والكنيسة الرومية، ثم رحل في مهمة ثانية إلى جبل لبنان للاتصال بالمارونيين سنتي ١٥٧٨-١٥٧٩م، ثم مرة أخرى سنتي ١٥٨٠ و١٥٨٢م. انظر لويس شيخو، "الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر" في : **المشرق**، عدد ١٧، ١٩١٤م، ص ٤٤٥-٤٤٧. انظر أيضًا:

Roza, M. Eliano in **: Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Eclésiastiques** (**DHGE**), Paris Letouzey, 1963, T5, col 161-162.

(٣) Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit,p.XVIII.**

(٤) Vervliet, H.D.L, **Granjon à Rome 1578-1589 : Notes préliminaires de la typographie romaine à la fin du XVIsiècle**, Amesterdam, Herzberger, 1967, p.42.

(٥) لم تنشر مطبعة الفاتيكان التي كانت تحت إدارة دومينيك بازا (Dominique Basa) حسب معلوماتنا إلا كتابًا عربيًا واحدًا بواسطة الحروف التي حفرها قرانجون، وهو كتاب جغرافيا صدر سنة ١٥٨٥ من تأليف سلامش بن غدي الصالحي، وعنوانه "كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان". انظر: Bonola Bey, « **Note…op.cit** » pp.74-75

محتوى طبعات اليسوعيين:

وصلتنا ثلاثة كتب من هذه المطبعة، وهي دينية اثنان لتعليم المسيحية وواحد للدفاع عن المسيحية، كان الكتاب الأول من تأليف البابا بيوس الرابع (Pie IV) وهو مطبوع بالعربية واللاتينية سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٦م وعنوانه العربي:"**اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية كنيسة رومية**" وقد ترجمه عن اللاتينية الأب إليانو الذي فعل الأمر نفسه للكتاب الثاني للأب برينو المطبوع سنة ٩٨٨هـ/١٥٨٠م وعنوانه "**التعليم المسيحي**"، وقد عدّد مؤلفه المبادئ الأساسية للعقيدة الكاثوليكية في شكل أسئلة وأجوبة وهي موجهة للمسيحيين الجدد. أما الكتاب الثالث الذي يفند تعاليم الإسلام، فقد نشره الأب إليانو سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٦م وعنوانه: "**هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان، واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة**". إن هذه المطبوعات تستجيب لأهداف الرهبانية اليسوعية التي ترمي إلى توفير الكتب الضرورية للمبشرين العاملين بالمشرق كي تكون عونًا لهم في مهمتهم التبشيرية لدى المسيحيين المنشقين عن روما، وكذلك المسلمين.

روما : مطبعة الميدتشي ٩٩٢هـ/١٥٨٤م:

كان الكاردينال فرديناند دي ميدتشي (Ferdinand De Medicis) مولعًا بالفنون والعلوم، وكان أيضًا راعيًا للفنانين والعلماء، وقد اقتنى من الشرق مخطوطات عربية وسريانية وفارسية، ولمّا عهد إليه البابا غريغوريوس الثالث عشر برعاية بطريكيات أنطاكية والإسكندرية، قرر تأسيس مطبعة للغات الشرقية بروما. وفي الحقيقة كانت عائلة الميدتشي مهتمة - من قبل - بنشر الكتب الشرقية، من ذلك ما قام به البابا ليون العاشر(Leon X) وهو من أفراد هذه العائلة من نشر لكتاب صلاة السواعي بمدينة فانو.

لذلك حرص الكاردينال فرديناند على جعل مطبعته في مستوى عال من حيث جودة وجمال المنشورات الشرقية، وأوكل إدارتها إلى المستشرق ريموندي (Raimondi) (١٥٤٠-١٦١٤م)، كما استدعى أحد النقاشين الفرنسيين المشهورين وهو روبرت قرانجون (Robert Granjon) (١٥١٣-١٥٨٩م) الذي أدى دورًا أساسيًا في تاريخ الطباعة الشرقية، وخاصة العربية منها بأوروبا. فقد كانت الحروف العربية التي نقشها بغاية من الجمال ونالت إعجاب علماء عصره، ولم تضاهها أية حروف أخرى في ذلك الزمان. وقد حفر قرانجون خمسة أحجام من الحروف العربية التي تحمل أسماء معينة: الأحرف العربية ذات السطرين، والقانون الصغير، وأحرف كتاب البستان، والعربي الكبير، والعربي الصغير[١].

وقد خصص الكاردينال مرتبًا شهريًا مهمًا لقرانجون بمقدار عشرة ريالات ذهبية، وخصص له كذلك ريالاً ذهبيًا على كل حرف من الهجائية العربية. أما البابا غريغوريوس الثالث عشر فقد كافأه أيضًا بمبلغ ثلاثمائة ريال لكل هجائية[٢]، ونظرًا لجهله للغة العربية فإن قرانجون استعان بعلماء مستعربين وبتلاميذ المعهد الماروني.

سببت الأحرف العربية التي صنعها قرانجون مشاكل مستعصية؛ إذ ساهمت في الصراع الديني القائم بين الكاثوليك والبروتستانت، فقد حرصت كنيسة روما على أن تكون الكنائس الشرقية حكرًا لها، وبذلت كل ما في وسعها لسد الطريق أمام تسرب البروتستانت للشرق. فمنع البابا خروج أحرف قرانجون من روما خوفًا من أن تستعمل في طبع كتب بروتستانتية، علمًا بأن قرانجون قد تلقى عروضًا للعمل مع مستشرقين بروتستانت ألمان وهولنديين، حتى قبل تحوله

(١) Vervliet, Granjon..op.cit ; pp.42-47. Voir également **Biographie universelle ancienne et moderne**, Dir. Michaud, Paris, 1801, T17, p.355 a rticle Granjon Robert.

(٢) المصدر السابق.

لروما(١). أغلقت المطبعة أبوابها بعد موت مديرها ريموندي سنة ١٦١٤م. وبعد تحول أبرز تلاميذه إيتيان بولينوس(٢) (Etienne Paulinus) للعمل بمطبعة عربية أخرى وهي سافاريانا بروما ثم باريس(٣).

محتوى طبعات الميدتشي:

نشرت مطبعة الميدتشي تسعة كتب فيما بين سنتي ١٥٩٠ و١٦١٠م. وكانت موضوعاتها متنوعة فهناك كتابان مسيحيان: **"الإنجيل المقدس"** وأربعة كتب نحوية منها **الآجرومية** لابن آجروم، و**"كتاب التصريف"** للشيخ الإمام، و**"الكافية"** لابن الحاجب، وأيضًا كتاب في الطب لابن سيناء عنوانه **"كتاب القانون الثاني في الطب"** وكتاب في الجغرافيا للإدريسي وهو **"نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والآفاق"** وكتاب في الهندسة: **"كتاب تحرير أصول الأوقليدس"** ترجمة نصر الدين الطوسي.

يعتبر **"كتاب القانون الثاني في الطب"** لابن سيناء، من أبرز معالم الطباعة العربية في أوروبا، من حيث إخراجه وتقديمه، وهو مطبوع بأحرف قرانجون. ويحتوي الكتاب على **"قانون الطب"**، وأيضًا ثلاث رسائل لابن سيناء في **"علم المنطق وعلم الطبيعة وعلم الكلام"**. وهذا دليل على الاهتمام الذي يوليه الأوروبيون لهذا العالم والفيلسوف المسلم، حيث نشروا كتابه بالعربية مبكرًا في

---

(٣) "أصبح قرانجون بيدقا في الصراع السياسي والديني الذي تخوضه الكاثوليكية والبروتستانتية من أجل الغزو الروحي للشرق الأوسط"

Vervliet, Granjon…op.cit, p.39.

(١) أولغا بنتو، "**الدراسات** ... المصدر نفسه"، ص٣- ٤.

(٢) عرفت حروف قرانجون رحلة كبيرة بعد توقف مطبعة الميدتشي، فقد انتقلت أولاً إلى مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما ثم إلى فلورنسا. وفي سنة ١٨١١م، وبأمر من نابليون تحولت الحروف إلى المطبعة الإمبراطورية بباريس، وعادت بعدها إلى فلورنسا سنة ١٨١٨م، حيث حفظت في مكتبة (Mediceo-Laurenziana) . انظر بنتو: "**الدراسات** ... المصدر نفسه "ص٧.

طبعة جيّدة وذلك بعد أن كانوا قد أصدروا ترجمته اللاتينية منذ سنة ١٤٦٢م. أما كتاب النحو الذي ألفه الكاتب المغربي ابن آجروم (١٢٦٢-١٣٢٣م)، فقد طبع بالعربية سنة ١٥٩٢م. وقد نال صيتًا واسعًا في الشرق والغرب، وأعيد طبعه عدة مرات في القرن السابع عشر مع ترجمته اللاتينية، وذلك في مطابع باريس وليدا وبراسلو. ونذكر أخيرًا كتابًا هامًّا، وهو **"الأوقليدس"** الذي طبع سنة ١٥٩٤م، بحجمين من أحرف قرانجون مع عدة أشكال هندسية.

صدرت كل منشورات مطبعة الميدتشي باللغة العربية فقط، ما عدا كتاب **"الإنجيل"** الذي كان ثنائي اللغة (عربي - لاتيني). وكان إخراجها على غاية من الإبداع الفني، هذا إلى جانب أنها من حيث المحتوى لا تتضمن نصوصًا للجدل الديني أو الدفاع عن الدين المسيحي ما عدا الإنجيل، وهو أمر مغاير لرغبة البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي يرى في الطباعة العربية بروما وسيلة لنشر المذهب الكاثوليكي، وإثارة الجدال ضد المسلمين. وهكذا كانت مطبعة الميدتشي هي الوحيدة التي طبعت كتبًا عربية علمية في روما، وذلك طيلة قرنين من الزمان.

مطبعة سافاري في روما ١٠٢٢هـ/١٦١٣م:

تنسب المطبعة لمؤسسها سافاري دي براف (Savary De Brèves)، وهو رجل سياسة فرنسي[1]، أنشأ مطبعة للغات الشرقية سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م. لما كان سفيرًا لبلاده بروما، ثم نقلها إلى باريس بعد مضي ثلاث سنوات على ذلك. وقد أوكل مهمة تسييرها إلى إيتيان بولينوس الذي كان يعمل عند الميدتشي، وهذا دليل على الارتباط المتين بين مطبعة الميدتشي ومطبعة سافاري، وهو ما يفسر تعويض الأولى بالثانية سنة ١٦١٣م، ولأن بعض عمال ريموندي قد التحقوا بالمطبعة الجديدة. وهذا ما حدا بالباحث ديفرديي إلى القول

(١) انظر الفقرة المتعلقة بالمطبعة العربية بفرنسا.

بأن مطبعة سافاريانا متصلة فنيًا وربما روحيًا بمطبعة الميدتشي(١). أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية فيما بين سنتي ١٦١٣ و١٦١٩م، وتتمثل في **"كتاب الإنجيل"** و**"كتاب المزامير"** وكتاب **"تعليم الدين المسيحي"**، وهذا الأخير هو من تأليف بالارمان (Bellarmin). وقد تحول المطبعي إيتيان بولينوس بعدها إلى ورشة باريس لمواصلة العمل في المطبعة الشرقية هناك بإشراف سافاري.

مطبعة المعهد الماروني، روما ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م:

أسس هذه المطبعة تلاميذ مارونيون بإعانة البابا بمقر معهدهم بروما. وقد شعرت الكنيسة بالفراغ الحاصل في النشر العربي بعد توقف مطابع الميدتشي والفاتيكان والسافاريانا. أشرف على هذه الورشة المطبعي إيتيان بولينوس الذي عاد من باريس وطبع على آلات المعهد فيما بين سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م أو ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م خمسة كتب ثنائية اللغة عربية – لاتينية، وهي مخصصة لاستعمال التلاميذ المارونيين، حيث تتضمن أربعة كتب نحوية وكتابًا في الفلسفة. ومن أهم المطبوعات كتاب من تأليف الماروني نصر الله شلاق وعنوانه **"مبادئ اللغة العربية"**، وآخر للمؤلف نفسه فيه تقديم للحروف الهجائية العربية ثم كتاب ثالث من عمل تلميذ ماروني هو بطرس المطوشي (Institutiones linguae Arabicae)، أما كتاب الفلسفة فعنوانه **"إيساغوجي أو مدخل لعمل المنطق"**. لم تواصل مطبعة المعهد الماروني حركة النشر العربي حيث توقفت عند ظهور مطبعة شرقية أخرى ضخمة بداية من سنة ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م، هي مطبعة «مجمع نشر الإيمان».

مطبعة «مجمع نشر الإيمان»، روما ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م. Typographie de la Propagande de foi:

---

(٢) Duverdier, G. « Les caractères de Savary » In: **L'Art du livre à l'imprimerie nationale**, Paris, Imprimerie Nationale, 1973, p.75.

تأسس «مجمع نشر الإيمان» سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م، ويتمثل هدفه الأساسي في بث المذهب الكاثوليكي في الطوائف "المنشقة" أو الطوائف غير المسيحية، وتشجيع وتوجيه البعثات التبشيرية البعيدة[١]. ولتحقيق هذه الأغراض فإنها اعتمدت على معهد وعلى مؤسسة لمراجعة الكتب الدينية الشرقية وطباعتها. وقد أسست ورشة الطباعة سنة ١٠٣٥هـ/١٦٢٦[٢] بعدما حصلت على هبة من الإمبراطور فرديناند الثاني لهابسبورغ (١٥٧٨-١٦٣٧)، الذي كان يرغب في طبع كتب مسيحية بعدة لغات، سواء كانت تتعلق بالطقوس أو النصوص المقدسة أو المذهب الكاثوليكي. وقد استعارت المطبعة في البداية الحروف العربية من مطبعة الفاتيكان وأيضًا من إيتيان بولينوس.

مساهمة "مطبعة المجمع" في النشر العربي بأوروبا:

نشرت مطبعة "مجمع نشر الإيمان" اثنين وعشرين كتابًا من بينها ستة عشر تتعلق بالديانة، والبقية تعالج مبادئ اللغة والآداب العربية. تتوزع الكتب الدينية بين النصوص المقدسة والتعليم المسيحي والدفاع عن المسيحية وكتب الصلوات والجدال.

هذه الكتب تدخل في إطار سياسة كنيسة روما الدائبة على نشر المذهب الكاثوليكي في أوساط المسيحيين الشرقيين، الذين اتحدوا مع البابوية، حيث احتوت هذه المؤلفات على دروس عقائدية وعلى الطقوس والصلوات إلى جانب كيفية مواجهة الشعوب غير المسيحية. وقد اهتمت مطبعة نشر الإيمان بتعليم المبشرين اللغة العربية قبل إرسالهم إلى المشرق، فوفرت لهم كتبًا دراسية في النحو العربي مثل **"الآجرومية"** التي طبعت سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م مع تعليق باللاتينية أو كتاب إبراهيم الحاقلاني **"خلاصة اللغة العربية"** الصادر سنة

(١) Dictionnaire de théologie chrétienne, T3, Col.113 article Propagande.

(٢) Fumagalli, Lexicon…op.cit, p.354.

١٠٣٧هـ/١٦٢٨م، وأيضًا المعجم اللغوي من تأليف سيلازيا **"بناء اللغة العربية"** الصادر سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٦، ثم أعيد طبعه سنة ١٠٤٩هـ/١٦٣٩م.

إن هناك مدنا إيطالية أخرى اهتمت بالنشر العربي نذكر منها:

(١) ميلانو، المطبعة الأمبروزية ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م (Imprimerie ambrosienne):

أنشأ الكاردينال فريدريك بروميو (Frederic Borromeo) المكتبة الأمبروزية التي كانت أول مكتبة عمومية في ميلانو، وقد أضيفت إليها مطبعة كبيرة اشتهرت خاصة بحروفها الشرقية[١] التي استقدم بعضها من مطبعة الميدتشي، ولا نعرف عنها سوى كتاب عربي واحد صدر في القرن ١١هـ/١٧ م عنوانه **"كنز اللغة العربية"** للفيروز آبادي مع ترجمة لاتينية من عمل جيجاي (Antonio Giggeo) طبع سنة ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م، في أربعة مجلدات ضخمة. ويعدّ هذا الكتاب أول معجم لغوي عربي لاتيني، حيث عدّ أداة عمل أساسية في دفع الدراسات العربية بأوروبا والتقدم بها أشواطًا.

(٢) بادوا، مطبعة السيمنار ١٠٩٨هـ/١٦٨٧م (Padoue, Imprimerie du Séminaire):

أسس الكاردينال غريغوريوس بارباريغو أسقف مدينة بادوا، مطبعة شرقية سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٤[٢] وكان راعيًا للدراسات الشرقية بإيطاليا. وقد أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية في نهاية القرن ١١هـ/١٧م، منها كتاب لتعليم المسيحية، وآخر للنحو العربي، وثالث للشعر العربي، والرابع كتاب القرآن. أما عن الكتاب الأول فهو من تأليف طيمطاوس كرنوك (Timotheo Karnuk) أسقف ماردين بالعراق وعنوانه **"كتاب الاختصار المختصر في الكمال المسيحي"** وقد طبع سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م وصدر للمؤلف نفسه بعد ثلاث

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

سنوات **"ديوان مناجاة الحبيب ونصائح القريب لضعفي الدياربكري"**[١] أما كتاب القرآن الكريم[٢] الذي طبعه الراهب مراشي (Ludovico Marracci) سنة ١١١٠هـ/ ١٦٩٨م، فقد كان الغرض من وراء نشره، الجدل الديني حيث خصص الجزء الثاني منه لدحض الإسلام.

١.٤ - المطبعة العربية بفرنسا:

إن المطبعة الوحيدة التي اهتمت بالنشر العربي في فرنسا هي مطبعة سافاري (Savary De Breves) التي تأسست سنة ١٠٢٤هـ/١٦١٦م بباريس. وهذا على الرغم من وجود محاولة لطبع الكتب العربية كان قد قام بها المستشرق الفرنسي بوستال (Postel).

باريس، الحروف العربية الخشبية لبوستال ٩٤٤هـ/١٥٣٨م:

عمل ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي يعدّ أبًا للحركة الأدبية وباعثها بفرنسا، على جلب القس أغسطينوس جيستنيانوس ناشر كتاب المزامير بجنوة وذلك لدى رجوعه من إيطاليا سنة ١٥١٦م؛ لتدريس اللغة العبرانية، وفي سنة ١٥٣٠م أسس معهد فرنسا (College de France)، وعين أساتذة لتدريس اللغتين اليونانية والعبرانية، ولم يتقرر تدريس العربية بالمعهد، إلا في عهد الملك هنري الثالث سنة ٩٩٥هـ/١٥٨٧م، حيث نصّب للتدريس عددًا من الأطباء الذين كانوا اقتنعوا بأهميتها في تقدم مهنتهم[٣]. ولم تعرف الطباعة العربية طريق النجاح في فرنسا إلا في عهد لويس الثالث عشر بفضل مجهودات السفير سافاري دي بارف والوزير ريشيليو (Richelieu) والمطبعي أنطوان فيتراي

---

(٢) Schnurrer n°263, Zenker n° 1605

(٣) كتاب في جزئين من الحجم الكبير. انظر Zenker n°1613 Schnurrer n°377. Sacy, I. ١٤٦٣
هناك مدينة إيطالية أخرى كان دورها غير هام في النشر العربي بأوروبا وهي نابولي التي لا نعرف عن مطبوعاتها سوى كتيب صغير في ٣٢ص عنوانه (Alphabetum arabicum) أصدره هرميش سنة ١٥٨٢م، انظر: Zenker n°1, Schnurrer n° 39 Ellis.

(١) Guignes, De, op.cit., p.XV.

(Antoine Vitré) هذا على الرغم من وجود محاولة لطباعة الكتب العربية بباريس منذ القرن ١٠هـ/١٥ بمبادرة من بوستال حيث تمكن هذا المستشرق القابل (Kabbaliste) من طبع أول كتاب له سنة ١٥٣٨ بعنوان: Alphabetum linguarum characteribus differetium alphabetum وهو كتاب يهتم بقواعد النحو لعدة لغات شرقية، وقد طبع بأحرف من خشب. أما كتابه الثاني فقد طبع بباريس سنة ١٥٤٣ تحت عنوان[1]: (Grammatica arabica).

باريس، مطبعة سافاري ١٠٢٤هـ/١٦١٦م:

شغل فرانسوا سافاري دي براف منصب سفير لفرنسا في إستانبول (١٥٩١-١٦٠٦)، ثم في روما (١٦٠٨-١٦١٤). وقد أقام قبل ذلك في الشرق مدة اثنتين وعشرين سنة، تمكن خلالها من تعلم اللغة التركية. واستطاع أثناء سفارته لدى الباب العالي، من إمضاء معاهدة سنة ١٠١٢هـ/١٦٠٤م بين ملك فرنسا هنري الأكبر والسلطان العثماني أحمد الأول. وتؤكد هذه المعاهدة على الامتيازات التي كانت قد حصلت عليها فرنسا منذ عهد سليمان القانوني، وتضيف إليها امتيازات تجارية جديدة. رغم ذلك، لم يكن سافاري يخفي حذره وعداءه للعثمانيين، ولم يكن يرى في كل المعاهدات الممضاة معهم سوى تحالف تكتيكي موجه ضد أعداء فرنسا، وخاصة ضد الأسبان[2]، وهو تحالف وقتي في انتظار تنفيذ المشاريع الصليبية الرامية لتحطيم الدولة العثمانية[3].

---

(٢) Secret, « Guillaume Postel et les études arabes à ,la Renaissance » In **Arabica**, T9. 1963, p.31.

(١) Duverdier, G, « Les caractères de Savary De Brèves » In **l'Art du livre à l'Imprimerie Nationale**, Paris, Imp, nat, 1973 p.72.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٢.

وقد ألف السفير كتيبًا عرض فيه مشاريعه، ومنها إمكانية استغلال قوة المسيحيين بالشرق لإزعاج الدولة العثمانية(١). ولذلك حرص على القضاء على كل الخلافات بين مسيحيي الشرق والبابوية بروما، وساهم في تدعيم مجهودات الفاتيكان لتحقيق الوحدة معهم، وعلى غرار ما قام به اليسوعيون، فإنه قرر أن يؤسس مطبعة شرقية لنشر الكتب المسيحية؛ لتوزيعها بالشرق.

وقد عمل على حفر الحروف الشرقية منذ إقامته باستانبول(٢) وتحسينها في روما، موكلاً المهمة هناك إلى الناقش لوبي(٣)(Le Bé) . ولكن الباحث ديفردي يشك في إمكانية وجود حفارين بالشرق لأنه - حسب رأيه - لا توجد هناك أدوات العمل اللازمة في ذلك العصر، ويرى أن القوالب قد سبكت في روما(٤). ولكن يبدو لنا أنه ليس من المستحيل وجود صائغين ماهرين في استانبول قادرين على حفر القوالب والحروف العربية. وإذا علمنا أن حفارين أوروبيين يجهلون اللغة على غرار قرانجون قد نجحوا في نقش حروف عربية جميلة أدركنا سهولة هذا العمل لحفارين عرب، بما أن لغتهم الأم هي العربية. ومن الممكن أن يعمد سافاري للحصول على الحروف العربية إلى الأقليات الدينية بإستانبول التي أنشئت مطابعها في هذه المدينة منذ أواخر القرن

(٣) Breves, Savary De, « Discours abrégé, assurer les moyens d'anéantir et ruiner la monarchie des princes ottomans », In :**Recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps**, Van Dyck, 1666.

(٤) يقول سافاري: "عملت منذ إقامتي بهذه المدينة (القيطنطينية) على إعداد أحرف عربية وفارسية وكلدانية بعناية كبيرة، وذلك بهدف الطبع بثلاث لغات". المصدر: أرشيف المكتبة الوطنية بباريس:
« BN.France.Départ. manusrits Dupuy 8 »

(٥) **Le Livre et Le Liban**., Paris, Unesco, 1982, p.222.

(٦) Duverdier, **op.cit**., p.75.

٩هـ/١٥م[١]. وأخيرًا نذكر شهادة لأحد المطبعيين الفرنسيين المعاصرين للأحداث والتي يؤكد فيها أن الحروف الشرقية قد جاءت من الشرق[٢].

تنقسم الحروف العربية التي جلبها سافاري إلى ثلاثة أحجام: العربي الصغير والعربي المتوسط والعربي الكبير، وهي لا تقل جودة وجمالاً عن أحرف قرانجون. وعند عودته من باريس سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٥م قادما من رومًا، اصطحب سافاري معه أستاذين مارونيين، هما جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني، وأيضًا المطبعي بولينوس للعمل بفرنسا. وقد أحضر معه من مطبعته التي أسسها بروما القوالب والحروف لتأسس مطبعة جديدة بباريس، أوكل فيما بعد مهمة تسييرها إلى بولينوس، وحرص هذا الأخير على تكوين عمال لتعويضه فيما بعد. وبالفعل، فقد عاد إلى روما مصطحبًا آلات لصب حروف استعملها- كما رأينا- لطبع كتب عربية.

المطبعي أنطوان فيتراي (Antoine Vitré):

لم تنشر مطبعة سافاري بباريس في عهد مؤسسها إلا كتابًا واحدًا تحت عنوان " **كتاب في صناعة النحو**" يشتمل على خمسة أجزاء، وهو من تأليف جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني، ولم يكن يشتمل إلا على جزء واحد من الأجزاء التي أعلن عنها في العنوان وهو ثنائي اللغات، أي بالعربية

---

(١) أسس اليهود الذين اطردوا من إسبانيا مطبعة عبرانية بإستانبول سنة ١٤٩٤م، تحت رعاية السلطان بايزيد الثاني. انظر:

-Lewis, Bernard, **The Emergency of Modern Turkey**, Oxford University Press, 1961, p.42.

(٢) بين ذلك أنطوان فيتراي مدير المطبعة الشرقية بباريس منذ ١٦٣٠م في كتابه التالي:

Vitré, Antoine., **Histoire du procès qu'on renouvelle de temps en temps à A.Vitre à cause de l'achat que le roi l'a obligé de faire des poinçons des matrices et des manuscrits turcs, arabes et persans que feu M.De Breves avait apporté du Levant,** Paris, A. (1656) pp.1-4 (Bibliothèque Nationale de Paris, Mss, Latins 1717 pp.28-36).

واللاتينية، وبعد وفاة سافاري دي براف سنة ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م، تواصل النشر العربي بفضل نشاط وحماس أنطوان فيتراي، وهو المطبعي الذي عينه ملك فرنسا للتخصص في اللغات الشرقية حيث حصل على هذا الامتياز سنة ١٦٣٠م، وقام بشراء الأحرف الشرقية من ورثة سافاري. وكان ريشليو قد كلفه خفية بشرائها لحساب الملك بعدما أظهر بعض المطبعيين البروتستانت من إنجلترا وهولندا الرغبة في شرائها[١]. ويمكن أن يكون الملك قد تخوف من أن "أشياء جميلة وفريدة من نوعها يمكن أن تباع إلى أشخاص لتتحول خارج مملكته. وقد تسيء إذاك كثيرًا إلى الديانة"[٢]، وهكذا يبرز للعيان أن حروف سافاري قد أقحمت على غرار حروف قرانجون في الصراع الذي يدور رحاه بين الكاثوليك والبروتستانت، للتغلغل في أوساط مسيحيي الشرق، ونظرًا إلى أن الملك لم يسدد ثمن الحروف كاملاً إلى فيتراي، فإن هذا الأخير تعرض إلى عدة محاكمات بعد ما رفع ورثة سافاري القضية للعدالة. وقد حرص فيتراي على تجديد الأحرف وأوكل المهمة إلى متخصصين ماهرين أمثال جبرائيل الصهيوني وجاك دي صولاك، الذين أعدوا الأحرف العربية لطباعة الكتاب المقدس متعدد اللغات سنة ١٠٥٤هـ/١٦٤٥م.

محتوى النشر العربي بباريس:

لم تنشر المطبعة الشرقية بباريس سوى أربعة عشر كتابًا عربيًا في القرن١١هـ/١٧م وهي موزعة كالآتي: أربعة كتب مسيحية مقدسة، كتابان

(١) إن الحروف والمخطوطات التي جلبها سافاري، كادت أن تحمل من طرف بروتستانيين أجانب كانوا ينوون إعداد كتب مقدسة وأخرى متعلقة بالدين (المسيحي)، لنشر مذهب كلفان إلى جانب المسيحية في هذه البلدان (الشرقية)"..Vitré, A, op.cit., pp.4.

(٢) المصدر نفسه، ص١.

للتعريف بالمسيحية، أربعة كتب في النحو العربي، ثلاثة كتب في التاريخ وكتاب واحد في الفلسفة.

ومن بين الكتب المسيحية المقدسة يوجد "كتاب المزامير" الذي نشر سنة ١٦٧٩م تحت عنوان **"سبعة مزامير التوبة"**، وهو إعادة لطبعة روما سنة ١٦١٤م، والذي كان قد ترجمه جبرائيل الصهيوني ونصر الله شالاق. وكذلك توجد "رسالة يوحنا" مطبوعة بالعربية واللاتينية سنة ١٦٣٠ ثم ١٦٧٢م. أما عن أهم كتاب صادر عن المطبعة فهو الكتاب المقدس متعدد اللغات الذي أصدره لوجاي (Lejay) سنة ١٦٤٥م، في سبع لغات هي العربية والسمارية (Samaritain) والكلدانية واليونانية والسريانية واللاتينية والعبرية. ويحتوي على عشرة مجلدات ويعتبر تحفة المطبعة الشرقية بفرنسا، وفي مرتبة الطبعات نفسها التي كان قد أصدرها كل من ألكالا (Alcala) وكسيمنس (Ximenès) للكتاب المقدس متعدد اللغات. ومن الملاحظ أن مشاريع هذا الصنف من الطبعات لم تكن جديدة بل إن المنافسات بين مختلف البلدان الكاثوليكية والبروتستانتية كانت على أشدها وترمي كلها إلى إصدار الكتاب المقدس في لغات متعددة.

ويعود مشروع إصدار الكتاب المقدس بباريس إلى سنة ١٦١٥م. وقد أعده كل من الكاردينال دي برون (Du Perron) وجاك دي تو (Jacques de Thou) وسافاري دي براف ولكنهم فشلوا في تنفيذه. فأخذ المحامي لوجاي (Lejay) ذلك على عاتقه بأن موّل المشروع واتصل بعدد من العلماء. وقد أوكل مهمة تحضير النص العربي إلى ثلاثة علماء مارونيي،ن هم: جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني ويوحنا الحصروني(١).

---

(١) Voir Raphael, P, Le Rôle…**op,cit,** pp.78-84.

وقد تم إهداء الكتاب المقدس الذي طبعه فيتراي إلى الوزير الفرنسي مازاران، ويبدأ النص العربي الذي طبع بأحرف سافاري من الجزء الخامس، وبه كل الحركات ولكنه يحتوي على أغلاط كثيرة. إن الكتاب المقدس لم يكن معدًا للدراسة بقدر ما هو معدّ للافتخار، وذلك بسبب حجمه الكبير الذي لا يسهل بالمرة مهمة القارئ. ومن جملة الكتب الدينية الأخرى التي أصدرتها مطبعة باريس سنة ١٦٣٥م، يوجد كتاب **"التعليم المسيحي"** لبالارمان الذي كان قد طبع في روما سنة ١٦١٣م، وأيضًا كتاب لريشيليو بالعنوان نفسه صادر سنة ١٦٤٠م من ترجمة جيست دي بوفي (Juste de Beauvais) وهو رئيس الكبوشيين ببغداد.

نشرت مطبعة سافاريانا أيضًا كتيبًا صغيرًا بعنوان **"العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية"** باللغتين العربية واللاتينية، ويتضمن العهود التي قد يكون التزم بها الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الذمة عند تأسيس الدولة الإسلامية[١] . ويبدو أن الهدف الذي ترمي إليه فرنسا من نشر مثل هذه العهود هو التقرب إلى مسيحيي الشرق لحمايتهم بفضل وضعها الممتاز في الإمبراطورية العثمانية. وقد يكون الهدف من نشر الكتاب هو بعث الطمأنينة لدى تجار مرسيليا الذين انضووا تحت راية ملك فرنسا في بداية القرن السابع عشر، وذلك بإبراز عقلية التسامح الديني الموجودة لدى المسلمين وحتى يقدم هؤلاء على الاتجار في موانئ الشرق. وقد يكون الغرض نفسه هو الذي حدا بمدن تجارية لطبع الكتيب، مثل ليدا سنة ١٦٥٥م، وهامبورغ سنة ١٦٩٠م.

(١) لم تقع الإشارة إلى هذا النص إلا في القرن ٣هـ/٩م، وذلك عن طريق النساطرة، في حين لم يذكره أي مؤرخ مسلم وهذا من شأنه أن يشكك في صحة هذا النص...انظر: Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, T2, p.234 article DHIMMA.

كما اهتمت المطبعة الشرقية بباريس أيضًا بكتب اللغة العربية وحتى كتب الفلسفة. فأصدرت سنة ١٦٣٢ **"المعجم العربي"** لديفال Dictionnaire arabe de Duval، وأيضًا كتاب النحو لأربنيوس سنة ١٦٣٨م، وأخيرًا كتابًا موجزًا في الفلسفة بعنوان **"مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب"** صدر سنة ١٦٤٢م، باللغتين العربية واللاتينية. وقد قام بالترجمة إبراهيم الحاقلاني، وهذا الكتاب يمثل جزءاً من كتاب في الفلسفة بالفارسية عنوانه "جام كيتي نما" (مرآة العالم)، ويحتوي على رسائل فلسفية.

إنّ من الغريب أن تقدم فرنسا هذا الإنتاج الضئيل من الكتب العربية رغم أن كل الإجراءات التي اتخذت من طرف سافاري وريشليو وفيتراي تنبئ بحصيلة مرتفعة. فقد ظهرت اللامبالاة تجاه المطبعة العربية، إذ انصرف العلماء المستعربون إلى ترجمة المؤلفات العربية الكبرى للفرنسية أو اللاتينية.

وقد أكد ذلك الكاتب دي غويني (De Guignes) حين قال: "كان العلماء الفرنسيون يحبذون الكتب المترجمة للتعريف بالشرق(١)" وحتى السلطات لم تواصل عمل ريشيليو فأهملت المطبعة وفضلت إرسال الشبان لتعلم اللغات في الشرق (Les jeunes de langues)(٢). ونتج عن ذلك ركود الدراسات العربية بفرنسا نظرًا للنقص في الكتب النحوية والمعاجم اللغوية. وهذا الأمر كان قد تفاداه العلماء الهولنديون منذ فترة في بلدهم.

١.٥- المطبعة العربية بهولندا:

(١) « **Essai historique** » op.cit.p.XXI

(٢) حافظ فيتراي على الأحرف العربية حتى وفاته سنة ١٦٧٤م. وبعد ذلك اختفت لمدة قرن من الزمن، واتهم فيتراي خطأ بأنه أتلفها، ولكن دي غويني أكتشف سنة ١٧٧٨م هذه الأحرف في أحد مخازن المطبعة الملكية. توجد هاته الأحرف حاليًا في قسم الطوابع بالمطبعة الوطنية بباريس، Imprimerie Nationale de Paris.

أنشئت ثلاث مطابع للغات الشرقية بهولندا، أي في مدن ألتراخت وأمستردام، وليدا. وكانت تعمل بإشراف جامعات تلك المدن. ونظرًا لوجود عقلية التسامح الديني في هذه المدن البروتستانتية، فإن هذه الجامعات قد انصرفت للدراسات العلمية إلى جانب دورها في تكوين الرعاة البروتستانتيين، فاستقبلت كثيرًا من الأجانب أمثال الفيلسوف دي كارت، وقد تميزت المطابع العربية بهولندا عن مثيلاتها بفرنسا وإيطاليا بمحتوى النشر العربي المتنوع. فالمستشرقون الهولنديون، خدموا فعلاً الإصلاح الديني، ولكنهم مع ذلك اعتنوا كثيرًا بالمؤلفات العلمية للمسلمين.

وسوف نتوقف بالخصوص عند نشاط أهم مطبعة عربية وهي موجودة بمدينة ليدا، والتي نشرت ثمانية وثلاثين كتابًا في القرنين السادس عشر والسابع عشر في حين لم تنشر مدينتا أمستردام وألترخت مجتمعتين سوى ستة كتب.

(١) ليدا: مطبعة بلانتان- رافلانج ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م Plantin-Rapheleng:

منذ تأسيس جامعة ليدا سنة ٩٨٢هـ/١٥٧٥م، تم تعيين أساتذة في مختلف مجالات المعرفة علاوة على علماء الدين، وخصصت كرسيًا لتدريس العبرانية، وآخر للعربية، وقد قررت الجامعة منذ إنشائها تعيين أحد علمائها من ذوي الخبرة في ميدان الطباعة والنشر ليشغل منصب مطبعي عام(١). ومن أبرز العلماء الذين عينوا في هذا المنصب فرنسوا رافلانج (١٥٣٩-١٥٩٧م) أستاذ اللغات الشرقية الذي دعي ليخلف صهره المطبعي الفرنسي فرنسوا بلانتان، وكان رافلانج يدرس العبرانية، ويحذق اللاتينية واليونانية والسريانية والعربية

(١) Willems, **Les Elzevier,** Nieuwkoop, Graaf , 1962 p.X

والفارسية، واشتغل بإصلاح الأخطاء المطبعية في مؤسسة صهره(١). ثم قام بحفر الحروف العربية بتشجيع من العالم الفرنسي سكاليجار (Scaliger)، وذلك في سنة ١٥٩٣م، حيث أعدّ القوالب والطوابع لأحرف العربية حسب مثال قرانجون(٢) لطبع الكتب. وبعد وفاته واصل ابنه هذا العمل.

ونشرت أول مطبعة عربية بهولندا ثمانية كتب ثنائية اللغة أي بالعربية واللاتينية، ومن بينها ثلاثة تهتم بالكتب المقدسة. أما البقية فتعالج مواضيع نحوية وأدبية عربية. ويعتبر معجم رافلانج (Lexicon arabicum) أول معجم نشر بالعربية بأوروبا، وذلك منذ سنة ١٦١٣م، أما كتاب النحو(٣) (Grammatica arabica) الصادر أيضًا في السنة نفسها، فقد كان ثمرة عمل جدّي للعالم الهولاندي أربنيوس، ويتكون من خمسة أجزاء: الرسم والصرف والأعلام والنحو والأدوات. وهذا الكتاب الذي تهافت عليه الطلاب، كان السبب في شهرة مؤلفه. وتمت إعادة طبعه في ليدا سنتي ١٦٣٦ و١٦٥٦م، مع بعض الإضافات.

كما نشرت مطبعة بلانتان رافلانج أيضًا كتاب الأمثال سنة ١٦١٤م، والذس يحتوي على مائتي مثل عربي مع ترجمة لاتينية. وهو يبرز متانة علاقة التعاون بين المستشرقين الفرنسيين والهولنديين، الذين قاموا بترجمته في باريس، وهم كازبون وسكاليجار وأربنيوس.

(٢) ليدا، مطبعة أربنيوس ١٠٢٢هـ/١٦١٣م:

يعتبر توماس فان أرب المعروف باسم أربنيوس (١٥٨٤-١٦٢٤م) من أشهر المستشرقين الهولنديين. وقد تعلم العربية بليدا واشتغل بتدريس اللغات

---

(٢) **Biographie de Michaud**, article Rapheleng, T3 p.192

(٣) ذكر رافلانج في مقدمة أول كتاب نشره سنة ١٥٩٥م، تحت عنوان Specimen characterum arabicum، أنه أعد الأحرف العربية حسب نموذج أحرف الميدتشي.

(١) إن الغرض من نشر هذا الكتاب هو مرافقة معجم رافلانج.

الشرقية بجامعة المدينة منذ سنة ١٦١٣م. وحرص على مواصلة عمل رافلانج وأسس مطبعة في بيته الخاص[١] كان يشرف عليها بنفسه حتى مماته. وقد كلف أحد الأخصائيين بحفر الحروف العربية حسب نموذج سلفه ولكن ثمنها كان باهضًا[٢]. وقد حصل على أحرف جميلة لا تفوقها من حيث الإبداع إلا أحرف قرانجون. وقد طبع أربنيوس ثلاثة عشر كتابًا لها محتويات متنوعة: أربعة كتب مقدسة، وسبعة كتب نحوية وأدبية، وكتابان في التاريخ.

أما النص البروتستانتي للعهد الجديد، فقد صدر بالعربية سنة ١٦١٦م[٣]، كما تم طبع نص سورة يوسف من القرآن الكريم سنة ١٦١٧م[٤] مع ترجمة لاتينية، ونشر أيضًا نصين أدبيين من محاضرات أربنيوس، كان قد ألقاهما عند بداية دروسه سنتي ١٦١٣ و١٦٢٠م[٥] وقد مدح فيها ثراء اللغة العربية وعراقتها وذكر منافعها. كما أصدر أربنيوس أيضًا كتاب **"أمثال لقمان الحكيم"** سنة ١٦١٥م، وكان هذا الصنف من الأدب ملائمًا كثيرًا لذوق ذلك العصر بهولندا[٦]. أما عن أول كتاب تاريخ نشر بليدا فهو **"تاريخ المسلمين"**[٧]

---

(٢) Willems, Les Elzevier op.cit, p.XLII.

(٣) Ibid. P.XLII.

(١) Voir Schnurrer, C.R, Bibliotheca…op.cit n°326, Zenker, J.TH, Bibliotheca …op.cit, n°1539, Balagna, J **Le fonds…op.cit.**, p.74.

(٢) Schnurrer, C.R, Bibliotheca…op.cit n°368; Zenker, J.TH, Bibliotheca …op.cit, n°1380.

(٣) **Oratio de linguae arabica**, Leyde, 1613.

(٤) Balagna, Josée, « **Le fonds…op.cit** »p.74.

(٥) Schnurrer, C.R, Bibliotheca…op.cit n°155, Zenker, J.TH, Bibliotheca …op.cit, n°740.

لجرجس المكين بن العميد(١)، وهو منتخبات تاريخية تبتدئ من ظهور الإسلام حتى الدولة الأيوبية.

(٣) ليدا، مطبعة إلزيفير ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م Elzevier:

حرصت جامعة ليدا بعد موت أربنيوس على المحافظة على الأحرف العربية وعملت على منع تسريبها إلى الأجانب، حتى تبقى دومًا على ذمتها، فتقدم إسحاق إلزيفير (Isaac Elzevier) وهو مطبعي الجامعة، لشرائها سنة ١٦٢٠م، من أرملة أربنيوس. وقد حيى مجلس الجامعة هذا العمل واعتبره "وطنيًا"(٢) باعتبار أن الأحرف العربية لم تغادر المدينة، رغم محاولات الكاثوليك لشرائها. وهكذا ومرة أخرى، وقع إقحام الأحرف في خضم الصراع الديني الذي يدور رحاه بين الكاثوليك والبروتستانت.

وقد واصل المطبعيون من عائلة إلزيفير عملية نشر الكتب العربية طيلة القرن السابع عشر برعاية أساتذة جامعيين، ومن أبرزهم يعقوب غوليوس (Golius) (١٥٩٦-١٦٦٧م)(٣) وكذلك فابريسيس (Fabricius) ونسال (Nissel) وبتراي (Petrai). أصدرت مطبعة إلزيفير سبعة عشر كتابًا من بينها سبعة كتب مقدسة إسلامية ومسيحية، وستة كتب أدبية عربية، وكتابان في التاريخ، وواحد في الفلك، وآخر في الفلسفة.

وقد نشر غوليوس سنة ١٦٢٩م منتخبات أدبية بعنوان **"شذرة الأدب من كلام العرب"** ويحتوي على أمثال لعلي بن أبي طالب، ولامية الطغرائي، وبعض القطع الشعرية العربية ورسالة الفلسفة لابن سيناء. كما أصدر غوليوس

---

(٦) مؤرخ مسيحي مصري (١٢٠٥-١٢٧٣) اعتمد على كتب الطبري وابن البطريق.

(٧) Willems, Les Elzevier op.cit, p.p.XLII.

(١) **Nouvelle biographie générale**, Paris, Didot, 1857, T.21, p.119.

معجمًا ضخمًا عربي-لاتيني بعنوان (Lexicon arabico-latinum)[1] ، وقد استعان في إنجازه بمعجم الصحاح للجوهري، ويعدّ عمله أفضل من معجم جيجاي الذي صدر بميلانو. وكان من جملة أسباب تقدم الدراسات العربية في أوروبا. ويعدّ أضخم إنجاز لمطبعة ليدا، حيث دامت عملية طبعه سنوات[٢]، بمعونة عالم من أرمينيا وشماس من حلب، وعالم من بلاد فارس[٣].

ومن جملة كتب التاريخ نذكر **"عجائب المقدور في أخبار ابن تيمور"** لأحمد ابن عربشاه الذي نشر سنة ١٦٣٦م. أما كتاب الفلك فعنوانه **"كتاب في الحركات السماوية"** للفرغاني سنة ١٦٦٩. من الملاحظ أن العلماء المستعربين في ليدا لم يوجهوا النشر العربي نحو الجدل الديني ضد المسلمين أو الكاثوليك إلا قليلاً، إذ انصرفت عنايتهم لتوفير كتب النحو العربي والمعاجم وهي أدوات أساسية لتطوير الدراسات العربية لدى البروتستانت. ومن أبرز هذه الأدوات يوجد كتاب النحو العربي لأربنيوس ومعجم غوليوس، وهي إذن من إنجاز علماء متبحرين في اللغة العربية كانوا محل تقدير وإعجاب من طرف كل علماء أوروبا. إن النزعة العلمية في الاستشراق العربي في القرن السابع عشر كانت أكثر وضوحًا في هولندا.

١.٦- المطابع العربية في المدن الألمانية:

بعد بداية محتشمة في أواخر القرن السادس عشر، عرف النشر العربي تطورًا كبيرًا في المدن الألمانية، إذا بلغت حصيلة الانتاج تسعة وأربعين كتابًا موزعة على سبعة عشر مركزًا مطبعيًا، هي: أوغسبورغ، برام، سيزا،

---

(٢) Voir, Galland, Antoine, « Préface » in : **Bibliothèque orientale d'Herbelot**, Paris, 1697, f.14.

(٣) Willems, Les Elzevier op.cit, p.723.

(٤) Zumthor, P**., La vie quotidienne en Hollande au temps de Rembrandt,** Paris, Hachette, 1959, p.139.

فرانكفورت، غريفسوالد، هامبورغ، هيدلبارغ، أينا، لايبزغ، روستوك، شلاشفيق، تيبنجن، ويتنبرغ، براسلو (حاليا وراكلو في بولونيا)، ألتدورف، وزيورخ (في سوسيرا) وأيبسالا (في السويد).

اهتمت الجامعات الألمانية كثيرًا بدراسة اللغات الشرقية، إذ منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأ تدريس اللغة العبرانية. بعد ذلك جاء دور العربية لتشدّ إليها انتباه العلماء الألمان، حيث خصصت الجامعات كراسي لها منذ منتصف القرن السادس عشر، وذلك قبل أن تهتم بنشر كتب عربية بداية من سنة ١٥٨٣م. وقد ظهر أول كتاب عربي مطبوع في ذلك التاريخ بمدينة هايدلبارغ بعنوان **"رسالة بولس الرسول"**. وقام بنشرها العالم الألماني سباي (Spey) الذي قدم الترجمة العربية مع النص اللاتيني. إن الحروف العربية كانت محفورة على الخشب، وهذا ما يفسر الصعوبات التي لاقاها الألمان في الحصول على قوالب وطوابع للأحرف العربية، بعد أن ضرب البابا وملك فرنسا الحصار على أحرف قرانجون وسافاري. وهذا ما حدا ببعض المستشرقين الألمان لنشر كتبهم لدى الهولنديين[١] . ومن هنا كان التعاون وثيقًا بين المستعربين في المدن البروتستانتية. فمثلاً التقى العالم (Hottinger) (١٦٢٠-١٦٦٧م) بغوليوس الذي مده بنصائح ثمينة للتقدم في دراسة العربية[٢].

تمكن في نهاية الأمر عدد من الأساتذة الألمان من حفر الأحرف العربية على حسابهم الخاص، حتى أنهم كانوا ينتقلون بها من جامعة لأخرى[٣]. ولذلك

(١) نذكر على سبيل المثال جون الشمان الذي طبع كتاب فلسفة في ليدا سنة ١٦٤٠م، وعنوانه "لغز قابس صاحب أفلاطون".

(١) **Nouvelle biographie**, 1858, T.25, p36 article : Hottinger.

(٢) كلف هوتينجار أحد الأخصائيين بحفر حروف عربية على حسابه الخاص في زيورخ، ثم حملها معه إلى هايدلبارغ.

كانت معروفة باسم الأستاذ الذي أعدها أكثر من اسم المطبعة. وهكذا كانت أحرف هوتنجار في هايدلبارغ وزيورخ، وأحرف فابرسيس في روستوك، وأحرف كرستن في براسلو، وقد نجح هذا الأخير على سبيل المثال في حفر أحرف عربية جميلة منذ سنة ١٦٠٨م، وهو الطبيب والمستشرق الذي كان يقضي وقته بين ممارسة مهنة الطب ودراسة الأدب العربي، لأنه "كان مبهورًا بهذه اللغة، ويريد أن يكون داعية لتدريسها ويعتبرها ضرورية لفهم الطب واللاهوت والفلسفة والقضاء"(١). وحين كلف بتدريس العربية بجامعة براسلو قرر أن ينشر كتبًا في هذه اللغة على حسابه الخاص، طلب من أحد الحفارين واسمه بيترفان سلو أن ينقش له حروفًا عربية حسب نموذج قرانجون(٢) وتوصل إلى طبع عشرة كتب ثنائية اللغة أي عربية لاتينية وذلك فيما بين سنتي ١٦٠٨ و١٦١١م(٣)، وسوف نكتفي نظرًا لضخامة الإنتاج المطبعي في المدن الألمانية بدراسة بعض المنشورات العربية الهامة.

المنشورات العربية بالمدن الألمانية:

تعالج أغلب الكتب العربية المطبوعة موضوعات لغوية وأدبية ودينية. ومن أبرز المنشورات نذكر كتاب القرآن الكريم الذي طبع للمرة الثانية(٤) بأكمله

---

(٣) Balagna, Josée, L'imprimerie …op.cit., p.62.

(٤) Vervliet, Granjon…op.cit., p.41.

(٥) نشر كرستن كتاب الآجرومية سنة ١٦١٠م، وثلاثة منتخبات أدبية وكتاب "القانون في الطب" لابن سيناء سنة ١٦٠٩م. لم يتم استغلال أحرف كرستن بعد سنة ١٦١١م، فقد انتقلت إلى السويد، حيث استعملت بعد قرن من الزمن لطبع فهرس الكتاب والمخطوطات الشرقية سنة ١٧٠٦م في أبيسالا. انظر: Biographie de Michaud T.21, pp.649-650.

(١) إلى جانب كتاب القرآن المطبوع بالبندقية فيما بين سنتي ١٣٥٧-١٥٣٨م، والذي عثر على نسخة فريدة منه منذ سنوات في مكتبة الدير الفرنسيسكاني بالبندقية- فإن كتاب القرآن المنشور في هامبورغ يعتبر ثاني مطبوع موجود حاليًا إلى اليوم.
Schnurrer, C.R, Bibliotheca…op.cit n°367, Zenker, **Bibliotheca..op.cit**, n° 1362

في هامبورغ سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م، بإشراف المستشرق البروتستانتي إبراهام هنكلمان (١٦٥٢-١٦٩٥م) (Abraham Hinckelman) ولحد ذلك التاريخ، كان المستعربون الألمان يكتفون بنشر بعض السور القرآنية مع إيضاحات عن مبادئ الإسلام[١]. وقد نشر هنكلمان القرآن بأكمله دون ترجمة لاتينية، لأنه "لم يجد أي شخص قادر على القيام بهذه المهمة أو على الأقل يريد تحملها"[٢]. ومع ذلك فقد بدأ الكتاب بمقدمة جدلية في ثمانين صفحة باللاتينية، ذكر فيها أنه لا ينوي نشر الدين الإسلامي في أوساط البروتستانتيين، بل إن هدفه الوحيد هو معرفة العربية والإسلام[٣] ويوضح "بأنه من المفيد معرفة العربية، ولكي نتقن هذه اللغة وجب معرفة القرآن"[٤]. ويحتوي الكتاب على جدول التصويبات وبالرغم من ذلك فإنه مليء بأخطاء في الرسم، علاوة على نقص في بعض الآيات.

اهتم المستعربون الألمان كثيرًا بنشر كتب النحو العربي ومن ضمن الخمسة عشر كتابًا في النحو التي طبعت يوجد كتاب النحو العربي لمادار (Madar)، الذي نشره في أوغسبورغ سنة ١٦١٧م[٥]، وفيه يشرح المستشرق الألماني قواعد هذه اللغة ويمدحها ويبين منافعها. كما صدر كتاب عن مستشرقين قابلين (Kabbalistes) هما شيكارد وجرها بمدينة إينا (Iena) سنة ١٦١٧، يبين فيه الكاتبان طريقة تدريس اللغات الشرقية خاصة منها العبرانية والكلدانية والسريانية والعربية والأثيوبية، وخصصا فقرة لدراسة التناسق في التصريف

(٢) تم طبع سورتي الفاتحة والبقرة من كتاب القرآن الكريم في بادوا سنة ١٦٩٨م.

(٣) Balagna, Josée, L'imprimerie …op.cit., p.64.

(٤) Aucagne, Jean « La préface d'Abraham Hinckelmann ou la naissance d'un nouveau monde » in, **Le Livre et le Liban .. op.cit**., pp.138-143.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٦) Schnurrer, C.R, Bibliotheca…op.cit n°6**,** Zenker**, Bibliotheca..op.cit,** n°183.

مرفقة بجدول بياني عن مطابقة الأشكال اللغوية ومرسومة على هيئة دائرة لزيادة توضيح ذلك البحث(١).

ونشر العالم سنارت (Sennert) في ويتنبرغ كتابًا في النحو سنة ١٦٥٨م، مرفقًا برسالة قصيرة فيها مقارنة لمختلف لغات الإنجيل(٢). " إنها أيضًا من أعمال علماء لاهوت بروتستانت متبحرين يدرسون الكتب المقدسة في لغاتها الأصلية مع إجراء مقارنة بين اللغات السامية، وخاصة العربية والعبرانية منها، ويطمح بعضهم إلى رسم صورة عن تناسق الخلق من خلال التعمق في دراسة هذه اللغات"(٣).

١.٧- المطابع العربية بإنجلترا:

تأخرت المطبعة العربية بإنجلترا في الظهور، إذ لم تبتدئ إلا سنة ١٦٣٧م. وقد نشطت في مركزين تابعين لجامعتي أكسفورد ولندن، وذلك طيلة القرن ١١هـ/١٧م. وبالرغم من تقدم الإنجليز في ميدان النشر باللغات الأوروبية، إلا أنهم وجدوا صعوبات لتطوير الطباعة العربية على عكس ما توصل إليه الألمان والهولنديون. أما أسباب هذا "التأخير" فتبقى مجهولة على حد علمنا. ولكن من المؤكد أن الأسباب الفنية ساهمت في عرقلة انطلاقة المطبعة. ويبدو أن غياب حفارين قادرين على صب القوالب والطوابع للأحرف العربية، قد دفع بأساتذة العربية إلى طبع كتبهم بالأحرف العبرانية(٤).

---

(١) Balagna, Josée, L'imprimerie …op.cit., p.63.

(٢) عنوان الكتاب:
Arabiamus h.e.proecepta arabicoe linguoe in harmonia abroe, eadem universalia…, Wittenberg, typis Fincelianis, 166٦ p.in 4.

(٣) Balagna, Josée, L'imprimerie …op.cit.,, p.60.

(٤) مثال ذلك كتاب ابن ميمون الذي تضمن فقرات عربية مطبوعة بأحرف عبرانية:
Ibn Maimun, Mose, Porta mosis, Oxford University, 1655.

مطابع أكسفورد ١٠٤٩هـ/١٦٣٩م ولندن ١٠٦١هـ/١٦٥٠م:

تأسست مطبعة أكسفورد بإيعاز من المستشرق والعالم الديني إدوارد بوكوك الذي نشر بمفرده عشرة كتب عربية. ولد بوكوك بأكسفورد سنة ١٦٠٤م(١)، وقد درس اللغات الشرقية قبل أن يدخل النظام الأنجليكاني، ليعين كاهنا للوكالة التجارية بحلب. هناك قضى ست سنوات مكنته من حذق اللغة العربية. وفي سنة ١٦٣٦م عين أستاذًا للعبرانية والعربية بجامعة أكسفورد. وقد طلب آنذاك من الجامعة الترخيص له بطبع كتب عربية. فأرسلت هذه المؤسسة سنة ١٦٣٧م المطبعي صمويل براون إلى ليدا، لشراء قوالب وطوابع للأحرف الشرقية بما فيها اليونانية والعبرانية والعربية(٢)، وهذا دليل على أن الإنجليز لم يجدوا، حتى ذلك التاريخ، أخصائيين ماهرين لحفر الأحرف الشرقية. وقد طرحت المشكلة نفسها لجامعة لندن التي استعارت أحرف أكسفورد لطبع كتب عربية، وقد اتخذها المستشرق جون جريفس (١٦٠٢-١٦٥٢م) سنة ١٦٤٨م كنموذج لصب أحرف عربية لجامعة لندن، ثم أرجعها بعد سنة واحدة. وبعد ذلك تم حفر أحرف عربية بلندن استعملت لأول مرة في طبع الكتاب المقدس متعدد اللغات سنة ١٦٥٧م. وتختلف هذه الأحرف عن مثيلاتها بأكسفورد من حيث كبر حجمها إلى جانب جودتها وتضمنها للحركات والعلامات. وقد تم إعدادها بطلب من توماس رويكريف وهو مطبعي الملك المتخصص في اللغات الشرقية وبريان والتون ناشر الكتاب المقدس متعدد اللغات، اللذان استدعيا مجموعة من العلماء المستعربين بقصد ترجمة وطبع النص العربي للتوراة، وهؤلاء هم توماس جريفس وصمويل كلارك وألكسندر همش وتوماس هيد وتوماس بيرس وهنري هموندا.

---

(١) **Nouvelle biographie de Diderot**, article Pocoke, T.40p.530.

(٢) Carter, H. A.**History of the Oxford University Press**, Oxford, Clarendon 1975, vol.1, p.33.

بالنسبة لمحتوى الكتب العربية بإنجلترا، فهو متنوع إذ من جملة واحد وعشرين كتابًا هناك ستة في الجغرافيا والتاريخ، وخمسة في اللغة العربية، وستة في الديانة، واثنان في الفلسفة، وواحد في الهندسة، وآخر في علم الفلك. ومن خصائص النشر العربي بإنجلترا احتواؤه على عدد مهم نسبيًا من كتب التاريخ والجغرافيا، وهكذا أصدر بوكوك وسلدن منذ سنة ١٦٥٩م في مدينة أكسفورد **"كتاب نظم الجوهر" أي حوليات سعيد بن البطريق (٨٧٦-٩٣١هـ)**، وهو طبيب ومؤرخ مسيحي من مصر. كما نشر بوكوك أيضًا سنة ١٦٦٣م **"تاريخ مختصر الدول"** لابن العبري أو غريغوريس أبو الفرج، وهو مؤرخ عربي وفي الوقت نفسه بطريرك يعقوبي بالإسكندرية (١٢٢٥-١٢٨٦م). كما صدر للمؤلف نفسه سنة ١٦٥٠م **"لمع من أخبار العرب"**. من جملة كتب الجغرافيا نذكر كتاب أبي الفداء (١٢٧٣-١٣٣١م) **"تقويم البلدان"**[١]. وهو منتخبات من مؤلفات ابن حوقل والبيروني وغيرهما.

لقد نشر الإنجليز منتخبات تاريخية وجغرافية متأخرة تعود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حيث فضل العلماء المستعربون استعمال منتخبات لكتاب من العرب والمسيحيين لتعويض المجلدات العربية القديمة الضخمة والتي من النادر وجودها بأوروبا. "إن هذه الكتب قد عوضت في الشرق المصادر الأولية ولهذا السبب، فإنها وصلت قبل غيرها[٢]"، أما الكتب الدينية فهي تحتوي على نصوص من التوراة، وعن كتاب في التعليم المسيحي والطقوس، ويعتبر كتاب التوراة متعدد اللغات أهم كتاب ديني صدر في لندن، وذلك في سنة ١٦٥٧[٣].

(١) فيه وصف للمقاطعات ٢٠ ، ٢٥ الموجودتان في تركستان.

(٢) Barthold, , V.,**La découverte de l’Asie : Histoire de l’orientalisme en Russie,** traduit du russe par B.Nikitine, Paris, Payot, 1974,p.130.

(٣) في ستة مجلدات من الحجم الكبير.

من جملة كتب الآداب العربية نجد معجمًا كبيرًا في سبع لغات شرقية بعنوان (Lexicon heptaglotton) من نشر المستشرق أدموند كاستل (Edmond Castel) سنة ١٦٦٩م "هو عمل علمي رائع صمم لإكمال التوراة متعددة اللغات[١]"، بقي أن نذكر كتاب الفلسفة العربي **"حي بن يقظان"** لابن طفيل الذي نشره بوكوك في أكسفورد سنة ١٦٧١م، ثم أعاد ابنه طبعه سنة ١٧٠١م.

١.٨- ملاحظات عامة عن النشر العربي بأوروبا:

لا توجد مطابع متخصصة فقط في النشر العربي ولكن هناك مطابع مهتمة بعدة لغات شرقية، وأهمها : العبرانية واليونانية والعربية والسريانية والتركية. وبما أن الأحرف العربية كانت نادرة فإنها اقترنت في عدة حالات باسم الناقش والأستاذ أو راعي الآداب الذي أشرف على إعدادها أكثر من اقترانها باسم المطبعة. وقد استعملت هذه الأحرف أحيانًا في أكثر من مطبعة، نظرًا لتنقل صاحبها من مدينة إلى أخرى، وهذا ما فعله سافاري دي بارف وهوتينجر وغيرهما. على أن أغلب المطابع الشرقية كانت مرتبطة بمعاهد أو جامعات ويقوم فيها الأساتذة ورجال الدين بدور الناشر العلمي للكتب العربية، وهذا لم يمنع أصحاب النفوذ الديني والدنيوي من التدخل المباشر في شؤونها خاصة بروما وباريس، وذلك بهدف إملاء التوجهات الرئيسية للنشر واختيار النصوص ومراقبتها عند الطبع، وهذا ما قام به بالفعل البابا غريغوريوس الثالث عشر بروما، وأيضًا الكاردينال ريشيليو بباريس.

انطلاقة المطبعة العربية بأوروبا كانت صعبة بسبب غياب الناقشين القادرين على إعداد قوالب للأحرف العربية، هذا فضلاً عن المشاكل الفنية الخاصة بالأبجدية العربية، ورغم ذلك، فقد وفق إلى ذلك كل من قرانجون ولوباي

---

(٤) Balagna, Josée, **Le fonds…op.cit**., p.116.

وكرستن ووالتون وأربنيوس في حفر هجائية عربية سليمة، حتى أن الأحرف البديعة لقرانجون التي بقيت لمدة قرنين دون مضاهاة أحرف أخرى لها، اعتبرت مركز استقطاب النشر العربي بأوروبا، فقد نقل عنها ناقشون ألمان وهولانديون. إن نجاح الناقشين الأوروبيين رغم جهلهم باللغة العربية، يمكن أن يكون نموذجًا لأبناء المشرق لدفعهم لطبع كتب عربية ببلادهم. لقد أقحمت أحرف قرانجون إلى جانب أحرف سافاري وأربنيوس في الصراع الديني الدائر بين الكاثوليك والبروتستانت، حيث إنّ كليهما يريد نشر مذهبه بالشرق بواسطة الكتاب العربي المطبوع.

إنتاج الكتاب العربي في القرنين ١٠- ١١هـ/١٦- ١٧م:

نشرت المطابع العربية في أوروبا في هذه الفترة مئة وواحدًا وتسعين كتابًا من بينهم أربعة وعشرون كتابًا صادرة في القرن ١٠هـ/١٦م. إن توزيع هذا الإنتاج بين مختلف مراكز النشر غير متزن، فهناك مركزان في المقدمة تجاوزا في نشرهما الخمسة والثلاثين كتابًا، وهما : روما وليدا، واثنان آخران متوسطا الإنتاج أي في حدود الخمسة عشر كتابًا وهما باريس وأكسفورد. وهناك مدن أخرى طبعت أكثر من أربعة كتب، وهي : أمستردام ولندن وبراسلو، وأما بقية المطابع فلم تتوصل إلى نشر أكثر من كتاب أو اثنين نذكر منها : البندقية وميلانو وشلاشفيق ولايبزغ،... إلخ.

كان للمدن الايطالية قصب السبق في نشر أول الكتب العربية، وأيضًا كان لها النصيب الأكبر في الإنتاج بفضل السبعين كتابًا التي أصدرتها في ظرف قرنين من الزمن. وفي المرتبة الثانية تأتي المدن الهولندية التي أنتجت خمسة وأربعين كتابًا ثم المدن الألمانية والإنجليزية والفرنسية التي أنتجت على التوالي أربعين وواحدًا وعشرين وخمسة عشر كتابًا.

وإذْ شهد القرن ١٠هـ/١٦م نشأة النشر العربي بأوروبا، فإن القرن ١١هـ/١٧م، عرف ازدهار المطبعة العربية هناك، إذ ازداد عدد المطابع التي نشرت في الجملة مئة وسبعة وستين كتابًا.

ويصل معدل الإنتاج في كل عقد إلى ستة عشر كتابًا، ولكن في بعض العقود وصل الإنتاج إلى خمسة وعشرين كتابًا، وذلك فيما بين السنوات ١٦١١-١٦٢٠ و١٦٣١-١٦٤٠ و١٦٥١-١٦٦٠.

وقد بلغ النشر العربي ذروة نشاطه في النصف الأول من القرن السابع عشر، حيث تم طبع مئة وأربعة عشر كتابًا، إذْ وصلت أغلب المطابع إلى قمة انتاجها خاصة بفضل نشاط مراكز ليدا وأكسفورد وباريس وروما. ثم أخذ الانتاج في التضاؤل بداية من سنة ١٦٦١م، وهذا بسبب توقف مطبعة سافاري بباريس، وتقلص نشاط إلزيفير في ليدا، دون أن يتمكن الألمان من سد هذا الفراغ.

أغلب الكتب كانت ثنائية اللغة، أي بالعربية واللاتينية. أما الكتب أحادية اللغة، أي بالعربية فقط، فهي في أغلبها من نشر المطابع الإيطالية، إذ كانت نصف منشورات روما من هذا الصنف(١).

١.٩- التوجهات الرئيسية للدراسات العربية في أوروبا:

(١) نشير إلى أن بعض الكتب نشرت في ثلاث لغات وأكثر من عربية ولاتينية وعبرية وسريانية وغيرها... مثل معجم سيليزيا المطبوع في روما سنة ١٦٣٩م (عربي لاتيني إيطالي)، رسالة فلسفة قابس بليدا ١٦٤٠م (عربي لاتيني يوناني)، سفر المزامير متعدد اللغات بجنوة ١٥١٦م، التوراة متعددة اللغات بباريس ١٦٤٥م وبلندن ١٦٥٧م، ومعجم كاستيل متعدد اللغات بلندن ١٦٦٩.

سنحاول من خلال دراسة محتوى الكتب المطبوعة، رسم مشاغل وأهداف العلماء المستعربين وتحليل أهم التوجهات المتوخاة في الدراسات العربية بأوروبا في ذلك العصر.

إن من الصعب تقديم أرقام مدققة حول تصنيف الكتب حسب المواضيع، لأن هناك كتبًا تعالج أكثر من موضوع في الوقت نفسه. ولكن يمكن أن نلاحظ أن أكثر من ثلث الإنتاج المطبعي يتعلق بكتب النحو وتعليم اللغة العربية، وكذلك ثلث آخر يعالج الديانة، وخاصة المسيحية منها، بما فيها النصوص المقدسة، ونصوص في التعليم والدفاع عن المسيحية، وكتب الطقوس والصلوات. أما البقية فهي موزعة بين العلوم الأساسية مثل الطب والفلك والرياضيات، والعلوم الإنسانية، مثل التاريخ والجغرافيا والفلسفة.

ولا تنطبق نسبة توزيع المحاور بالدرجة نفسها على كل المطابع. فالكتب الصادرة عن المدن الإيطالية والفرنسية تعالج في الغالب مواضيع دينية على غرار «مجمع نشر الإيمان» بروما الذي نشر بمفرده ثمانية عشر كتابًا دينيًا، مقابل أحد عشر كتابًا في اللغة والآداب العربية. إن هذا المجمع قد سخر كل طاقاته مثل بقية المطابع الكاثوليكية لخدمة كنيسة روما، فالبابا غريغوريوس الثالث عشر وخلفاؤه كانوا عاقدي العزم على تطبيق مقررات المجمع الكنسي بفيانا وفلورنس ولاتران الخامس وترانتا بخصوص الشرق، وتتمثل في توفير كل الإمكانيات اللازمة للتصالح مع الكنائس المستقلة بالشرق ومجابهة المسلمين ومنع التسرب البروتستانتي إلى تلك الأماكن؛ ولذلك فإن عملية طبع الكتب المسيحية العربية حسب رواية كنيسة روما تعتبر أنجح وسيلة لمعاضدة عمل المبشرين بسوريا.

وهكذا نشرت المطابع الست الموجودة بروما ثلاثة وثلاثين كتابًا كاثوليكيًا موزعة كما يلي: سبعة كتب مقدسة بها النصوص الكاملة أو أجزاء منها، مثل

المزامير والأناجيل، اثنا عشر كتابًا لتعليم المسيحية وأهمها كتاب بلارمان، ثمانية كتب في الدفاع عن الدين المسيحي وفي الجدال ضد الإسلام وأبرزها كتاب كوادانولوس للرد على فقيه فارسي. وأخيرًا ست كتب عن الطقوس المسيحية.

إن سياسة فرنسا شبيهة بسياسة روما نظرًا إلى أن سافاري دي براف وريشليو ولويس الثالث عشر كانوا يرون المطبعة من زاوية دينية. وهكذا كرس النشر العربي في المدن الإيطالية والفرنسية انتصار الاستشراق الكاثوليكي(١).

أما المطابع البروتستانتية فقد اهتمت بالكتب العلمية العربية أكثر من الكتب الدينية، وهذا يعود إلى أن جلها تأسس في رحاب الجامعات، مثل ليدا وأكسفورد وهامبورغ ولندن وروستوك وإيبسلا وغيرها. إذ نشر المستعربون الهولنديون والإنجليز والألمان انطلاقًا من عقلية بعيدة نوعًا ما عن الجدل الديني- أدوات العمل الأكثر طلبًا في الدراسات العربية بأوروبا من معاجم وكتب نحو ومنتخبات شعرية وأدبية عربية. لقد حرص هؤلاء العلماء على نشر كتب التعليم والآداب العربية، لأنهم يرون أنهم إذا أجادوا اللغة فإنهم سيتمكنون من قراءة المؤلفات العربية في لغتها الأصلية والتعمق في معرفة الحضارة الاسلامية.

انتجت المطابع الشرقية بليدا كتبًا في اللغة والآداب العربية أكثر من كتب الدين، فمثلاً نشرت مطبعة أربنيوس سبعة كتب في اللغة، مقابل أربعة في الدين، واثنين في التاريخ. أما مركز أكسفورد فقد كرّس جهده لكتب العلوم الإنسانية، ستة كتب في التاريخ والجغرافيا، واثنين في الفلسفة، وثلاثة في اللغة، وأربعة في الدين، وواحد في الفلك.

(١) Duverdier. G, « L’Orientalisme chrétien » In **: Le livre et le Liban**, p.238.

وقد توصل العلماء البروتستانت إلى طبع معاجم عربية هامة وذلك خلال القرن ١١هـ/١٧م، مثل المعجم اللاتيني ليعقوب غوليوس بليدا سنة ١٦٥٣م، والمعجم متعدد اللغات لكستال بلندن سنة ١٦٦٩م، والمعجم العربي لرافلانج بليدا سنة ١٦١٣. وقد شعر العلماء المستعربون بضرورة نشر مثل هذه المعاجم للتعمق في فهم اللغة العربية[١]، إلا أن هذه الأداة غابت على اهتمامات المشرفين على مطبعة فرنسا[٢].

وإلى جانب المعاجم توجد كتب النحو العربي التي هي جد مطلوبة من طرف الطلاب بأوروبا، ومن أهم هذه الكتب المدرسية نذكر الآجرومية التي أعيد طبعها تسع مرات في عدة مدن أروبية، وكذلك كتاب النحو العربي لأربنيوس الذي كان محل تقدير معاصريه، لوضوح وجدية عمله، وقد تمت إعادة طبع الكتاب خمس مرات طيلة القرن ١١هـ/١٧م.

وتضاف إلى هذه الأدوات المنتخبات الأدبية والشعرية العربية التي استعملت بوصفها أمثلة لدراسة اللغة. وأن النصوص المختارة كانت مشوقة ومعبرة عن ذوق العلماء: شعر ونثر وأمثلة عربية. وهذا الصنف الأخير مطلوب بكثرة مثل أمثال لقمان المطبوعة في ليدا سنتي ١٦١٥ و١٦٣٦م وأيضًا ثلاثة كتب عن أمثال العرب منشورة في ليدا وويتنبرغ. إن هذه الأمثال التي كانت قصيرة

---

(١) إن علماء اللاهوت الإيطاليين قد نشروا من جهتهم "كنز اللغة العربية" لأنطوان جيجاي في ميلانو سنة ١٦٣٢م، وأيضًا معجمًا لسيلازيا في روما سنة ١٦٣٩م، بعنوان "بناء اللغة العربية" Fabrica linguae Arabica.

(٢) لاحظ المستشرق الفرنسي أنطوان جالان هذا النقص حين قال في أواخر القرن السابع عشر: "كيف يمكنهم الانتفاع بذلك في الوقت الذي لا يوجد فيه كتاب نحو ولا معجم في هذه اللغة والذي يمكن أن يستغل بكل نجاعة **Bibiothèque Orientale d'Herbelot**, Paris, 1697. préface de Galland.

وسهلة الحفظ قد مكنت الأوروبيين من الاطلاع على حكم العرب ونمط تفكيرهم.

ونشير أيضًا إلى طبع المنتخبات التاريخية والجغرافية لمؤلفين عرب متأخرين، يعودون إلى القرنين ٧-٨هـ/١٣-١٤م، ذلك أن المستشرقين الذين لم يكن بحوزتهم مخطوطات كتاب العرب الأوائل اقتصروا على نشر منتخبات لسعيد بن البطريق وابن العبري وأبي الفداء وغيرهم.

لقد بنى العلماء المستعربون في القرن ١١هـ/١٧م الركائز الأساسية للدراسات العربية بأوروبا، وذلك باستعمال أحرف المطبعة العربية وبنشرهم لكتب النحو والمنتخبات والمعاجم العربية وكانت تحدوهم أحيانًا النزاهة العلمية التي ظهرت بالخصوص في ليدا وأكسفورد وبراسلو. وبخصوص النزعة الدينية والجدلية، فإنها طغت على المنشورات الإيطالية والفرنسية وبدرجة أقل على الكتب الألمانية والهولندية والإنجليزية. وهكذا بفضل أدوات العمل العلمي التي نشرت بالعربية في القرن السابع عشر، فإن الأمور كلها رتبت لتمكين المستشرقين في القرن التالي لاكتشاف واستقصاء المؤلفات الأدبية والعلمية للكتّاب المسلمين.

بقي أن نتساءل الآن هل كانت المنشورات العربية بأوروبا موجهة للعلماء المستعربين والطلبة الأروبيين فقط أم للمشرقيين كذلك؟ وهل تم توزيعها في الشرق؟ وفي حالة الإيجاب كيف كان موقف المسيحيين العرب منها؟

٢ - صدى النشر العربي الأوروبي في المشرق:

٢.١ - وجهة الكتب:

ليس من السهل معرفة وجهة هذه الكتب انطلاقًا من دراسة اللغات التي طبعت بها، إلا أن دراسة اللغة تعدّ مؤشرًا أوليًا للتوصل الى ذلك. إن جل

الكتب كانت ثنائية اللغة عربية ولاتينية، في حين أن عدد الكتب أحادية اللغة والمقتصرة على العربية كان قليلاً. فالكتب من النوع الأول كانت موجهة بالدرجة الأولى للأوروبيين من علماء مستعربين وطلاب الدراسات العربية والتجار والمبشرين لدراسة العربية، وذلك بالاستعانة بالترجمة اللاتينية لفهم النص العربي ويستبعد إذن أن تكون هذه الكتب الثنائية اللغة، قد وجهت لأهل المشرق الذين يجهلون اللاتينية. أما الكتب أحادية اللغة، أي بالعربية فحسب، فقد كانت موجهة في الغالب إلى بلاد الشام. وهناك شهادات تؤيد ذلك مثلما ذكره مؤسس مطبعة روما وباريس سافاري دي براف، من أنه قد أرسل خمسمائة أو ستمائة نسخة من كتاب **"التعليم المسيحي"** لبلارمان إلى مسيحيي الشرق سنة ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م، وأنه لا توجد بالكتاب ترجمة لاتينية، لأنها غير ضرورية في هذه البلاد[١]، والجدير بالذكر أن بعض المطابع الكاثوليكية بروما وباريس، كانت تصدر الكتاب نفسه في طبعتين واحدة باللغة العربية وأخرى باللاتينية بحسب وجهتها، أي إما لمسيحيي المشرق أو للأوروبيين، ونذكر مثالاً آخر لهذا النوع من الكتب، وهو كتاب "الإنجيل" الذي نشرته مطبعة الميدتشي سنتي ٩٩٩-١٠٠٠هـ/ ١٥٩٠-١٥٩١م في طبعتين.

إن الكتب أحادية اللغة أي المقتصرة على العربية كانت أيضًا موجهة للعلماء المستعربين الذين كانوا يحرصون على شراء كل ما يصدر عن المطابع العربية مثل العالم سكاليجار[٢]. أما الطلاب فقد كانوا يطلعون أيضًا على هذه

(١) رسالة بتاريخ ٣ أوت ١٦١٣م، محفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس (BN.mss.Coll. Dupuy, 812 p.267) سلك سافاري الخطة نفسها بالنسبة لكتاب مزامير داوود عليه السلام الذي طبع بروما في سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م، و ذلك كما ورد في مقدمة الكتاب بنية توزيعه في بيت المقدس "لتشتهر في تلك الأماكن المباركة للطالب والراغب".

(١) "لقد وصلنا إلى هذه المدينة (روما) ومعنا الكتب التي اشتريناها وهي الأوقليدس وكتاب القانون الثاني لابن سيناء، التي لا تباع منفصلة عن بعضها وكتاب القداس العربي الذي طلبته في شهر أغسطس الماضي والذي تم طبعه منذ خمسة عشر يومًا". رسالة من شاستانيي إلى سكاليجار ١٢ أكتوبر ١٥٩٥م.

المنشورات التي تعتبر بالنسبة لهم بمثابة الكتب المدرسية[1]، إن أصحاب المطابع الشرقية بإيطاليا وفرنسا كانوا ينوون توزيع منشوراتهم بالمشرق، وهناك وثائق تؤكد هذا التوجه. من ذلك أن مطبعة «مجمع نشر الإيمان» بروما التي أصدرت قرارًا سنة ١٠٣٨هـ/١٦٢٩م، يقضي بتوزيع الكتب مجانًا بالشرق، رغم أنها سمحت فيما بعد ببيع بعض النسخ[2]، وبالفعل ظهرت إشارات في مقدمة الكتب التي طبعها المجمع تؤكد هذا التوجه، من ذلك ما ذكر حول إهداء كتاب جدلي صدر بروما سنة ١١٠٦هـ /١٦٩٤ م، بعنوان "مضمون المجمع الخلقيدوني المقدس الأرثوذكسي...المهدى إلى أنبا يوحنا المعظم المفخم خليفة الإنجيلي مار مرقس أول وأشرف بطاركة الكنيسة الإسكندرية وإلى جميع أصحاب الكهنوت المصريين والحبشيين وإلى ملك الحبش العالي... وكافة طوايف القبط والحبش المباركين القاطنين في الديار المصرية والأقاليم الحبشية"[3] .

وقد توخت فرنسا السياسة نفسها حين منح الملك لويس الثالث عشر في ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م "حق امتياز الطبع" باللغات الشرقية، مشترطًا على أصحاب المطابع "إصدار العهد الجديد وكتب التعليم المسيحي وكتب النحو باللغات الشرقية، وتسليم عدد من النسخ منها مجانًا للمبشرين العاملين بالشرق، وهؤلاء

Epistres Françaises des personnages illustres à M.Joseph Juste de la Scala ; Haderwyeq, H. Laurens, 1624, p.376

(٢) مثل كتاب شذرة الأدب من كلام العرب الذي طبع بليدا في ١٦٢٩م، وأمثال لقمان الحكيم الذي طبع في ١٦٢٥م وكذلك الكتب العربية للميدتشي التي نشرت دون نص لاتيني مثل الآجرومية والكافية وكتاب التصريف.

(٣) Fumagalli **Lexicon…op.cit**., p.354.

(٤) Schnurrer, n°265 ورد أيضًا في كتاب آخر أصدره المجمع في ١١٠٤هـ/١٦٩٢م بعنوان "ذكر حساب السنة وأعيادها" أنه قد "طبعه لأجل منفعة الإخوة المسيحيين القسوس والشمامسة والشعب الأرثوذكسيين" Schnurrer,, n°246.

يتولون توزيعها لكل من يريد معرفة الدين المسيحي"[1]، وهذا ما حرص على تطبيقه أنطوان فيتراي الناشر الفرنسي المتخصص في اللغة العربية، حيث ذكر على سبيل المثال على صفحة أحد كتبه: "هذا الكتاب يوزع مجانًا"[2].

وهكذا تتضح جليًا سياسة المطابع الكاثوليكية بأوروبا في طبع وترويج الكتب المسيحية العربية لدى الطوائف المسيحية بالمشرق. وهذه السياسة لم تكن واضحة لدى المطابع البروتستانتية، إذ لا توجد وثائق تبين ذلك باستثناء الحادثة التي وقعت بإستانبول بسبب توزيع كتاب بروتستانتي، والتي سنتعرض إليها في الفصل الثاني. بقي الآن التعرف إلى الأسلوب الذي اتبعه الأوروبيون لتوزيع الكتب المسيحية والجدلية في المشرق، في عصر لا يزال الصراع بين الإسلام والمسيحية قائمًا على أشده.

٢.٢- توزيع الكتب:

تولى توزيع هذه الكتب الدبلوماسيون والتجار، وخاصة المبشرين[3] فمنذ سنة ٩٨٨هـ/١٥٨٠م، تولى الأب اليسوعي إليانو القيام بمهمة بتكليف من البابا غريغوريوس الثالث عشر لدى المارونيين وقد حمل معه نسخًا كثيرة من كتابه[4] وتولى توزيعها على القسيسين والرهبان وبعض أبناء الطائفة[5] في

(١) وردت هذه الجملة في نص "امتياز الطبع" لكتاب مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب الذي نشره إبراهيم الحاقلاني بباريس ١٠٥٠هـ/١٦٤١م، ورقة ٢- ٣.

(٢) هو كتاب "التعليم المسيحي" لريشليو ترجمة جيست دي بوفي باريس ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م.

(٣) وصلت الكتب إلى المشرق أيضًا في شكل هدايا بين الأمراء المسلمين والمسيحيين، من ذلك أن الأمير فخر الدين الثاني أرسل أقمشة من حرير إلى الكردينال ميدتشي ردًا على هديته المتمثلة في كتب مطبوعة.

Chebli, M, **Fakhreddine II Maan,** Beryrouth, 1946 p.136.

(١) اليانو، يوحنا، اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية كنيسة رومية، روما، المطبعة اليسوعية، ١٥٦٦م.

(٢) Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit**., p.XVIII

مجمع قنوبين[١] وكذلك في أثناء تنقلاته في القرى المارونية. وعمل على تسفير بعض النسخ قبل إهدائها للكنيسة المارونية[٢].

وقد قام بالعمل نفسه الأب اليسوعي دانديني مبعوث البابا إلى جبل لبنان ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م، إذ تولى توزيع مائتي نسخة من كتاب القداس الذي طبع فيما بين سنتي ١٠٠١-١٠٠٣هـ/١٥٩٢-١٥٩٤م.

كما أسهم الديبلوماسيون في عملية التوزيع، ومن هؤلاء قنصل فرنسا بمصر الذي قام في سنة ١٠٢٦هـ/١٦١٨م، بتكليف من سافاري دي براف بتوزيع عدد من نسخ كتاب بالارمان **"التعليم المسيحي"** بين أقباط الإسكندرية[٣]. وتواصل إرسال الكتب إلى المشرق بصفة منتظمة طيلة القرن ١١هـ/١٧م، بواسطة المبشرين الكاثوليك والفرنسيسكان واليسوعيين والكبوشيين. وقد ساهم إلى جانب هؤلاء التلاميذ المارونيون بمعهد روما في عملية توزيع كتب مطبعة «مجمع نشر الإيمان»، وذلك عند عودتهم إلى بلادهم. إلا أن هذه العملية كانت محدودة نظرًا لصعوبة النقل، وتشديد السلطات العثمانية.

ولا يمكن معرفة حجم هذه الكتب نظرًا لافتقاد الوثائق حول الموضوع. إلا أنه بالإمكان الإحاطة بمحتوى هذه الكتب عامة؛ إذ كانت جلها دينية: كتب الصلاة والإنجيل والمذهب الكاثوليكي، وهي تكرّس أهداف البابا ومقررات مجمع ترانت.

---

(٣) شيخو، لويس،" الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية" في: **المشرق**، عدد ١٨، ١٩٢٠م، ص.٣٠٣-٣٠٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(٥) Duverdier, G. "Les impressions orientales…"op.cit. p.172, note 14.

كـان كتـاب الأب برينـو **"التعلـيم المسـيحي"**(١) مخصصًـا لتفنيـد المـذاهب المسيحية بالمشرق والتعريف بالمذهب الكاثوليكي، كما تراه كنيسة روما، وكان الأب إليانو قد وزعه في جبل لبنان(٢). ولم يكن الكتاب الوحيد في هذا الصـدد، إذ إن كتاب **"التعليم المسيحي"**لريشيليو الذي أرسل إلـى المشرق كـان يرمـي حسب تعبير سافاري(٣) إلى "تخليص المسيحيين مـن أخطـائهم وعيـوبهم". هذا الصنف من الكتب قد جعل للتبشير ولنشر الكاثوليكيـة فـي أوسـاط المسـيحيين العرب، ولم يكن موجهًا للمسلمين(٤). وقد اهتم البابا والمبشرون كثيرًا بالكتـاب المقدس حيث كانوا يريدون نصًـا عربيًـا موحدًا لجميع المسيحيين العرب. وقد قام المطبعيون بنشر بعض الأجزاء منـه بالعربيـة(٥)، لكن بصـعوبة كبيـرة. إن فكـرة نشـر النصـوص الكاملـة للتـوراة والإنجيـل قـد خـامرت ذهـن البابـا غوريغوريوس الثالث عشر. لكن المشروع كان ضخمًا وصعبًا ليس فقط بسبب الترجمة، بل كذلك بسبب صـعوبة اختيـار "أفضـل روايـة"، فكـان أن قرر البابـا طبع النص الرسمي للكتاب المقدس كمـا حدده المجمع الكنسـي بترانـت، إلا أن الفرنسـيين فضـلوا الرجـوع إلـى المخطوطـات العربيـة الموجـودة "للكتـاب المقدس". فنتج عن هذا الاختلاف ظهور طبعتين مختلفتين الأولـى بباريس سنة ١٠٥٤هـ/١٦٤٥م، وهي للكتاب المقدس متعدد اللغات، والثانيـة للكتـاب المقدس

(١) برينو، التعليم المسيحي، ترجمة الأب أليانو، روما، المطبعة اليسوعية،١٥٨٠م.

(٢) Dandini, Jérôme, **Voyage du Mont Liban**, Trad.R.Simon, Paris, L Billaine, 1675 p.342 (commentaire de Simon).

(٣) "رسالة سافاري دي براف" في : Le Livre et le Liban…op.cit., p.163

(٤) Duverdier, G. "Les impressions orientales…"op.cit. p.163.

(٥) مثل سفر المزامير الذي أعيد طبعه في جنوة عام ٩٢١هـ/١٥١٦م، وكتاب الإنجيل الذي طبعه الميدتشـي عـام ٩٩٨هـ/١٥٩٠م، وسـفر المزاميـر الـذي أعيـد طبعـه فـي رومـا مـرتين فـي ١٠٢١هـ/١٦١٣م، و١٠٢٧هـ/ ١٦١٩م.

ثنائي اللغة (عربي - لاتيني) الذي صدر بروما سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م. وإذا كان الغرض من الطبعة الأولى هو الأبهة والافتخار كما رأينا في الفقرة السابقة، فإن الطبعة الثانية قد أرسلت إلى المشرق حيث جوبهت بالرفض لدى المسيحيين(١).

وإلى جانب هذين النوعين من الكتب ظهرت بالشرق عناوين أخرى أقل أهمية مثل التقاويم: **"ذكر حساب السنة وأعيادها"** الذي أصدرته مطبعة «مجمع نشر الإيمان» بروما سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م. ويتعلق بذكر الصلوات عند الشرقيين(٢)، كما ظهر كتاب جدلي في القرن ١١هـ/١٧م وعنوانه **:"مضمون المجمع الخلقيدوني في علة هرطقة أوطاخي المنافق"**، وهو موجه للطوائف المسيحية الشرقية كما ذكر في المقدمة من "طائفة القبط المكرمين وطوائف الحبش الموقرين وغيهم [صح : وغيرهم] من طوايف الشرقيين المغرورين بحيلة حزب أوطاخي وديوسقروس السالفين يبلغوا معرفة أصول اجتماع هذا المجمع العام القاثوليقي وينكشف عندهم غش الأوطاخين السالفين ويتفقوا بودة [صح : بمودة] حقيقية مع الكنيسة الرسولية الرومانية"(٣) إن هذه الكنيسة كانت تخطط لتحقيق الاتحاد مع كنائس الشرق، وكانت تسعى من خلال هذه المنشورات إلى "رومنة" الطوائف الشرقية(٤).

---

(١) انظر الفقرة القادمة المتعلقة بموقف المسيحيين العرب من الكتب المطبوعة بأوروبا.

(٢) نذكر أيضًا كتاب برونيوس، كتاب التواريخ البيعية الذي نشر بروما عام ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م.

(٣)

Schnurrer, n°265.

(٤) يمكن إضافة عناوين أخرى مثل، "كتاب يشتمل على أجوبة أهل الكنيسة المقدسة الكاثوليكية لاعتراضات الهراطقة ضد الكاثوليكية"، من تأليف ميخائيل لوفيير، طبع بروما عام ١٠٩١هـ/١٦٨١م، وكذلك "كتاب في الدفاع عن الإيمان المسيحي"، من تأليف جرمانوس دي سيليبيزيا، نشر بروما عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٨م.

إلا أن هذا المجهود المبذول من طرف البابوية كانت تشوبه أحيانًا بعض المشاكل بسبب مزاحمة البروتستانتيين لها، إذ عمل هؤلاء بدورهم على توزيع كتبهم بالمشرق، فكان أن أدى هذا الصراع الديني إلى وقوع حادثة سياسية تدخل فيها الباب العالي وسفراء الدول الأروبية لديه؛ للوقوف أمام تسرب المذهب الكالفيني في المشرق(١). هذه الحادثة شغلت كثيرًا بال البابا وملك فرنسا، ذلك لأن كنيسة روما كانت ترى في تسرب الكتب البروتستانتية خطرًا يهدد سلطتها الروحية، التي بدأت تتدعم في المشرق، وينذر بفشل كل المجهودات التي بذلتها في هذه البلاد التي كانت بعيدة عن الإصلاح البروتستانتي.

٢.٣- مواقف المسيحيين العرب إزاء الكتب العربية المطبوعة في أوروبا:

تبين مما سبق أن الكتب العربية المطبوعة في أوروبا كانت موجهة جزئيًا للمشرق العربي، وأنه قد تم توزيعها في أوساط المسيحيين خاصة فكيف كان رد فعل هؤلاء تجاه ما وصلتهم من منشورات وتجاه فن الطباعة بالذات؟ وماذا كانوا ينتظرون من الكتب المطبوعة؟

سيتم التركيز على دراسة مواقف أبرز الطوائف المسيحية العربية التي تفاعلت مع هذه المنشورات، وهما اثنتان: الطائفة المارونية، والطائفة الأرثوذكسية، وكلاهما كانت لها علاقة معينة مع كنيسة روما.

٢.٣.١- مواقف المارونيين:

الحالة الدينية والثقافية لدى المارونيين:

توطدت العلاقات بين الطائفة المارونية والبابوية نتيجة مجهودات المبشرين الفرنسيسكان الذين دفعوا بالبطريريك الماروني موسى العكاري (٩٣١-٩٧٤هـ/١٥٢٤-١٥٦٧م) إلى "تجديد" الاتفاقية حول اتحاد طائفته مع كنيسة

---

(١) انظر الفصل الثاني من الكتاب.

روما سنة ٩٥٩هـ/١٥٥٣[١]. إلا أن الاتصالات بين الطرفين كانت صعبة، نظرًا لبعد المسافة واختلاف اللغات؛ مما أدى إلى صعوبة إقامة حوار بينهما[٢]. أضف إلى ذلك الوضع المتردي للحياة الثقافية عند المارونيين. من ذلك حالة الجهل المنتشرة بين أبناء الطائفة، وندرة المدارس والمتعلمين، وحتى الكهان عندهم كانوا يكتبون ويقرأون بصعوبة[٣]، ولم تكن توجد لديهم مكتبات إلا في الأديرة. أما المخطوطات فقد كانت نادرة وباهظة الثمن وكانوا يجهلون فن الطباعة[٤].

وقد أرسل إليهم البابا غريغوريوس الثالث عشر مبعوثًا سنتي ٩٨٥-٩٨٦هـ/١٥٧٨-١٥٧٩م ليطلع على حالة معتقداتهم وهو الأب يوحنا أليانو الذي رفع تقريرًا للبابا يقترح فيه إدخال إصلاحات على الكنيسة المارونية، وتعليم شبان من هذه الطائفة بمدارس روما وإنشاء مطبعة لإصدار كتب دينية بالعربية والسريانية لتحل محل المخطوطات "المليئة بالأخطاء"[٥]. وقد عمل البابا على تنفيذ بعض ما جاء بالتقرير من اقتراحات فأنشأ في سنة ٩٨٩هـ/١٥٨٢م، مأوى لاستقبال الشبان المارونيين الذين بدأوا يتوافدون على روما، والذين بلغ عددهم في ظرف سنتين عشرين. ثم أسس عام

---

(٢) Raphael, P. **Le rôle…op.cit**., p.53.

(٣) تلقى البطريرك ميخائيل الرزي رسالة من البابا غريغوريوس الثالث عشر في مارس ١٥٧٧م، إلا أنه لم يستطع الاطلاع عليها نظرًا لعدم وجود مترجمين قادرين على ترجمة النص اللاتيني إلى العربية، إلى أن وصل الأب أليانو في ١٥٧٩. شيخو، لويس، " الطائفة" المصدر نفسه في: **المشرق** عدد ١٧، ١٩١٤م، ص ٤١٥.

(١) Dandini, **Voyage…op.cit**., pp.94-95.

(٢) Dandini**, Voyage…op.cit**., pp.94-95.

(٣) شيخو، **الطائفة**...، المصدر نفسه، عدد ١٧، ١٩١٤م، ص ٧٦٢. Raphael, **Le rôle…op.cit**., p.56.

٩٩٢هـ/١٥٨٤م المعهد الماروني، وكلف الآباء اليسوعيين بالإشراف عليه[١]. وقد عبر رجال الدين المارونيون والتلاميذ الجدد القادمون من جبل لبنان عن موقفهم إزاء فن الطباعة وإزاء الكتب العربية والسريانية التي صدرت في تلك الفترة بروما.

- استحسان فن الطباعة:

لم يخف البطريرك الماروني ميخائيل الرزي ورهبانه إعجابهم بفن الطباعة منذ أن تسلموا نسخًا من الكتب الأولى المطبوعة بروما عن طريق مبعوثي البابا سنة ٩٨٧هـ/١٥٨٠م، وهما الأبوين إليانو وبرينو، بل إنهم طلبوا المزيد من النسخ[٢]. أما الأب يوحنا بن أيوب الحصروني الذي قدم إلى روما سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م، بطلب من الكاردينال كارافا "حامي المارونيين" المساهمة في نشر الكتب الدينية، وقد كان مبهورًا أيضًا بآلة الطباعة فكتب سنة ٩٩٣هـ/١٥٨٥م، إلى الأب إليانو متحدثًا عن البابا : "وعمل لنا اسطنبا (أي مطبعة) بالحرف السرياني الكبير الرب يجازيه في ملكوته السماوي"[٣].

ويتأكد من خلال الوثائق، أن المارونيين قد قبلوا مبدأ الطباعة منذ الوهلة الأولى، بل إنهم عدّوا المطبعة اكتشافًا ثمينًا فهي توفر لهم نسخًا كثيرة من الكتب الضرورية لديانتهم. وقد كتب جبرائيل الباني، أول تلميذ يدرس بالمعهد الماروني للأب إليانو سنة ٩٩٣هـ/١٥٨٥م، معترفًا بجميله "إننا معتازين (محتاجين) هؤلاء الكتب الذين أساميهم مكتوبين بورقة الأب يوحنا، فمن كل بد وسبب يا أبونا نريد أنك ترسلهم"[٤]. بل إن حرص بعض الرهبان على

(٤) **Ibid,** p.58.

(٥) شيخوا، **الطائفة...**، المصدر نفسه، المشرق، عدد ١٨، ١٩٢٠م، ص ٣٠٣.

(١) شيخو، لويس، **الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية ١٩٢٣م، ص٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨١.

الحصول على كتب من اليسوعيين بروما دفعهم إلى معاتبة الأب إليانو لعدم إرساله نسخًا كافية من الكتب، ففي رسالة محررة من طرف ثلاثة كهنة مارونيين من طرابلس إلى الأب إليانو بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٥٨٦م، ورد ما يلي: "وباين رجع إلينا وهو يقول إنه جاء من رومية ميت من الجوع بلا زوادة وجاب معه بعض أوراق كتب نويسات وإشبينات ايش نريدهم كان لنا خاطر أن تنطبع كتب الكنيسة على يدك كما يريد الله وكما تعرف انت.."[١].

إن تهافت المارونيين على طلب منشورات روما يدل على استحسانهم منذ البداية لآلة الطباعة، وقبولهم تعويض مخطوطاتهم بهذه الكتب المطبوعة. ويكفي أن هذا الفن الجديد تستعمله كنيسة روما التي تربطهم بها علاقة روحية، حتى يطمئنوا إلى هذا الاكتشاف. هذا وإن كانت كنيسة روما ذاتها قد ترددت في استخدام آلة الطباعة عند ظهورها قبل أن تعتمدها وتسخرها لنشر المذهب الكاثوليكي[٢].

إذن؛ تعرف المارونيون على فن الطباعة عند اتصالهم بالبابوية، وقبلوا المنشورات العربية والسريانية من روما، بل إنهم أكثر من ذلك طلبوا من البابا طبع مخطوطاتهم الدينية، وقد استجاب البابا لهذا الطلب وطبع لهم كتاب المزامير سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م، وفق مخطوط قنوبين[٣] الذي أرسله إليهم البطريرك الماروني[٤]. كما طلب يوحنا مخلوف (١٠١٨-١٠٤٣هـ/١٦٠٩-١٦٣٣م) من البابا عن طريق المطران الرزي، طبع كتب دينية[٥]. وكذلك

---

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(١) رفضت البابوية استخدام فن الطباعة لمدة عشرين سنة بعد اكتشاف غوتنبرغ.

(٢) يقع دير قنوبين شرقي طرابلس (لبنان) وهو مقر بطريرك الطائفة المارونية.

(٣) "طبع النص العربي لأنه لا يتعارض البتة مع أن النص الرسمي هو النص العبراني أو الإغريقي "رسالة من سافاري بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٦١٢م.

(٤) Nasrallah, L'imprimerie…op.cit., p.10 وقد طبع بالفعل إحدى الكتب التي طلبها وهو:

الحال بالنسبة للبطريرك: يوسف حليب الذي رجا من البابا إينوصان العاشر إصدار "الشحيمة" وهو كتاب صلاة السواعي عند المارونيين، وإعادة طبع كتاب النحو بالسريانية الذي ألفه جرجيس عميرة[١]. كما أرسل البطريرك أسطفان الدويهي (١٠٤٠-١١١٦هـ/١٦٣٠-١٧٠٤م) إلى «مجمع نشر الإيمان» بروما في سنة ١١٠٧هـ/١٦٩٥م مخطوطًا دينيًا بعد مراجعته بغرض طبعه[٢]. هذه الأمثلة تبرز عزم المارونيين وعلى رأسهم البطاركة على طبع كتبهم الدينية. وكانوا يعتقدون بأن الكتاب المطبوع سيعمل على جمع شتات المارونيين حول بطريرك الطائفة، ويترجم كذلك عن رغبتهم في تدعيم الروابط مع روما.

لقد بدأت المطبعة في تحويل أنظار المارونيين من الشرق إلى الغرب وتشجيعهم على التخلص من ضغط الطوائف المسيحية الأخرى وكذلك المسلمين. إلا أن المارونيين شعروا بأن أية محاولة لتدعيم الطائفة داخليًا لا بد أن تصحبها عملية سياسية. فكان أن اتحدوا مع الأمير فخر الدين المعني الثاني في القرن ١١هـ/١٧م، قائد حركة استقلال جبل لبنان عن الباب العالي، فانضموا بأعداد غفيرة إلى صفوف جيش هذا الأمير الدرزي[٣]. في حين أصبح التلاميذ المارونيون القدامى بروما، سفراءه لدى الأمراء الأوروبيين[٤].

Officium simplex semptem dierum hebdomadae, Rome, 1624, Voir : Gemayel, N…
« Les imprimeries libanaises de Rome » in : **Le Livre et le Liban…op.cit., p.192.**

(٥) Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit**. cit., p.10.

(٦) **Ibid.**, p.12.

(١) ضو، بطرس، **تاريخ الموارنة الديني والحضاري**، بيروت، ١٩٧٠م، ج ٣، ص ٢١٦.

(٢) كان العالم الماروني إبراهيم الحاقلاني مبعوثًا له لدى الدوق الأكبر بفلورنسا، وكان فخر الدين قد كلفه بانتداب فنيين ومدنيين وعسكريين والقيام بعمليات تجارية وغير ذلك من المهام. انظر: Raphael , **Le rôle …op.cit.,** p.87.

وهكذا يتضح أن الملامح الجنينية لاستقلال الطائفة المارونية بجبل لبنان قد بدأت تتضح منذ تلك الفترة. ورغم فشل محاولة فخر الدين الثاني، فقد واصل المارونيون تدعيم علاقاتهم مع روما وباريس وطلب منشورات مطابعهما، على الرغم من اختلافهم معها حول محتوى الكتب الدينية.

- معارضة محتوى المنشورات:

لم تحظ كل المطبوعات العربية التي حملها التلاميذ المارونيون والمبشرون إلى جبل لبنان بالقبول، والسبب هو أن المراقبين بمطابع روما المكلفين بمراجعة المخطوطات الدينية الشرقية قبل طبعها، سعوا إلى تغيير محتواها بغرض "رومنتها" غير مراعين في ذلك خصوصيات الطقوس المارونية.. ومن هنا نشبت "أزمة ثقة" لدى الطرفين. فكنيسة روما ترى بعض "المبالغة" في طقوس مسيحيي المشرق، والطائفة المارونية ترى أن نصوصها الدينية، قد "حرّفت" أثناء الطبع ورفضت بذلك استخدام بعض الكتب المطبوعة بالعربية والسريانية.

ولقد برزت هذه الخلافات منذ أن قام الأب إليانو بمهمّته الأولى بجبل لبنان سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م، حيث تحدث عن "الأخطاء" التي تضمنتها المخطوطات المارونية ذاكرًا في تقريره الموجه للبابا غريغوريوس الثالث عشر :"على أنه بتمادي الزمان وبسبب اختلاطهم مع الأمم والطوائف المخالفة لدينهم، قد تسربت إلى كتبهم بعض الأضاليل ودخل في طقوسهم ورتبهم بعض الشوائب التي سببها قلة المعلمين الذين يعنون بإرشادهم وليس نقصًا في استعدادهم لقبول تعاليم الكنيسة الرومانية. وقد دوّنا هذه النصوص المضادة للحقائق الكاثوليكية في كتاب منفرد ليطلع عليه قداسة الحبر الأعظم، بيد أن هذه الأضاليل وغيرها أيضا التي وجدناها في كتبهم، لا تدل على معتقدهم الصحيح،

وإنما كان كتبتهم ينقلونها دون أن يعيروها بالاً. وإذا سألتهم عن إيمانهم أجابوا أن إيمانهم إيمان رومية"(١).

وقد حرص الأب اليسوعي أثناء وجوده بجبل لبنان على تفحص المخطوطات الدينية وإبراز "الأخطاء" الموجودة بها، وتوضيحها للبطريرك ميخائيل الرزي. ونصحه بضرورة "'إصلاحها" أو إتلافها. وبالفعل فقد اشترى عددًا من المخطوطات تولى فيما بعد حرقها، ووعد الرهبان بإرسال كتب مطبوعة من روما(٢). بعد عملية "تطهير" وإتلاف المخطوطات، حرص الأب إليانو على تعويضها، فقدم للمارونيين في مهمته الثانية سنتي ٩٨٧-٩٨٩هـ/١٥٨٠-١٥٨٢م، نسخًا من كتابه **"اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية كنيسة رومية"** الذي طبعه بروما(٣)، وعند عودته حمل معه جملة من المخطوطات الشرقية لطبعها بعد مراجعتها(٤).

إن المنشورات العربية بروما قد وجهت للمشرق المسيحي لا بغرض سد الفراغ الحاصل في نقص الكتب، ولكن لتعويض النصوص الدينية المارونية الأصلية بنصوص دينية جديدة حتى تتم "رومنة" طقوس هذه الطائفة المسيحية. ولهذا لم يتوقف البابا عن إرسال الكتب المطبوعة إلى جبل البنان مع مراقبة ما يحدث عندهم من تطورات والتعرف إلى درجة تطبيقهم لتعليماته بخصوص المسائل الدينية، وفي هذا الإطار أرسل البابا مبعوثًا إلى الطائفة

(١) ذكر لويس شيخو هذا التقرير في مقاله عن الطائفة الصادر في مجلة المشرق، ع١٧، ١٩١٧ع، ص ٧٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥٤، يذكر شيخو أنه عثر على مخطوط سرياني بالمكتبة الوطنية بباريس يعود إلى سنة ١٤٦٧م وقد ذكر إليانو بخط يده بأن هذا الكتاب يتضمن بعض الانحرافات وأنه من الواجب حرقه . **المشرق،** عدد ١٨، ١٩٢٠م، ص ٦٧٨-٦٧٩.

(٣) طبع بالعربية في سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م من طرف مطبعة اليسوعيين بروما.

(٤) مثل مخطوط العهد القديم الذي يعود إلى القرن ١٢م والإنجيل، وتعليم المسيحية ليوحنا دمشق وغيرها. انظر شيخو، لويس، الطائفة ... في **المشرق،** ١٩١٤م، ص ٦٧٩.

المارونية في سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م، وهو الأب دانديني لمواصلة مهمة سلفه الأب إليانو، يقول دانديني: "لقد ذكر المارونيون بالسوء منذ مدة واتهموا بارتكابهم عدة أخطاء وبمروقهم عن الدين. وقد حاول المارونيون الموجودون بروما تكذيب هذه الأقاويل"(١).

إلا أن هذه "الشائعات" تأكدت لدى المبعوث البابوي عند معاينته لما يحدث بجبل لبنان، حيث يقول:"ما زالت عندهم ممارسات مبالغ فيها... وكان بإمكان المجمع الكنيسي بترانت، أن يقدم حلاً ناجعًا لو أنهم قبلوه"(٢)، لذلك واصل الأب دانديني العمل نفسه الذي بدأه إليانو، فكان يتفحص المخطوطات العربية والسريانية، ولكنه كان أكثر اعتدالاً في تعامله مع المخطوطات "المريبة"، فكان يحفظها في أرشيف البطريركية بدل إلقائها في النار. وكان دانديني قد حمل معه مائتي نسخة من كتاب القداس المطبوع باللغة الكلدانية(٣). وقد تضمن فقرات بالعربية لكن مطبوعة بالحرف الكرشوني. وقد كانت لهذا الكتاب قصة منذ أن تقرر طبعه، حيث تأخر كثيرًا عن الصدور بسبب ما تضمنه من إشكاليات دينية، فبعد أن انطلقت مطبعة الميدتشي في طبعه وفق المخطوط الماروني برزت مشاكل تتعلق بمدى مطابقته للنص اللاتيني. فكان أن تدخل دي بارون Du Perron حامي المارونيين للحسم لفائدة النص الأصلي ذاكرًا نبذة عن حياة القديس مارون في مقدمة الكتاب وموضحًا أن النص لا تشوبه أية شائبة(٤). إلا أنه عند توزيعه لدى الطائفة المارونية حامت الشكوك حول مدى مطابقته لمذهبهم(٥)، فكان أن رفض البطريرك اعتماده لمدة قبل أن يقنعه دانديني بقبوله. وقد بقيت قضية مراجعة النصوص الدينية المارونية نقطة سوداء في علاقات

---

(١) Dandini, **Voyage…op.cit**., p.4

(٢) المصدر السابق، ص ١٢١.

(٣) Missale chaldaicum Rome ; typographie Medicis, 1594 in 4.

(٤) Duverdier, « **Les impressions…** » **op.cit**., pp.167-168

(١) لم يكن أساقفة روما راضين من جهتهم على هذا الكتاب، إذ لاحظوا أن مراقب الطبعة قد غفل عن كثير من الأخطاء، المصدر السابق، ص١٩٤.

الطائفة بكنيسة روما، فالمارونيون يريدون الارتباط بالبابوية مع التمسك بخصوصيات مذهبهم.. وكانوا يرون في الكتاب المطبوع، وسيلة ناجعة لتكريس هويتهم إزاء الطوائف المسيحية، وبصفة عامة للحفاظ على شخصيتهم واستقلالهم عن المسلمين.

وقد تواصلت سياسة "المقاومة الثقافية" للكتاب الروماني طيلة القرن ١١هـ/١٧م، فكان أن رفض المارونيون " الكتاب المقدس" المطبوع سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧١م الذي هو عبارة عن ترجمة للنص اللاتيني الرسمي. وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب الصلاة الذي نشر سنة ٩٩٢هـ/ ١٥٨٤م بالحرف الكرشوني، والذي رفضه حتى التلاميذ المارونيون القدامى الموجودون بروما(١).

٢.٣.٢ - موقف الأرثوذكس الملكيين:

هذا بالنسبة للمارونيين أما الأرثوذكس الملكيون(٢)، فموقفهم من مبدأ الطباعة مشابه لموقف الطائفة المارونية، منذ أن تمت الاتصالات الأولى بينهم وبين روما في نهاية القرن ١٠هـ/١٦م، حيث أرسل البابا غريغوريوس الثالث عشر إليهم مبعوثا سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م وهو ليونارد آبل (Leonard Abel) قسيس صيدا، لدفعهم لإعلان اتحادهم مع روما وتبني إصلاحات غريغوريوس

---

(٢) لاحظ ريتشار سيمون حول هذا الموضوع في سنة ١٠٨٦هـ/١٦٦٢م في خصوص كتاب الصلوات: "طبع هذا الكتاب بمدينة روما في عهد مكار بطريرك أنطاكية من جودة وإحسان سيدنا البابا إسكندر السابع ذو الفضائل الكلية ثبت الله وجود إحسانه ونعمه للأنام".

(٣) **الأرثوذكسية الملكية :** مذهب مسيحي يعني باليونانية "الرأي القويم" أو "الإيمان المستقيم". أما كلمة "الملكيين" فهي من أصل سامي تعني الملك وتنسب إلى الإمبراطور ماركيانوس الذي دعم عام ٤٥١ م البابا ليون الأول في مجمع خلقيدونيا. يطلق لقب "الملكيون" على المسيحيين التابعين لثلاث بطريركيات: الإسكندرية وأنطاكية والقدس. عاش الملكيون المسيحيون في ظل الاسلام عيشة أمن وسلام، وساهم كثير منهم في بناء الدولة الاسلامية، منهم "سرجون بن منصور" وزير المالية في عهد معاوية. حصل عام ١٠٥٤ انشقاق بين أتباع الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق وبين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الغرب، وانفصلت البطريركيات الثلاث عن روما. إلا أن المساعي بذلت لإعادة الوحدة بين الكنيستين في العهد العثماني، وهذا ما يفسر قيام البابا في روما بارسال بعثات الى بلاد الشام ومصر لتحقيق هذا الغرض.

الثالث عشر[١]، إلا أن البطريرك يواكيم بن ضو، لم يستجب لطلبه ذاكرًا بأنه لا يمكنه اتخاذ أي قرار دون الحصول على موافقة بطريركي إستانبول والإسكندرية[٢]. ثم أخذت هذه النداءات تتكرر وبدأت تجد شيئًا فشيئًا آذانًا صاغية، حتى أصبح لأنصار هذه الدعوة حزب كاثوليكي في سوريا في مطلع القرن ١٢هـ/١٨م، وقد ساهم الكتاب المطبوع في تدعيم هذا المذهب.

- الثناء على المطبعة:

عبر أصحاب المذهب الكاثوليكي من الملكيين عن ارتياحهم في البداية عند تسلمهم للكتب المطبوعة بروما، حيث أعجبوا بفن الكتابة الجديد الذي ينسخ الكتب بسرعة وبإعداد وافرة. فقد كتب البطريرك مكار زعيم سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م بخصوص كتاب الصلوات: "طبع هذا الكتاب بمدينة روما في عهد مكار بطريرك أنطاكية من جودة وإحسان سيدنا البابا إسكندر السابع ذي الفضائل الكلية ثبت الله وجود إحسانه ونعمه للأنام"[٣]. رحب الملكيون بفن الطباعة ووقفوا على مزاياه ورأوا أنه أنجع أداة لتدعيم مبادئ مذهبهم ونشرها بين أبناء الطائفة.

- معارضة محتوى المنشورات:

سار الملكيون على منهاج جيرانهم المارونيين فأرسلوا بمخطوطاتهم إلى روما بغرض طبعها، بعد أن تمت مراجعتها حسب الأصل اليوناني. ولم تكن

---

(١) Karalvesky , « Antioche » **D.H.G.E.** TIII, col. 639.

(٢) المصدر الساق.

(٣) إن كتاب الصلوات الذي يتحدث عنه البطريرك لم يطبع بروما فعلاً إلا في القرن ١٩م؛ لأن مجمع نشر الإيمان تباطأ في نشره لأن النص اليوناني لا يتطابق تمامًا مع النص اللاتيني، ويرى الأب نصر الله أن البطريرك إنما كتب هذه المذكرة في مقدمة المخطوط، يقينًا منه بأن المجمع سيسرع في طبع الكتاب Nasrallah, J, **Notes et documents pour servir à l'histoire du patriarcat melchite d'Antioche** ; Jerusalem 1965 T1, pp.132-133.

لديهم لا الإمكانيات المادية ولا الكفاءات البشرية لإقامة مطبعة عندهم، فكان أن توجهوا إلى روما لهذا الغرض. ولكن مطبعة «مجمع نشر الإيمان»، لم تكن لتستجيب لمطالبهم بهذه السهولة، بل كانت لها شروط تتفق مع سياسة كنيسة روما. ومن أبرز هذه الشروط هو أن يعلن بطريرك أنطاكية عن اعتناقه للمذهب الكاثوليكي، وكذلك أن تتولى البابوية مراجعة النصوص الدينية الملكية قبل طبعها. وتعدّ المطبعة بالنسبة لروما وسيلة لتحقيق "الاتحاد" مع الكنائس الشرقية، ولذلك لم تكن تسمح البتة بأن تدعم هذه الكنائس استقلالها. وانطلاقًا من هذا المبدأ، شرع «مجمع نشر الإيمان» المقدس في اتصالاته منذ نشأته في سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م، مع رئيس الأساقفة عبد الكريم كرمي الذي عين فيما بعد بطريركًا لأنطاكية (١٠٤٣-١٠٤٤هـ/١٦٣٤-١٦٣٥م)، ثم مع خلفائه.

عبد الكريم كرمي وخلافاته مع «مجمع نشر الإيمان»:

قام عبد الكريم كرمي[١] بالاتصالات مع روما للحصول على كتب مطبوعة، وهذا ما دفع ببعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأنه يميل إلى "الاتحاد" أو حتى أنه اعتنق المذهب الكاثوليكي[٢]. وقد أدى دورًا بغاية من الأهمية في الحياة الأدبية للكنيسة الملكية بأنطاكية، إذ قام بمراجعة الكتب الدينية اليونانية وأكمل ترجمة هذه النصوص إلى العربية بعد أن كانت متفرقة[٣]، وكان ينوي

(١) ولد عبد الكريم كرمي في حماة سنة ١٥٧٢م، ودخل حياة الرهبنة منذ صغره، ثم عين رئيسًا لأساقفة حلب سنة ١٦١٢م، تحت اسم ميلوس ثم انتخب بطريركًا على أنطاكية سنة ١٦٣٤م تحت اسم أنتيموس

Nasrallah, J, **Histoire du mouvement littéraire dans l'Eglise Melchite** Paris, chez l'auteur, 1979, vol IV. P.70, Charon, Karalevsky, « Antioche » in: D.H.G.E T III, col 640-642.

(٢) يعتقد نصر الله وشارون أن عبد الكريم كرمي كان قد استعد لإعلان اعتناقه رسميًا المذهب الكاثوليكي لولا أن باغتته المنيّة سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٥م، يرى نصر الله أن عدم حصول هذا الاجراء لا يغير في الأمر شيئًا، وأن كرمي كان فعلاً كاثوليكيًا (المصدران السابقان).

(١) Charon , Karalevsky, **Histoire des patriarcats melkites** ; Rome-Paris 1909-1911, T3 pp 54-57.

طبعها بروما ثم توزيعها بين رهبان الطائفة وأبنائها لتعويض المخطوطات "المشوهة والمليئة بالأخطاء"[1]. فكتب إلى الكاردينال بورجيا في ١٠٤١هـ/١٦٣١م: "قمنا بترجمة كتاب الصلوات من اليونانية إلى العربية... وكذلك كتاب السواعي وكذلك كتابين أو ثلاثة آخرين مما تحتاج إليهم كثيرًا كنيستنا، ونريد منكم أن تتولوا طبعها"[2]. إلا أن «مجمع نشر الإيمان» لم يسارع بالاستجابة لهذا الطلب، إذ انصرف إلى ترجمة هذه الكتب إلى اللاتينية وتفحص محتواها ثم اشترط على عبد الكريم كرمي في سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م، الإعلان عن اعتناقه للكاثوليكية[3] لقد تمسكت روما بسياستها المتمثلة في تسخير المطبعة لتحقيق مشروع "الاتحاد مع الكنائس الشرقية المستقلة"، فحرصت على التأكد أولاً من ملاءمة النصوص الدينية الملكية لمذهبها، لذلك كلف «مجمع نشر الإيمان» المارونيين إسحاق الشدراوي وإبراهيم الحاقلاني بترجمة كتاب الصلوات من العربية إلى اللاتينية، ثم أوكل المهمة إلى ماثيو نيروني لإتمام العمل سنة ١٠٨٥هـ/١٦٧٤م[4] .

لقد تعطلت عملية نشر الكتب الملكية كثيرًا وطال انتظار كرمي وخلفائه من بعده، لأن كل طرف أصر على موقفه في هذه المسألة، فبطاركة أنطاكية رفضوا تحوير نصوصهم الدينية، ورفضوا أيضًا الارتباط بكنيسة روما، في حين رفضت مطبعة نشر الإيمان سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م إصدار كتبهم، مثل كتاب الصلوات حسب الرواية اليونانية، رغم نداءات خليفة كرمي البطريرك مكار زعيم (١٠٤٤-١٠٨٢هـ/١٦٣٥-١٦٧٢م).

(٢) المصدر السابق، ص ٤٩

(٣) Nasrallah, Notes…op.cit., T1 p.131.

(٤) المصدر السابق، ص ١٣١.

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٢.

وعلى الرغم من فشل كل محاولات الطائفة الملكية لطبع كتبها الدينية بروما فقد كانت مقتنعة بفوائد المطبعة. ولم تدخر جهدًا في البحث عن سبيل لتحقيق هذا الهدف حتى كانت بداية القرن ١٢هـ/١٨م، لما وجدت في أحد أمراء بوخارست وهو قسطنطين برانكوفان بسارابا، الاستعداد والتحمس لتمويل مطبعة عربية في حلب كما سنرى فيما بعد.

٣- إسهام المسيحيين العرب في طبع الكتب العربية بروما وباريس:

لم يكتف المسيحيون بالتعبير عن إعجابهم بفن الطباعة وتشجيعهم للأوربيين على طبع الكتب العربية، بل أسهموا فعليًا في عملية النشر إلى حد أن هذا التعاون أصبح لا غنى عنه. وقد كان لإسهام المارونيين في مجال الطباعة، أشكالٌ مختلفة، من ترجمة الكتب، إلى حفر الأحرف العربية، إلى مراقبة عملية النشر، وصولاً إلى تسيير ورشات الطباعة. وأغلب هؤلاء المارونيين هم من التلاميذ القدامى بمعهد روما الذين لم يعودوا إلى جبل لبنان، وقد طلبت منهم السلطات الدينية والسياسية بروما وباريس البقاء في هاتين المدينتين، بعدما وقفت على كفاءة بعضهم وتبحرهم في العلوم. فكلفتهم بتدريس العربية والسريانية بالجامعات، وبترجمة الكتب الشرقية إلى اللاتينية وبالخصوص نشر الكتب العربية.

أما الملكيون فقد أسهموا بتواضع في هذا المجهود، وذلك بالمقارنة مع المارونيين. ومرد ذلك إلى خلافاتهم المذهبية مع كنيسة روما. أما الحزب الكاثوليكي عندهم فلم يكن قد اشتد عوده بعد، ولم يتعلم أبناء الطائفة بمعهد روما إلا بداية من عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م، ولم يعملوا في المطابع الأوروبية إلا في القرن ١٢هـ/١٨م.

٣.١- المطبعيون المارونيون بروما:

٣.١.١- يعقوب بن هلال: ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م:

اشتغل يعقوب بن هلال الذي يدعى أيضًا يعقوب قمر(١) في مطبعة الميدتشي، وتخصص في طبع الكتب العربية والسريانية قبل أن يساهم في إنشاء مطبعة بروما سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م اسمها: Tipographia Linguarum Extenarum

ولد يعقوب بن هلال سنة ٩٧٦هـ/١٥٦٨م، وكان من أوائل التلاميذ المارونيين الذين تخرجوا من معهد روما، وعمل إلى جانب مدير مطبعة الميدتشي رايموندي فيما بين ٩٩٨-١٠٠٣هـ/١٥٩٠-١٥٩٤م، حيث أسهم في إصدار سبعة كتب من جملة تسعة. إن المعلومات تعوزنا حول ورشة الطباعة هذه من حيث ظروف تأسيسها وطريقة تسييرها. إلا أن الأكيد هو أن يعقوب بن هلال قد أصدر خمسة كتب دينية بالسريانية. وقد اشتغل أحد أقاربه كذلك في الطباعة وهو يوسف بن هلال، الذي نشر سنة ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م، على سبيل المثال كتاب فيليب كوادانولوس: Arabicae Linguae Institutiones

٣.١.٢- مطبعة المعهد الماروني، ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م:

أنشئت مطبعة شرقية كما رأينا سابقًا في مبنى المعهد الماروني بروما سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م، وقد تم تجهيزها بآلات الطباعة والقوالب وطوابع الحروف العربية والكلدانية والسريانية بأمر من البابا(٢). وكانت مساهمة التلاميذ المارونيين في تأسيسها وتسييرها كبيرة، فعملوا إلى جانب مدير المطبعة إيتان بولينوس على طبع جملة من الكتب الدراسية الدينية المفيدة للطائفة المارونية، وهي خمسة كتب ثنائية اللغة (عربية -لاتينية) وثلاثة كتب سريانية وكلدانية(٣).

(١) Gemayel, Nasser ; « Les imprimeries libanaises.- in **: Le Livre et le Liban**, p.190.

(٢) ibid.

(٣) عناوين هذه الكتب كالآتي هي:
=

٣.١.٣- مطبعة ميخائيل المطوشي، ١١٠٨هـ/١٦٩٦م:

درس ميخائيل المطوشي بروما الفلسفة والعلوم الدينية، ثم عاد إلى جبل لبنان حيث عين قسيسًا في كفريه(١)، ثم أرسله البطريرك الدويهي إلى روما سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٦م، برفقة قسيسين آخرين، هما : إلياس بن جرجيس الهدناني وإبراهيم الجزيري(٢). تولى ميخائيل المطوشي تأسيس مطبعة في جبل فيسكون Viscon سماها "مطبعة ميخائيل المطوشي"، وقام مع رفيقيه بحفر حروف عربية وكلدانية، وطبعوا ثلاثة كتب دينية: المزامير وشبيه Shbia ودياكونيكون.

٢.٣- العلماء المارونيون:

أسهم العلماء المارونيون في نشاط المطابع العربية بروما وباريس وعملوا على دفع الدراسات العربية بروما. من أهم هؤلاء نذكر: جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني وجرجيس عميرة وسركيس الرزي ويوحنا الحصروني.

١- جبرائيل الصهيوني (٩٨٤-١٠٥٧هـ/١٥٧٧-١٦٤٨م):

=

١-شالاق، نصر الله. مبادئ اللغة العربية Introduction and grammatica روما، إيتان بولينوس، ١٦٦٢م، ٢٦ص.

٢- Martelotto, Francesso, Institutiones lingae arabicae tribus distributae,- Rome, s, Paulinus, 1620, 483p.

٣- Shalak, N, Totum Arabicum alaphabetum ; Rome : S. Paulinus, 1624.

٤- Mtushi, Butrus, Institutiones linguae arabicae, Rome, S. Paulinus, 1624, 256p.

٥- علم المنطق، إيساغوجي، روما، بولينوس، ١٦٢٥م، ٤٤ ص.

(١) الدويهي، إسطفان، "تاريخ المدرسة المارونية في روما". في : شيخو، **الطائفة**، المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٢) كان الجزيري تلميذًا بروما حتى سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م، ثم أصبح كاهنًا في رشمية بلبنان، ثم عاد إلى روما سنة ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م، حيث استقر هناك، المصدر السابق، ص ١٢٩.

ولد في اهدن بشمال لبنان درس بالمعهد الماروني بروما قبل أن يشتغل أستاذًا في بعض الجامعات الإيطالية والفرنسية، ترجم كتاب المزامير من العربية إلى اللاتينية وفق مخطوط قنوبين، كما ترجم من اللاتينية إلى العربية كتاب بالارمان: **"التعليم المسيحي"**، وألف المعجم العربي اللاتيني الذي نشر بباريس سنة ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م، وهذه الأعمال تمت بالتعاون مع الماروني شالاق. أما كتاب **"في صناعة النحوية"** المطبوع عام ١٠٢٤هـ/١٦١٦م فقد ألفه بالتعاون مع يوحنا الحصروني. ترجم من العربية إلى اللاتينية كتاب **"العهد والشروط"** الذي نشر بباريس عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م. كما ساهم في نشر **"الكتاب المقدس"** بباريس في ١٠٥٤هـ/١٦٤٥م وذلك رغم المشاكل التي حدثت له مع صاحب هذا المشروع المحامي لوجاي(١) . وقام بحفر أحرف عربية وسريانية لفائدة مطبعة فيتراي بباريس(٢). وقد جلب هذا العمل الدائب لصاحبه الاحترام والتقدير من كثير من العلماء الأوروبيين(٣).

٢- إبراهيم الحاقلاني:

(١) وقع هذا الخلاف بين الصهيوني ولوجاي وتسبب في تأخر صدور "الكتاب المقدس" طيلة ١٧ سنة، ويتمثل الخلاف في أن لوجاي وعد الصهيوني بأن يدفع له مبلغ ٣٠.٠٠٠ ليرة مقابل مساهمته في إصدار الكتاب، إلا أن المحامي الفرنسي لم يف بتعهداته، بل إنه أكثر من ذلك توصل إلى إقناع الملك بسجن الصهيوني سنة ١٦٤٠م، لمدة سنتين، قبل أن يحكم له البرلمان ويجبر لوجاي على دفع مبلغ ٢٠.٠٠٠ ليرة له Raphael , **Le Rôle…op.cit** ; pp.78-84

(٢) المصدر السابق، ص ٧٩-٨٠. Vitré, A, **L'histoire…op.cit.**, p.13.

(٣) نشير إلى أن جبرائيل الصهيوني ألف عدة كتب باللاتينية والسريانية والعربية دون أن تعرف طريقها إلى النشر وتوجد قائمة كتبه في:

-Raphael, **Le Rôle …op.cit** ; pp.84-85

-Le livre et le Liban, pp.225-258.

ولد في قرية حقل بجبل لبنان وتوفي سنة ١٠٧٥هـ/١٦٦٤م، حصل على الدكتوراة في الفلسفة والعلوم الدينية بمعهد روما[١]. ثم درّس اللغات الشرقية بالجامعات الأوروبية. وعمل مترجمًا بمطبعة «مجمع نشر الإيمان»، وساهم في نشر **"الكتاب المقدس"** بها. تحول إلى باريس حيث اشتغل مترجمًا للملك وأستاذًا بالمعهد الملكي. ترجم كتبًا عربية إلى اللاتينية[٢] ونشر كتاب:**"مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب"** بباريس سنة ١٠٥١هـ/١٦٤١م[٣]، وألف كتاب **"خلاصة اللغة العربية"** الذي صدر بروما سنة ١٠٣٧هـ/١٦٢٨م.

٣- جرجيس عميرة:

تحول إلى روما سنة ٩٩٢هـ/١٥٨٤م، لتدريس اللغة السريانية، وفي الوقت نفسه لدراسة الفلسفة والعلوم الدينية. تولى تأليف كتاب النحو السرياني الذي نشره المطبعي يعقوب بن هلال سنة ١٠٠٤هـ/١٥٩٦م. وأسهم في مراجعة كتاب القداس الذي أصدرته مطبعة الميدتشي في ١٠٠٢هـ/١٥٩٤م[٤]. انتخب بطريركًا للطائفة المارونية في ١٠٤٢هـ/١٦٣٣م.

٤- سركيس الرزي:

ولد في بكفاية (بكفيا) سنة ٩٧٩هـ/١٥٧٢م، درس بروما. اهتم بالنشر العربي والسرياني، وأسهم في إصدار ثلاثة كتب. وقد كلفته مطبعة «مجمع

(٤) Raphael, **Le rôle…op.cit**., pp.87.

(١) Gemayel, N, « Essai de Bibliographie des premiers orientalistes libanais en France » in **Le Livre et le Liban**, pp.225-258.

(٢) هذا الكتاب مقتبس من كتاب فارسي آخر عنوانه جام كيتي نما (مرآة العالم) والذي هو عبارة عن استنتاج من كتاب فلسفي عنوانه " تحفة السلطان، "طبع كتاب مختصر حكمة فلاسفة العرب "باللغتين العربية واللاتينية في ٨٣ صفحة، وأعيد طبعه في إينا سنة ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م.

(٣) شيخو، لويس، **الطائفة**... المصدر نفسه، ص ٨٧.

نشر الإيمان» المقدس بمراجعة بعض المخطوطات العربية "للكتاب المقدس"، ومقارنتها بالنص اللاتيني الرسمي.

٥- يوحنا الحصروني:

درس بالمعهد الماروني بروما بداية من عام ١٠١١هـ/١٦٠٣م، ثم تحول إلى باريس، حيث اشتغل مترجمًا للملك. قام بترجمة كتب عربية وسريانية وتركية إلى اللاتينية من ذلك **"كتاب التعليم المسيحي"** لبلارمان الذي طبع عدة مرات، وألف بالاشتراك مع جبرائيل الصهيوني كتاب **"النحو العربي"**.

وقد قام العلماء المارونيون بمجهود كبير في مجال الطبع العربي، نتيجة اقتناعهم بفوائد المطبعة ونتيجة المناخ الديني الملائم بين كنيستي روما والطائفة المارونية الذي شجع على إقامة علاقات دينية وثقافية قوية، وهذا المعطى لم يتوافر للطائفة الأرثوذكسية الملكية، مما يفسر مساهمتها المتواضعة في عملية النشر العربي في أوروبا.

٣.٣- إسهام متواضع للأرثوذكس الملكيين:

أثر الخلاف الديني الذي حصل بين البابا وبطريرك أنطاكية سلبًا على النشاط الثقافي لدى الأرثوذكس، إلا أن هؤلاء شاركوا رغم ذلك بصفة غير مباشرة في دفع الطباعة العربية بأوروبا.

من ذلك : الرسالة التي بعثها عبد الكريم كرمي إلى الكاردينال بورجيا في ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، ويقدم فيها جملة من النصائح حول طريقة طبع "الكتاب المقدس"[١]. وفي رسالة ثانية موجهة إلى البابا والكاردينالات في ١٠٤١هـ/١٦٣١م بعنوان : "بيان طبع الكتب كيف يكون"[٢]. أبدى عبد الكريم رأيه في طريقة استخدام فن الطباعة لطبع كتابين: السواعي والصلوات،

(١) Nassrallah, Histoire…op.cit., T IV p.71.

(٢) المصدر السابق. ص ٧١.

وتحدث كذلك عن اختيار الورق والحبر وحجم الحروف وغير ذلك. وهذه الرسائل تدل على رغبة هذا البطريرك في الإسهام ولو عن بعد في النشر العربي بروما. إلا أن معرفته لهذه الفنون لا تعدو أن تكون سطحية، ويستشف ذلك من النصائح العامة الذي ذكرها، وربما يكون قد سمع الكثير عن طرق استعمال آلات الطباعة، أو أنه قد زار مطبعة اليهود بدمشق. ويقول نصر الله بأن كرمي يرى أن الطباعة عملية يسيرة إلى حد أنه طلب من روما طبع كتابيه وإرسال نسخ منها بسرعة(١).

وباستثناء هذه المشاركة المتواضعة من لدن الملكيين في عملية النشر بأوروبا، لا توجد على حد علمنا إسهامات هامة في القرن ١١هـ/١٧م؛ لأن مناخ الريبة والشك الذي ساد العلاقات بين كنيستي روما وأنطاكية، حال دون تطور التبادل الثقافي والتعاون العلمي والفني بينهما(٢).

٤ - محاولات لإنشاء مطابع عربية في بلاد الشام في القرن ١١هـ/١٧م:

اقتنع المسيحيون العرب منذ البداية بفوائد المطبعة، وهذا ما دفعهم في البداية إلى طلب المنشورات الدينية العربية من أوروبا. إلا أنهم اكتشفوا أن هذه الكتب لا تتفق في مضمونها مع النصوص المعتمدة في كنائسهم، إذ طغت عليها النصوص الكاثوليكية التي تنوي كنيسة روما نشرها في تلك الربوع. ولهذا

(٣) المصدر السابق، نفسه.

(١) تشير إحدى الوثائق الأصلية في القرن ١١هـ/١٧م إلى مساهمة الطائفة الكلدانية بالمشرق في حركة الطباعة العربية بأوروبا إلى جانب الطائفتين المارونية والأرثوذكسية الملكية، من خلال ذكر أسماء اثنين من الكلدانيين توليا تمويل وطباعة كتاب "ذكر حساب السنة وأعيادها" بروما سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م دون تقديم تفاصيل أكثر عن موقف طائفتهما من فن الكتابة الجديد وعن عدم مشاركتها في مجهود الطباعة فقد ورد في مقدمة الكتاب المذكور أعلاه ما يلي "قد طبعه من ماله ورزقه القسيس إيلياس باسم خوري البغدادي ابن قسيس حنا الموصلي من نسل البطاركة المشرفين من طائفة الكلدانيين من عيلة بيت عمون...وقد وقف على طبع هذا الكتاب المبارك أحقر عبيد الله أندرواس من مدينة حلب باسم كوالير ابن مقدسي عبد الله الكلداني الموصلي" Schnurrer, N°264

تصدوا جميعًا لمحاولات "رومنة" طوائفهم، ولم يتخلف المارونيون رغم ارتباطهم بكنيسة روما عن اتخاذ الموقف نفسه[١] بل تجاوزوه للقيام بمحاولات لتأسيس مطابع ببلادهم، إلا أن المحاولة الوحيدة الناجحة نسبيًا هي تلك التي أفضت إلى ظهور مطبعة قوزحية سنة ١٠١٨هـ/١٦١٠م. أما بقية المحاولات فلم تتجاوز مرحلة المشاريع دون أن تعرف طريقها للإنجاز.

٤.١- المطبعة المارونية بقوزحية ١٠١٨هـ/١٦١٠م:

اكتسب العلماء المارونيون تجربة كبيرة في مجال النشر بروما وباريس، بعد أن عملوا طويلاً بمطابع الفاتيكان والمديتشي ويعقوب بن هلال وغيرها. وفكر أحدهم وهو سركيس الرزي لدى عودته إلى جبل لبنان في تأسيس مطبعة لفائدة أبناء الطائفة. لكن المصادر لا تفيدنا كثيرًا في موضوع هذه المطبعة، فهي لا تشير إلى ظروف تأسيسها وأسباب توقفها المبكر عن النشاط، فالمصدر الأساسي لدراسة هذه المؤسسة هو الكتاب الوحيد الذي طبع بها سنة ١٠١٨هـ/١٦١٠م في قرية قوزحية وهو "سفر المزامير".

٤.١.١- اختيار قوزحية:

إن أول سؤال يطرح هو لماذا تم اختيار هذه القرية لإيواء أول ورشة مسيحية للطباعة في بلاد الشام؟ إن هذا المنسك القريب من طرابلس، يعتبر مكانًا مقدسًا للمسيحيين[٢]، إذ يوجد به دير القديس أنطوان الذي يقصده المسيحيون بأعداد غفيرة[٣]، ويشرف على هذا الدير أفراد من عائلة الرزي

---

(٢) أثار البطريرك يوسف الرزي (١٥٨١-١٥٩٧م) سخط عدد كبير من المارونيين، لما تبنى بعض الممارسات من كنيسة روما، لهذا حرص البابا بولس الخامس على تهدئة الخواطر، فطلب من البطريرك الجديد في ١٠ مارس ١٦١٠م الرجوع إلى الممارسات القديمة. انظر:

Dib. « Les Maronites » in Dictionnaire de Théologie Catholique (D.T.C) T,X, col 64.

(١) Aggoula, Basile, « Le livre libanais de 1585 à 1900 » in : **Le Livre et le Liban** p.297.

(٢) Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit.,** p.1.

منذ القرن ٩هـ/١٥م وهذا ما يفسر اختيار أحد أبناء هذه الأسرة لهذا المكان لتنفيذ مشروعه، أضف إلى ذلك الهدوء والأمن الذي تتميز به هذه القرية الجبلية البعيدة عن أنظار الأتراك العثمانيين.

٤.١.٢ - مؤسسو المطبعة:

ورد ذكر أسماء مؤسسي المطبعة وعمالها في ذيل سفر المزامير الذي طبع بها، وأولهم سركيس الرزي قسيس دمشق، الذي قام بتمويل المشروع وتنفيذه، وقد وضع أختامه في الصفحة الأولى من الكتاب ليبين أنه أبرز عنصر في المشروع. أما عن مصدر آلات الطباعة فيرجّح بعض المؤرخين أن يكون سركيس الرزي قد جاء بها من روما، أثناء أسفاره إليها مع ثلاثة من المارونيين، وردت أسماؤهم في ذيل سفر المزامير باعتبارهم من معاونيه في عملية الطبع وهم: الشماس يوسف بن عميمة، والكاهن إلياس بن الحاج حنا، ويوسف بن يونان[١]. وهناك رواية أخرى تقول إن الأب إليانو قد يكون أهداهم تجهيزات المطبعة اليسوعية بروما بعد توقفها عن العمل[٢] إلا أن بعض الأدلة، تجعلنا نستبعد هذا الرأي. من ذلك أنه من الصعب أن يستغني اليسوعيون عن تجهيزات مطبعتهم وخاصة حروفها الشرقية لفائدة المارونيين، في الوقت الذي تعاني منه روما من نقص فادح في حروف الطباعة الشرقية. ولذلك نرجح أن يكون قد تسلمها صاحب مطبعة الفاتيكان دومينيك بازا، أضف إلى ذلك، أن شكل الحروف السريانية التي نقشها اليسوعي إليانو تختلف عن الحروف السريانية لمطبعة قوزحية[٣]. ولا يمكن كذلك أن تكون حروف مطبعة اليسوعيين قد أهديت إلى المارونيين في جبل لبنان، لأنه لو تم ذلك لما تحمل

---

(١) الرجي، ميخائيل، سفر المزامير بالسريانية في: **المشرق**، ١٩٣٤م، ص ٣٥٠، انظر أيضًا: Nasrallah, **L'imprimerie… op,cit.**, p.6.

(٢) حسب راي الأب نصرالله وميخائيل الرجي.

(٣) شيخو، لويس، الطائفة في :**المشرق**، ع٣، ١٩٠٠م، ص ٢٥٤. قام سركيس الرزي بإعداد حروف سريانية جميلة خاصة للنص الكرشوني.

سركيس الرزي مصاريف باهظة لتأسيس مطبعة، فقد استقدم أحد المختصين الإيطاليين الماهرين لحفر الحروف السريانية وهو باسكال إلى (Pasquale Eli) من مدينة كميرينو، وقد عاضده سركيس الرزي ومعاونوه المارونيون المذكورون في عملية التنضيد والطبع.

٤.١.٣- سفر المزامير بالسريانية:

يتضمن مئتين وتسعين صفحة، وكل صفحة موزعة على عمودين، واحد مكتوب بالحرف السرياني والآخر بالحرف الكرشوني. أي الأول لنص المزامير باللغة السريانية والثاني للغة العربية، إلا أنه كتب بالحرف الكرشوني. ولكن لماذا وقع الاختيار على هذا الحرف عوضًا عن الحرف العربي؟ يبدو أن السبب ثقافي بالدرجة الأولى[١]. فاللغة السريانية هي لغة الدين عند المارونيين إلا أنهم يتخاطبون في حياتهم اليومية باللغة العربية العامية. ولكن الرهبان كانوا يرفضون كتابتها بالحرف العربي مفضلين استخدام الحرف السرياني والكرشوني لتدوينها حفاظًا على قداسة السريانية التي لا تزال تقاوم في تلك الفترة اللغة العربية كلغة الثقافة. ويمكن إضافة سبب آخر لذلك؛ وهو أن المسيحيين العرب قد اختاروا هذه الهجائية لإخفاء كتبهم الدينية المطبوعة عن أنظار جيرانهم المسلمين.

٤.١.٤- توقف مطبعة قوزحية:

صدر سفر المزامير عن مطبعة قوزحية سنة ١٠١٨هـ/١٦١٠م، في فترة توقفت فيها المطابع العربية بروما عن العمل وشعر المارونيون فيها بالحاجة إلى الكتاب المطبوع. إلا أن هذه المطبعة سرعان ما توقفت وأهملت تجهيزاتها. ولا تتحدث المصادر عن أسباب هذا التوقف المبكر، إلا أن المؤرخين يقدمون بعض الاحتمالات لتفسير ذلك. فنصر الله يرى أن السبب

---

(١) Aggoula, B, « Le livre libanais »…op.cit., p.297.

يكمن في رحيل مؤسسها سركيس الرزي إلى روما، وتشتت فريق العمل الذي كان يشتغل معه(١). أما جميل فيعتقد أن الوضعية المالية الصعبة هي السبب في توقف المطبعة، فالمشروع كان باهض الثمن، وصاحبه أغرق في الديون، إننا نتساءل: إذا كان السبب كذلك، كيف يمكن ترك الورشة بهذه السهولة بعد كل المجهودات التي بذلت؟ لذا يبدو أن كنيسة روما كان لها دور في القضية؛ فما هو موقفها من هذه المطبعة؟ وعمومًا ما هو رأيها في أية مبادرة مماثلة؟ يمكن فهم هذا الموقف من أقوال الأب دانديني، مبعوث البابا إلى جبل لبنان، إذ ذكر في كتابه أنه من حسن الحظ أن المسيحيين في المشرق، لا يملكون مطبعة؛ لسببين: الأول يتمثل في غياب علماء متخصصين في الميدان . والثاني وهو الأهم يتعلق بالخوف من نشر كتب دينية "محرّفة"(٢). هذا الرأي يعكس الحذر الذي كان يشوب العلاقات بين كنيسة روما والطوائف المسيحية الشرقية وخاصة المارونية التي ارتبطت روحيا بالبابوية، والخوف من أن تطبع هذه الأخيرة في جبل لبنان كتبًا غير كاثوليكية. فعدم تحمس البابوية لمثل هذه المشاريع وربما وقوفها ضدها يمكن أن يفسر توقف مطبعة قوزحية.

٢.٤ - مشاريع أخرى لإنشاء مطابع:

بعد توقف مطبعة سركيس الرزي(٣)، عاد المارونيون من جديد إلى جلب الكتب المطبوعة في أوروبا. في الأثناء ظهر مشروعان لتأسيس مطبعتين في جبل لبنان: الأول بمبادرة من أحد المبشرين الكبوشيين الفرنسيين العاملين بسوريا وهو الأب جوزيف دي ترومبلاي (Joseph De Tremblay) والثاني لأحد العلماء المارونيين وهو ميخائيل المطوشي.

---

(٢) Nasrallah. L'imprimerie…op.cit., p.8.

(١) Dandini , Voyage…op.cit., pp.95-96.

(٢) عرفت قوزحية مطبعة جديدة أخرى في أوائل القرن ١٩م أسسها سيرافيم حوقا البيروتي. انظر: شيخو، قزحيا، في: **المشرق**، ١٩٠٠م، ص ٢٥١-٢٥٧.

٤.٢.١- مشروع الأب جوزيف ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م:

في سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٥م أرسل «مجمع نشر الإيمان» الأب جوزيف دي ترومبلاي على رأس بعثة من المبشرين الكبوشيين الفرنسيين للعمل ببلاد الشام. وقد عاين هذا الأخير الحالة الدينية والثقافية المتدهورة التي يوجد عليها المسيحيون العرب، وكذلك الجهل السائد بين أبناء الطائفة من نقص المدارس وندرة الكتب الدينية. وقد شعر "بالخطر" الذي يهددهم نتيجة نشاط البروتستانت المتنامي، والذين سعوا إلى توزيع كتب بروتستانية مطبوعة بهولندا.

وأمام هذا الوضع، فكر الأب جوزيف في تأسيس مطبعة للغات الشرقية بجبل لبنان[١] لتوفير الكتاب الكاثوليكي والتصدي لتسرب الآراء الكلفينية، وما اختيار جبل لبنان إلا دلالة واضحة على رغبة الكبوشيين في نقل المطبعة إلى قلب الامبراطورية العثمانية[٢]. وهؤلاء يرون أن عهد ارسال الكتب المطبوعة من أوروبا قد ولى، بعد أن انتقل البروتستانت إلى العمل على أرض الميدان. وأن عاصمة الخلافة العثمانية لا يمكن أن تكون المكان المثالي لمثل مشروعهم، لأنه سيخضع لمراقبة مباشرة من السلطات العثمانية، في حين يتميز جبل لبنان جغرافيًا بعزلته وبخضوعه لسيطرة الأمير فخر الدين، صديق المارونيين والأوروبيين، والذي سيتسامح لا محالة مع مشروعهم. ويعتقد الكبوشيون كذلك أن جبل لبنان يمكن أن يكون نقطة انطلاق ممتازة للإشعاع والتأثير على المشرق وحتى بلاد فارس بواسطة الكتاب. ولا يستبعد أن يكون الأب جوزيف قد طلب المعونة الفنية من العلماء المارونيين لتسيير مطبعته.

لم يجد المشروع التشجيع الكافي من طرف ريشيليو و «مجمع نشر الإيمان» فلم يحصل الأب جوزيف على الحروف العربية والسريانية من

---

(٣) Fagniez, G, « Le P.Joseph et Richelieu ; Paris, 1894 Vol 1, pp335-336.

(١) Duverdier, « Les imprimeries »…op.cit, « p.269.

سافاري دي براف ولا الحروف اليونانية من جامعة باريس(١). ثم صدر القرار الحاسم الذي تبخرت معه كل آمال الكبوشيين وهو قرار «مجمع نشر الإيمان» المقدس بتاريخ٤ فيفري ١٦٢٨م والقاضي بمنع الأب جوزيف من إنشاء مطبعة شرقية بجبل لبنان(٢). وهذا الرفض يفسر رغبة كنيسة روما في الحفاظ على "امتياز" النشر باللغات الشرقية. إذ إنها أسست مطبعة شرقية في «مجمع نشر الإيمان» قبل سنتين من إصدار هذا القرار.

٤.٢.٢- مشروع ميخائيل المطوشي ١١١٢هـ/١٧٠٠م:

اسس هذا العالم الماروني كما سبق أن رأينا مطبعة بروما تحمل اسمه، وقد تولى نقل تجهيزات هذه المطبعة إلى مالطة في مرحلة أولى قبل تحويلها إلى جبل لبنان(٣). وكان ينوي طبع كتب دينية في بلده وتسخير خبرته في مجال النشر لخدمة الكنيسة المارونية. ولم يكن الوحيد من أبناء الطائفة، كما رأينا الذي اكتسب خبرة في هذا الميدان. وكان يوجد إلى جانبه عند عودته إلى الجبل سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م إبراهيم الجزيري الذي عمل معه في مطبعته بروما.

وقوبل مشروع ميخائيل المطوشي بالترحيب من طرف البطريرك أسطفان الدويهي(٤)، وهو من التلاميذ القدامى بالمعهد الماروني بروما، وممن أسهموا في عملية مراجعة المخطوطات قبل نشرها بروما. فكان أن حرص على مساعدة المطوشي في تنفيذ مشروعه. فأرسل جبرائيل حوا مطران قبرص

(٢) Vaumas, G, L'éveil missionnaire de la France, Lyon ; imp.express, 1942, p.142.

(٣) Ibid., p.142.

(١) Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit.,** p.12.

(٢) DHGE, T10. article Marouite, col.70-71.

الماروني(١) لاستقدام آلات الطباعة والحروف والقوالب من جزيرة مالطة. إلا أنه فشل في مهمته وبقيت المطبعة بالجزيرة، حيث استغلها اثنان من الآباء اليسوعيين: إلياس البادري ويوسف الشدياق(٢). وهذا الأخير أصر على الاحتفاظ بها، رغم تكرار النداءات من البطريرك يعقوب عواد سنة ١١٢١هـ/١٧٠٨م ذاكرًا بأن المطبعة هي من ملكه الخاص. وفشل بذلك هذا المشروع، ولا تعرف لحد علمنا الأسباب الحقيقية لرفض الأب اليسوعي إرسال تجهيزات المطبعة إلى جبل لبنان؛ نظرًا لغياب الوثائق. ولا يستبعد أن تكون روما قد أوعزت إلى اليسوعيين بإبقاء آلات الطباعة بمالطة، متمسكة بذلك بموقفها الذي أبدته تجاه مطبعة قوزحية ومشروع الأب جوزيف.

خاتمة الفصل الأول:

إذْ أسهم الكتاب العربي المطبوع بأوروبا في التعريف ببعض المؤلفات العلمية والأدبية للمسلمين في الأوساط الجامعية الغربية، فإنه أسهم أكثر في تغذية الصراع والجدال الديني على ثلاثة مستويات، الصراع بين الإسلام والمسيحية، والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت، والصراع بين الكاثوليك والمذاهب المسيحية الأخرى بالمشرق. وقد استأثر هذا المستوى الأخير بأكبر قسط من محتوى الكتب؛ إذ سخرت له كنيسة روما إمكانات ضخمة في نطاق خطتها المتمثلة في تحقيق "الاتحاد" مع الكنائس الشرقية المستقلة والتصدي "للتحريف" الموجود في مذاهبهم، حسب رأيها.

إن الكتاب العربي المطبوع بأوروبا، قد صبغ الاستشراق العربي في القرنين ١٠و١١هـ/١٦و١٧م صبغة دينية، إذ طغت المواضيع الدينية على محتواه

(٣) Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit.,** pp.12-13.

(٤) Ibid., p.13.

عامة: فصدرت الكثير من كتب التعليم المسيحي، وأسفار من "الكتاب المقدس" وكتب الجدال الديني والدفاع عن المسيحية.

وقد رحب المسيحيون العرب بفن الطباعة لما وقفوا على منافعه من خلال ما وصلهم من كتب مطبوعة بأوروبا، ورأوا أنه إلى جانب فوائدها الثقافية تعدّ وسيلة ناجعة للحفاظ على هويتهم في خضم العالم الإسلامي الشاسع وتدعيم الروابط بين أبناء طوائفهم، إذ ستسهم في توحيد استعمال النصوص وجمع شتات الطائفة حول كنيستهم. إلا أن ثناءهم على آلة الطباعة لم يمنعهم من رفض محتوى الكتب المطبوعة التي أرسلت بها روما وباريس؛ لأنها غير مطابقة لمخطوطاتهم الدينية، بل تضمنت أكثر من ذلك، نصوصًا للتعريف بالمذهب الكاثوليكي، وكانت كنيسة روما تسعى إلى "رومنة" المذاهب المسيحية بالمشرق لتقريبها إلى طقوسها ونصوصها الكاثوليكية، حتى تحقق "الاتحاد" مع هذه الكنائس.

لم يكتف المارونيون بالترحيب بفن الكتابة الجديد، بل أسهموا في عملية النشر العربي بإيطاليا وفرنسا، وذلك بترجمة ومراجعة النصوص والعمل بالمطابع. وتحملوا كذلك مسؤولية تشغيل بعض ورشات الطباعة بروما، بعد أن اكتسبوا خبرة كبيرة في هذا المجال، وهذا ما دفعهم إلى محاولة تأسيس مطابع بجبل لبنان. إلا أنهم لم ينجحوا إلاّ في إقامة مطبعة واحدة بقوزحية سنة ١٠١٨ هـ/١٦١٠م، وهذه الورشة لم توفق إلاّ في طبع كتاب واحد قبل أن تتوقف عن العمل. أما المشاريع الأخرى المماثلة للمارونيين والمبشرين فقد فشلت.

أما الطائفة الأرثوذكسية الملكية، فكانت إسهاماتها في مجهود النشر العربي بأوروبا قليلة، بسبب خلافاتها العقائدية مع كنيسة روما، ولم توفق في إقامة أول مطبعة لها بسوريا إلا في فترة متأخرة، أي في القرن ١٢هـ/١٨م، حيث كانت الظروف ملائمة للاستفادة من هذا الاكتشاف الثقافي.

الفصل الثاني

المسلمون والمطبعة: الحوار حول هذا الاختراع

١ - الحوار حول مسألة المطبعة:

١.١ - غياب المطبعة العربية في البلاد الإسلامية حتى بداية القرن ١٢هـ/١٨م:

إذْ استحسن المسيحيون العرب طبع كتبهم الدينية منذ القرن ١١هـ/ ١٧م، فإن المسلمين رفضوا استخدام فن الطباعة حتى بداية القرن ١٢هـ/١٨م. ولم تظهر إذن مطابع عربية عندهم قبل سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م[١]. تؤكد كثير من المصادر هذه الظاهرة من ذلك كتب الرحالة والمبشرين الأوروبيين، الذين زاروا الشرق قبل تلك الفترة مثل الأب الكبوشي لوفيبر الذي استقر ببلاد الشام في النصف الثاني من القرن ١٧م. والذي ذكر أنه "لا توجد البتة مطابع للكتب فهي تنسخ جميعها بخط اليد"[٢]. أما الإيطالي مارسيغلي الذي زار إستانبول في نهاية القرن ١١هـ/١٧م، فقد لاحظ أن الأتراك لا يطبعون البتة كتبهم[٣] وكذلك الأمر بالنسبة للرحالة شاردين الذي أكد في سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م أن فن الطباعة لا يوجد عند الفرس ولا عند بقية الشعوب الشرقية[٤]. ويبدو أن هذا

---

(١) لا تؤخذ مطبعة قوزحية هنا بعين الاعتبار لأنها ليست مطبعة عربية، ولأنها ليست من عمل المسلمين.

(٢) Le Febvre, Michel Sieu, **L'Etat présent de la Turquie**, Paris, Courterot, 1675, p.199.

(٣) Marsigli, Le Come De**, L'Etat militaire ottoman, ses progrès et sa décadence**, La Haye, 1732, p.313.

(٤) Chardin, Jean, **Voyage de Monsieur le Chevallier Chardin en Perse et autres lieux d'Orient**, Amsterdam, De Lorme, 1711, vol 2, p.108.

هناك شهادات أوروبية أخرى حول غياب المطبعة العربية لدى المسلمين مثل تلك التي أوردها المستشرق الفرنسي جالان: وكذلك شهادة أمين مكتبة السربون شوفيليي.

الأخير لم يكن على علم إلى حد ذلك التاريخ، بوجود مطابع عند الأقليات غير الإسلامية. ومن المصادر الإسلامية التي تؤكد غياب المطبعة العربية عند المسلمين وثيقة تعود إلى مطلع القرن ١٢هـ/١٨م، وهي "الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" التي حررها إبراهيم متفرقة أوّل مدير لمطبعة إستانبول الذي لاحظ في مقدمتها النقص الفادح للكتب بسبب غياب المطبعة عند المسلمين، مما جعل هذه الأمة تعاني من ظلمات الجهل[١]. ولئن أجمعت هذه الشهادات على ذكر الظاهرة نفسها، فإن ذلك لم يمنع من ظهور بعض المحاولات لدى المسلمين لإدخال مطابع إلى بلادهم مثل بلاد فارس وربما المغرب.

١.١.١- بلاد فارس:

كان المسلمون[٢] في أصفهان ينوون طبع كتبهم بالحرف العربي منذ القرن ١١هـ/١٧م. جاء ذلك في رواية الرحالة الفرنسي جان شاردين[٣] الذي ذكر أن

Galland, Préface de la **Bibliothèque orientale** d'Herbelot, Paris, 1697 F 14; Chevillier, A, **l'origine de l'imprimerie de Paris**, Paris, Laulne, 1694, p.270, De Belleforest, Francois, **Cosmographie universelle**, Paris, Sonnius, 1575, T11, p.593.

(١) أورد سهيل صابان تحليلاً ضافيًا لرسالة وسيلة الطباعة لمتفرقة، وقدمت مجلة المكتبات الفرنسية ترجمة فرنسية لهذه الرسالة. انظر: صابان، سهيل، **ابراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته**، مراجعة عباس صالح طاشكندي، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥م، ص ٤٨-٥٦.

« Mémoire sur l'utilité de l'établissement de l'imprimerie à Constantinople par Ibrahim Mutafarrika, In : « Documents sur l'imprimerie à Constantinople » publiés par H.Omont, in **Revue des Bibliothèques,** 1895 p.200.

يشار إلى هذا المصدر لاحقًا بعنوان الرسالة الأصلي: رسالة وسيلة الطباعة.

(٢) حاول المبشرون الكرمان Carmes إدخال المطبعة إلى بلاد فارس في مناسبتين، في عام ١٠٣٩هـ/١٦٢٩م، وعام ١٠٧٩هـ/١٦٦٩م، لكن دون جدوى. انظر:

Flour, W.M, « The first printing press in Iran in : **Zeits chrift der Deutschen Margenlandischen Gesellscharft,** Band 130, Heft 2, 1980, pp 369-371.

(٣) Voyage en Perse, op.cit.,p.110.

العلماء المسلمين بادروا بتقديم اقتراح لإدخال المطبعة إلى أصفهان إلى الشاه عباس الثاني ١٠٥٢-١٠٧٧هـ/١٦٤٢-١٦٦٦م، الذي استحسن الفكرة، وبدأ في تنفيذها. إلا أن المشروع سرعان ما توقف بعد وفاته وانتقال السلطة إلى ابنه صافي سليمان، الذي أهمل المشروع ولم يعره أي اهتمام، أضف إلى ذلك عدم استعداد المثقفين الأغنياء لدفع الأموال اللازمة لإقامة المطبعة، حسبما ورد عن شاردين.

أما الأقلية الأرمينية في إيران فقد سبق لها أن أنشأت مطبعة في منطقة جلفا بمدينة أصفهان سنة ١٠٤٧هـ/١٦٣٨م، إلا أن المسيحيين الأرمينيين لم يوفقوا إلا في طباعة كتاب واحد هو "زبور داود" ، ثم توقفت المطبعة طيلة قرن ونصف[١]. وقد سعى الشاه عباس الثاني إلى الاستعانة بهم لتأسيس ورشة طباعة إسلامية بالحرف العربي، وكلف الأرميني جاك جان (Jacques Jean) من نور جولا (Nor Jula)، بشراء القوالب والطوابع للأحرف العربية من أوروبا، إلا أن هذه القوالب لم تستعمل البتة، بل إنها ضاعت نتيجة الإهمال[٢]. وقد فشل المشروع بسبب عدم تحمس خليفة الشاه عباس الثاني كما سبق ذكره، حسب رأي الرحالة شاردين. إلا أننا نتساءل: لماذا تقاعس المثقفون عن تمويل المشروع؟ فهل كانوا جميعًا موافقين على استخدام فن الطباعة؟ أم أن الشق المحافظ منهم، قد تصدى للمبادرة؟ ومها يكن من أمر فإن المطبعة الإسلامية لم تر النور في بلاد فارس إلا سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م في تبريز ثم في سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م في أصفهان[٣].

---

(١) مهدي محقق، تاريخ الطباعة العربية في بلاد إيران، في: **تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر**، ندوة مركز جمعة الماجد، أكتوبر ١٩٩٥م، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٦م، ص ٢٣٣.

(٢) Toderini ,A.G, **De la littérature des Turcs**, Paris, Poinçot, 1789, TIII p.12.

(٣) مهدي محقق، "**تاريخ الطباعة العربية في بلاد إيران**"... مصدر سابق، ص٢٣٤.

١.١.٢- المغرب: هل وجدت حقًا مطبعة عربية بالمغرب الأقصى في القرن ١٧م؟ هناك شهادة واحدة للسفير الفرنسي لدى ملك المغرب تدفعنا لدراسة هذا المشروع. فالسيد دي سان أولون تعرض في تقريره عن مهمته إلى الحالة الثقافية بالمغرب ذاكرًا " إن الكتب نادرة وغريبة، خاصة أنه لم تعد بالبلاد تقريبًا أية مطبعة"(١).

إن الدبلوماسي الفرنسي يلمح إلى وجود مطابع بالمغرب قبل نهاية القرن ١٧م. إلا أنه لا يقدم أي توضيح حول مؤسسيها والكتب المطبوعة واللغات المستخدمة أو حول توقف نشاط ورشات الطباعة هذه. وهذا خلافٌ لما دأب عليه في تقريره من حرصه على ألا يهمل أية شاردة ولا واردة عن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالمغرب. فكيف به يلوذ بالصمت عندما تعلق الأمر بمؤسسة كبيرة وعجيبة في ذلك العهد ألا وهي المطبعة، إن وجدت حقًا في الدولة السعدية؟

إلا أنه لا يستبعد أن يتعلق الأمر بمطابع أسبانية أو برتغالية موجودة على السواحل المغربية حسب رأي أحد المعاصرين للسفير(٢). لأن هذا الاحتمال وارد إذا علمنا أن سان أولون لم يوضح "جنسية" المطبعة، ولا اللغات المستخدمة بها . كان الأسبان والبرتغاليون يحتلون السواحل المغربية في العصور الحديثة، ومن الممكن أن يقيموا مطابع بالحرف اللاتيني لإصدار كتب وأوراق رسمية لفائدة جالياتهم هناك. وقد يقصد السفير في إشارته الأندلسيين المهاجرين الذين استقروا بشمال أفريقيا. وهؤلاء شهدوا ظهور المطبعة، وربما عملوا بها بأسبانيا قبل هجرتهم . إلا أنه من الصعب على ضوء معلوماتنا

(١) Saint-Olon, Pidou De, **Etat présent de l'Empire du Maroc,** Paris, 1694, p.79.

(٢) Chevillier, A, **L'Origine de l'imprimerie…op.cit**., p.270.

الحالية التأكيد إن كان الأندلسيون قد أقاموا مطبعة بالمغرب، وهم المعروفون بحذقهم لكثير من الفنون والأساليب الصناعية(١).

كما أن "الكتب النادرة والغريبة" التي تحدث عنها السفير قد يعني بها الكتب العربية التي طبعت بأوربا ووصلت إلى المغرب، وهذا أمر وارد إذا علمنا على سبيل المثال أن المستشرق الهولندي يعقوب غوليوس، قد أهدى لملك السعديين مطبوعات عربية عند زيارته للمغرب سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م(٢). إن الموقع الجغرافي للمغرب القريب من أوربا والعلاقات التي تربطه ببعض البلدان الغربية، تجعل إمكانية توزيع منشورات أوروبا محتملة جدًا.

إلا أنه من الصعب في غياب مصادر عن الموضوع التأكد من أن فن الطباعة بالحرف العربي قد وجد بالمغرب قبل القرن ١٩م(٣)، وكذلك الحال بالنسبة لجل الشعوب الإسلامية عدا الأتراك الذين كانوا أول من بادر من المسلمين لتأسيس مطبعة عام ١١٣٩هـ/١٧٢٦م(٤).

١.٢ - غياب المطبعة العربية داخل الإمبراطورية العثمانية قبل القرن ١٢هـ/١٨م:

---

(٣) سنعود إلى هذه النقطة عند الحديث عن فن الطباعة بالقوالب الخشبية عند المسلمين.

(١) Balagna, J, « Le fonds … » op.cit, p.76.

(٢) أنشئت أول مطبعة حجرية بالمغرب عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م بمبادرة من القاضي الطيب الروداني في مدينة مكناس ثم في فاس (في عهد السلطان محمد الرابع) وقد سبقتها مطبعة إفرنجية أنشأها الأسبان في تطوان عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م . انظر:

المنوني، محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٥م، الجزء الأول، ص٢٦١.

Ayache, G, « Lapparition de l'imprimerie au Maroc » in : **Hesperis Tamuda,** vol. V, 1964, p.143.

(٣) المطابع العربية التي ظهرت في البلاد الإسلامية فيما بعد كانت مطبعة كلكتا في الهند التي أسسها الإنجليزي ويكانز سنة ١٧٨١ ومطبعة بومباي سنة ١٨٠١م. انظر:

Partington, D.H, « Arabic Printing » In : **Encyclopedia of Library and Information science,** Newyork, Dekker, 1978, T XXIV, pp.71-72.

تؤكد مصادر إسلامية أنه لا وجود لمطابع عربية لدى المسلمين قبل عام ١١٣٩هـ/١٧٢٦م من ذلك شهادة أحد العلماء المسلمين إسحاق زادة أفندي قاضي إستانبول، الذي يتحدث عن أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية، وأكد أن فن الطباعة جديد عند أمّته، ويتوجه بالشكر للسلطان: "نعمت الصنعة المطبوعة غير مرئية في ديارنا ومسموعة، فوائدها مجزومة مقطوعة، فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، شكر الله سعي صانعها، ووفق فيما بعد بأمثالها كان الزمان بخل بها وأحباها في حجلة الإخفاء وكشف عن وجهها حجاب الاستغناء بميامن سلطاننا السلطان الأعظم أحمد خان "(١). كما أن أحد المصادر الفرنسية بتاريخ ١١٢٣هـ/١٧٢١م، يذكر أن المسلمين "ينتفعون من الكتب التي يكتبونها بخط اليد، لأنه لا توجد أية مطبعة لا بالقسطنطينية ولا ببقية البلاد التركية"(٢). إذن لا يوجد أي أثر لمطابع عربية لدى مسلمي البلاد العثمانية، حسب المصادر والوثائق المتوفرة حاليًا، قبل سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، التي صدر فيها قرار السلطان أحمد الثالث بالترخيص في إقامة مطبعة باللغات التركية والعربية والفارسية. إلا أن هذا الوضع لم يمنع الأقليات الدينية بالإمبراطورية من الاستفادة من فن الكتابة الجديد.

مطابع الأقليات بإستانبول:

لم تكن إستانبول غريبة عن هذا الفن، فقد شهدت جملة من المطابع أقامتها الأقليات غير الإسلامية بها قبل القرن ١٢هـ/١٨م، وكانت المبادرة للجالية اليهودية التي أسست مطبعة عبرانية منذ نهاية القرن ١٥م. وقد استفادت من جو التسامح الديني السائد داخل الإمبراطورية للقيام بعدة أنشطة دينية وثقافية وسياسية برعاية الباب العالي، حتى عرف القرنان ٩ و١٠هـ/١٥و١٦م

(١) "التقاريض على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" في : جوهري. أبونصر إسماعيل بن حماد الفارابي. **الصحاح**، ترجمة محمد بن مصطفى الواني، القسطنطينية، ١٧٢٨، جزء ١ ، ورقة ٦.

(٢) **Nouvelle description de Constantinople**, Paris, 1721, p.45.

بالعصر الذهبي لهذه الجالية. وكان السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) قد سمح لليهود المطرودين من أسبانيا بالاستقرار ببلاده، ووفر لهم كل الإمكانات الضرورية للعمل الثقافي والعلمي لفائدة جاليتهم(١). من ذلك أنه رخص لهم إقامة مطبعة سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م(٢). على ألا يصدروا كتبًا بالحروف العربية والاقتصار على الحروف العبرانية واللاتينية(٣). كما أسس اليهود على إثر هذا القرار مطبعتين بكل من استانبول وسالونيك في نهاية القرن ٩هـ/١٥م. أي قبل قرنين كاملين من ظهور أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية، يذكر سليم نزهت نقلاً عن آورام غالانتي وهو يهودي تركي أن اليهود أتوا بمطبعتهم حين جاءوا الى تركيا عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م، وطبعوا تسعة عشر كتابًا في إستانبول وسالونيك في عهد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) وثلاثة وثلاثين كتابًا في عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) ومن بين عناوين الكتب نجد التوراة مع تفسير بالعبرية التي صدرت عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤م وكتاب في قواعد اللغة العبرية في ٩٠١هـ/١٤٩٥م(٤).

---

(٣) **The Jewish Encyclopedia**. New-York, Funk and Wangalls Compagny, 1903 ; vol IV, pp.238-244, article Constantinople.

(٤) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تأسيس أول مطبعة عبرانية في القسطنطينية فمثلاً قدم قايس سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٨م في:

Geiss, A, **Bulletin de l' Institut Egyptien**, 1907, p.134.

وذكر الأب لويس شيخو سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م في الشرق ١٩٠٠ ص ١٧٥. أما برتينغتون فقد ذكر سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م في:

Encycl.of.library, TXXIV, p.59.

(١) أكد ذلك الرحالة نيكولا دي نيكولا الذي زار تركيا في ٩٥٧هـ/١٥٥١م وتحدث عن اليهود الذين طردوا من أسبانيا والبرتغال فقال : "إنهم أسسوا لأول مرة في تلك الربوع مطبعة وطبعوا كتبا بحروف جميلة في لغات عدة منها اليونانية واللاتينية والإسبانية وحتى العبرانية التي هي لغتهم العادية، ولكن لم يسمح لهم بالطباعة باللغة التركية والعربية.

Les navigations, pérégrinations et voyages, faits en la Turquie, Antwerp, 1576, p.246 Cité in Lewis, Bernard, **The Emergency of Modern Turkey,** Oxford University Press, 1961, p.42.

(٢) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة في تركيا ١٧٢٩-١٩٢٩م**، ترجمة وتعليق سهيل صابان، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٣م، ص ١٩-٢٢.

أما الأرمن فقد نسجوا على منوال اليهود، حيث أقاموا أول مطبعة لهم بالحروف الأرمينية في سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٧م بمدينة سيواس (Sivas) بإشراف أبكار (Apkar) الذي تعلم فن الطباعة في مطابع البندقية. أنشئت هذه المطبعة الأرمينية في حي "قوم قابي" ضمن عقارات كنيسة "سورب نيغوعوص" وأصدرت كتبا دينية مسيحية[١].

أما اليونانيون فكانوا على موعد مع هذا الفن بإستانبول في سنة ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م بمبادرة نيكودموس ماتكساس (Nicodemus Metaxas) الذي أصدر أول كتاب له عام ١٦٢٧م بعنوان "رسالة ضد اليهود[٢]". Traité contre les juifs

وقد أقيمت المطابع العبرانية داخل الامبراطوية العثمانية في الفترة نفسها التي أدخل فيها الفن المطبعي إلى فرنسا وإنجلترا وبقية البلدان الأوروبية[٣]. وهذا يدل على أن الباب العالي كان على دراية مبكرة بهذا الاكتشاف، ولكنه لم يسمح باستعماله إلا للأقليات غير المسلمة وبشرط عدم استخدام الحرف

نشير أيضًا إلى ظهور مطبعة عبرانية في دمشق سنة ١٠١٨هـ/١٦١٠م.

(٣) المصدر السابق، ص٢١. انظر أيضًا:

Safadi, Y,H, **Arabic printing and book production in : Arabic islamic bibliographie**, London, Harvester, 1977, p.225.

(١) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة في تركيا**... المصدر نفسه، ص ٢٣.
حصلت مشاكل لهذا المطبعي بسبب نشره كتبًا بروتستانتية. انظر فقرة "تدخل الباب العالي لإيقاف عملية توزيع الكتب البروتستانتية".

(٢) طبع غوتنبرغ كتابه الأول وهو الكتاب المقدس باللاتينية سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٥م ورغم الاحتياطيات التي اتخذها ليبقى اكتشافه سرا في مدينة مينز، فإن الطباعة انتشرت بسرعة بعد تعرض هذه المدينة إلى الغزو فظهر فن الطباعة في روما سنة ١٤٦٥م، والبندقية سنة ١٤٦٩م، وباريس سنة ١٤٧٠م، وليون سنة ١٤٧٣م، وبرشلونة سنة ١٤٧١م، وإشبيلية سنة ١٤٨٠م، كما انتشر هذا الفن في أوروبا الوسطى مثل بوهيميا سنة ١٤٧٦م وبولونيا سنة ١٤٧٣م والمجر سنة ١٤٧٣م.

Labarre, Albert, **Histoire du livre**, Paris, PUF, 1970, pp.57-58.

العربي. والغريب في الأمر أن هذا الموقف هو امتداد لموقف مشابه اتخذه المسلمون منذ أن علموا بظهور فن الطباعة بالأحرف المتنقلة "البدائي" عند الصينيين.

١.٣- أساليب الطباعة المعروفة لدى المسلمين قبل اختراع غوتنبرغ:

اطلع المسلمون على اكتشاف الصينيين لفن الطباعة بالحروف المنفصلة في القرن ٥هـ/١١م(١). وسهلت لهم علاقاتهم التجارية مع الشرق الأقصى مهمة التعرف بالتفصيل على هذا الفن الجديد. ويتحدث الوزير رشيد الدين(٢) في كتاب جامع التواريخ سنة ٧١١هـ/١٣١٠م، عن المطبعة الصينية ولم يخف إعجابه بجمال حروف الكاتاي(أو الخطا)(٣) Khatai التي حفرت من طرف ناقشين ماهرين وانبهر كذلك بدقة النص الذي قام بمراجعته أكبر العلماء، وذكر أن اللوحات المكتوبة تحفظ في علب مغلقة وتخزن في المكتبات تحت حراسة مشددة ويقع استخراجها عند كل طلب لطبع نسخ جديدة من الكتاب وذلك بمقابل مالي(٤).

وبالرغم من إعجاب الوزير رشيد الدين بفن الطباعة الصيني فإنه لم يسمح باستعماله في بلاده رغم النفوذ الذي يتمتع به في الدولة المغولية، ولم يفكر في طبع كتابه، بل ذهب أكثر من ذلك إذ "إنه أوصى قبل وفاته بكتابة نسختين كاملتين من كل مؤلفاته بخط اليد، واحدة بالعربية وأخرى بالفارسية وأوقف

---

(٣) Dahl, Svend. **Histoire du livre…op.cit**, p.102.

(٤) فضل الله ابن عماد بن علي رشيد الدين (١٢٤٧-١٣١٨م) ولد في همذان ، طبيب ومؤرخ ورجل سياسة، عين وزيرًا في عهد المغول. كتب جامع التواريخ أو تاريخ غازاني الذي تضمن تاريخ المغول والفرس والصينيين.

(١) تحدث رشيد الدين عن المطبعة – ذكر الكتب التي اطلع عليها لكتابة تاريخ ملوك الكاتاي.

(٢) وردت ترجمة رسالة المطبعة لرشيد الدين من الفارسية إلى الفرنسية في كتاب:

Klaproth, J.V, **Lettre à M. le Baron A.De Humbtoldt sur l'invention de la boussole**, Paris Dondey- Dupre, 1834, pp : 131-132.

الأموال الكافية حتى تتوفر نسخة منها في جامع كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامي"(١).

هذه الشهادات تؤكد أن المسلمين كانوا مطلعين على فن الطباعة الصيني. إلا أنهم لم يهتموا به ولم يستفيدوا منه لتنشيط الحياة العلمية والثقافية عندهم، ولا يوجد أي أثر على حد علمنا لكتب مطبوعة بالأحرف المنفصلة، باستثناء كتب الأتراك الويغور، ولم تتحمس بقية الشعوب الإسلامية لإدخال أسلوب الطباعة الصينية إلى بلادها رغم علمها بها، فهي لم تعمل - على غرار المغول - باستخدامه ولم تشجع العلماء والمثقفين على ذلك أيضًا، وهذا الموقف تكرر تقريبًا عند ظهور الطباعة بأوروبا إذ لم تظهر أية مبادرة عثمانية طيلة أكثر من قرنين من اكتشافه، باستثناء ما قامت به الأقليات الدينية التي أنشأت المطابع، في حين واصل المسلمون توريق كتبهم عن طريق الناسخين. والغريب في الأمر أن أسلافهم كانوا قد أخذوا في عهد الدولة العباسية من الصينيين ذاتهم فنًا آخر هو الطباعة بالقوالب الخشبية Xylographie والتي اكتشفوها منذ القرن ٢م وأخذها عنهم المسلمون في القرن ٢هـ/٩م(٢)، واستفادوا منها في طباعة القماش والأوراق وتفننوا فيها، وربما طوّروها، إلى حد جعل المؤرخين يتساءلون هل توصل المسلمون إلى فن الطباعة بالأحرف المنفصلة قبل الأوروبيين؟

فن الطباعة بالقوالب الخشبية عند المسلمين :

استخدم المسلمون القوالب الخشبية في المشرق والمغرب الإسلاميين منذ القرن ٣هـ/٩م لطباعة بعض الكتب والأوراق والأدعية وغير ذلك، وقد تم اكتشاف خمسين وثيقة من الوثائق العربية المطبوعة على الرق والكاغد

(٣) Carter, **The invention of printing in China**. New-York, Ronald press, 1955, pp.152-153; Voir aussi Demeersemann, André,"Les données de la controverse autour du problème de l'imprimerie" in **IBLA,** n°65, 1954.p.1.

(١) Bonola Bey, F, « Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe » in, **Bulletin de l'Institut Egyptien**, 5 serie, décembre 1909, p.76 ; Voir aussi Carter, The invention…op.cit., p.168.

والقماش في واحة الفيوم بمصر، وتعود الى ما بين ٢٨٧هـ و٧٥١هـ، وهي محفوظة في أكبر مكتبات القاهرة وهايدلبارغ وبرلين والمكتبة الوطنية بفيينا[١].

كما طبع المسلمون "نقود القراطيس" في عهد الملك نور الدين زنكي وكانت تسمى "القراطيس السود"، واستخدمت هذه القراطيس في بلاد الكاتاي (أو الخطا) عوضًا عن الدراهم، الا أنها لم تنتشر في بقية العالم الإسلامي. ويبدو - حسب ريسلر - أن فن الطباعة بالقوالب الخشبية قد أخذه الأوروبيون عن طريق المسلمين عبر مدينة جنوة التجارية[٢].

لكن هل تجاوز العرب أسلوب القوالب الخشبية إلى فن الطباعة بالأحرف المنفصلة؟ نطرح هذا التساؤل بناءً على إشارتين وردتا في مصدرين أندلسيين متأخرين يعودان إلى القرن ٨هـ/١٤م يشيران إلى هذه القضية وهما لابن الخطيب وابن الأبّار اللذين أشارا بصفة غامضة إلى أساليب الطباعة التي تستعمل في دواوين الملوك والأمراء المسلمين.

يقول ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" عند ترجمة أبي بكر القلوسي أنه " رفع للوزير الحكيم كتاب في خواص الأمدّة وآلة طبع الكتاب، غريب في معناه"[٣].

---

(٢) ستيبوتشفتش ، **تاريخ الكتاب ...** المصدر نفسه.

السامرائي، قاسم،" الطباعة العربية في أوروبا" ، في: **ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر، دبي : مركز جمعة الماجد ٢٢-٢٣ أكتوبر١٩٩٥م**، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي،١٩٩٦م، ص ٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(١) ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**.

Hammer- Purgstall, J, « Sur un passage curieux de l'Ihatet sur l'art d'imprimer chez les arabes en Espagne » in **Journal Asiatique**, 1852, n°2, 4 série, TXX, pp.252-255.

أما ابن الأبّار فذكر في كتابه "الحلة السيراء" أن "بدرًا مولى الأمير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ثم يبعثها للمطبع، فتطبع، وتخرج إليه، فتبعث إلى العمال"(١).

اختلفت آراء الباحثين حول هاتين الروايتين، ففيليب حتي يرى أنه توجد بالفعل مطبعة بدائية إلا أن أسلوبها بقي مجهولاً(٢)، ويعتقد أبو الفتوح رضوان أن هذين المصدرين لا يكفيان للتأريخ لفن الطباعة، وإنما يصحان للتأريخ لفن الحفر على الطين والخشب(٣).

إن محتوى الوثيقتين غامض فعلاً، ولا يمكننا على ضوئهما الجزم بوجود مطابع بالأحرف المنفصلة عند الأندلسيين، ولا يمكن أن يغفل هذان المؤلفان عن الحديث بإطناب عن الفن الجديد الذي، إن وجد فعلاً، يعتبر أعجوبة في ذلك الزمن، وأن يستخدمه المسلمون في طبع أهم مؤلفاتهم أو ينقلوه إلى أوروبا المسيحية عبر الأندلس. وهذا أمر لم يحدث، فلا أثر - حسب علمنا - لكتب عربية مطبوعة بالأحرف المنفصلة بالأندلس، ولا أثر في المصادر الأوروبية عن استعارة الغربيين لمبدأ الأحرف المنفصلة من العرب. لذا يمكن أن نقتصر على القول في ضوء المعلومات المتوفرة حاليًا، أن الأمر يتعلق بأسلوب متطور للطباعة بالقوالب الخشبية، وهذا ليس بالغريب على الأندلسيين الذين عرفوا بمهارتهم في جل الصناعات ومن بينها النقش على الخشب والمعدن.

١.٤ - موقف غريب:

---

(٢) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، طبعة دوزي، ص ١٣٧.

(٣) Hitti,Philippe. **Précis d’histoire des Arabes**, trad. Palaniol, Paris, Payot, 1950, p47 ;
يرى ديمرسمان أن الأمر يتعلق بشكل جنيني للمطبعة انظر **IBLA** عدد ٦٥، ١٩٥٤م، ص٢١.

(٤) رضوان أبو الفتوح، **تاريخ مطبعة بولاق**، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م، ص ١-٢.

من خلال كل المعطيات التي ذكرت، يتبين أن المسلمين كانوا على علم بوجود فن الطباعة بالأحرف المتنقلة بالشرق الأقصى أولاً، ثم بأوروبا ثانيًا. ولم يستعمل الاكتشاف الصيني إلا الأتراك الويغور (Uygurs) الذين طبعوا بالحرف الصغدي (Sogdian)(١). أما بقية الشعوب الإسلامية فلم يستعملوه ولم يتحمسوا له. ويعدّ هذا الموقف غريبًا إذا علمنا أن المسلمين قد عرفوا بتفتحهم على الاكتشافات والأساليب التقنية الموجودة بالشرق الأقصى. من ذلك استعارتهم من الصينيين وعاء الكتابة وهو الورق في سنة ١٣٣هـ/٧٥١م، والذي طوروه كثيرًا(٢). كما عرف عن بلاد الإسلام أنها الوسيط الكبير بين الشرق الأقصى والغرب، إذ تولى مهمة تبادل البضائع بينهما ونقل عدة فنون

(١) طبع الأتراك الويغور كتبًا بلغتهم الأصلية في واحة طرفان بتركستان الصينية منذ القرن ٥هـ/١١م، إلا أنهم لم يستعملوا الحرف العربي في الطباعة، بل الحرف الصغدي وهو قريب من السرياني وقد ذهب بعض الباحثين من ألمانيا إلى أن "الويغور قد سبقوا الصينيين في اختراع فن الطباعة بالأحرف المنفصلة إلا أن المجال لا يسمح بالدخول في تفصيل أكثر، ونقتصر على القول بأن هذه المحاولة كانت محدودة على المستوى التقني والثقافي لأن هذا الشعب كان يستخدم حروفًا خشبية وليست معدنية، وهذا من شأنه أن يعيق عملية نسخ الكتب، يضاف إلى ذلك عدم استخدامهم للحرف العربي، مما يحول دون توزيع الكتب لدى الشعوب الإسلامية الأخرى، وبالتالي إلى عدم إشعاعهم الثقافي على البلاد المجاورة.

Carter, T.F, The invention op.cit ; pp.140-144

(١) كانت سمرقند أول مدينة إسلامية تستخدم الورق بعد أن استفادت من خبرة الصينيين الذين وقعوا في الأسر إثر معركة إطلاخ بين جيش المسلمين وجيش الفرغانيين أحلاف الصينيين، وذلك في سنة ١٣٣هـ/٧٥١م ثم انتقلت صناعة الورق إلى بغداد، وقد أمر هارون الرشيد بتعويض الرق بالورق بالإدارة لأن الجلود، كما يقول القلقشندي في صبح الأعشى، تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد وإن كشط ظهر كشطه. تعددت المصانع وظهرت عدة أنواع من الورق مثل السليماني والطلحي والنوحي والفرعوني والجعفري وغيرها ورغم الانتشار الواسع للورق في البلاد الإسلامية فإن الأوروبيين لم يستخدموه إلا في القرن ٦هـ/١٢م بعد أن نُقِلَ إليهم عن طريق الأندلس وصقلية ويقول فيليب حتي: "يعد الورق من أجلّ الخدمات التي أسداها الإسلام إلى أوروبا".

انظر الحلوجي، عبدالستار. **...المصدر نفسه.** انظر أيضًا دائرة المعارف الإسلامية.

Encyclopédie de l’Islam, nouv.ed.T.IV, p.437-438 article Kaghad.

وصناعات إلى أوروبا المسيحية[١]. فهل شكلت البلاد الإسلامية "حاجزًا أكثر منها جسرًا" لنقل آلة الطباعة إلى أوروبا؟[٢].

أما عن الغرابة في موقف المسلمين تجاه اكتشاف غوتنبرغ بأوروبا فتكمن في أن هذه الأمة قد استفادت من عدة اختراعات أوروبية، وخاصة العسكرية منها نظرًا لحاجاتها لمواصلة الجهاد، دون أن تعير اهتمامًا "للاكتشاف الثقافي"؛ فمثلاً أخذ العثمانيون عن الغرب منذ القرن ٩هـ/١٥م الأسلحة النارية والمدفعية المتطورة، كما اتبعوا الأساليب الهندسية نفسها المتبعة في بناء دور الأسلحة والمنشآت البحرية، كما كان السلطان محمد الثاني الفاتح قد استدعى مجموعات من العلماء والمهندسين الأوروبيين للاستفادة من خبرتهم في بناء دولته. كما أن العلماء الأتراك كانوا يتابعون النشاط العلمي والتقني في أوروبا من ذلك أن أمير البحر بيري رايس قد رسم على خريطة العالم التي أنجزها سنة ٩١٨هـ/١٥١٣م الأماكن التي اكتشفها كريستوفر كولومبس معتمدًا على كتب جغرافية أروبية[٣]. ويؤكد أحد الأوروبيين ظاهرة تفتح العثمانيين على العلوم الحديثة في أوربا، وهو بيسباك سفير الأمبراطور الألماني فرديناند الأول لدى السلطان سليمان القانوني، إذ لاحظ في تقريره سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م "أنه لا توجد أية أمة في العالم تضاهي الأتراك في استخدامها للاكتشافات الأجنبية المفيدة"[٤].

---

(٢) Cartier, **The invention…..op.cit**; pp.140-144.

(٣) Ibid, ; p.150.

(١) كتب هذا القائد كتاب البحرية وقدم للسلطان سليم الأول خريطة كريستوفر كولمبس التي غنمها من إحدى معاركه البحرية ضدّ الإسبان والبرتغاليين، انظر:

Adnan, A, **La Science chez les Turcs ottomans**, Paris, Maisonneuve, 1939, p.59-64.

(٢) Busbec, O.G.De, **Ambassades et voyages en Turquie et Amasie**, trad.s.A., Gaudon, Paris, David, 1946, p343.

كيف يمكن تفسير موقف المسلمين من آلة الطباعة وهم المعروفون بتبحرهم في العلوم والآداب ومساهمتهم الحضارية الضخمة في تقدم الإنسان؟ يبقى تصرفهم غير واضح، إذا علمنا سرعة انتشار فن الطباعة بأوروبا والفوائد التي حصلت لهم منه، كذلك استعارة هذا الفن من طرف الأقليات الدينية داخل الأمبراطورية العثمانية.

تبيّن الوثائق والمصادر أن الأمر لا يتعلق بلامبالاة المسلمين، بل هناك رفض واع لهذا الفن الجديد لدى شق من المتعلمين. وبالمقابل تحمس لاستخدامه لدى شق آخر منهم، وأن كل فريق يقدم حججًا وبراهين لتدعيم رأيه، وهذا يدل على أن هؤلاء قد أعاروا المسألة ما تستحق من اهتمام وأبدوا مواقفهم منها، وهذا سيكون محور الاهتمام الرئيسي في هذا الفصل؛ ولكن قبل ذلك سنقدم المصادر التي تتعلق بالموضوع.

١.٥- المصادر والدراسات:

تمثلت في مصادر أوروبية وهي كتب الرحالة، ومصادر إسلامية لبعض علماء القرن ١٢هـ/١٨م. وقد تعرضت كتب الرحالة الأوروبيين إلى هذه المسألة ولاحظت غياب المطبعة لدى المسلمين وقدمت حججًا مختلفة لتفسير هذه الظاهرة، إلا أن هؤلاء الرحالة وجدوا صعوبة في فهم موقف المسلمين:" فالمستشرق بلفوراست يثير في كتابه هذه القضية سنة ٩٨٣هـ/١٥٧٥م ويقول: " لا يوجد فن الطباعة البتة في تركيا، ويقول العلماء الأتراك إنه لا يجوز طبع الكتب، ومن يفعل ذلك يرتكب إثمًا كبيرًا وإذا سألتهم عن سبب ذلك أجابوك بأن هذا الفن ممنوع وأنه يكفي أن تنسخ بخط اليد"(١). إن رفض المحافظين ليس مدعمًا دائمًا بالقرائن، وكانوا أحيانا يقدمون جوابًا غامضًا، وهذا لم يساعد الرحالة الأوروبيين على فهم الظاهرة؛ أضف إلى ذلك الحاجز اللغوي الذي

---

(١) Belleforest F, De , **Cosmographie…op.cit.**, TII, p.593.

يمنعهم من إثارة حوار ثري مع العلماء المسلمين للتعرف إلى مواقفهم، ولهذا فإن جل الرحالة اكتفوا "بالدوران حول هذه الظاهرة من الخارج"، وهذا مما أنجر عنه "إسقاط" مفاهيم غربية في وسط شرقي دون معرفة الإطار التاريخي الذي يعيش فيه المجتمع، فكان أن قدموا أحكامًا مسبقة عن المسلمين مثل التعصب والتحجر والعداء للمعرفة[1].

وفي الوقت نفسه حاول بعض الرحالة التخلص من هذه الأحكام المسبقة، وسعوا إلى تقديم أسباب موضوعية حول امتناع المسلمين عن استعمال المطبعة ونقلوا بعض الآراء المتداولة بين المثقفين المسلمين بتجرد أكثر وبدون إصدار أحكام قاسية عليها، من بين هؤلاء يوجد بيسباك ومارسيغلي وستوكوف وغيرهم. أما عن المصادر الإسلامية. فلعل أبرزها رسالة وسيلة الطباعة التي كتبها إبراهيم متفرقة أول مدير لمطبعة إستانبول، ليبين فيها للسلطان العثماني والعلماء منافع هذا الاكتشاف[2]، وهي مصدر أساسي في هذه الدراسة نظرًا، لثراء محتواها، فهي تصور بدقة جملة الآراء التي يحملها أنصار المطبعة في مطلع القرن ١٨، وخلفية الخلافات الموجودة حول هذه المسألة.

---

(٢) من الغريب أن تصدر هذه الأحكام عن علماء أوروبيين عاشوا في آخر القرن١٨م، أي بعد نصف قرن من إدخال المطبعة بالحرف العربي إلى استانبول وبعد معاينتهم لموقف المسلمين المتحمس لاستخدام فن الكتابة الجديد. فمثلاً يتحدث فولني عن مطبعة شوير بجبل لبنان سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م، ويقول: "لو أن الباشا الجزار علم بوجودها لحطمها وهدمها ويكون مدفوعًا في ذلك بنزعة التعصب التي يغذيها رجال الدين، دون أن يدركوا حقيقة ما يضيرهم من المطبعة حتى يرفضوها وكأن الحماقة لها غريزة طبيعية قادرة على التنبه لمخاطر المطبعة". ويقول المستشرق بيانكي أيضًا في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م : "إن الأمة التركية عبيدة الأحكام المسبقة وعدوة لدودة لكل تجديد قامت أخيرًا بتأليف وطبع أول كتاب بالتركية عن التشريح".

Bianchi, T.X, **Notice sur le premier ouvrage d'anatomie…suivi du catalogue.**, Paris, Cellot, 1821, pp.1-2.

(١) نشر إبراهيم متفرقة هذه الرسالة سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م في مقدمة أول كتاب تصدره مطبعة استانبول وهو ترجمة صحاح الجوهري لوانقولي، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى الفرنسية، ونشرت في مجلة المكتبات الفرنسية. Revue des bibliothèques, n°5, pp.193-200

كما اعتمدنا في بحثنا على دراسات بعض المؤلفين المعاصرين، ومنهم من أصدر أحكامًا قاسية على موقف المسلمين من الطباعة دون تحمل عناء تقديم القرائن التي تدعم رأيه أو المراجع التي استقى منها حكمه، فإبراهيم عبدو(١) يتحدث عن تعصب علماء إستانبول في محاولة لتفسير أسباب رفضهم المطبعة دون أن يحلل هذا الحكم ومبرّراته، وهناك بعض المؤرخين وعلماء الاجتماع ممن تناولوا المسألة بحياد وموضوعية أكثر، إلا أنهم تطرقوا إليها بسرعة دون تقديم معلومات كافية، ونذكر منهم هوب(٢) وشواب(٣) وصابات(٤) ورضوان(٥). وهذا الأخير ذكر على سبيل المثال: "اتجهت رغبة بعض الرجال إلى إنشاء مطبعة قبل ذلك التاريخ (القرن ١٢هـ/١٨م) ولكن رجال الدين لم يوافقوا على ذلك بدعوة أنها مخالفة للدين، ولم يجرؤ أحد على إنشاء مطبعة بعد هذه الفتوى"(٦).

ورد لأول مرة ذكر فتوى أصدرها العلماء إلا أن أبو الفتوح رضوان لا يعطِ أية تفاصيل عن هذه الفتوى، ولا عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة، ولا يوضح الطريقة التي توخاها الفقهاء لتأويل النصوص الشرعية لاستصدار هذه الفتوى.

أما شواب فقد قدم ثلاثة أسباب عن تأخر المطبعة في بلاد الإسلام، وهي "امتناع" الشرقيين عن تداول أي كتاب لا يكتب بخط اليد، وسبب تقني يتمثل

---

(٢) عبدو، إبراهيم .تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية، القاهرة، مكتبة أدب، ١٩٤٩م، ص٢٢.

(٣) Hopp, L, « Ibrahim Muteferriqa : Fondateur de l'imprimerie turque » in : **Acte Orientalia Hung,** n°29, 1975 ; p.108.

(٤) Schwab, M, **Les incunables orientaux et les impressions orientales au commencement du XVIe siècle,** Paris, 1883.

(٥) صابات، خليل، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨م.

(٦) رضوان، أبو الفتوح، المصدر نفسه.

(٧) المصدر السابق، ص ١٢.

في صعوبة حفر الحروف العربية وربطها فيما بينها، وأخيرًا حالة الجمود والركود التي يعيشها العرب في تلك الفترة[١]، إن هذه الحجج رغم جديتها تبقى عامة وغير كافية، إذا ما لم يرفقها الباحث بتحليل ولم يدعمها بمصادر وأمثلة. وكذلك فعل سليم نزهت الذي قدم سببًا عامًا دون أدنى تفصيل لتفسير سبب غياب المطبعة العربية في الدولة العثمانية وهو "لأن عقلية ذلك الزمان ليست في وضع يجعلها تقبل مثل هذا العمل"[٢].

هناك باحثون آخرون انكبوا على دراسة الموضوع بعمق أكثر، وكانوا حذرين في إصدار أحكامهم مثل وايل[٣] وديمارسمان[٤]، اللذين قدما دراسات معمقة حول المسألة. فديمارسمان مثلاً الذي استفاد من مقال الباحث الأول، يرى في الجدال حول المطبعة مرحلة حاسمة في الثقافة والنفسية الاجتماعية للمسلمين[٥].

ولفهم أسباب التأخير في إقامة مطابع عند المسلمين من الضروري أن نضع القضية في إطار بروز وعي تاريخي وديني لدى المثقفين لإعطاء دفع جديد لحضارتهم، وعليه فإن النقاش حول مسألة المطبعة قد تجاوز النظر في مجرد استعمال آلة ليشمل المستقبل الحضاري لمجتمعهم. فالطباعة ستغير عدة جوانب ثقافية، وستسهم في نقل وتبادل الآراء وإدخال حركية في الحياة الثقافية والاجتماعية، وهذا ما جعل النقاش يحتد بين معارضي وأنصار المطبعة ويأخذ وقتًا طويلاً قبل أن تتحرك عملية التطور.

---

(١) SCHWAB, les incunables…op.cit, p.6.

(٢) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة في تركيا**... المصدر نفسه، ص ٢٦.

(٣) Weil, G, « Die ersten Drucke der Turken » in Wentralbant Bibliothekewesen (Z.B), Fevrier 1907, T XXIV, pp.49-61.

(٤) Demeersemann , A, « Les données… » in IBLA, 1954, n°65, pp.1-48 ; n°66, 1954, pp.113-140.

(٥) Ibid p.1.

إن دراسة أطوار هذا النقاش وملابساته تمكننا من النظر في مسألة المطبعة من الداخل ومعرفة خلفية كل طرف في هذا الصراع الفكري من خلال الأدلة والبراهين التي يقدمها لتأييد موقفه من استخدام المطبعة في بلاد الإسلام(١). وإننا نقترح في الفقرات الموالية، تقديم بعض الآراء التي تساهم في تفسير أسباب هذه الظاهرة.

٢ - حوار حول المطبعة:

٢.١ - الحوار الطويل:

استمر هذا الحوار الذي جمع مناصري المطبعة ومناهضيها مدة طويلة، وقد بدأ قبل القرن ١٢هـ/١٨م، إذا اعتمدنا على ما قاله ابراهيم متفرقة في "رسالة وسيلة الطباعة" حيث قال:

"كان هذا الموضوع (فن الطباعة) محل جدال وقد انعقدت عدة اجتماعات لمناقشة جدواه وانتهت بالاعتراف بفوائده وإقرار الحاجة الأكيدة إليه، وقد أيّد عدد من الشخصيات ذات الصيت العلمي الكبير هذا المشروع وأوكلوا مهمة دراسته وتنفيذه إلى أشخاص متعلمين وماهرين، وبعد طول تفكير أقرّ هؤلاء الفوائد التي تنجم عن إقامة مطبعة، ولكن المشروع توقف إمّا بسبب المصاريف التي تطلبها أو بسبب صعوبة إيجاد التجهيزات اللازمة لهذه المؤسسة، فكان أن أهمل المشروع إلى اليوم الذي أعطى فيه الله العلي القدير

(١) حدث السيناريو نفسه في أوروبا عند ظهور المطبعة إلا أن موقف الرفض لم يدم طويلاً، ففي فرنسا رفض رجال الكنيسة هذا الاكتشاف خوفًا من أن يفقد كتاب الإنجيل قدسيته إذا ما طبع. وقد تحالف الناسخون مع الكنيسة لمجابهة المطبعة التي تهدد مورد رزقهم إلا أن الملك لويس الحادي عشر تحمس لانتشار المطبعة وشجع المطبعي الألماني فوست على الاستقرار بباريس سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م، بعد أن رأى في المطبعة وسيلة ناجحة لنشر الثقافة الفرنسية بسرعة ونسجت الكنيسة على منواله بعد إن اطلعت على فوائد هذا الاكتشاف. وحدث الأمر نفسه في أسبانيا وإنجلترا بعد فترة قصيرة من التردد، ولكن بقي بلد أروبي واحد رافضًا لاستخدام فن الكتابة الجديد إلى حد نهاية القرن، وهو روسيا.

دفعًا جديدًا للعلم لتجاوز كل العراقيل باختياره السلطان أبو الفتوحات والمغازي أحمد خان، الذي وفق في إنجاز ما لم يقدر عليه سابقوه، فأعطى دفعًا قويًا لفن الطباعة العجيب ووفر كل الإمكانيات لتأسيس المطبعة"(١).

تؤكد هذه الوثيقة مرة أخرى مدى وعي المسلمين بأهمية فن الطباعة، ومدى اهتمامهم به من ذلك أن المثقفين والعلماء ناقشوا فعلاً هذه المسألة في اجتماعات ولقاءات كثيرة جمعت معارضي ومؤيدي مشروع إدخال المطبعة، أي بين المحافظين والمجددين وانتهت بالاعتراف بمزايا فن الكتابة الجديد، أي انتصار الشق الذي ينادي بإدخال الطباعة من الغرب، إلا أنه رغم هذا التأييد فإن المشروع توقف وأهمل وأسباب ذلك حسب متفرقة هي فنية ومالية. إلا أننا نتساءل هل تمثل هذه الأسباب عوائق حقيقية تحول دون مواصلة المشروع، فالأوروبيون مثلاً لم تمنعهم الصعوبات الفنية من طبع الكتب العربية، حيث نجح حفارون أروبيون غريبون عن اللغة العربية منذ القرن ١٠هـ/١٦م في حفر قوالب وطوابع لحروف هذه اللغة. وإذا كان الأمر كذلك في أوروبا فكيف سيكون بالنسبة للمسلمين أبناء تلك اللغة، والمعروفين بمهارتهم في النقش على المعدن؟(٢). هذا من حيث الحروف، أما من حيث الآلات فليس من الصعب كذلك صنعها في المشرق، وفي أقصى الحالات يمكن استيرادها من أوربا. إن الصعوبات الفنية والمالية لا يمكن بأي حال أن تعيق لوحدها إقامة المطبعة في بلاد الإسلام، ولابد من أن تكون هناك معوقات أكبر من هذه لم يتعرض إليها متفرقة. أضف إلى ذلك أن هذا العالم قد أطنب في رسالته في ذكر فوائد المطبعة بالنسبة للمسلمين ولم يكن في حاجة إلى كتابة مثل هذه الرسالة، لو أن النفوس كانت مهيأة لقبولها. وهذا يدل على أنه إلى حد بداية القرن ١٢هـ/١٨م،

(١) رسالة وسيلة الطباعة.

(٢) إن الحروف العربية التي استعملها سافاري في مطبعته بروما وباريس في القرن ١٦م، كانت قد أعدت في إستانبول. انظر الفصل الأول، فقرة:"مطبعة سافاري".

لم يتوقف الحوار ولم يقتنع كل العلماء القريبين من الباب العالي بجدوى المشروع.

إن من الواضح أن الشق المعارض من العلماء والمثقفين كان له من النفوذ ما جعله يمنع تأسيس مطبعة عربية وأنه لا محالة وجد دعمًا غير مشروط في الأوساط الشعبية، خاصة الأمية منها التي ترفض الجديد وقد تكون المواجهة بين المعارضين والمؤيدين غير متوازنة في البداية، لأن عدد الأخيرين كان ضعيفًا، وهذا ما تطلب وقتًا طويلاً لتغيير العقول وإقناعها بأهمية "الاكتشاف الثقافي".

لقد دارت الاجتماعات قبل عهد السلطان أحمد الثالث حسب رسالة إبراهيم متفرقة، وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال التالي: متى بدأ الحوار؟

٢.٢ - بداية الحوار:

هناك وثيقة أصلية يمكن أن تجيب عن هذا السؤال وهي نص فرمان أصدره السلطان العثماني مراد الثالث سنة ٩٦٦هـ/١٥٨٨م، يقضي بالسماح للتجار الأوروبيين ببيع الكتب الأوروبية المطبوعة بالحرف العربي داخل إمبراطوريته.

هذا القرار له أهمية بالغة إذْ إنه يشير إلى أن ملامح التحول في موقف المسلمين تجاه فن الطباعة، قد بدأت تبرز منذ نهاية القرن ١٠هـ/١٦م. فالباب العالي لم يسمح بعد بإقامة مطبعة ببلاده - عدا الأقليات الدينية كما رأينا- إلا أنه رخص في إدخال كتب عربية مطبوعة بأوروبا إلى دولته. إن قرارعام ٩٩٦هـ/١٥٨٨م فتح الباب لكي يطلع العلماء على عينة من إنتاج المطابع الأوربية ليقفوا على مدى فائدتها للمتعلمين بالمشرق.

لعل حوارًا عميقًا بين أنصار آلة الطباعة ومعارضيها قد سبق إصدار السلطان مراد الثالث فرمانه بإنشاء أول مطبعة في إستانبول، ولا يستبعد أن يكون هذا القرار

حصيلة اتفاق بينهم، يقضي كما رأينا بالقيام بتجربة تجعلهم يتأكدون ويطمئنون إلى جدوى هذا الاكتشاف، وهذا من شأنه أن يدفع الحوار إلى الأمام. إلا أن الأمر توقف عند هذا الحد، فالمحافظون كما تدل بعض الوثائق أصروا على معارضة استخدام فن الكتابة الجديد، وأن شهادة أحد العلماء المسلمين بمصر سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، هامة في هذا الصدد، وقد أوردها الرحالة ستوكوف الذي تحدث مع هذا العالم بالقاهرة وذكر له جملة من فوائد الطباعة، إلا أن هذا الأخير أصرّ على معارضته لهذا الاكتشاف، وأبرز له عكس ذلك، وقدم له عدة حجج تبين ليس فقط أنها غير ضرورية بل إنها ضارّة[١].

بدأ الحوار إذن تقريبًا مع نهاية القرن ١٠هـ/١٦م، وتواصل إلى ما بعد القرن ١٢هـ/١٨م. ويمكن دراسة بداية الطباعة عند المسلمين عبر ثلاث فترات، تبدأ الفترة الأولى من ظهور اكتشاف غوتنبرغ إلى نهاية القرن ١٠هـ/١٦م، وقد سيطر عليها التيار المحافظ المعارض لأي تجديد في الأدوات الثقافية، أما الفترة الثانية فتبدأ من ٩٩٦هـ/١٥٨٨م وتنتهي إلى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، وهي التي شهدت حوارًا عميقًا انتهى بإصدار قرار إنشاء أول مطبعة بعاصمة الإمبراطورية. أما الفترة الثالثة فتبدأ مع صدور أول كتاب بالحرف العربي بإستانبول إلى نهاية القرن ١٢هـ/١٨م، وتعكس صدى المنشورات الأولى للمطبعة والصعوبات التي لاقتها المؤسسة.

٣ - الأسباب السياسية: السلطة العثمانية والمطبعة:

٣.١ - تحجير الطباعة:

هناك إرادة سياسية منعت استخدام المطبعة، وهذا ما ذكره الرحالة أندري تيفي[٢] الذي أورد في سنة ٩٩١هـ/١٥٨٤م أن السرايا (يعني : الباب العالي)

(١) Stochove, Vincent Sr de Ste Catherine, **Voyage du Levant**, Bruxelles, Velpius, 1650.p.139.

(٢) قام تيفي برحلة إلى الشرق سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٩م، ثم عين مؤرخًا وجغرافيًا للملك من طرف كاترين دي ميدتشي.

أعلنت أنها ستسلط عقوبة القتل على كل من يستعمل كتبًا مطبوعة، وأوضح أن السلطان بايزيد الثاني هو الذي أصدر هذا القرار في سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، ثم أكده من بعده سليم الأول سنة ٩٢٠هـ/١٥١٥م[١].

إن تيفي يقدم هذه المعلومة دون إعطاء توضيحات أو تفاصيل أكثر، وخاصة الأسباب التي دفعت بالباب العالي إلى إصدار مثل هذا القرار القاسي، ولا تتعرض المصادر الإسلامية إلى مثل هذا الإجراء[٢]، مما لا يساعد على إزالة الغموض حول هذه المسألة. وقد تعرض الرحالة تيفي إلى هذه المسألة بعد أن لاحظ ظاهرة غياب المطبعة عند الشعوب الشرقية، بما فيها الصينيون، ويقول: "إن هناك من ذكر بأن الصين والكاتاي هم أول من اخترعوا المطبعة وهذا خطأ"[٣]. إن هذه المعلومات غير المتأكدة والتي انفرد بها تيفي تدفعنا إلى دراسة روايته بحذر، فهو يؤكد أن السلطانين بايزيد الثاني وسليم الأول هما اللذان أصدرا هذا القانون القاسي، إلا أن المعلومة تبقى غير دقيقة باعتبار أنها لا تستثني مثلاً الأقليات الدينية، إلا أنه يتبين كما رأينا أن بايزيد الثاني هو الذي رخص لليهود إقامة مطابع عبرانية وبالتالي استعمال كتب مطبوعة، وكان ذلك بعد إحدى عشرة سنة من تاريخ إصدار "القرار" الذي تحدث عنه تيفي أي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م.

صدر قرار منع استخدام كتب مطبوعة في فترة مبكرة عقبت اكتشاف غوتنبرغ بأربعة عقود من الزمن فقط، ولم تكن كافية لمعرفة نتائج تأثير المطبعة في المجتمعات الأوروبية، فهي في طور التجربة عندها ولم تبرز

(١) Thevet, André, **Histoire des plus illustres et scavants hommes de leurs siècles,** Paris, Manger, 1671, T VII, p.111, article sur Gutenberg.

(٢) اكتفى بعض المؤرخين الأوربيين بذكر هذا الإجراء المنسوب إلى السلطانين العثمانيين نقلاً عن تيفي دون مناقشته ونقده.

Chevillier, A, l'origine…op.cit, p271 ; Guignes, Joseph Dc, « Essai…op.cit » ; p.XXVII.

(٣) Thevet ; A, « Histoire… » op.cit., p.111.

سلبياتها بدرجة تدعو العثمانيين إلى التصدي لها بعنف. وهذا ما يجعل رواية تيفي ضعيفة. وإذا أضيف إلى كل هذا ما عرف عن السلطانين العثمانيين المعنيين من تفتح على الآداب والعلوم وتشجيعهم للعلماء يصبح مثل هذا القرار متناقضًا مع طبيعة الحاكمين، فبايزيد الثاني تلقى معارف واسعة في كل فروع الآداب، وكان يحيط نفسه برجال الأدب(١) ويبني كثيرًا من المدارس والمكتبات إلى حد أنه عرف بلقب "أمير العلوم"(٢). أما سليم الأول فلم يكن أقل تفتحًا على عالم المعرفة من أبيه بايزيد الثاني فهو متبحر في العلوم، ويحذق ثلاث لغات هي التركية والفارسية والعربية(٣) وأمام هذه المعطيات تفقد رواية الرحالة تيفي كل مصداقية، ولا يعدو أن يكون قد اقتصر على نقل بعض الإشاعات المنتشرة بأوربا حول غياب الطباعة بالبلاد العثمانية، وهي إشاعات يفندها الرحالة الإيطالي مارسيغلي الذي زار المشرق في نهاية القرن ١٧م، ولاحظ "أن الأتراك لا يطبعون فعلاً كتبهم، ولكن ليس كما هو شائع عندنا بسبب أن المطبعة ممنوعة أو أن كتبهم لا تستحق الطبع..."(٤).

إن رواية تيفي ضعيفة ولا تستند إلى أية دعامة منطقية أو تاريخية، وهذه ليست الفقرة الوحيدة الغامضة التي نوردها من كتابه، بل هناك الكثير منها حتى

---

(١) يذكر المستشرق هربولو أن بايزيد الثاني كان يغدق في العطاء على العلماء ويقدم لهم الملابس والمنح المالية.

Herbelot.-Bibliothèque orientale, Paris, 1697, pp.177-178. Cantemir, A. D, Histoire de l'Empire Ottoman, trad. Joncquieries, Paris Barois, 1743, T1, p.137.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٨.

(٣) Ohsson, Mouradgea, D', **Tableau général de l'Empire Ottoman,** Paris, 1787, vol 1, p.294 ; Herbelot, **Bibliothèque…op.cit.,**p802 ; Adnan, **La science…op.cit.**, p.57.

(٤) Marsigli, Le Comte De, **L'Etat militaire Ottoman : ses progrès et sa décadence**, La Haye, Goose, 1732, p.313.

عرف عنه أن كثيرًا من مشاهداته خيالية(١)؛ لهذا فإن من الأجدى استبعاد هذه الرواية من تحليلنا.

إن مسألة المطبعة قد شدت - رغم هذا - انتباه السلطات السياسية بإستانبول فقد تدخل السلاطين شخصيًا للنظر في إمكانية استعمال فن الطباعة، مثل أحمد الثالث الذي أصدر قراره المعروف في سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، وكان قد استعان في ذلك بمستشاريه وهم الصدر الأعظم وموظفان من الباب العالي. وهناك سلاطين اتخذوا أيضًا قرارات في الموضوع نفسه مثل مراد الثالث(٢) وعبد الحميد الأول(٣).

السلطان العثماني مثله كمثل كل الحكام الذين حكموا بلاد الإسلام، يتمتع بنفوذ كبير، خاصة إن الإسلام لا يفصل الدين عن السياسة. وقد احتفظ منذ سليم الأول بلقب خليفة الذي استلمه بصفة رمزية من آخر أمير عباسي، وله بالتالي النفوذ الكامل في البت في كل المسائل المتعلقة بالإسلام والثقافة. ولهذا لا يمكن أن تغيب قضية المطبعة عن اهتماماته دون أن يقرر بنفسه الترخيص بإقامتها في دولته، وهذا طبعًا بعد أخذ رأي العلماء وشيخ الإسلام. وقد كانت المسألة من الحساسية بمكان إلى حد جعلت الباب العالي يتصرف بحذر شديد، فقرار بايزيد الثاني أن يسمح لليهود بالاستفادة من فن الطباعة بشرط عدم استخدام الحرف العربي، يدل على حيطة كبيرة ورغبة في عدم إحداث اضطراب أو

(٥) Biographie universelle de Michaud, TXXXXI, p.330 article Thevet.

(١) قرار بترخيص بيع الكتب المطبوعة بأوروبا داخل الإمبراطورية العثمانية.

(٢) قرار بإعادة فتح مطبعة إستانبول سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٤م من الملاحظ أن حكام المسلمين في الولايات العثمانية هم الذين قرروا وأشرفوا على إدخال المطابع بولاياتهم مثل محمد علي باشا بمصر الذي أسس مطبعة بولاق سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢١م، والصادق باي بتونس سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٩م.

صدمة لدى المتعلمين المسلمين، وقد يكون فيه مؤشر إيجابي لدعوة هؤلاء إلى التفكير في الاستفادة أيضًا من هذا الاكتشاف.

٢.٣ - قرار مراد الثالث سنة ٩٩٦هـ/١٥٨٨م:

صدر هذا القرار بعد أن تقدم تاجران أوروبيان بشكوى ضد أشخاص اعتدوا عليهما في إحدى أسواق إستانبول وقاموا بإتلاف بضاعتهما وحجز كتبهما العربية والفارسية والتركية التي أحضراها من أوروبا، تعبيرًا عن غضبهم لوجود هذه الكتب بحوزتهما. وقد أدان السلطان هذا الاعتداء والذي سلط على أجانب هم في حماية الدولة ويتعاطون التجارة في حدود الشريعة الإسلامية، فأصدر أمرًا إلى الولاة والقضاة والقواد لتطبيق القانون صد كل من يهدد أمن التجار الأوروبيين الذين يبيعون كتبًا علمية ومطبوعة بالحرف العربي في أوروبا(١)، وهذا ما تم تطبيقه فعلاً، خاصة بالنسبة لمنشورات الميدتشي بروما، فهي كتب علمية باللغة العربية وقد أرفق في أحد كتبها(٢) نص فرمان مراد الثالث لكي يبرز رغبة أصحاب مطبعة الميدتشي في بيع كتبهم بإستانبول. ولتبرير هذه العملية حتى يتخلصوا من كل أشكال الرقابة العثمانية.

يؤكد الباب العالي من خلال مساندته لاستعمال الكتب المطبوعة، تدخله المستمر في قضية المطبعة، وأن له ضلعًا في التوفيق بين أنصار ومعارضي هذا الفن - كما رأينا - بالقيام بتجربة تداول الكتب المطبوعة في أوروبا. كما يؤكد متابعته عن قرب لكل التطورات التي تهم المطبعة، وليس هذا للمسلمين فقط؛ بل وكذلك للأقليات الدينية، كما رأينا، حتى وإن تطلب الأمر التدخل بشدة مثلما

---

(١) Inalcik, H, **The Ottoman Empire : The Classical Age 1300-1600**, London, Weiden feld, 1973.

(٢) يوجد نص القرار في آخر صفحة من كتاب تحرير أصول الإقليدس، ترجمة نصر الدين الطوسي، روما، مطبعة الميدتشي، ١٥٩٤م.

هو الشأن في حادثة الاعتداء على تجار الكتب الأوروبيين، وكذلك في حادثة توزيع كتب بروتستانتية مطبوعة في أوربا في أوساط المسيحيين بالمشرق.

٣.٣- تدخل الباب العالي لإيقاف عملية توزيع الكتب البروتستانتية:

هذه الحادثة، رغم أنها لا تهم المسلمين مباشرة، فإن أهميتها تكمن في معرفة موقف الباب العالي من فن الطباعة عامة وفن الطباعة لدى الأقليات خاصة.

بدأت القضية سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م، لما قام البروتستانت بطبع أجزاء من الإنجيل بالعربية واليونانية بهولندا[١] حسب المذهب البروتستانتي، وتولوا إرسال نسخ كثيرة منها عن طريق سفير هولندا إلى بطريرك إستانبول كيريل لوكار (Cyrille Lucar) الذي اعتنق مذهب لوثر[٢]. وقد تولى لوكار توزيعها مجانًا بين المسيحيين مما أحدث اضطرابًا في صفوفهم. ولم يكتف البروتستانت بذلك بل سعوا إلى تأسيس مطبعة بالحرف اليوناني بإستانبول، وأوكلوا مهمة تسييرها إلى أحد المطبعيين اليونانيين وهو ميتاكساس (Metaxas). ولم يبق سفراء الدول الكاثوليكية مكتوفي الأيدي، بل تدخلوا لمنع تسرب الكتب البروتستانتية بالمشرق، وأبلغ السفير الفرنسي[٣] تخوفاته إلى

(١) هذه الكتب نشرها الهولنديان رافلانج وأربنيوس في مدينة ليدا في القرن ١١هـ/١٧م وهي: رسالة القديس يوحنا، طبعت سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢م، ورسالة القديس بولس ١٠٢٤هـ/١٦١٥م، والعهد الجديد ١٠٢٥هـ/١٦١٦م.

(٢) كتب سفير فرنسا في إستانبول في ٢٧ جوان ١٦٢٨: " قام البطريرك كيريل عدو اللاتينية بنشر البدع في كنائس الشرق وذلك بتوزيع كتب البدع المطبوعة باليونانية في كل مكان وقد تسلم سفير إنجلترا ثلاثين صندوقًا مليئة بالأحرف اليونانية لطبع كل كتب البدع التي يمكن أن يتخيلها الإنسان. وفي الغد تناول البطريرك كيريل العشاء علنًا مع سفير هولاندا ببيت سفير إنجلترا" (وثائق المكتبة الوطنية بباريس B.N.Mss.Fr.16153 F.48)

(٣) كان رد فرنسا ضد تصرفات البطريرك كيريل لوكار عنيفًا، إذ تدخلت لدى السلطان العثماني تحت غطاء قانوني يخول لها حماية المسيحيين في الأماكن المقدسة كما تنص على ذلك بنود إتفاقية "امتيازات" التي أمضتها مع سليمان القانوني، إن شدة معارضة فرنسا للدعاية البروتستانتية كان سببها خوفها من تقلص نفوذها كحامية للمسيحيين بالمشرق، مما قد يكون له تأثير سلبي على مصالحها الاقتصادية بالإمبراطورية العثمانية.

الباب العالي الذي لم يتردد في إقالة البطريرك لوكار، وإيقاف توزيع الكتب(١)، كما أمر بحجز آلات الطباعة والكتب من منزل ميتاكساس(٢)، فكان أن رد سفيرا هولندا وإنجلترا الفعل بدورهما، وكشفا للسلطات العثمانية نشاط المبشرين اليسوعيين، وخاصة فيما يتعلق بتوزيع كتاب جدلي ضد الإسلام، وتدخل الباب العالي مرة أخرى فحجز أيضًا هذا الكتاب وكل محتويات مكتبة اليسوعيين قبل أن يعيدها مرة أخرى لهم بعد تدخل السفير الفرنسي(٣).

إن تحفظات الباب العالي تجاه المطبعة، لم تكن إلا لتتأكد بعد هذه الحادثة التي أعطت للاكتشاف الثقافي بعدًا سياسيًا هامًا، فعمليات نسخ الكتب بأعداد كبيرة بواسطة أساليب الطبع بيّنت للسلطات العثمانية الخطر الذي ينجرّ عن نشر وتوزيع الكتب التي تحمل آراء أو معتقدات جديدة بسرعة مثلما هو الحال للكتب البروتستانتية التي أضحت تهدد التنظيم الداخلي للأقليات. فالمطبعة تنذر بضرب روح التعايش والتسامح الديني السائدة بين المسلمين والأقليات الدينية من جهة، وكذلك بين الطوائف المسيحية فيما بينها من جهة أخرى. ولكن هل يقتصر الخطر بالنسبة للباب العالي على هذا الجانب فقط أم أن هناك جوانب أخرى؟

٣.٤ - مخاوف الباب العالي:

لا يريد السلطان العثماني تغيير الهياكل السياسية والإدارية والاجتماعية داخل الإمبراطورية بعدما أثبتت نجاعتها منذ تأسيس الدولة. فالمؤسسات القائمة

---

(٤) Vitré, Histoire…op.cit, pp.11-12 ; Voir aussi Duverdier, **Abrégé de l'histoire des Turcs**, Lyon, 1665, T2 p585 ; Chevilier, A, l'origine…op.cit, p299.

(٥) قامت الإنكشارية بالهجوم على المطبعة اليونانية وتخريبها وسجن صاحب المطبعة، وهو ميتاكساس، ثم أطلق سراحه فيما بعد، فقام بنقل مطبعته الى خارج إستانبول. انظر: سليم نزهت، **تاريخ الطباعة**...مصدر سابق، ص ٢٣. انظر أيضًا:

Lettre du baile de Venise à Constantinople de 22 Juin 1628 in Rabbath, A. **Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en Orient**, Beyrouth, 1905-1921, vol.1p.3.

(١) رسالة بتاريخ ١٤ ماي ١٦٢٨ (وثيقة بالمكتبة الوطنية بباريس Mss.Fr.16150 F48).

مكنت الدولة من الحفاظ على سيطرتها على كامل أراضي الدولة ومراقبة كل الرعايا. ولهذا فإن المكتشفات الحديثة القادمة من أوروبا تهدد بتغيير هذا الوضع المتميز. من ذلك أن المطبعة كما يرى المجري دي سوسير سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م تنسخ الكتب بسرعة وبكثرة مما يتسبب في الإضرار *"بالأمن العام" وبالديانة* الإسلامية(١). وفي السياق نفسه يذهب الباحث المعاصر خليل صابات الذي يرى "أن المطبعة يمكنها أن تخفض أثمان الكتب فتجعلها في متناول أكبر عدد ممكن من الناس، فيحل العلم محل الجهل على أنه غير خاف على أحد أن الأمة المتعلمة تأبى الضيم ويصعب حكمها حكمًا استبداديًا"(٢).

هذه الآراء تتفق على أن خطر المطبعة يكمن في أنها ستدخل الاضطراب على هياكل الدولة العثمانية التي تخنق كل الحريات. ذلك أن الكتاب المطبوع سيساهم في تعليم الشعوب ونشر آراء تدعو إلى الحرية وتشكك في شرعية سلطة الباب العالي، وهذا الأمر يخيف السلطان ويجعله لا يقدم على استخدام هذا الفن، ويحمل هؤلاء المؤلفين مسؤولية تأخر المطبعة للباب العالي لوحده. إلا أن هذا الرأي وإن كان فيه نصيب كبير من الصحة، لا يمكننا من أن نقرّ بأن السلطة العثمانية هي المسؤولة الوحيدة عن عدم استعمال المطبعة. فظاهرة رفض الاكتشافات العلمية الحديثة ورفض التجديد عامة، توجد أيضًا في أوساط أخرى داخل الإمبراطورية - علاوة على الأوساط السياسية - خاصة منها المتعلمة - كما سنراه فيما بعد - وكذلك الجيش الإنكشاري الذي تصدى بعنف إلى كل مظاهر التجديد في القوات المسلحة، مثلما حدث إزاء محاولة الإصلاح

(٢) Saussure, Cesar De, **Lettres de Turquie (1730-1739),** Budapest, Academie Hongroise des Sciences, 1909, p.94.

(١) صابات خليل، **تاريخ**، المصدر نفسه، ص ٢١ يقول كذلك الأب ديمرسمان أن السبب الذي يدفع مختلف الحكومات إلى تأخير إدخال المطبعة هو الحفاظ على سلطتها في شكلها القديم. انظر مقال في: IBLA, n°66, 1954, p.136.

العسكري التي أقدم عليها السلطان عثمان الثاني التي رفضها الجيش العثماني وانتهى الأمر بقتل السلطان.

ولهذا فإن الباب العالي لم يسارع في اتخاذ موقف مناصر للمطبعة مراعاة لمصلحته، ومراعاة كذلك للمناخ الثقافي السائد في المجتمع الذي لا يقبل التغيير بسهولة، وفضّل انتظار بروز حاجة لدى المتعلمين إلى مثل هذا الاكتشاف الثقافي قبل أن يتخذ إجراءً في هذا الشأن . كذلك، إن صدور قوانين في مسائل علمية وثقافية دون أن تستعد لها العقول، يؤدي إلى انصراف المتعلمين عن الاكتشافات وبالتالي إلى عدم تأثيرها في المجتمع، وهذا ما يفسر إلى حد ما، تأخر الباب العالي في اتخاذ قرار لفائدة إدخال المطبعة العربية إلى الإمبراطورية إلى حد القرن ١٢هـ/١٨م.

٣.٥- قرار أحمد الثالث عام ١١٣٩هـ/١٧٢٦م:

كانت المطبعة في بدايتها في أرض الإسلام مشروعًا سياسيًا قرّره وأعدّ له وتعهّد به أصحاب السلطة بمعية رجال علم موالين للباب العالي. كان ذلك في سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، حين سمح السلطان أحمد الثالث ووزيره بتأسيس ورشة للطباعة بالحرف العربي في إستانبول. كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد قد بذل جهدًا كبيرًا لتذليل كل الصعوبات وإقناع من تبقى من العلماء القريبين من الباب العالي والمعارضين لهذا المشروع بأهميته وفوائده، كما أنه تدخل لحماية المطبعيين الأوائل.

وقبل هذا التاريخ لم يكن المتعلمون يقدمون على اتخاذ مبادرة بإعداد مشروع أو الحديث عن إصلاحات، أما إذا تجرّأ أحدهم وتقدم باقتراحات ووجدت اهتمامًا وآذانًا صاغية من طرف رجال السلطة وتمكن من إقناعهم

وخاصة منهم الصدر الأعظم والمفتي، فإن المشروع يعرف طريقه إلى الإنجاز والحال أنه كان يتراءى في البداية مستحيلاً(١).

وفي بداية القرن ١٢هـ/١٨م، بادر أحد الموظفين لدى الباب العالي وهو في الوقت نفسه رجل علم وأدب ويدعى إبراهيم متفرقة بتحرير كتيب حول منافع المطبعة بعنوان "رسالة وسيلة الطباعة" وعرضه على الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فوجد قبولاً حسنًا من طرفهما وحتى من طرف السلطان الذي أصدر قرارًا يسمح للمسلمين داخل الإمبراطورية بإقامة مطبعة بالحرف العربي وقد تبنى في القرار الآراء نفسها التي أوردها متفرقة، وخاصة ما يلي:

"عند وصول هذا الأمر الشريف ستعلمون بأنه من الضروري لكي نضمن دوام قوانين الدين وندعم نظام الملك ونحفظ التواريخ والأخبار ونوسع دائرة المعارف البشرية اللجوء إلى الكتابة، وهي الوسيلة الوحيدة لسرد كل ما وقع عبر مختلف العصور ونسخ الكتب بأعداد وافرة حتى تصل إلى الأجيال القادمة"(٢).

هذا القرار يضع علامة تحول بارزة في موقف السلطة العثمانية تجاه المطبعة فقد وردت فوائد هذه الآلة والخدمات التي ستقدمها للدين الإسلامي وللدولة وللعلوم والآداب(٣).

٤ - الأسباب الثقافية:

---

(١) Saussure, **Lettres…op.cit,** p.94 ; Ohsson, M. **Tableau…op.cit.,** vol 1, p.295.

(١) خط همايون للسلطان أحمد الثالث يسمح بإنشاء مطبعة بإستانبول في ١١٤٠هـ/١٧٢٦م، وقد ترجم إلى الفرنسية ونشر في :

Revue des bibliothèques, 1895, p.190.

(٢) سنعود إليه وإلى رسالة متفرقة في هذا الفصل.

تنـاول المحـافظون والإصـلاحيون طيلـة حـوارهم نقطـة هامـة تتعلـق بتجديـد أدوات العمـل الفكـري ومهـن الكتـاب، أي الانتقـال مـن المخطـوط إلـى الكتـاب المطبوع، ومن الكتابة العربية بخط اليد إلـى حـروف الطباعـة المنفصـلة، ومـن مهنة الناسخ إلى مهنة المطبعي. وقد استعرضوا مدى تأثير هذه الأدوات الثقافية فـي تطـور الحضـارة الإسـلامية عبـر العصـور. إن مـن المهـم معرفـة آرائهـم وطريقـة تقييمهم لـدور المخطـوط ومفهومهم للكتـاب المطبـوع ولآلـة الطباعـة؟ وكيف يحكمون على الخط العربي وعلى حروف المطبعة؟ وكيف ينظرون إلـى مهنتي الناسخ والمطبعي؟

٤.١ - المخطوط والناسخ:

حـين دخـل الكتـاب المطبـوع إلـى "جمهوريـة الآداب" "لمنافسـة" المخطـوط، وجد معارضة شديدة من لدن العلماء، ولقد كان وعاء المعلومات التقليدي يحافظ إلى حد ذلك العهد على امتياز نقل العلوم، وذلك منذ بـروز المؤلفـات الإسلامية الأولـى وخاصـة الكتـاب العربـي الأول وهـو القـرآن الكـريم(١). الـذي احتـاج المسلمون إلـى تدوينـه وتوزيعـه فـي مختلـف الأصـقاع، وكـذلك الحـال بالنسـبة لكـل أنواع الكتب الأخرى، فظهر الخطاطون والناسخون في كل المدن والمراكز الثقافية، وتولوا نسخ هذه الكتـب، وقد عمل الناسـخون أو الوراقـون بكـل جد لتـوفير نسـخ مـن الكتب لكل مـن يطلبهـا مـن الجمهـور وكـذلك لقـراء المكتبـات وطـلاب المـدارس. وقد كانت مهنة الوراقة طيلة القرون الأربعة الأولى للهجرة من المهن النبيلـة الرفيعـة ولا يسمح بتعاطيهـا إلا لمـن يشـهد لـه بالكفـاءة(٢). فكـان أن احترفهـا بعض كبـار العلمـاء المسلمين من أمثال الجاحظ والتوحيدي وكان الناسخ يعمل بشغف فـي نسخ الكتـب(٣)

(١) الحلوجي، **المخطوط ...** المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٥-١٤١ "انظر أيضًا يوسف العش":

Eche, Y, **Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen âge**, Damas, Institut Français d’Archéologie, 1967,p.283.

(٣) الزيات، حبيب، "الوراقة والوراقون في الإسلام" في **المشرق**، جويلية، ١٩٧٤م.

خاصة أنها ترفع من مكانة طالب العلم في عالم المعرفة، فكلما نسخ مخطوطًا حظي بالتقدير. ويورد ابن خلدون فصلاً في مقدمته عن "صناعة الوراقة"(١).

كما تفنن الناسخون في كتابة الحرف العربي(٢) من أمثال :ابن مقلة(٢٧٨-٣٣٨هـ/ ٨٩١-٩٤٩م) الذي عمل ببلاط سيف الدولة الحمداني بحلب وابن البواب (توفي في سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م) الذي عمل بمكتبة البويهيين بشيراز(٣).

لم يقتصر اهتمام الوراقين في القرون الأولى للهجرة على التفنن في الخط فحسب بل تجاوزه إلى الاعتناء أو الحرص على نسخ النص بكل أمانة. وكان المكتبيون يستعينون بالعلماء للتحقق من مطابقة النسخة الجديدة للنص الأصلي، وكانوا أحيانًا يوكلون مهمة النسخ إلى الشخص الذي يعرف الكتاب جيدًا أو الذي يمتلك نسخة جيدة منه، وكانوا يلتجئون إلى الناسخ الذي يلازم المؤلفين المشهورين للحصول على النسخة الأصلية(٤).

وبالرغم من الركود الذي أصاب الحياة الثقافية والعلمية بعد القرن ٥هـ/١١م، واصل الناسخون عملهم متعلقين دائما بالخط العربي البديع حتى في ظل الدولة العثمانية، حيث ذكرت بعض المراجع عددًا كبيرًا من الخطاطين في

ظهرت أدبيات كثيرة للوراقين فتحدثوا عن مهنتهم وطريقة عملهم.

انظر: المصرف، ناجي زين الدين، **مصور الخط العربي**، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٤م؛ وللمؤلف نفسه كتاب ثان، بدائع الخط العربي، بغداد مكتبة النهضة، ١٩٨١م؛ القلقشندي، صبح الأعشى ... المصدر نفسه، ج ١و٢و٣.

(٤) ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، مراجعة وتعليق عبد الباقي خريف، تونس: دار الشباب للنشر والتوزيع سيلدار، ٢٠٠٦م، ص٦٣٦-٦٣٨.

(٥) من بين أنواع الخط نذكر الكوفي والريحاني والمغربي والطليق والديواني والرقاع والنسخي والثلثي، وغيرها.

(٦) Eche, Les bibliothèques…op.cit., p.274.

(١) Ibid, p.275.

تلك الفترة[1]. وهؤلاء اهتموا أساسًا بخطي الثلث والنسخ، وتركوا لنا تحفًا فنية رائعة. وقد شغف بالمهنة حتى رجال السياسة مثل الأمير كركوب (توفي في سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م) وهو ابن بايزيد الثاني[2]. وبلغ شغف هواة الخط العربي في عهد العثمانيين إلى حد أنهم كانوا يتهافتون على شراء أحسن إنتاج للناسخين بأثمان مرتفعة، وكانوا مولعين بالكتابة بخط اليد بشكل يفوق كل تقدير، ولم يكونوا ليتحمسوا البتة للكتب المطبوعة، بل إنهم دافعوا على المخطوط بعض الأحيان وقاوموا عملية توزيع الكتب المطبوعة. ونذكر هنا بحادثة الاعتداء على تاجرين إيطاليين كانا يبيعان كتبًا عربية مطبوعة في سنة ٩٩٦هـ/١٥٨٨م، وما نتج عنها من صدور قرار مراد الثالث، ولكن رغم صدور هذا الفرمان، فإن موقف المتعلمين لم يتغير كثيرًا؛ إذ بقوا يتداولون المخطوط الذي حافظ على مكانته المتميزة في كل الأوساط. وهنا نورد شهادة المستشرق الفرنسي قالان الذي زار المشرق، ولاحظ أن العرب والفرس والأتراك "لا يستسيغون الطباعة ولا يرون جدوى منها، وأنهم يفضلون قراءة الكتب المكتوبة بخط اليد، وإن كانت الكتابة رديئة على قراءة كتب مطبوعة بأجمل الحروف العربية"[3].

هذه الظاهرة تتأكد من خلال هذه الرواية الأصلية وأنه من الصعب تغيير العادات القرائية لدى شعب له ماض عريق مع المخطوط، وهذا من العوامل التي تسببت في بطء عملية تعويضه بالكتاب المطبوع. وهنا يقدم المستشرق

(٢) مثل "مناقب هينزفران" (تراجم الفنانين) الذي كتبه مصطفى دفتري عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م، وأيضًا "قلزار صواب" لنفس زادة الذي أهداه للسلطان مراد الرابع انظر:

Huart, Clement Imbault, **Les Calligraphes et les miniaturistes de l’Orient musulman,** Paris, Leroux, 1908, pp.6-7.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(١) Galland, préface de la Bibliothèque Orientale d’Herbelot, f 14.

نفسه شهادة ثانية توضح تصرف المسلمين تجاه كل من المخطوط والمطبوع، فقد وجد في ورّاقة بإستانبول كتابًا لابن سيناء وهو "القانون في الطب" الذي طبع بروما من طرف الميدتشي سنة ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م، وعلم أنّ الورّاق لم يتمكن من بيعه رغم عرضه بثمن أقل مما يباع في الغرب، في الوقت الذي كان يبيع فيه الكتاب نفسه مخطوطًا بثمن باهظ جدًا(١).

لقد مر على صدور الكتاب الذي يتحدث عنه قالان أكثر من قرن، ورغم ذلك فلم يجد من يشتريه في المشرق رغم أنه طبع بحروف قرانجون وهي جميلة وتضاهي أجمل الخطوط العربية. إن المتعلم المسلم لا يتردد في شراء مخطوط ابن سيناء، ولو كان بثمن مرتفع ويعرض في الوقت نفسه عن شراء الكتاب نفسه مطبوعًا(٢). وهذا يدل على أن المسلمين يفضلون الخط العربي المكتوب باليد، على خط الطباعة. ولم يفكروا في استبدال المخطوط بأي وعاء آخر، فبقي المخطوط بذلك سيد الموقف بعد قرن من ظهور المطبعة. ولم يعترض المسلمون فقط على طبع الكتب، بل وكذلك على استعمال الكتب المطبوعة رغم ترخيص السلطان مراد الثالث بذلك. ولم تكن القوانين كافية لتغيير سلوك وعادات القارئ المسلم، إذ لابد من أن يسبقها تمهيد للميدان وإعداد للعقول لقبول التغيير، بل إن بعض العقول كانت تشك وترتاب في الكتاب المطبوع، لأنه قادم من بلاد المسيحيين(٣). ليس من السهل قبول هذا "الاكتشاف الثقافي" الذي جاء لتحدي المخطوط والقضاء عليه في جو كان يسوده صراع عنيف بين بلاد الإسلام وبلاد المسيحية.

---

(٢) المصدر السابق.

(٣) تهافت المستشرقون - على عكس أبناء المشرق - على اقتناء كتاب ابن سيناء، بل الأكثر من ذلك أعادوا طبعه في القرن ١١هـ/١٧م، مثلما فعل الألماني كيرستن الذي نشر الكتاب في برسلو (بولونيا) Breslae سنة ١٠١٨هـ/١٦٠٩م.

(١) يقول الأب نيكولا بوارسون رئيس بعثة المبشرين اليسوعيين في سوريا وبلاد فارس في هذا الصدد سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م: تتم كتابة الكتب في هذه البلاد بخط اليد، وتجد المخطوطات قبولاً طيبًا لأن الكتب المطبوعة تعتبر إفرنجية، وبالتالي فهي محل ريبة.

Rabbat, A, Documents…op.cit., T1 p.51.

المخطوط أداة ثقافية له دور بارز في تقدم ونمو الحضارة الإسلامية منذ ظهور المؤلفات العربية الأولى. كما أنه حافظ ولا يزال على التراث الفكري للأمة وهو همزة وصل بين الماضي والحاضر ويؤمّن التواصل بالنسبة للثقافة العربية الإسلامية، كما يعد أحد ركائز هذه الحضارة المكتوبة، ولذلك فإن المحافظين يعتقدون أن في إهماله والانصراف عنه إلى المطبوع، تعبير عن عدم اعتراف بمجهود الأجداد وقطيعة مع الماضي الزاهر، وليس المخطوط مجرد وعاء معلومات بالنسبة للمسلمين، بل هو أداة حضارية أدت دورًا خطيرًا في تقدم الثقافة العربية، لذلك فإن الحوار حوله كان مناسبة للتفكير في مستقبل الثقافة الإسلامية(١) وعلاقاتها مع الثقافات الأخرى، فاستعارة بعض أدوات العمل الفكري من عالم معاد لهم يعني - في نهاية الأمر - قبول التعامل مع الآخرين وإعطاء شكل جديد للثقافة، وهو شكل الكتاب المطبوع. إن تواصل العمل بالمخطوط يعني تواصل الشكل القديم للحضارة، ولهذا كان موضوع هذا الوعاء من أهم محاور الحوار(٢).

لم تكن مهمة أنصار المطبعة في الرد على هذه الاعتبارات والحجج سهلة، وكان عليهم إبراز دور الكتاب المطبوع في تحديث الحضارة الإسلامية، فبدؤوا بتوجيه نقد لاذع للمخطوط الذي لم يعد قادرًا على تأمين التواصل بين ماضي هذه الحضارة وحاضرها ومستقبلها.

بدأ عدد المخطوطات - حسب قول أحد المجددين العثمانيين وهو إبراهيم متفرقة - في التناقص بسبب أحداث تاريخية مؤسفة، إلى درجة أن خطر اختفاء

---

(٢) Chenoufi, Moncef, « Le problème des origines de l'imprimerie et de la presse arabes en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance « Nahda », Paris, Sorbonne, 1970, F, de doctorat d'état) ; voir aussi Demeersemann, A, « Les 19-20 (Thèse données…op.cit., » in IBLA, n°65, 1954, p.32.

(٣) Chenoufi, « Le problème…op.cit., » F 859.

جل المؤلفات الإسلامية بدأ يحدق بجدية بتراث الأمة. فقد عرفت أكبر المكتبات الإسلامية مصيرًا قاتمًا عند غزو التتار للمشرق الإسلامي، أولئك الذين أحرقوا الكتب وألقوا الكثير منها في الأنهار. وعرفت مكتبات الأندلس المصير المظلم نفسه، كما أن الفتن والحروب الداخلية التي دارت بين الأمراء المسلمين تسببت في إتلاف أمهات الكتب والكثير من المؤلفات الثمينة، كما ضاعت نسبة أخرى من المخطوطات بين رفوف المكتبات المهملة(١).

وقد أراد متفرقة أن يقول إن الناسخين في عصره غير قادرين على تعويض هذا النقص الفادح من الكتب الذي أضر كثيرًا بالعلوم والآداب، فهم عاجزون عن توفير عدد كاف من الكتب في كل المواضيع، والتي أصبحت نادرة وباهظة الثمن، وكذلك على إنقاذ التراث الفكري المكتوب من التلف. أضف إلى ذلك كله الاستجابة للطلب اليومي للقراء، وهذا في عصر - كما يقول متفرقة - كان فيه الناسخون غير واعين بخطورة الأمر وغير نشيطين في عملهم(٢).

لم يقتصر تهجم أنصار المطبعة على المخطوط فقط، بل تجاوزوه إلى الناسخين الذين لا يقدرون أهمية دورهم في نقل المعرفة والحفاظ على التراث، فهم لا يتحمسون لنسخ المجلدات الضخمة القديمة التي ندر وجودها، وحتى عند نسخهم للكتب الأخرى، فإنهم يرتكبون أخطاء لا تحصى في الرسم ويغفلون عن كتابة كلمات وفقرات من المخطوط. وهذا ما أشار إليه أحمد الثالث في نص الفرمان الذين أصدره في ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، عند حديثه عن الناسخين: "إنهم يتباطأون في عملهم ولا يعيرونه الانتباه اللازم، ويصل جهلهم أحيانًا إلى حد كتابة نسخ مليئة بالأخطاء وبالكلمات المنقوصة"(٣). كما علل إبراهيم متفرقة

---

(١) إبراهيم متفرقة. رسالة وسيلة الطباعة.

(٢) المصدر نفسه.

(١) فرمان السلطان أحمد الثالث الذي يرخص بإقامة مطبعة بإستانبول. Rev.Bib, 1895, n°5 p.198.

هذا التصرف بإهمال الناسخين وعدم معرفتهم لقواعد رسم اللغة[1]. ويبين متفرقة نتائج هذا العمل الرديء، وهي ظهور نصوص غير مطابقة للأصل؛ مما ينعكس سلبًا على سير الدروس العلمية؛ إذ يضطر المدرس والطلاب إلى التوقف عن الدرس والانكباب على التحقق من مطابقة النسخ بعضها لبعض وإصلاح الأخطاء، وهذا الأمر يتسبب في ضياع وقت ثمين لم يكن ليحدث لو اعتمد المثقفون على الكتاب المطبوع. ذلك لأنه قبل إعطاء الإذن بسحب الكتاب على آلة الطبع، يقع التثبت وإصلاح كل الأخطاء من طرف علماء مقتدرين[2]. وقد ركز أنصار المطبعة ردودهم على نقد عمل الوراقين العثمانيين، وخاصة على تهاونهم وإهمالهم وتباطئهم في العمل. ولم يكفهم أن كان المخطوط نادرًا في ذلك العصر، بل إن الناسخين أساءوا إلى المثقفين بنسخ كتب مليئة بالأخطاء، نتيجة جهلهم وعدم درايتهم بقواعد اللغة والرسم، وهذا على عكس ما كان عليه أسلافهم في الماضي من تفان ودراية عالية في التوريق. ونتيجة لهذا الوضع فإن أنجع حل حسب رأي أنصار المطبعة، يكمن في تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع.

٤.٢ - الكتابة العربية:

ما ردود فعل المسلمين تجاه التحولات التي ستلحق بالخط العربي في صورة تعويض قلم الناسخ بحروف المطبعي؟ وما مكانة الخط العربي في

---

(٢) متفرقة. رسالة وسيلة الطباعة.

في السياق نفسه يقول الرحالة دي لافيلا الذي زار سوريا في ١٠٣٤ هـ/١٦٢٥م "لايوجد لدى الشرقيين إلا القليل من المخطوطات لأن الناسخين يقضون وقتا طويلا لكتابتها، وفي العادة لا يوفقون في تدوين النسخ نتيجة جهلهم وإهمالهم وإسراعهم الكبير في الكتابة للحصول على المال مقابل العمل "ذكر في : Chevillier,A, L'origine…op.cit., p.270.

(٣) متفرقة، **رسالة...**" المصدر نفسه، ص ١٩٨-٢٠٠.

المجتمع الإسلامي؟ وللإجابة عن هذا السؤال سنتناول بالدرس الجوانب الاجتماعية والفنية للخط العربي.

٤.٢.١ - الجانب الفني للخط العربي:

تعوّد المثقفون على قراءة مخطوطات جميلة مكتوبة بخط عربي بديع، ولم يكن من السهل تحويل الأذواق من قراءة نصوص مكتوبة بخط اليد إلى حروف الطباعة(١). تمثل الكتابة العربية إلى جانب وظيفتها العلمية نشاطًا فنيًا من الدرجة الأولى، فكيف حدث هذا التطور في تاريخ الخط العربي، وما أبعاد هذا الجانب الفني في الحوار الذي دار بين معارضي المطبعة وأنصارها.

انتشر الحرف العربي في فجر الإسلام بسرعة كبيرة، وساعدت على ذلك الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، وكان مرتبطًا بتوسع استعمال العربية التي هي لغة القرآن والثقافة التي تخاطبت بها عدة شعوب غير عربية دخلت الإسلام وتعلمتها لتلقي تعاليم الإسلام والاندماج مع العرب الأصليين والتعامل مع إدارة الدولة التي عربت في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(٢). ووصل الأمر إلى حد أن اللغة العربية عوضت بعض اللغات المحلية. كما أن الحرف العربي استخدم لرسم لغات غير عربية لبعض الشعوب الإسلامية. إن هذا الحرف له مكانة خاصة لدى المسلمين باعتبار أنه استعمل لرسم الآيات القرآنية، وهو يعني بالنسبة لهذه الشعوب الشعور بالانتماء إلى دين وثقافة وتاريخ مشترك، وبالتالي إلى الحضارة الإسلامية(٣). وقد بذلت كل

(١) يعلل سليمان نقري، وهو مسيحي من الطائفة الأرثوذكسية بسوريا عاش في القرن ١٢هـ/١٩م، امتناع الشرقيين عن إقامة مطابع بولعهم الشديد بالكتابة بخط اليد، فهم متعودون على استعمال المخطوطات الجميلة، وليس لهم أي حافز لاستخدام الكتب المطبوعة.

(٢) Chauvin V, « Notes…op.cit., » p.257.

(١) يقول مكسيم رودنسون: "إن الكتابة رمز في نظام اجتماعي، رمز انتماء لحضارة قائمة على إيديولوجية، أي بالنسبة للفترة التي نتحدث عنها على ديانة معينة".

هذه الشعوب جهدًا كبيرًا وسخرت كل مواهبها الفنية لتحسين الخط العربي وإعطائه رونقًا خاصًا. ولأن كثيرًا من الأئمة والفقهاء أفتوا بكراهية التصوير في الإسلام(١)، فقد سخر الفنانون كل مواهبهم للإبداع في رسم الحرف العربي، وأصبحت الكتابة هواية كل الفنانين، وكذلك العلماء الذين حرصوا على التفاني في كتابة كلام الله بخط جميل؛ ليكون في مستوى قدسيته.

ويخصص ابن خلدون فصلاً في المقدمة للحديث عن هذا الموضوع، فأثنى على الخط العربي وعدّه من "جملة الصنائع المدنية المعاشية"(٢)، وللوصول إلى هذا المستوى الرفيع من الإتقان عمل الفنانون على تطوير جملة من فنيات وأدوات الناسخ، مثل القلم أو القصبة وطريقة مسكه، والحبر وكيفية إعداده، واختيار الورق، واستنباط الخطوط الجيّدة، وانعكس كذلك على أدبيات بعض الوراقين(٣).

وقد شغف المسلمون بفن الخط العربي وتسابق المتعلمون في اقتناء المخطوطات المكتوبة بأجود الخطوط العربية، ولم يكن من السهل تغيير مثل

Rodinson, M, « Le Monde islamique et l’extension de l’écriture arabe » In, **L’Ecriture et la psychologie des peuples**ة. Paris, Colin, 1963, p.268.

(٢) اختلف الفقهاء في مسألة تحريم أو إباحة التصوير فهناك من يرى أنه كان مكروهًا، ولم يكن محرمًا تحريمًا صريحًا، وهناك من يقر بجوازه ما دام بعيدًا عن الوثنية وعن شبهة منافسة الخالق، في حين هناك من استمسك بتحريمه. ولمزيد المعلومات يمكن النظر في: الباشا، حسن، **التصوير الاسلامي في العصور الوسطى**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م، ص ٩-١٥؛ تيمور، أحمد، **التصوير عند العرب**، القاهرة، إخراج زكي محمد حسن، ص ١٢٨.

(٣) ابن خلدون، عبدالرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، مراجعة وتعليق عبد الباقي خريف، تونس: دار الشباب للنشر والتوزيع سيلدار، ٢٠٠٦م، ص.٦٣٠.

(٤) كتبت أشعار ورسائل لمدح القلم والحبر والتحدث عن الخط وطريقة الكتابة، مثل أقوال ابن البواب في الريحاني، أو رسالة أبي حيان في الكتابة. و يقدم ابن خلدون في المقدمة قصيدة ابن البواب لينتفع بها من يريد تعلم صناعة الخط. ويتحدث القلقشندي عن ذلك أيضًا في موسوعته **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، جزء ١و٢و٣. وكذلك ناجي، زين الدين، **مصور الخط..** المصدر نفسه، ص ٣٣٨-٣٩٦.

هذه التقاليد الفنية والأذواق وتحويلها بسرعة نحو حروف الطباعة العربية. وقد عبر أحد العلماء المسلمين عن تعلقه بالكتابة المخطوطة، وهو أستاذ طب بالقاهرة الذي قال سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م : "إنه من السهل فهم الكتابة بخط اليد أكثر من الكتابة المطبوعة"(١). إن هذه المقارنة البسيطة بين كلا الشكلين في الكتابة، تبين أن هذا العالم لا يعتقد بأن حروف الطباعة يمكن أن تكون واضحة مثل خط الناسخ، ويعبر الأستاذ عن تخوّفه على مصير الخط العربي إذا ما أصبح يكتب بآلة الطباعة، إذ إنها ستشوه الكتابة العربية الجميلة.

اطلع المسلمون على عينات من نصوص عربية مطبوعة في أوروبا، إلا أنهم لم يطمئنوا إلى فن الطباعة ورأوا فيه تشويهًا للخط العربي الجميل، ذلك لأن الكتب العربية الأولى المطبوعة في أوروبا التي وصلت إلى العثمانيين قد أعطت فكرة سيئة عن حروف الطباعة، وقد عبر عن هذه المشكلة بأكثر تفصيل إبراهيم متفرقة الذي أكد أن المنشورات العربية بأوربا قد تعرف إليها المسلمون، إلا أنه اعترف بأنها لم تجد إقبالاً من لدنهم، لا لشيء سوى أنها طبعت بأحرف عربية رديئة ومليئة بالأخطاء، والسبب في ذلك حسب متفرقة هو افتقاد أوروبا لأشخاص قادرين على حفر حروف عربية جميلة(٢).

إن هذا التعليل ينطبق فعلاً على الكتب الأولى فقط، حيث طبعت بأحرف غير متناسقة وبدت الكتابة غير واضحة الأمر الذي لا يقبله أبناء الشرق(٣). وفي الحقيقة هناك مشكلة فنية اعترضت الأوروبيين عند بداية تعاطيهم الطباعة

---

(١) Stochove, Voyages…op.cit., p.440.

(٢) متفرقة، **رسالة** ... المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(٣) مثال ذلك كتاب صلاة اليسوع وهو كما رأينا أول كتاب عربي مطبوع، صدر في فانو بإيطاليا سنة ٩١٩هـ/١٥١٤م، وأيضًا رسالة بولس الرسول الذي طبع في هايدلبرغ سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م وكل هذه الكتب طبعت بأحرف عربية رديئة ومتقطعة وبعيدة عن المخطوطات العربية الجميلة.

بالأحرف العربية، وتتمثل في صعوبة حفر الحروف العربية. إن مبدأ الأحرف المنفصلة الذي اكتشفه غوتنبرغ ينطبق على الهجائية اللاتينية التي تقبل مبدأ فصل الحروف وهذا لا يتماشى مع طبيعة الكتابة العربية التي تبقي على ترابط الأحرف في الكلمة الواحدة، وبدون ذلك يكون النص متقطعًا. هذه المشكلة الفنية لم تشجع المسلمين وخاصة المحافظين منهم على طبع كتبهم واعتبروا المطبعة خطرًا يهدد الخط العربي ويهدم أحد أروع الفنون التي شهدتها الأمة الإسلامية. ويلاحظ ديمرسمان في هذا الصدد أن قبول أحرف الطباعة يمثل قطعًا فائدة عملية، ولكنه يعني في الوقت نفسه قبول التشويه[١].

أمام هذا الوقف المتصلب من طرف أنصار المخطوط والكتابة العربية بخط اليد، كيف كان رد فعل أنصار المطبوع؟ وما الحجج التي قدموها لتأييد موقفهم في هذه المسألة. لقد سبق أن رأينا أن إبراهيم متفرقة قد نقد عمل المطبعيين الأوروبيين الذين أصدروا كتبًا عربية، واعترف بوجود مشكلة فنية، إلا أنه كان متفائلاً بخصوص مستقبل النشر العربي، إذ ليس من الصعب على الأوروبيين تجاوز هذه العقبة، ويكفي أن توكل المهنة إلى حفارين ماهرين قادرين على سبك القوالب وطوابع الحروف العربية حتى تكون شبيهة بالكتابة بخط اليد[٢]. من خلال هذا الرأي يمكن أن نستشف بأن متفرقة يقصد أنه إذا كان بإمكان الأوروبيين تجاوز هذا العائق، فالأمر يكون أيسر بكثير بالنسبة للشرقيين الذين يحذقون اللغة العربية ويقدرون على سبك حروف جيدة لها تضاهي كتابة المخطوط. نشير هنا إلى أن متفرقة لم يطلع على التطور الفني الذي عرفته الطباعة العربية بأوروبا منذ القرن ١١هـ/١٧م، وإلا لما ذكر تلك التخمينات والآمال حول إمكانية تحسين طباعة الكتاب العربي، فقد توصل الأوروبيون فعلا إلى حل المشكل الفني، حيث قاموا بإعداد الأشرطة الرابطة بين الأحرف،

(١) Demersemann , « Les données…op.cit, in IBLA n° 65, 1954, p.40.

(٢) متفرقة، **رسالة**... المصدر نفسه، ص ١٩٩.

ونقشوا قوالب لأحرف عربية جميلة شبيهة بكتابة المخطوطات، وتمكنوا بذلك من طبع نصوص عربية بخط بديع(١).

وقد حرص أنصار المطبعة على القيام بتجارب عملية بأنفسهم حتى يقنعوا المعارضين، وخاصة السلطات، بأنه لا خطر على الكتابة العربية من المطبعة، فتولى أحدهم وهو إبراهيم متفرقة إعداد عينة من قوالب وأحرف عربية وقدمها مع رسالته إلى العلماء ورجال الباب العالي(٢). بل إنه ذهب أكثر من ذلك لطمأنتهم على مصير الخط العربي، فذكر بعض الفوائد للحبر الذي يستخدم في المطبعة من بينها أنه لا تؤثر فيها الرطوبة ولا يقع كشطه بسرعة كما هو الحال بالنسبة للمخطوط(٣). إن من البديهي أنه كما يستخدم المطبعيون هذه المادة يمكن أن يستخدمها كذلك الناسخون، ولم تكن هذه الحجة متينة مثل بقية الحجج.

٤.٢.٢ - مكانة الخط العربي عند العلماء المسلمين:

إلى جانب ولعهم بفن الكتابة العربية، كان المسلمون يولون الحرف العربي الاحترام الكامل - كما رأينا - بعدّه الرسم الذي دونت به الآيات القرآنية. فالكتابة العربية كانت الأداة المادية لنقل رسالة الإسلام والحفاظ على نص القرآن ونص الحديث النبوي الشريف. ولذلك كانت محل عناية فائقة من طرف العلماء الذين اهتموا منذ فجر الإسلام بنسخ القرآن الكريم، وتسابقوا في إخراج أكبر عدد ممكن من النسخ(٤). ولهذا لم يكن من السهل تعويض هذا العمل اليدوي بآلة قادمة من بلاد المسيحيين. إن في طبع الكتب بأحرف عربية - كما

(١) مثل: مطبعة الميدتشي بروما.

(٢) صابان، سهيل، **إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته**، مراجعة عباس صالح طاشكندي، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥م، ص ٥١.

(٣) متفرقة، **رسالة وسيلة الطباعة**.

(٤) الحلوجي، **المخطوط**... المصدر نفسه.

يراه بعض العلماء - اعتداء على مكانة هذه الهجائية، وفي الاعتداء على هذه الكتابة اعتداء على القرآن نفسه(١). إن هذا الكتاب سيفقد في نظر هؤلاء "قيمته الروحية" إذا كتب "بأحرف من معدن" كذلك إن استعمال فن الطباعة يعني في نظر بعض المؤمنين "خيانة لأصالة الرسالة المحمدية. إنهم يخشون من قيام أناس انتهازيين منافقين بطبع كتب إسلامية محرّفة ومشوّهة(٢). ويكون المسلمون قد خانوا الأمانة التي نقلها لهم أسلافهم الأوائل وهي بالخصوص القرآن الكريم، وكتب الأحاديث التي دونت بأمانة وبدقة متناهية وبعد تحريات كبيرة.

هذا الحذر الشديد قد يكون مأتاه ما ورد في القرآن الكريم من إشارات إلى حفظ القرآن وصيانته وتأكيد على قيمة الكتابة وأوعية الكتابة وأدواتها. لقد أشارت عدة آيات إلى أن الله تعهد بحفظ القرآن من كل تشويه يمكن أن يلحقه مثلما حدث للكتب السماوية السابقة.

(١) يقول المستشرق الفرنسي قالان في آخر القرن ١٧ حول هذا الموضوع: رفض المحمديون النسخ التي جئنا بها خشية أن يقع فيما بعد إدخال كتاب القرآن مطبوعًا، وهو في نظرهم أكبر انتهاك لحرمة هذا الكتاب Galland,.A, Préface…op.cit. F.14

كما يقول الرحالة بيسباك في القرن ١٠هـ/١٦م:

" لا توجد أية أمة أجنبية في تفتحها وقبولها للمكتشفات القادمة من شعوب أخرى (مثل الأمة التركية) فهي لم تتردد في استخدام المدافع والجوامع وغيرها من الأشياء العديدة التي تظهر عندنا، بل كانت تقبل عليها بشغف كبير، إلا أنها لم توافق على استعمال الطباعة والساعات العمومية، ذلك لأن الدين رفض ذلك خوفًا من أن يفقد كتابهم المقدس في صورة طباعته قدسيته، وأن تنقص كذلك الساعات العمومية بعض نفوذ المؤذنين والعلماء".

Busbec , Ambassades…op.cit., pp.342-343.

(٢) صابات، خليل، **تاريخ** ... المصدر نفسه، ص ٢١. إن من المفيد معرفة ردود فعل المسلمين إزاء طبعات القرآن بأوروبا (طبعة هنكلمان بهامبورغ سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤ ومارشي في بادوا في ١١٠٩هـ/١٦٩٨م) إلا أن المصادر التي اطلعنا عليها لا تشير إلى هذه النقطة، بل ربما لم يقع البتة توزيع هذه الكتب بالمشرق.

فقد وردت آيات قرآنية تطمئن المؤمن على مصير كتاب القرآن الكريم، فالله عز وجل تكفل بحفظه **"إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون"** (الحجر/ ٩). فقد قرر الله تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل[١]، وأكد أن هذا القرآن العظيم هو محفوظ في الملأ الأعلى وهو قد تكفل بحفظه من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل[٢] **"بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ"** (البروج/ ٢١-٢٢) وعن طريقة تبليغه إلى الناس كافة يأمر تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أنه إذا جاءه ملك بالوحي أن يستمع له ويتكفل الله بجمعه في صدره وتيسيره لأدائه على الوجه الذي أنزله به إليه[٣] **"لا تحرّك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه"** (القيامة ١٦-١٧). أما عن الطريقة التي توخّاها الرسول صلى الله عليه وسلم في نقله إلى الصحابة فكان لها وجهان: نقل شفهي[٤] ونقل كتابي، وكلا الوجهين يتكاملان لحفظ القرآن، وتروي كتب السيرة أنه في كل مرة ينزل الوحي، كان الرسول يدعو بكتبة القرآن لتدوين الآيات المنزّلة في إبانها[٥].

---

(١) ابن كثير، إسماعيل القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٩م، جزء ٢، ص٥٤٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) حرص المسلمون على حفظ السور القرآنية عن ظهر قلب مع التقيد بقواعد القراءة، فظهر علم القراءات والتجويد والتلاوة.

(٥) يروي البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأحد الصحابة: "ادع لي زيدًا وليجئ باللوح والدواة والكتف أو الكتف والدواة" . كما يروي عن أم سلمة أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا بأديم وعلي بن أبي طالب فلم يزل رسول الله يملي وعلي يكتب حتى ملأ بطن الأديم وظهره وأكرعه". مرت عملية تكوين أول كتاب عربي وهو القرآن الكريم بعدة مراحل هي مرحلة التدوين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومرحلة الجمع في عهد أبي بكر، ومرحلة توحيد المصحف ونسخه في عهد عثمان، وأخيرا ضبط القرآن ووضع العلامات والحركات في عهد الدولتين الأموية والعباسية. انظر: الحلوجي. **المخطوط**.. المصدر نفسه، ص ٦٧-٩٩.

وهذه العملية بالذات كانت جوهرية للحفاظ على نص القرآن من كل تحريف، لأن الإسلام يعطي للكتابة مكانة متميزة لحفظ تعاليم الإسلام ونقلها عبر العصور إلى البشر كافة وكذلك لتنظيم العلاقات بين المؤمنين، من ذلك كتابة العهود والديون والعقود والحسابات، وخاصة لتعليم المسلم ولبث المعرفة والعلوم(١).

لقد أعطى القرآن أهمية بالغة أيضًا لأدوات وأوعية الكتابة من ذلك أن الله أقسم ببعضها للدلالة على مكانة العلم والقراءة والكتابة في حياة المسلم مثل القلم: **"ن والقلم وما يسطرون"** (القلم/١) وكذلك الرق وهو جلد الحيوان يرقق ليكتب عليه **"والطور وكتاب مسطور في رق منشور"** (الطور/١-٣).

لم يفرض الإسلام على المؤمنين استعمال أداة من أدوات الكتابة دون غيرها أو وعاء دون وعاء. فالمهم هو أن يتعلم المسلم ليفهم دينه ويتدبر آيات الله وعظمته ويفيد غيره من إخوانه بعلمه، لذلك سرعان ما عوض المسلمون أوعية المعلومات القديمة بوعاء جديد لا يزال يستعمل إلى اليوم، وهو الورق الذي عوض بمرور الزمن الرق والبردي وغيره. وحدث تطور كبير في طريقة رسم الحروف العربية ووضع العلامات والحركات عليها، واستعمال حبر متطور في الكتابة واستخدام ماء الذهب في بعض الأحيان لنسخ القرآن الكريم، وهذا التنوع في الشكل لم يمس النص الأصلي للقرآن بأي تحريف أو تغيير. وكان ذلك في عهد ازدهار حضارة المسلمين. إلا أنه مع تدهور حالهم وجمود حياتهم الثقافية، لم تعد لديهم الرغبة ولا الاستعداد لتبديل أي شيء فيما يتعلق بالأمور الشكلية. إن تحفظ المسلمين حول تغيير الكتابة المخطوطة بكتابة مطبعية كان مأتاه الريبة والخشية من تغيير نص القرآن والحديث النبوي الشريف، وهذا الحذر عبّر عنه بصفة غير مباشرة شيخ الإسلام في عهد السلطان أحمد الثالث، حيث طلب منه الإفتاء في قضية الطباعة، وأن الالتجاء

(١) المصدر السابق، ص ٦٧-٦٩.

ذاته إلى الإفتاء يدل على أهمية الموضوع الذي لا يتجرأ السلطان نفسه على الحسم فيه قبل استشارة العلماء والفقهاء، رغم أنه يتمتع بالسلطة الدينية، والدنيوية فكيف تم عرض المسألة على شيخ الإسلام للبت فيها؟: " إذا أراد شخص سبك أحرف من معدن لطبع كتب التراث والعلوم مثل المعاجم وكتب الفلسفة والمنطق والفلك وغيرها هل ترخص له الشريعة باقتناء مثل هذه الكتب لطبعها؟(١).

يعدّ صاحب هذا السؤال من أنصار المطبعة وإن لم يذكر اسمه ولا يستبعد أن يكون الصدر الأعظم نفسه إبراهيم داماد أو إبراهيم متفرقة أو رفيقه في المشروع سعيد شلبي(٢). واتسم طلبه بالحذر إذ حدد مواضيع الكتب التي يريد طبعها. ويبدو أنه يعلم يقينًا أن العلماء لن يسمحوا له بطبع كتب الفقه والعلوم الدينية فالعقول غير مستعدة للدخول في "مغامرة" منذ الوهلة الأولى لطبع مثل هذه الكتب، ورغم هذا الطلب "المعتدل"، فقد أظهر بعض العلماء علامات التردد وحتى الرفض(٣). لم يكن شيخ الإسلام مستعدًا لتحمل مسؤولية اتخاذ قرار خطير مثل هذا، ويمكن أن يكون غير متحمس للمشروع إلا أن ضغط الباب العالي جعله يذعن ويوافق على إقامة المطبعة، وقد جاء في نص الفتوى:

"إذا تمكن أحدهم من طبع الكتب المذكورة أعلاه بأحرف معدنية بدون أخطاء، فإنه سيسهل العمل ويوفر نسخًا كثيرة من الكتب بثمن زهيد وييسر اقتناء الكتب. إني أقر لهذا الفن فوائد عظيمة ويستحق التشجيع ولا ينبغي البتة تأجيل استخدامه بشرط أن يتم اختيار أناس ماهرين لإصلاح الأغلاط قبل الطبع والتثبت من مدى مطابقة النسخ للمخطوطات الأصلية"(٤).

---

(١) ورد نص فتوى شيخ الاسلام سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م في مقدمة أول كتاب أصدرته مطبعة إستانبول، وهو صحاح الجوهري، كما وردت الترجمة الفرنسية في: Rev. Bib, 1895, pp. 191-192

(٢) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٣) سليم نزهت، **تاريخ ...** المصدر السابق، ص ٤١.

(٤) فتوى شيخ الاسلام.

وافق المفتي إذن على إقامة مطبعة إسلامية بالبلاد العثمانية، مع بعض الشروط، أولها: عدم طبع كتب عن الشريعة الإسلامية، بما أن الفتوى اقتصرت على المؤلفات المذكورة أعلاه أي في نص طلب الفتوى وهي كتب الآداب والعلوم الأساسية. أما الشرط الثاني فهو إخراج كتب سليمة من الأخطاء ومطابقة للأصل. وقد انتهى الحوار حول مسألة الطباعة إلى اتفاق بين الشق المعارض والمؤيد لها وهو الموافقة على استخدام فن الطباعة دون المساس بكتب الشريعة الإسلامية(١). انتصر التيار المحافظ في هذه النقطة واضطر التيار الإصلاحي إلى الرضوخ أمام تصلب العلماء حتى القرن ١٩م(٢). فقد أكد السلطان عبد الحميد الأول سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م رفضه لطبع كتب الشريعة(٣). لقد بقي في نفوس المتعلمين بعض الشك حول مدى قدرة آلة الطباعة على نسخ كتاب القرآن وكتب الشريعة بدون أخطاء. أضف إلى ذلك عدم استعدادهم لكتابة اسم الله بأحرف معدنية. كذلك هناك عامل آخر شجع على اتخاذ هذا القرار، وهو أن كتاب القرآن وكتب السنة النبوية بالذات غير معرضة للاندثار ، إنها غير نادرة فهي مطلوبة بكثرة من طرف المؤمنين، وكان الناسخون يستجيبون للطلبات ، عكس المؤلفات العلمية والأدبية التي هي في تناقص في ذلك العصر.

---

(١) يقول إبراهيم متفرقة في إحدى مذكراته:"أصدر مولانا السلطان خط همايون يسمح بمقتضاه إقامة مطبعة لطبع كل الكتب باستثناء ما يتعلق منها بالدين والفقه مثل المعاجم والمؤلفات الطبية والفلكية والفلسفية والجغرافية وكل الكتب التاريخية والعلمية.

« Notes de Mutafarrika» in : Rev. Bib, 1895, p.200.

(٢) صدرت في تلك الفترة فتوى بإستانبول تجيز طبع كتب الدين والفقه أخذًا بالمذهب القائل: "الأمور بمقاصدها" رضوان، **تاريخ ...** المصدر نفسه، ص ١٦.

(٣) انظر نص فرمان السلطان عبد الحميد الأول لإعادة فتح مطبعة القسطنطينية في:

Toderini, De la littérature…op., cit., TIII, p.227.

المطبعة بالأحرف المتنقلة، هي اكتشاف أوروبي، إلا أنها اصطبغت عند إدخالها إلى بلاد المسلمين بخصوصيات المشرق لتصبح "شرقية"[١].

٤.٣- العلماء المسلمون والمطبعة:

من الضروري معرفة المناخ الفكري الذي عاش فيه العلماء المسلمون في عهد العثمانيين فكيف كانوا يرون المطبعة؟ كيف كان تفكيرهم؟ وما آراؤهم وبراهينهم لقبول المطبعة أو رفضها؟

٤.٣.١- حالة الآداب والعلوم في إستانبول:

عاش المجتمع العثماني "عصره الذهبي" على المستوى الثقافي والعلمي من فتح بيزنطة إلى وفاة سليمان القانوني[٢]، وقد عرف هذا العصر عدة مؤسسات علمية مثل مدارس محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليمان القانوني وغيرها. وحظي فيه العلماء والأدباء بالعناية والرعاية من طرف الباب العالي، وظهرت فيه مؤلفات علمية قيمة وخضع التعليم فيه إلى نظام صارم في مدارس داخلية وخارجية، كان فيها الأساتذة على مستوى عال من التكوين[٣] ومع تراجع القوة العسكرية للعثمانيين بعد موت سليمان القانوني، خفت نور العلم والثقافة

---

(٤) طبع القرآن لأول مرة من طرف المسلمين خارج حدود الإمبراطورية العثمانية وذلك في سان بتسبورغ عام ١٢٠١هـ/١٧٨٧م، بمبادرة من مولاي عثمان ثم في بولاق بمصر عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م وإستانبول عام ١٢٩١هـ/١٨٧٧م.

يشير أبو الفتوح رضوان في كتابه إلى أن علماء الأزهر عارضوا في البداية طبع القرآن قبل أن يسمحوا بذلك سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م إلا أن إحدى طبعات المصحف الشريف صودرت ومنع بيعها من طرف عباس الأول سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٣م. نظرًا لوقوع بعض الأخطاء المطبعية بها. **تاريخ مطبعة بولاق**، ص ٢٧٧-٢٨٢.

(١) Inalcik, Halil, The Ottoman Empire…op.cit., trad. N. Itzkowitz and K.Imber, London, Weidenfeld and Nicolson, 1973 pp.167-181; Adnan, A, la Science…op.cit., pp.21-54; Toderini, De la literature…op.cit., TII pp.15-40; Gibb, H.A.R. and Bowen, H.Islamic Society and the West, a Study of the Impact of Western Civilisation on Moslem Culture in the Near East, Londres, New-york, Toronto, Oxford University press, 1959, T II, pp.81-114.

(٢) Inalcik,, The Ottoman,…op.cit., pp.168-172.

وتزامن ذلك مع فراغ خزينة الدولة التي تأثرت بتوقف الحروب والفتوحات التي كانت قد وفرت في السابق للدولة أموالاً طائلة.

لقد ضعفت الحركة الثقافية والعلمية إذن بعد "العصر الذهبي" ولم يبدع العلماء العثمانيون كثيرًا في مجال الفكر والأدب[1]، ولم يواكبوا ما يحدث بأوروبا من تحولات فكرية هامة ولم يطلعوا على الاكتشافات التقنية هناك، حتى أن إبراهيم متفرقة تهجم عليهم لإهمالهم آلة الطباعة[2]. بل حدث تراجع عما كان عليه الحال من قبل، إذ تم إقصاء العلوم الأساسية والفلسفية من المدارس في القرن ١٧م. وتحدث عن هذا الوضع حاجي خليفة المعروف بكاتب شلبي (١٠١٨-١٠٦٨هـ/ ١٦٠٩-١٦٥٧م)، وهو أكبر عالم عثماني في القرن ١١هـ/١٧م[3] فتحدث في كتابه ميزان الحق عن الركود العلمي، ونقد نقدًا لاذعًا العلماء الذين لا يعيرون اهتمامًا للعلوم الأساسية[4].

بدأت فترة الجمود بتحطيم المرصد الفلكي بغلاطا (Galata) في ٩٨٨هـ/١٥٨٠م، وهو المرصد الوحيد من نوعه في البلاد العثمانية، أسسه مراد الثالث سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧م لدراسة جداول أولغ باغ (Ulugh-Beg)[5]، إلا أن شيخ الإسلام كان يرى في ذلك شكلاً من أشكال السحر وطلب من الباب

(٣) **Bombci, A, Histoire de la littérature turque,** Paris, Klinckreck, 1968, p.271; Mantran, Robert, **Istanbul dans la seconde moitié du XVIIè :Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale,** Paris, Maisonneuve, 1961 pp.420-421.

(١) يقول متفرقة : "لقد تسرب في هذه الأمة نوع من الكسل والتواني جعلها لا تهتم بكل ما يتعلق بالعلوم والآداب". رسالة وسيلة الطباعة.

(٢) يعتبره أديفار عدنان "رائد النهضة التركية". انظر: Adnan, La Science…op.cit., pp.120

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٧. Bombaci, Histoire…op.cit., p.309

(٤) أولغ باغ (محمود طرغاي) أمير مغولي (١٣٩٣-١٤٤٩م) حكم تركستان، عالم فلكي وفقيه وشاعر ومؤرخ، جعل من سمرقند آخر أكبر مركز للحضارة الاسلامية في العصر الوسيط، وفيه أعدت جداول أولغ باغ.

العالي هدم المرصد(١). إن حالة الركود التي عرفها العهد العثماني ليست من شأنها أن تفسر غياب المطبعة العربية. فإذا لم تظهر مطابع عربية قبل ١١٣٩هـ/١٧٢٦م فليس ذلك بسبب عدم الحاجة إلى الكتب. وكذلك فإن عملية تأسيس مطبعة في تلك السنة لم يملها طلب متزايد للكتاب، وهنا لا ينبغي الخلط بين أسباب ونتائج إقامة المطبعة، وما توقفنا عند الحالة الفكرية للعثمانيين، فذلك لأن هذا المناخ الثقافي يساعدنا على فهم ما حدث من حوار بين المحافظين والمجددين.

٤.٣.٢- موقف المحافظين من المطبعة:

هناك شهادة ثمينة تعود إلى القرن ١١هـ/١٧م، وتصور موقف أحد العلماء المعارضين لفن الطباعة، وقد جاءت في شكل حوار دار في سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، بين أستاذ الطب بالقاهرة والرحالة ستوكوف حول فوائد المطبعة ومضارها.

يبدأ الرحالة هذا الحوار بالتعبير عن استغرابه من رفض المسلمين لفن الكتابة الجديد الذي يفيد كثيرًا في نسخ كتب العلم بإعداد كبيرة. إلا أن العالم المصري أبدى رأيًا معاكسًا لذلك، وبين أن لا جدوى منها" بل إنها ضارة فهي توفر عددًا لا يحصى من الكتب التي تتسبب في إدخال الاضطرابات على العقول، عوض أن تجعل منا حكماء، وإن ظاهرة قلة الكتب عندنا لا تعني أن الحكمة تنقصنا، ويكفي أن يحصل كل منا على كتب تتماشى مع مهنته ونمط معيشته لا غير، وينبغي الاعتدال في طلب الكتب ولا مجال إلى الجشع حتى لا نقع في متاهات. إن النبي سليمان عليه السلام، الذي يعتبره الأتراك

---

(٥) Inalcik, The Ottoman…op.cit., p.179.

والمسيحيون من أكبر الحكماء، قد قرأ وكتب كثيرًا، ولم يكن يؤيد هذا الشغف بالكتب. كذلك نظرًا لسهولة عملية الطبع فسوف يصدر عدد كبير من الكتب الرديئة الأمر الذي لا يمكن حدوثه إذا كان النسخ بخط اليد؛ لأن هذه المهنة لا يتعاطاها إلا أشخاص مؤهلون ذوو عقول نيرة فلا يضيعون جهدهم وأموالهم في كتابة ونسخ كثير من الكتب السيئة التي تثلب الجمهور الخاص والعام"(١). وهنا يطمئنه الرحالة ستوكوف بأن هناك مراقبين يتولون تفحص الكتب قبل إعطاء الإذن بطبعها، ولا يسمحون بطبع "الكتب الرديئة"، فكان رده : "إن من طبيعة البشر الرغبة في ارتكاب الممنوعات وبقدر ما يكون الكتاب ممنوعًا، بقدر ما يكون التهافت عليه كبيرًا"(٢).

لم يقتنع العالم المصري بكلام الرحالة الأوروبي، وبدأ في رده جد مقتنع بالبراهين التي قدمها لتدعيم رفضه لآلة الطباعة وهي تعبر عن المفهوم الذي يحمله عدد من العلماء عن أداة الكتابة الجديدة، وهو يرى أن لا فائدة من الإكثار من الكتب، ويكفي أن تقتصر قراءات كل عالم ومتعلم على الكتب التي تدخل في اختصاصه واهتماماته دون غيرها. إن نظرته للثقافة ضيقة، فرغم ندرة المخطوطات، فإنه يعتقد أنها كافية ويقدم هذا الاقتراح المبتور حتى تنقطع الطريق أمام الكتاب المطبوع، وهذا ليس بالغريب، فالعصر هو عصر جمود فكري وعدد المتعلمين ضعيف ورغبتهم في القراءة أضعف.

أهم ما يشغل بال الأستاذ المصري هو خطر نشر عدد ضخم من "الكتب الرديئة" أو "الكتب الممنوعة"، الأمر الذي قد يتسبب في إدخال الفوضى في أوساط المثقفين. ولكن ماذا يعني "بالكتب الرديئة أو الممنوعة؟" يمكن أن نقدم ثلاثة احتمالات أمام غموض الوثيقة. فقد يقصد بالكتب الرديئة تلك المؤلفات التي تتناول الفلسفة، أو الصراعات المذهبية بين المسلمين والمسيحيين التي

---

(١) Stochove, Voyage…op.cit., 139-141.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤١.

طبعت بالعربية بأوربا. وقد تكون كتبًا جدلية بين المسلمين والمسيحيين. فأما عن الاحتمال الأول فهو وارد إذا علمنا أن الفلسفة وبعض العلوم الأخرى قد أقصيت من المدارس، وأن الصراع المذهبي في ذلك العصر كان قائمًا بين السنة والشيعة، والذي تبنته الدول القائمة آنذاك، وبالذات الدولة العثمانية السنية، والدولة الصفوية بإيران الشيعية، وتجاوز الصراع فيها المستوى الفقهي بين العلماء ليتحول إلى مواجهة عسكرية بين الطرفين. ولم يكن الباب العالي ليتسامح مع دعاة الشيعة داخل دولته، فقد واجه مثلاً بعنف حركة الأمير الدرزي فخر الدين الثاني وقضى عليها ليس فقط لأنها تطالب باستقلال جبل لبنان، بل وكذلك لأنها شيعية متطرفة(١).

أما عن الاحتمال الثاني فهو يتعلق بالكتب المسيحية المطبوعة بالعربية بأوروبا والتي وزعت بالمشرق. و لا يستبعد أن يكون صداها قد بلغ إلى مسامع هذا الأستاذ، وخاصة تلك الحادثة التي هزت الباب العالي وتتمثل - كما رأينا - في توزيع كتب بروتستانتية، والتي حدثت قبل بضع سنين من إجراء هذا الحوار بين الرحالة الأروبي ستوكوف والعالم المسلم.

أما الاحتمال الثالث فهو كتب الجدل بين المسلمين والمسيحيين، فالصراع الديني كان على أشده بين الطرفين واستخدمت المطبعة فعلاً لتغذية هذا الجدال. فقد أصدرت مثلاً مطبعة اليسوعيين بروما كتابًا جدليًا ضد الإسلام عنوانه **"هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة"**، كتبه أحد الأقباط المجهولين ونشره الأب إليانو عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م، ليفنّد تعاليم الإسلام، وجاء في شكل حوار تخيله المؤلف بين شيخين مسلمين إثر عودتهما من مكة المكرمة أظهرا فيه اقتناعهما بالمسيحية حسب مذهب كنيسة روما.

(١) Chevallier, Dominique. **La société du Mont-liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe,** Paris, Geuthner, 1971, p.11, note 3.

إن قلق الأستاذ المصري وتحفظه، له ما يبرره. فقد ظهرت عدة كتب مطبوعة بأوربا في القرن ١١هـ/١٧م تتناول مواضيع جدلية ضد الإسلام، ولو تم توزيعها فعلاً في أوساط المسلمين لحدثت ضجة كبيرة. إلا أن الوثائق لا تشير إلى أنها وصلت إلى أيدي المسلمين، بل إن توزيعها اقتصر فقط على المسيحيين العرب. فمثلاً أصدر مجمع نشر الإيمان بروما كتابًا للأب الفابوري موجهًا إلى الكاثوليكيين العرب كما يقول مؤلفه: "اعلم أيها المؤمن بالمسيح أنه قد يوجد للأمانة الأرثوذكسية في بلاد الشرق ثلاثة أعداء متضادين، أي المسلمين واليهود والأراتقة، وأنت ملزوم بقتالهم ونقض بنيانهم على الدوام"(١).

أما كتاب الجدل للقسيس كوادانولوس فكان للرد على أحد العلماء المسلمين الذي كان قد دحض فيه المسيحية في رسالته"صاقل المرآة" وقدم كوادانولوس لذلك حججًا لإثبات صحة الإنجيل "والتثليث"(٢). أما عن طبعات القرآن الكريم في هامبورغ وبادوا في القرن ١١هـ/١٧م، فقد خصصت مقدمة كلتا الطبعتين للتهجم على الدين الإسلامي.

هذه العينة من منشورات أوروبا رغم أنها ظهرت متأخرة عن شهادة الأستاذ المصري، تمكن من إدراك مدى تخوف العلماء المسلمين من طبع كتب تتناول مسائل الصراعات الدينية والمذهبية أو مواضيع فلسفية ونشرها على نطاق واسع، وما ينجر عنها من آثار سلبية. ولهذا فإن الأستاذ المصري يفضل

---

(١) الفابوري ميخائيل، كتاب يشتمل على أجوبة أهل الكنيسة المقدسة القاثوليقية الجامعة الرسولية لاعتراضات المسلمين واليهود والهراتقة ضد القاثوليقيين روما مجمع نشر الايمان، ١٦٨١، ص ١-٢.

(١) يقول كودانولوس في مقدمة كتابه الجدلي: "فخذ الآن يا قارئي الفقيه أحاديثنا في هذا الكتاب بأسرار الله وشريعة المسيح وانكشاف أباطيل الغرور لتعرف حق المسيح". إجابة القسيس فيليب كوادانولوس إلى أحمد الشريف زين العابدين الفارسي الأسبهاني"، روما، مجمع نشر الإيمان، ١٦٣٧م، ص ٢.

الاقتصار على استخدام المخطوط، فهو مخصص لفئة صغيرة من المجتمع، ولا يسيء إلى الدين ولا إلى العقول، إذ إن مهمة نسخ الكتب موكولة إلى أناس من ذوي الكفاءات العلمية والمستنيرة التي "تترفع" عن إحداث الفتن. ويعتقد أستاذ القاهرة أن الثقافة طالما بقيت في مستوى النخبة أو الخواص، فلن يحدث الاضطراب. ويؤكد هذا الرأي شهادة أخرى للأستاذ نفسه الذي دعا الرحالة الأروبي إلى التحاور معه حول مسائل إسلامية وتشريعية، مبينًا له أن هذا النوع من المسائل يمكن تناوله مع الجمهور الخاص، إلا أن من التهور إثارته مع جمهور العامة. ويبدو من هذا الموقف أن هناك شبه "احتكار" للمعرفة من طرف أقلية من الناس ترى في نشر المعرفة على مدى واسع تهديدًا للنظام الاجتماعي القائم. هذا إذن موقف أحد المحافظين المعترضين على استخدام المطبعة ونظرته الضيقة للثقافة ودفاعه علن المخطوط الذي لا يقرأه إلا الجمهور الخاص في المجتمع العثماني وتهجمه على الكتاب المطبوع الذي يمكن أن يصل إلى فئات عريضة من المجتمع. فكيف كان رد فعل أنصار المطبعة إزاء هذا الموقف؟

٤.٣.٣- موقف الإصلاحيين من المطبعة:

أهم وثيقة تعبر عن موقفهم هي "رسالة وسيلة الطباعة" لمتفرقة، الذي يقدم فيها عدة حجج ليبرهن فيها على مزايا فن الطباعة قبل تأسيس أول مطبعة بإستانبول. وسنكتفي في هذه الفقرة بتحليل عام للرسالة بعد أن تعرفنا ولا نزال، على بعض آراء متفرقة وردوده على آراء المحافظين في هذا الموضوع.

تنقسم الرسالة إلى ثلاثة أجزاء: تعرض الجزء الأول إلى لمحة تاريخية عن اختراع الكتابة وكيفية استخدامها من طرف الدولة في القديم لتدوين القوانين على مختلف الأوعية. ثم مع ظهور الإسلام استعملها المسلمون في تأليف كتبهم وفي نسخ المؤلفات العلمية المختلفة. وفي الجزء الثاني أكد متفرقة أن اليهود والنصارى، فقدوا كتب دينهم الأصلية لأنهم لم يكتبوها في حينها، ولذلك

عمدوا إلى تأليف كتب أخرى غير مطابقة لرسالتي موسى وعيسى عليهما السلام. إلا أن المسلمين تفادوا هذا المشكل لأنهم كتبوا القرآن عند نزول الوحي وأكثروا من النسخ المطابقة للأصل وحفظوا السور القرآنية عن ظهر قلب، وقد ألفوا طيلة تاريخهم عددًا ضخمًا من الكتب في مختلف فروع المعرفة. إلا أن عددًا هامًا منها اختفى بسبب الحروب وغزو المغول والتتار وفقدان بلاد الأندلس. وذكر أن عصره يعاني من الركود الثقافي بسبب نقص الكتب وانعدام الجدية لدى العلماء والناسخين. أما الجزء الثالث فقد بدأه إبراهيم متفرقة بتعريف للمطبعة ثم ذكر منافعها من ذلك "أنها تضاعف إلى ما لا نهاية له من عدد النسخ نفسه للكتاب مع مراعاة الدقة الكاملة في النص، الأمر الذي تعجز عن تحقيقه الكتابة بخط اليد"(١) ويركز إبراهيم متفرقة على اثنتين من فوائد المطبعة لا يستطيع المخطوط محاكاتها فيهما ، الأولى: هي الإكثار من الكتب بفضل آلة الطباعة التي تستطيع سحب مئات من النسخ بل الآلاف، والثانية: دقة النص المطبوع وخلوه من الأخطاء؛ إذ تتم مراجعة النص وإصلاحه بورشة المطبعة قبل إعطاء الإذن بالسحب. وللتأكد من عدم نقصان النص ولمساعدة القارئ في قراءة الكتاب يقترح متفرقة في رسالته إدراج فهرس الموضوعات وكشاف بكل كتاب مطبوع. ثم يعدد متفرقة فوائد أخرى للمطبعة منها: احياء المؤلفات الإسلامية التي كادت تنقرض وقدرتها على مضاهاة حروف الكتابة بخط اليد من حيث الجمال والروعة وانخفاض أسعار الكتب المطبوعة، وهذا يسهل على كل المسلمين اقتناء نسخ منها مما يسهم في تثقيف الرعية والقضاء على الجهل، وأن الأمة المتعلمة تقدر كما يقول على البقاء قوية عسكريًا ويتضاعف عدد الكتب كما أشرنا سابقا بفضل المطبعة إلى درجة أن مختلف المؤلفات العلمية تصل إلى الولايات العثمانية البعيدة وتؤسس في كل المدن المكتبات العمومية التي يستفيد منها القراء المواظبون، وبذلك تنشر المعارف

---

(١) رسالة وسيلة الطباعة

في كل الأماكن التي لم تصل إليها من قبل"(١). كما أعرب متفرقة عن تخوفاته إن لم يسارع المسلمون بإقامة مطابع عندهم، من أن تغرق أوروبا سوق المشرق بالكتب العربية المطبوعة عندها، بعد أن توفق في تخطي المشاكل التقنية، فتخرج كتبًا دقيقة وبخط جميل. هذا وقد أثار متفرقة هذه النقاط للرد على الحجج التي قدمها المحافظون، بل كان في كل مرة يتهجم إما على المخطوط والناسخ أو العلماء ويحملهم مسؤولية الركود الفكري، ثم يذكرهم بأن الحل يكمن في تبني المطبعة. فهو يرى أنها أحسن وسيلة لإنقاذ التراث الفكري. ولتمكين كل المسلمين من التعلم ولمواكبة العلوم الحديثة، وهو يريد أن يؤدي هذا الاكتشاف الثقافي إلى النتائج نفسها التي توصلت إليها أوروبا أي فتح الطريق نحو التقدم والمعرفة.

ويدافع متفرقة بذلك عن كل الأميين في بلاد الإسلام المحرومين من وسائل التعليم، وموجهًا نداءً لأجل "ديموقراطية" المعرفة والثقافة بواسطة هذه "الأداة الثورية" أي الكتاب المطبوع. لا يختلف مفهوم المطبعة بالنسبة للمجددين في القرن ١٢هـ/١٨م وبالخصوص لإبراهيم متفرقة، عن مفهوم الأوروبيين لها في المدة نفسها، أي أنها وسيلة لمضاعفة عدد الكتب مع مطابقتها للأصل، وأنجع طريقة لنشر العلم في كل البلدان، ولدى كل الفئات الاجتماعية، وإذا حصل ذلك فإن البشر سيصبحون أحرارًا ومتعلمين.

٥ - الأسباب الاجتماعية:

أبدى المحافظون قلقهم عن مصير الناسخين في صورة إقامة المطابع، فهي ستقضي على مهنتهم بسبب مزاحمة الطباعة لها. ولم يعد الأمر يتعلق بتقديم تنازلات من طرف المعارضين لفن الطباعة وذلك بالتضحية بأدوات العمل الفكري، بل إن القضية تتمثل الآن في التنكر للناسخين الذين قدموا عبر قرون

(١) المصدر نفسه.

كثيرة خدمات جليلة للعلم والثقافة، وذلك بإهمال إنتاجهم والانصراف عن المخطوط إلى المطبوع بل إن الأخطر من ذلك هو حرمانهم من مورد رزقهم، وإحالة عدد ضخم منهم على البطالة. لذلك عارض المحافظون إدخال آلة الطباعة نظرًا للأضرار الاجتماعية التي ستلحق بالناسخين(١). ولكن هل يعتبر ذلك عائقًا أمام استعمال اكتشاف جديد خاصة ونحن نعلم أن أي تطور تقني أو صناعة جديدة تضر حتمًا بأهل الحرفة التقليدية.

إن الأمر مرتبط بعدد الناسخين ومكانتهم الاجتماعية وقدرتهم على التصدي لآلة الطباعة. ويبدو أن عددهم كان كبيرًا وله وزن في المجتمع العثماني، إلا أنه لا يصل إلى العدد الذي قدمه الرحالة الإيطالي مارسيغلي عنهم، وهو تسعون ألفًا في مدينة إستانبول وحدها(٢). هذا العدد مهول جدًا ويدفعنا إلى التثبت من مدى صحته بالتعرف أولاً على عدد السكان بالعاصمة العثمانية والذي يقره روبار منتران في القرن ١١هـ/١٧م بنحو سبعمائة أو ثمانمائة ألف

---

(١) De Saussure, Lettres…op.cit, p.94 ; Galland, Préface…op.cit., F14.

هناك الكثير من المؤلفين في القرنين ١١-١٢هـ/١٧-١٨م ممن أثاروا هذه القضية وأكدوا على الجانب الاجتماعي فيها. من ذلك سوسير الذي قال: "إن آلاف الناسخين في إستانبول وداخل الإمبراطورية، سيتعرضون إلى الموت جوعًا لأنه لم يعد بإمكانهم كتابة الرسائل ودفاتر الحسابات ومذكرات الخواص وأيضًا كل الكتب المنتشرة في الإمبراطورية لأنه سيقع طبعها جميعًا. ويتناول هوسون هذه المسألة بقوله : "إن كثرة المخطوطات والخوف من تفقير جمهور كبير من الناسخين هما السببان الأساسيان اللذان ساهما في تأخر ظهور الطباعة عند العثمانيين.
D’Hosson, Tableau…op.cit, T1 p.298 ; Voir aussi Marsigli, l’Etat…op,cit, p.313 ; De Guignes « Essai…op.cit. » p.XXVIII.

(١) يقول مارسيغلي : "إنهم لا يريدون منع الناسخين وعددهم تسعون ألفًا لما كنت بالقسطنطينية من الحصول على مورد رزقهم".

Marsigli, l’Etat…op.cit., p.313.

ساكن(١). وإذا قمنا بمقارنة مع العدد الذي قدمه مارسيغلي، فإن نسبة الناسخين يساوي عشر سكان المدينة وهذه النسبة هي جد مبالغ فيها على أنه من المؤكد أن عدد الوراقين مرتفع وقد يبلغ بضعة آلاف إذا اعتمدنا كلام دي سوسير(٢). إلا أنه أبعد ما يكون عن الرقم الخيالي الذي ذكره الايطالي مارسيغلي حتى وإن اعتبرنا كل مهن الكتاب من تسفير ووراقة، وصناعة الحبر وغير ذلك(٣) فعدد بائعي الكتب في إستانبول على سبيل المثال يقدر بنحو خمسمائة لا غير(٤).

لا يمكن لجميع الناسخين أن يتحولوا إلى مهنة مطبعي، فعددهم كبير ومحلات الطباعة لا تتطلب قوى عاملة كثيرة، هذا بالإضافة إلى أن فن الطباعة يتطلب خبرة فنية ومهارات لا تنطبق بالضرورة مع مؤهلات الناسخ، وحتى إن توفر هذا الشرط فإن الناسخين يعارضون المطبعة ويريدون الإبقاء على اختياراتهم الاجتماعية، خاصة وأنهم منظمون وقادرون على التصدي إلى "خطر الطباعة". ففي العهد العثماني كان صنفهم منظم بإحكام مثل بقية الأصناف الأخرى: فهو يجمع الرؤساء (الأسطى) والصناع(القلفة) والمساعدين (شيراك)(٥). وكان الأعراف ينتخبون الهيئة المديرة للصنف، والتي تدافع عن مصالح الصنف لدى الإدارة، وتتركب الهيئة من الشيخ والنقيب والدوعاجي

---

(٢) كانت إستانبول أكبر مدينة بأوروبا والشرق الأوسط في القرن ١١هـ/١٧م انظر Mantran, Istanbul… op. cit., p.47.

(٣) انظر ما كتبه سوسير في الهامش، عدد ١٤٩.

(٤) D'Hosson, Tableau…op.cit, T1 p.298 ; Mantran, Istanbul…op.cit., pp495-496.

(٥) إن هؤلاء مقسمون على صنفين، الصنف الأول يشتمل على خمسين حانوتًا، ويعمل بها ثلاثمائة بائع والصنف الثاني يضم ستين حانوتًا ويشتغل بها مائتا بائع . انظر روبار منتران، المصدر السابق، ص٤٩٦.

(٦) المصدر السابق، ص ٣٦٨.

والشاوش ويجيت باشي والكاهية(١)، وهذا الأخير لـه سلطات واسعة، ومكلف بتمثيل الصنف لدى الحكومة(٢).

هذا التنظيم الداخلي يؤهل الناسخين للتصدي إلى كل تدخلات الدولة في شؤون مهنتهم، ويشجعهم على التمسك بتقاليد المهنة، والمحافظة بكل شدة على امتيازاتهم الاجتماعية. وهذا ما يعيق أي محاولة للإصلاح والتقدم، فصنف الناسخين مكبّل بهذه الهياكل التنظيمية التي تمنعه من التكيف مع الوضع الجديد(٣). إن تنظيم هذا الصنف يمثل حاجزًا منيعًا لكل محاولات تبني المطبعة وكان بإمكانهم أيضًا، أن يعولوا على كل العلماء المناهضين لفن الكتابة الجديد. ولكن ما هو موقف أنصار المطبعة وكيف يمكنهم حل هذه المشكلة دون إثارة توتر اجتماعي.

لم يتردد المجددون - كما رأينا سابقًا - في مهاجمة الناسخين متهمين إياهم بأنهم مسئولون عن حالة الجهل السائدة في الدولة العثمانية. فالمخطوطات نادرة وخاصة المجلدات الضخمة وهي مليئة بالأخطاء نظرًا لإهمال الناسخين وعدم وعيهم بأهمية مهنتهم. إلا أنهم وجدوا حلاً مناسبًا لذلك وهو أن يقع تقاسم العمل بين الناسخ والمطبعي. فالأول لنسخ القرآن الكريم وكتب الشريعة، والثاني لكتب الآداب والعلوم. وهذا الحل من جهة أخرى يرضي أيضًا الفقهاء الذين يرفضون طبع الكتب الدينية. وبذلك يتوفر مجال واسع لعمل الناسخين، وفي

---

(١) المصدر السابق، ص٣٧١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٧٥.

(٣) يقول منتران: "توجد لدى هذه الأصناف عقلية احتكارية تمثل إلى جانب عقليتها المحافظة حاجزًا لكل توسع أو تقدم. إنه يكاد يكون مستحيلاً تغيير الأنظمة والقوانين الداخلية للأصناف لأن مثل هذا التغيير يمكن أن يؤدي إلى ثورة في مستوى هيكل الصنف وإلى مراجعة امتيازاتها وحقوقها ولا توجد في تلك الفترة بصورة جلية معالم تطور مادي أو فني أو تحسن بسيط للعمل وظروف العمل".

Mantran, Istanbul…op.cit, p.388.

الوقت نفسه يتوجه مجهود المطبعة في بلاد الإسلام لطبع كتب الآداب والعلوم الأساسية، وبهذا تم تطويق هذه المشكلة الاجتماعية.

٦ - الأسباب الاقتصادية:

يرى المحافظون أن مشروع إقامة مطبعة باهظ الثمن(١)، فهي تتطلب تجهيزات وآلات متطورة قد تستورد من أوروبا، وتتطلب كذلك إعداد أشخاص متخصصين في فن الطباعة؛ لذلك يفضل هؤلاء ترك المشروع والاكتفاء بما هو موجود أي الإبقاء على حوانيت الناسخين المتواضعة وعلى أدوات عملهم الأساسية، وهي متوفرة محليًا وثمنها زهيد.

إن من الضروري معرفة حقيقة تكاليف المطبعة وقدرة البنية الاقتصادية في الدولة العثمانية على التكيف مع التطور الصناعي، وخاصة مع الاكتشافات التقنية القادمة من أوربا. إذْ انتشرت المطبعة بسرعة داخل أوروبا، فذلك يعود إلى مجهود البورجوازية التي وجدت فيها صفقة رابحة. ففي ذلك العصر لا تقدر أية فئة اجتماعية اقتصادية - غير البرجوازية - على استغلال هذا الاكتشاف وتصنيعه. فعملية النشر تتطلب أموالاً كبيرة لتمويل المشروع، وبعد ذلك الانتظار بضع سنوات لبيع كل النسخ من الكتاب لتغطية المصاريف وجني الأرباح. ولهذا نشأت المطبعة في أوساط صانعي المعادن وأصحاب البنوك(٢)، واعتبرها أحد الباحثين "بنتًا للرأسمالية الناشئة"(٣)، فالعصر الحديث شهد صعود فئة البورجوازية بأوروبا وسيطرتها على الاقتصاد.

---

(١) لهذا السبب تأخر إدخال المطبعة في القرن ١٠هـ/١٦م حسب أقوال إبراهيم متفرقة في رسالته، إلا أنها كما رأينا في أول هذا الفصل أن المؤلف أعطى الحجة أكبر مما تستحق لإخفاء الأسباب الجذرية.

(٢) Martin, H, « L’imprimerie: origines et conséquences d’une découverte » in : l’écrit et la psychologie…op.cit., p.284.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

أما عن الوضع في الشرق، فهو لا يماثل النظام الاقتصادي الأوروبي الجديد الذي يرتكز على الرأسمالية والبورجوازية. فالهياكل الاقتصادية العثمانية كانت تقليدية بطيئة التحول، فلم تستوعب الصناعات الجديدة التي ظهرت بأوروبا. ولم يكن بإمكانها بالتالي تبني صناعة الطباعة، ولم تقبل إلا بعض البضائع الأوروبية المصنّعة، وحتى الكتاب المطبوع رفضته[1]. يقول قالان:"بذلت مصاريف كبيرة بهدف الاتجار بهذه الكتب في المشرق، إلا أن المشروع فشل لأن المسلمين رفضوا قبول النسخ التي أرسلت إليهم"[2].

حاول الأوروبيون توزيع كتبهم المطبوعة بالحرف العربي في أسواق بلاد الإسلام بالمشرق. إلا أن المحافظين عارضوا ذلك وأظهروا نوعًا من "المقاومة السلبية" برفضهم البضاعة الأوربية خوفًا من أن تغزو سوق الكتاب، رغم أنهم لا يملكون بضاعة مماثلة قادرة على المزاحمة، ورغم ترخيص السلطان مراد الثالث لذلك فإنهم "قاطعوا" الكتاب العربي المطبوع في أوربا لأنه سيقضي على بضاعة تقليدية هي المخطوط. يعدّ هذا الموقف رد فعل على التحدي الاقتصادي الذي فرضته أوروبا، بعدما حققت تقدمًا صناعيًا وتجاريًا كبيرًا في الوقت الذي تقلص فيه دور الطرقات البرية بين الشرق الأدنى وأوروبا التي يسيطر عليها المسلمون. إن المحافظين انطووا على أنفسهم خوفًا من أن تتدفق عليهم منتجات أوروبية أخرى تؤدي إلى "هلاك" الصناعات التقليدية. وكرد فعل على هذا الموقف أكد المجددون على الفوائد الاقتصادية للمطبعة، فسعر الكتاب ينخفض فيصبح في متناول كل الفئات الاجتماعية، فينتشر في كل مدينة وقرية من الإمبراطورية[3]. إن ثمن المخطوط مرتفع جدًا ولا يقدر على شرائه إلا الأغنياء. أما إذا انتشرت المطابع فسيصبح الكتاب المطبوع في متناول

(١) متفرقة، رسالة وسيلة الطباعة

(٢) Galland, Préface…op.cit., F14.

(٣) رسالة وسيلة الطباعة

الغني والفقير. وهنا تكمن أكبر فائدة اقتصادية للاكتشاف "وإن لم نقتنع بهذا، فإن الأتراك يكونون قد أصابوا عندما رفضوا إقامة مطابع في بلدهم خوفًا من القضاء على مهنة الناسخين وتكون أوروبا المتحضرة قد أخطأت"(١).

يعدّ العامل الاقتصادي حاسمًا في هذا الحوار الحضاري، لأنه لا مجال للمقارنة بين أثمان الكتاب المطبوع والمخطوط وبين قدرة الإشعاع الثقافي والعلمي لهذا وذاك. ويقدم فن الكتابة الجديد الحل الناجع للقضاء على الأمية وحالة التدهور الثقافي داخل الإمبراطورية العثمانية. فإذا وضعت المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي فوق كل اعتبار، يحق عند ذلك التضحية بمهنة النسخ(٢). كما ذهب المجددون أبعد من هذا في ردهم على المحافظين، إذ انتقدوا الموقف السلبي لهؤلاء الذين اكتفوا برفض تداول الكتب المطبوعة في أوربا. وبينوا أنه لا ينبغي "مقاطعة" هذا المنتوج الغربي فقط، بل يجب تقديم إنتاج محلي منافس، وإلا فإن أوروبا ستتمكن آجلاً أو عاجلاً من اقتحام سوق الكتب داخل الإمبراطورية. يقول متفرقة: "وإذا فتحوا فرعًا من فروع التجارة لبيع كتبهم عندنا، فإنهم سيستفيدون من ذلك، وفي الوقت نفسه سنتضرر نحن؛ إذ ستتحول مبالغ مالية هامة خارج ولايات إمبراطوريتنا"(٣).

يرى المجددون أن أوروبا تنوي فرض سيطرتها على المسلمين بطرق سلمية، فهي تنوي غزو أسواق الدولة ليس فقط بالكتب المطبوعة، بل وكذلك ببضائع واكتشافات أخرى ولذلك يجب التصدي لهذه المخططات بتبني كل أسباب التقدم ويقول متفرقة: "إنه من المعقول بما أن المسلمين سبقوا كل الدول الكافرة في كل أصناف العلوم، أن يحولوا دون أن تتقدم عليهم في فن الطباعة

---

(١) Eden, E.M, State of the poor, Londres, 1797 in : Mantoux , P, **La révolution industrielle au XVIIIè,** Paris 1973, p.171; voir aussi Laurens, H, “Les origines intellectuelles de l’Expédition d’Egypte: l’orientalisme islamisant en France au XVIIIe è, 1698-1789, Paris, Sorbonne IV, 1981 F.F. 307-308. (Thèse de 3éme cycle).

(٢) رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٨.

(٣) المصدر السابق.

باللغات التي يتكلمونها"[١]. ويريد إبراهيم متفرقة تجديد العهد مع الماضي الزاهر حيث كانت بلاد الإسلام تحمل مشعل الحضارة والعلوم وذلك بالتصدي لتحدي البلدان غير الإسلامية وسلوك سياسة ديناميكية بمواكبة التقدم الحضاري والسير مع تيار الرقي.

خاتمة الفصل الثاني:

تناول الحوار الذي دار بين المحافظين والإصلاحيين موضوع تجديد أدوات العمل الثقافي والمقارنة بين المخطوط والكتاب المطبوع من حيث الجدوى والفائدة، وبين الكتابة بخط اليد والكتابة بحروف المطبعة وبين مهنة الناسخ والمطبعي. وإذا دافع المحافظون عن المخطوط، فلأنه كان أمينًا عبر العصور في نقل قيم الإسلام والعلوم المختلفة كتابيًا، وكان وعاء الكتابة التقليدي محل عناية خاصة من قبل الناسخين والعلماء والمسلمين عامة، نظرًا إلى أنه مكتوب بالحرف العربي الذي يحظى بالاحترام، فهو الرسم المادي للآيات القرآنية الكريمة، ومن هنا اهتم المسلمون بالخط العربي وأبدعوا فيه. أما الكتاب المطبوع فكان المحافظون يرون فيه تهديدًا للمخطوط فهو قادم من "بلاد الكفار" للقضاء على الكتابة بخط اليد الجميلة وتعويضها بحروف معدنية كبيرة. وكان محل ريبة لأنه قد ينسخ كتبًا غير مطابقة للأصل، فيشوهها ويحرفها، كما أنه سيدخل أفكارًا "مشبوهة" ويروّجها بشكل واسع لإحداث الاضطراب في العقول أكثر مما ينقل الحكمة والعلوم المفيدة للمسلمين، وأخيرًا فإن فن الطباعة سيحطم مهنة الناسخين ويحرمهم من مورد رزقهم.

أما المجدّدون فيرون المخطوط من زاوية أخرى، فهو لم يعد قادرًا على نقل القيم ومكاسب الحضارة الإسلامية، ولا على إنقاذ آلاف المؤلفات العربية المهددة بالفناء بسبب أحداث تاريخية مؤسفة، لأن الناسخين كانوا جاهلين

(٤) المصدر السابق.

ومهملين في مهنتهم وأساءوا كثيرًا إلى ميدان الثقافة والعلوم وكانوا يعملون ببطء ويرتكبون أخطاء كثيرة عند الكتابة. وكان المخطوط نادرًا وباهظ الثمن، ولهذا لم يكن سعره في متناول الجميع. وهذا مما تسبب إلى حد كبير في نشر الأمية حسب تعبير إبراهيم متفرقة، وكان المجددون يرون في الكتاب المطبوع وعاء معلومات المستقبل، وهو قادر على مضاهاة الكتابة بخط اليد من حيث الإبداع. والأهم من ذلك هو قدرته العجيبة على نشر العلوم والفنون في كل أوساط المتعلمين. فالمطبعة تصدر عددًا كبيرًا من النسخ للكتاب الواحد. فيصبح الثمن زهيدًا ويقبل الجميع على اقتنائه. وقد عبّر أنصار فن الكتابة الجديد عن موقفهم هذا من منطلق حضاري، إذ أبرزوا أن الطباعة ستساهم في تجديد الحضارة الإسلامية وازدهارها بالتفتح على العالم المتقدم.

كان المفهوم الذي قدمه المجددون للمطبعة قريبًا من المفهوم المتعارف عليه في الغرب، يعني أنها وسيلة سريعة للإكثار من الكتب وترويج الكتاب العلمي والأدبي على نطاق واسع وبأسعار منخفضة. والفرق الوحيد في هذا المفهوم هو أن المطبعة في الشرق لا يمكن لها أن تمس المخطوط الديني. لكن هذا الاستثناء لا يضر بالمطبعة، إذ إن لها مجالاً واسعًا في إصدار الكتب العلمية والأدبية. وهكذا أصبح للمطبعة مفهوم شرقي متفاعل مع المناخ الفكري والحضاري السائد في المجتمع الإسلامي في العهد العثماني.

دار الحوار بين المحافظين والمجددين حول قيم الحضارة الإسلامية، لأن المخطوط يمثل شكلها القديم، ويحافظ على التراث الأدبي الذي خلفه الأجداد طيلة قرون ودافع عنه أنصاره بعنوان احترام التقاليد وعدّوه همزة وصل بين الماضي والحاضر، إنه التواصل بين الأجيال. أما الكتاب المطبوع فقد جاء ليقترح شكلاً جديدًا للحضارة، فهو يريد المحافظة على المؤلفات الإسلامية ونقل المعارف الأوربية لينهض بالأمة الإسلامية. إنه نظرة جديدة للمستقبل فهو يريد تدشين مرحلة جديدة من تاريخ المسلمين.

بقي أن نعرف مدى استجابة مطبعة إستانبول الأولى لهذا المفهوم وهل قدمت نتائج من شأنها أن تفتح عهدًا جديدًا للمجتمع الإسلامي؟

الجزء الثاني

بداية الطباعة العربية بالمشرق

- الفصل الثالث : المطابع المسيحية ببلاد الشام : حلب، والشوير، وبيروت.
- الفصل الرابع : المطبعة الإسلامية في إستانبول.

الفصل الثالث

المطابع المسيحية ببلاد الشام

حلب والشوير وبيروت

أسس المسيحيون العرب ثلاث مطابع عربية في النصف الأول من القرن ١٨م بحلب عام ١١١٨هـ/١٧٠٦م والشوير عام ١١٤٧هـ/١٧٣٤م وبيروت عام ١١٦٥هـ/١٧٥١م، وكان ذلك بمبادرة من الطائفة الملكية بحزبيها الأرثوذكسي والكاثوليكي، وقد سبقتها محاولات المارونيين - كما رأينا - لإقامة مطابع بجبل لبنان في القرن ١١هـ/ ١٧م، والتي فشلت جميعها. وبعدها تمكن الملكيون من إدخال ثلاث مطابع بالمشرق في ظرف نصف قرن، فكيف نفسر توفّقهم في هذا المجال؟ وكيف تغلبوا على الصعوبات الفنية والمالية في بداية مشاريعهم؟ ثم هل حصلوا على دعم مادي أو استفادوا بخبرات من خارج الإمبراطورية العثمانية؟

لم تشتغل ورشات الطباعة بحلب وبيروت إلا لفترة قصيرة، في حين واصلت ورشة الشوير بجبل لبنان عملها طيلة القرن ١٢هـ/١٨م. فكيف نفسر ظروف تأسيس المطابع الثلاث وأهداف مؤسسيها؟ وهل يمكن إجراء مقارنة بينها؟ هل كان للكتاب المطبوع لديها المفهوم نفسه، والدور ذاته الذي أداه في أوروبا في تلك الفترة؟ هل تم تسخيره لمواصلة دور الكتاب العربي القادم من روما أي للدعوة إلى الاتحاد مع كنيسة روما ولنشر المذهب الكاثوليكي؟ أم أنه جعل لخدمة الحياة الفكرية والاستجابة لحاجات الطلاب وأبناء الطوائف المسيحية؟ هل ساهم أخيرًا في تطور المحيط الثقافي بالمشرق؟

١ - المطبعة العربية بحلب (١١١٨-١١٢٣هـ/١٧٠٦-١٧١١م):

شهدت مدينة حلب مولد أول مطبعة عربية بالمشرق وفتحت المجال بذلك لمبادرات مسيحية أخرى، لإرساء تقاليد جديدة في العمل الثقافي. إن من المهم

البحث عن أسباب اختيار هذه المدينة لإيواء أول ورشة طباعة عربية وظروف تأسيسها ومدى مساهمتها في تنشيط الحياة الدينية والثقافية لدى الطائفة الأرثوذكسية الملكية.

١.١- اختيار مدينة حلب:

١.١.١- حلب مركز تجاري كبير بالمشرق[١]:

لئن فقدت الطرقات التجارية الإسلامية بين الشرق الأقصى وأوروبا حيويتها بعد اكتشاف الطرقات البحرية الكبرى في القرنين ٩ و١٠هـ/١٥و١٦م. فإن التجارة الإسلامية انتعشت بعد توسع الفتوحات العثمانية وسيطرة الأتراك على عدة طرقات بريّة كبرى[٢]. وقد استفادت بلاد الشام كثيرًا من هذه الوضعية وخاصة مدينة حلب الواقعة في مفترق عدة طرقات تجارية كبرى، فاستقطبت جزءاً هامًا من التجارة الدولية. ومع انفتاح الموانئ السورية على التجارة البحرية الأوروبية، تمكنت حلب وهي مدينة تجارية من جلب التجار الفرنسيين منذ سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م والإنجليز في ٩٩١هـ/١٥٨٣م[٣] والهولنديين في ١٠٢٢هـ/١٦١٣م وغيرهم. وهؤلاء التجار أقاموا مصارف وقنصليات في هذه المدينة. وقد ازدهرت التجارة بحلب وبقيت إلى أواسط القرن ١٧م السوق الرئيسية في كل المشرق، حيث إنها تفوق في أهميتها الإسكندرية وإستانبول[٤]. وكانت تباع بها كل البضائع القادمة من الشرق الأدنى ومن الغرب مثل الأحجار الكريمة والحرير والتوابل والقماش والورق

(١) Goyau, Georges, Un précurseur : François Picquet, Paris, Geuthner, 1942, p.28.

(٢) Sauvaget, J, Alep : essai sur le développement d’une grande ville syrienne, Paris, Geuthner, 1941, T1, p.200.

(٣) كان للإنجليز جالية في حلب تقدر بستين تاجرًا في سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م. انظر: حتي، فيليب، **تاريخ ... ج**، ص ٣١٩.

(٤) Sauvaget, Alep,…op.cit., T1, p.210.

وغير ذلك[١]. لقد كانت حلب مدينة كبيرة إلى درجة أن أحد المبشرين اليسوعيين شبّهها في القرن ١١هـ/١٧م، بمدينة ليون في فرنسا، من حيث حجمها وجمالها وتجارتها وعدد سكانها[٢]. وقد اغتنمت الأقليات المسيحية بحلب فرصة حضور إخوانهم في الدين من المسيحيين الأوروبيين للاستفادة من النشاط التجاري الدائب بالمدينة، فعملوا كمترجمين ووسطاء لدى الأجانب. أما التجار الأغنياء منهم فإنهم تولوا الاتّجار على حسابهم الخاص[٣]. وهكذا فإن هذه الأقليات قد أولت أهمية كبرى لهذا النشاط التجاري حتى تقيم علاقات مع أوروبا وتستفيد من قوتها وتقدمها[٤] . ومن أهم نتائج هذا الازدهار التجاري دعم الأقليات الدينية بحلب وبيروت وطرابلس وتطور الحركة الثقافية لديهم.

١.١.٢ - حلب مركز ثقافي مسيحي:

تعد حلب من بين المدن القليلة التي حافظت وطورت إلى حد ما، تقاليدها الأدبية بعد الفتوحات العثمانية[٥]. وقد أثر الأوروبيون على الحركة الفكرية لدى المسيحيين العرب. فإلى جانب التجار الأوربيين، استقر مبشرون بحلب ارتبطوا بالأقليات المسيحية بهدف تحقيق الاتحاد بين كنائس الشرق وروما. كما أقام بعض العلماء الأوروبيين بالمدينة لمدة طويلة مثل المستعرب الهولندي يعقوب غوليوس الذي مكث بها من ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م إلى ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م.

---

(٥) يرى الرحالة بسون أن حلب تعد في الفترة نفسها المدينة الرئيسية بسوريا بفضل ازدهار تجارتها. انظر:

Goyau, Un précurseur…op.cit., T1, p30.

(١) Rabbat, Documents…op.cit, p.41.

(٢) Sauvaget, Alep…op.cit ; T1 p.206.

(٣) Chevallier, D, La société…op.cit., p.13.

(٤) Encycl. Islam, nouv.ed. article Farhat. Djermanus, TII, p.814.

أ- نشاط المبشرين:

أعطى هؤلاء دفعًا جديدًا للنشاط الأدبي للأرثوذكس الملكيين ، وقد توافدوا على حلب منذ نهاية القرن ١٠هـ/١٦م. فالفرنسيسكان وصلوا إلى المدينة في ٩٧٨هـ/١٥٧١م واليسوعيون والكبوشيون عام ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م والكارم عام ١٠٣٦هـ/١٦٢٦م. وقد أسس المبشرون مدارس منذ ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م مثل الأب اليسوعي جيروم كيروت Jerome Queyrot الذي كان يدير مدرسة الأبناء الملكيين، وقد وصل عدد التلاميذ بها سنة ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م زهاء الألف(١). أما الكارم فقد أسسوا مدرسة بحلب يدرسون بها اللغات العربية والإغريقية والأوروبية(٢) وظهرت مدرسة مارونية بالمدينة نفسها عام ١٠٧٧هـ/١٦٦٦م بمبادرة من البطريرك اسطفان الدويهي(٣). وأسهم مجمع نشر الإيمان في تعليم أبناء الطائفة الأرثوذكسية حيث استقدم بعض أصيلي حلب بداية من عام ١٠٧١هـ/١٦٦١م إلى روما للدراسة بها(٤). وكذلك الأمر بالنسبة لمعهد اليسوعيين الذي فتح أبوابه لتلاميذ الطائفة بداية من عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م(٥). ١١١٢هـ/١٧٠٠م(٥). وهؤلاء التلاميذ عادوا بعد إنهاء دراستهم إلى بلادهم في في مطلع القرن ١٢هـ/١٨م. وتقلدوا مناصب مهمة في صلب كنيسة إنطاكية، وتولوا كذلك ترجمة عدة مؤلفات أدبية وأسهموا في تنشيط الحياة الثقافية التي ازدهرت لدى المسيحيين بحلب وألفوا عدة كتب، إلا انه كان ينقصها الابتكار،

---

(١) Vaumas, G, De, L'éveil missionnaire de la France, Lyon, Imprimerie express, 1942, p.331.

(٢) Rabbat, Documents…op.cit, T1, p.51.

(٣) Nasrallah, Histoire…op.cit, p.58.

(٤) Karalevsky, Charon, art, Alep in DHGE col 104 ; voir aussi Nasrallah, Notes…op.cit., T1, pp.137-138.

(٥) Rabbat, Documents…op.cit.,T1 pp.530-537.

إذ اقتصرت على ترجمة كتب وإعداد منتخبات ومراجعات للمخطوطات(١). وكان محتواها في الغالب دينيًا، وحتى الكتب التي ألفوها في التاريخ والشعر فقد كانت تتعلق عن قرب أو بعد بمسائل مسيحية(٢).

ب- العربية، لغة المذهب الأرثوذكسي:

استعمل المسيحيون بالمشرق عدة لغات في كنائسهم منها اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية وغيرها. وعرفت الطائفة الأرثوذكسية الملكية حدثًا بالغ الأهمية في حياتها الثقافية يتمثل في تعويض السريانية بالعربية خلال القرن ١١هـ/١٧م. لقد بقيت السريانية لغة الدين عند الملكيين منذ القرن ٤هـ/١٠م(٣). رغم استعمالهم للغة اليونانية في بعض الفقرات من نصوصهم الدينية. وقد اختفت هذه اللغة من أواسط بلاد الشام منذ القرن ٦هـ/١٢م(٤). وفي الأثناء بدأت اللغة العربية تستخدم شيئًا فشيئًا في كنيستهم، بعد أن كانت مقتصرة على التخاطب بينهم في حياتهم اليومية. وكان قد استخدمها لأول مرة في الكتب المقدسة عبدالله بن الفضل الأنطاكي، لترجمة بعض الأسفار عن اليونانية، وكذلك مؤلفات القديس يوحنا(٥). وفي النصف الثاني من القرن ١١هـ/١٧م، لم يعد أبناء الشام يتكلمون السريانية سوى أهالي جبل لبنان، بل إنها اختفت من بعض المناطق أمام زحف العربية منذ القرن ١٠هـ/١٦م(٦) ومنذ تلك الفترة

---

(٦) Nasrallah, Histoire…op.cit., vol IV, p.52.

(٧) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٨) Karalevsky , Histoire des patriarcats. op.cit., T.III. p.24.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٣.

(٣) ظهرت الترجمات العربية الأولى للكتب المقدسة المسيحية منذ القرن ٢ هـ/٨م وذلك بعد توسع الدولة الإسلامية وانتشار اللغة العربية ببلاد الشام حيث بدأ المسيحيون يستعملون هذه اللغة في طقوسهم. Dictionnaire de la Bible. Article Arabes. T1, col 845-856.

(٤) Karalevski, Histoire…op.cit., T III, pp.45-46.

أصبحت العربية نهائيًا لغة المذهب الأرثوذكسي الملكي عدا بعض التراكيب اليونانية في نصوص دينية معينة.

مراجعة الكتب الدينية وترجمتها:

شهدت مدينة حلب حركة أدبية نشيطة تمثلت في مراجعة كتب الأرثوذكسية وترجمتها إلى العربية منذ القرن ١١هـ/١٧م، وكان عبد الكريم كرمي ومكار الثالث زعيم، وكلاهما شغل منصب رئيس الأساقفة بحلب، كما تقلدا على التوالي منصب بطريرك كنيسة أنطاكية، من أبرز من قام بهذه العملية، فالأول تولى مراجعة وإصلاح الكتب الدينية وإصلاحها(١)، والثاني قام بتأليف الكتب وترجمة بعض النصوص من اليونانية إلى العربية، مستعينًا في ذلك بابنه بولس. ويتمثل هدفهما في ترجمة كل الكتب الدينية إلى العربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب والأدب عند أبناء الطائفة بسوريا، في الوقت الذي لم تعد السريانية مفهومة إلا في جبل لبنان وبعض القرى المجاورة لدمشق، وقد حرصا على أن تكون الترجمات العربية حسب الأصل اليوناني(٢).

قام عبد الكريم كرمي بمراجعة وإكمال بعض الكتب الملكية، ومنها **الأرولوجيون القنداق وستشراري الترتيل والتلحين** وكان ذلك بالاعتماد، حسب كارلفسكي، على الكتب اليونانية المطبوعة بالبندقية في القرن ١٠هـ/١٦م(٣) وهذا الرأي عارضه نصر الله الذي يرى أن كرمي استعان أيضًا

---

(٥) يرى نصر الله أن عبد الكريم كرمي مترجم في حين يعارض كارلفسكي هذا الرأي ويعتقد أن كرمي لم يقم إلا بمراجعة التراجم العربية للنصوص المقدسة المسيحية، ويرى أن كرمي لا يمكن أن يكون مترجمًا لأن عملية ترجمة كتاب مسيحي واحد يمكن أن تشغل حياة شخص بأكمله . انظر:

Nasrallah , Histoire…op.cit., vol IV pp 76.

Karalevsky, Histoire…op.cit., T3, p.47.

(١) كارلفسكي، المصدر نفسه، ص ٤٧-٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٠.

بمنشورات روما ومختلف المخطوطات السريانية على الأقل بالنسبة للأرولوجيون القنداق(١).

إن الكتب التي راجعها كرمي هي التي طبعت فيما بعد لفائدة الكنيسة الأرثوذكسية الملكية(٢). وكان من نتائج تعويض العربية للسريانية كلغة دين، أن المخطوطات من الكتب التي تمت مراجعتها وترجمتها للعربية لم تكن كافية للاستجابة لرغبات القراء الملكيين الأرثوذكس.

تطور العربية الفصحى:

كان كرمي يستعمل العربية العامية في مراجعاته، مما جعل بعض التراكيب اللغوية غير واضحة المعاني(٣). وفي تلك الفترة كان المسيحيون العرب لا يتعلمون ولا يتخاطبون إلا بالعربية العامية، وحتى الشعراء الملكيون لا يكتبون الأزجال إلا بهذه اللهجة(٤). والأمر نفسه بالنسبة للأدباء الذين كتبوا في النثر إلا أنهم شعروا بضرورة تعلم الفصحى، نظرًا لأهميتها في عملية ترجمة ومراجعة كتبهم الدينية(٥) . فأقبلوا على تعلمها لدى العلماء المسلمين في حلب مثل الشيخ سليمان النحوي الحلبي، الذي تعلمت على يديه مجموعة من التلاميذ المسيحيين في القرن ١١هـ/١٧م، مثل فرحات جرمانوس (١٠٨٠هـ/١٦٧٠م-

---

(٣) Nasrallah, Histoire…op.cit., vol IV pp.85-86.

(٤) Karalevsky, Histoire…op.cit., T II, p.54.

(٥) Karalevsky, Histoire…op.cit., T III .p.48.

(٦) Nasrallah, Histoire…op.cit., vol IV.pp.237-239.

(١) يقول فولني: إن المدارس الإسلامية لم تكن تقبل المسيحيين، وحيث إن هؤلاء لا يعرفون إلا العربية العامية، فإنهم لم يتمكنوا من إتقان فن الجدال لذلك لجأوا إلى كل الوسائل للتتلمذ على الشيوخ المسلمين، من ذلك دفع مبالغ مالية لهؤلاء، وتمكنوا بذلك من حذق اللغة العربية والنحو.

Volney, Voyage…op.cit., p.292.

١١٤٥هـ/١٧٣٧م) وعبد الله الزاخر (١٠٩٠-١١٦١هـ/ ١٦٨٠-١٧٤٨م) وغيرهما[١].

ج- الجدل الديني:

كانت حلب كذلك ساحة للصراعات والجدال الديني بين الطوائف المسيحية فيما بينها، وكذلك بين المسيحيين والمسلمين. ودارت عدة حلقات نقاش بين المسيحيين بالخصوص[٢]، كما ظهرت في القرن ١١هـ/١٧م، عدة مؤلفات جدلية تعبر عن مدى حساسية كل الأطراف لبعض القضايا. من ذلك قضية الاتحاد مع روما التي استأثرت باهتمام كل الطوائف. وقد شن الأرثوذكس الملكيون حملة ضد الحزب الكاثوليكي وضد كنيسة روما[٣]. مثلما فعل أنسطاس ميقالي قس طرابلس الذي كتب عام ٩٩١هـ/١٥٨٣م : "جواب على بابا رومية الذي أرسله مع باطشتا تلميذه إلى البطريرك يواكيم بمدينة الشام" وفيه تفنيد لآراء اللاتينيين[٤]. كما ظهرت مؤلفات جدلية بين الكاثوليكيين فيما بينهم وخاصة بين المارونيين والملكيين الكاثوليك. من ذلك رسالة يوسف الحصروني (توفي ١١٠٧هـ/١٦٩٥م) التي ترد على هجومات الملكيين.

ودار جدال أيضًا بين المسلمين والمبشرين حول صحة كل رسالة من الرسالات السماوية وقضية التثليث. من ذلك القصيدة التي كتبها الشيخ شمس الدين البكري حول أخطاء المسيحيين فيما يتعلق بالمسيح وقضية التثليث، وقد

---

(٢) كان فرحات جرمانوس قسيسًا بالكنيسة المارونية بحلب، وكان شاعرًا، وقد ألف معجمًا في اللغة العربية وكتابًا في النحو العربي.

Encycl. Islam. nouv. éd. article Farhat Djarmanus, T II, pp.814-815.

(٣) Nasrallah, Catalogue des manuscrits du Liban, Beyrouth, Harissa 1958-1970. TI p.144 Jock, T, Jésuites et Chouérites, Paris, Geuthner, 1937.

(٤) مثل الكتب التي تتحدث عن الدين المسيحي للأب إليانو، وبلارمان، وريشليو، وغيرهم.

(٥) Nasrallah, Histoire…op.cit., vol IV, pp.181-182.

أثـار هـذا النقـد ردود فعـل كثيـرة مـن لـدن المسـيحيين، وخاصــة مـن طـرف الماروني بطرس مخلوف وجبرائيل فرحات(١).

٣.١.١- حلب مركز ديني كبير:

بلـغ عدد سكان حلب في القرن ١١هـ/١٧م، نحو مائتي ألف نسمة، منهم أربعون ألفًا من المسيحيين حسب شهادة فرمنال في ١٠٤١هـ/١٦٣١م، الذي بين أن هذا العدد يشمل من الملكيين والأرمنيين والنساطرة والمارونيين واليعاقبة، وقد أقيمت أربع كنائس جديدة في النصف الأول من القرن ١١هـ/١٧م في "حي الجديدة" الآهل بالمسيحيين(٢).

أ- نمو الحزب الكاثوليكي بحلب:

وجد المبشرون في حلب مجالاً واسعًا لدعوة الكنائس الشرقية للاتحاد مع روما، إذ وجدوا بالمدينة عيّنة من كل الطوائف النصرانية التي لم يتأخر بعضها في الاستجابة لدعوة المبشرين. فقد اعتنق عدد كبير من الأرمن المذهب الكاثوليكي سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م(٣). أما عدد أبناء الطائفة الأرثوذكسية الملكية الذين اتحدوا مع كنيسة روما، فقد بلغ في سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م الأربعة آلاف(٤). وقد انتخب المبشرون اليعاقبة لهذا الحزب الكاثوليكي الجديد، قسيسًا كاثوليكيًا منذ عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م هو أندري أكيدجان، وهو أحد تلاميذ معهد روما.

(١) المصدر السابق، ص٢٠٤.

(٢) Vaumas, L'éveil…op.cit., p.329.

(٣) Sauvaget, Alep…op.cit., TII, p.208.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

إن نمو الحزب الكاثوليكي بحلب لم يمر بسلام إذ أحدث صدامات مع الأرثوذكس ومع السلطات العثمانية، فالبطاركة الملكيون حاولوا منع حركة العودة إلى روما، لأنهم رأوا في انتماء بعض أبناء طائفتهم للكاثوليكية ضررًا كبيرًا للمذهب الأرثوذكسي وسببًا لفتنة طائفية خطيرة. أما الباشوات الأتراك فقد رأوا في هذه التحولات تدخلاً في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية، واعتبروا الكاثوليكيين الجدد بمثابة "أعوان موالين للخارج"(١). ولهذا قام البطاركة بالتعاون مع السلطات العثمانية في بداية القرن ١٨م، بحملة اضطهاد ضد أعضاء الحزب الكاثوليكي ببلاد الشام.

ب- حلب، أحد مراكز إقامة البطريرك:

أدت أبرشية حلب دورًا رئيسيًا في تاريخ الطائفة الأرثوذكسية بداية من القرن ١٠هـ/١٦م، فقد كانت المقر الثاني للبطريرك إلى جانب دمشق، أما عن مقر الطائفة بأنطاكية فقد هجره البطاركة منذ عام ١٢٦٨م، واستقروا بدمشق حيث يقيم الوالي(٢) مع أنهم كانوا يتحولون أحيانًا إلى حلب(٣). وفي سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م نشب صراع بين اثنين من المرشحين لكرسي البطريرك وهما كيرلس الخامس الزعيم الذي عينه باشا دمشق وأثناسيوس الثالث دباس، الذي جلس على كرسي البطريركية من ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م إلى ١١٠٦هـ/١٦٩٤م، وانتهى باتفاق يتمثل في تولي كيرلس لمنصب البطريرك والاستقرار بدمشق. أما أثناسيوس الثالث فيقيم بحلب ويخلف البطريرك عند وفاته، وهذا ما تم فعلاً؛ إذ عند وفاة كيرلس سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، أخذ

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٢) D.H.G.E. article Alep. TII, col 103.

(٣) المصدر السابق.

أثناسيوس مكانه إلى سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م، وهو الذي أسس مطبعة في حلب أثناء إقامته بها.

عرفت حلب حركة ثقافية نشيطة في أوساط المسيحيين العرب في القرن ١١هـ/١٧م، إلا أنها اقتصرت على تناول المسائل الدينية. وقد أسهم المخطوط والكتاب المطبوع بأوربا في الدعوة إلى الاتحاد مع روما وفي نشر المذهب الكاثوليكي. ولئن بذلت مجهودات كبيرة لمراجعة الكتب الدينية بالعربية، فإن عملية التعريف بها كانت عسيرة لأن المخطوط لم يكن قادرًا على ذلك. وبدأت فكرة إقامة مطبعة ببلاد الشام تراود أذهان الأرثوذكس الملكيين. وقد بقي السؤال المطروح كالآتي: كيف يمكن تنفيذ الفكرة وتنزيلها على أرض الواقع؟

١.٢- جذور مطبعة حلب، النشر العربي ببوخاريست:

أسست مطبعة عربية ببوخاريست برومانيا في سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م(١) بمبادرة وبطلب من الأرثوذكس الملكيين السوريين، الذين أعربوا عن حاجاتهم إلى كتب دينية عربية مطبوعة. وهذه الورشة كانت المصدر المباشر للمطبعة التي أقيمت بعد خمس سنوات بحلب. فعلاوة على بعض الآلات والتجهيزات التي نقلت منها إلى بلاد الشام، كان أبرز شخص باشر عملية النشر في بوخاريست وهو البطريرك أثناسيوس الثالث دباس في الوقت نفسه، مؤسس مطبعة حلب، وتكمن أهمية مطبعة بوخاريست في أنها أول ورشة داخل الإمبراطورية العثمانية تصدر كتبًا عربية، كما أنها تعكس تحولاً مهمًا في

(١) ازدهرت حركة النشر العربي بأوروبا في القرن ١٢هـ/١٨م، وقد ظهرت مطابع عربية جديدة في بعض المدن مثل بوخاريست ومدريد ولشبونة وفينا وغيرها. وقد بلغ عدد الكتب العربية المطبوعة في ذلك القرن حسب شنورر ١٥٦ كتابًا.

Schnurrer, Bibliotheca…op.cit., pp.401-403.

تـاريخ الكتـاب العربـي المطبـوع وفـي موقـف البـاب العـالي مـن النشـر بـالحرف العربي.

ويعـدّ تأسـيس المطبعـة العربيـة برومانيـا تمهيـدًا لظهـور المطـابع العربيـة المسيحية الثلاث، بحلب والشوير وبيروت. فمطبعة بوخاريست مهدت الطريق لتأسيس مطبعـة حلـب بصـفة مباشـرة ومطبعـة شـوير بصـفة غيـر مباشـرة. أمـا مطبعـة جاسـي (Jassy) فـي مولـدافيا (Moldavie) فقـد مهـدت الطريـق لمطبعـة بيـروت ولنـا أن نتسـاءل فـي بدايـة الأمـر كيـف نفسـر هـذه العلاقـة بـين مطـابع رومانيا وبلاد الشام؟ كيف تم التعاون بين ورشتي بوخاريست وحلب؟ وما مدى إسهام الرومانيين في دفع حركة النشر العربي في بلاد الشام؟

١.٢.١ - العلاقة بين الأرثوذكس العرب والرومانيين:

دخلت المطبعة الإغريقية إلى بلاد الفلاخ فـي سـنة ٩١٢هـ/١٥٠٧م علـى يـد القس مكار (Macaire) في مدينة أغرا (Agres)[١] ولـم تعـرف بوخاريسـت أول ورشة للطباعة إلا سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م حيث أصدرت أول كتاب مهم لها بعد عشر سنوات مـن انطلاقتهـا وهـو الكتـاب المقدس (Biblia Wallachia). أمـا عـن أول محاولـة للنشـر بـالحرف العربـي فقد ظهـرت فـي سـنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م بفضـل أميـر بـلاد الفـلاخ قسـطنطين بسـرابا برنكوفانيـل ١٠٩٩-١١٢٦هــ/ ١٦٨٨-١٧١٤م) ولم تكن لدى الرومانيين فائدة مباشـرة مـن طبـع كتـب عربيـة على أرضهم، حيث لا يوجد بها سكان عرب أو من يتكلمون العربية ولا علمـاء مستعربون بجامعتها: فحتـى لغـة الإدارة بهـا كانـت التركيـة. إذن لمـاذا أصـدرت هـذه المنشـورات العربيـة ولمـن وجهتهـا؟ ومـن أشـرف علـى طبعهـا؟ وأيـن تـم توزيعها؟

---

(١) Picot, E, « Notice sur l'imprimeur Anthime d'Ivir » in : **Nouveaux mélanges orientaux publies par l'Ecole des Langues Orientales**, Paris, Leroux, 1886 (2 série, TXIX) p.536.

أمام رفض مجمع نشر الإيمان طبع كتب كما رأينا لفائدة الطائفة الأرثوذكسية الملكية، فقد توجه أبناء هذه الطائفة في القرن ١٢هـ/١٨م، إلى إخوانهم في فلاشيا. ويندرج هذا التعاون بين الأرثوذكس العرب والرومانيين في نطاق العلاقات الدينية والثقافية القائمة بين الطرفين منذ أمد بعيد.

أ- علاقات تقليدية:

كانت الروابط الروحية بين أرثوذكس بلاد الشام وأوروبا الشرقية متينة منذ قرون خلت، وازدادت العلاقات متانة في عهد العثمانيين، حيث كانوا خاضعين لسلطة الباب العالي. وكان رجال الدين الملكيين يترددون على بلاد الفلاخ ومولدافيا لمناقشة مسائل دينية، وأحيانًا لطلب مساعدات مالية للتغلب على المصاعب المادية لكرسي البطريركية بأنطاكية. وفي كل مرة يسافرون فيها إلى رومانيا كان البطاركة والأساقفة السوريون يهتمون بالكتب الإغريقية والرومانية، ويحرصون إما على نسخها أو ترجمتها. فمثلا تولى بطريرك أنطاكية مكار الثالث زعيم ترجمة كتاب تاريخ بايات فلاخيا(١). في حين كلف أحد مرافقيه وهو الخوري صابا يوسف بنسخ كتاب القداس(٢). أما رئيس أساقفة صيدا وصور يواصف المصوّر، فقد قام بالتعاون مع كريستودول غزة بترجمة كتاب ماكسيم دي بيلوبوناز وعنوانه "انشقاق البابوية" الذي نشر في بوخاريست سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م(٣). أما أثناسيوس الثالث فقد ترجم عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م كتاب "صلاح الحاكم وفساد العالم الذميم" وكلف فرحات جرمانوس بمراجعته(٤). إلى جانب هذه الترجمات جلب البطاركة معهم من

(١) Candea, Virgil, « Dialogue roumano-libanais sur le livre et l'imprimerie » in : **Le livre et le Liban…op.cit.**, p.285 ; voir aussi Nasrallah, Histoire…op.cit., Tiv, p.97.

(٢) Candea, « Dialogue…op.cit., » p.284.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٤) Nasrallah , Histoire…op.cit., TIV p.139.

فلاشيا ومولدافيا، مجموعة هامة من المخطوطات وأودعوها مكتبات كنائسهم بسوريا.

ب- تطور العلاقات في القرن ١١هـ/١٧م:

تطورت العلاقات الدينية والثقافية بين الطرفين بفضل حركية بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث دباس. فقد تحول عدة مرات إلى بلاد الفلاخ ومولدافيا التي كانت تتمتع بنوع من الحرية في تلك الفترة، نظرًا للتعاون الوثيق القائم بين أمرائها والسلطة العثمانية(١). وأمكن لحكام رومانيا تنشيط الحياة الثقافية عندهم بفضل إقامة المطابع وإصدار عدد من الكتب. وقد أرسلوا إلى إخوانهم الأرثوذكس ببلاد الشام كتبًا دينية باللغة اليونانية للاستفادة منها في كنائسهم. وقد وجد أثناسيوس الثالث الفرصة سانحة للتقدم بطلب إلى حاكم رومانيا لطبع كتب عربية بعد حركة التعريب الواسعة لكتب الطائفة خلال القرن ١١هـ/١٧م، هذا في الوقت الذي كانت المخطوطات عندهم نادرة.

لم يكن للأرثوذكس الملكيين بالمشرق لا الإمكانيات المالية ولا الخبرة الفنية الكافية للمبادرة بإقامة مطبعة عربية في بلاد الشام، على حد قول أثناسيوس دباس الذي تحدث فعلاً عن حالة الفقر التي يعاني منها أبناء طائفته.

١.٢.٢- تأسيس المطبعة العربية ببوخاريست:

أ- طلب أثناسيوس الثالث(٢) :

---

(١) Simonescu, Dan, « Impressions de livres arabes et Karamanlis en Valachie et en Moldavie au XVIII siècle » in :**Studia et Acta Orientalia,** n° 5-6, 1967, pp.50-51.

(٢) بالنسبة لترجمة أثناسيوس. انظر: إدلبي، البطريرك أثناسيوس الثالث دباس في نشرية الكنيسة بحلب ١٩٨٠م، ص١٠٧-١٣٢. انظر أيضًا:

Karalevsky, « Antioche » in D.H.G.E. TIII, col 644-647 ; voir aussi Levenq, « Athanase III, in D.H.G.E ; T IV, col 1369-1374 ; Nasrallah, Histoire…op.cit., vol IV, pp.132-146.

شغل أثناسيوس الثالث منصب بطريرك كنيسة أنطاكية لفترتين متميزتين، وكان تتلمذ على يدي اليسوعيين بدمشق قبل أن يعين راهبًا في دير قرب بيت المقدس. ثم أصبح مبشرًا في بلاط حاكم فلاشيا لفترة قصيرة، ثم عين بطريركًا على كنيسة أنطاكية للمرة الأولى، وأعلن في ذلك الوقت عن اعتناقه للكاثوليكية أمام المبشرين الفرنسيسكان في سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م، ثم تراجع بعد ذلك سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، حيث أصبح أرثوذكسيًا متصلبًا، بل إنه اضطهد الحزب الكاثوليكي بحلب، ولم يكن موقفه من المذهب الكاثوليكي واضحًا البتة طيلة حياته. وبعد تخلي أثناسيوس عن كرسي البطريركية لمنافسه كيرلس الخامس، قام بعدة رحلات خاصة إلى إستانبول وبلاد الفلاخ؛ ففي عام ١١١٢هـ/١٧٠٠م، تولى في بوخاريست إبرام عقد قران ابنة الحاكم قسطنطين برانكوفيانول[1]. واغتنم بعد ذلك فرصة وجوده ببوخاريست ليطلب من هذا الأمير الذي كان يرعى الأدب والعلوم، طبع كتب دينية مسيحية باللغة العربية.

ويشير البطريرك إلى طلبه هذا في مقدمة ثاني كتاب عربي يطبع ببوخاريست وهو الأورولوجيون، فيقول متحدثًا عن الأمير الروماني برانكوفان:

" لما علم من حقارتنا في المحل الذي حضينا (كذا) فيه بالاجتماع مع سعادته، وإعلامنا له عن قلة الكتب الكنائسية بسبب أنها كتابة اليد وتعذر اقتنايها، فمن زيادة ورعه وحسن ديانته في الأمور الإلهية اجتهد في عمل طبع عربي لأجل الكتب الضرورية بكلفة زايدة وإطلاق يد في المصرف"[2].

يؤكد أثناسيوس الثالث في طلبه إلى أمير بلاد الفلاخ على ندرة المخطوطات العربية وعدم قدرة الناسخين، وعددهم قليل على الاستجابة لحاجيات الكنائس

(١) Karalevsky, « Antioche…op.cit., » col 644.

(٢) كتاب الأورولوجيون، بوخاريست، ١١١٤هـ/١٧٠٢م.

السورية إلى النصوص العربية الجديدة بعد أن تمت ترجمة الكتب الدينية للطائفة الأرثوذكسية من السريانية واليونانية إلى العربية. إن لجوء البطريرك إلى بلاد رومانيا لطبع كتب عربية، كان نتيجة عدم قدرة أبناء طائفته على إقامة مطبعة عربية مسيحية في بلاد الشام، وهذا نظرًا لفقرهم وكذلك نتيجة رفض مجمع نشر الإيمان بروما طباعة كتب وفق مذهبهم، كما سبق أن رأينا ذلك.

ويتحدث أثناسيوس الثالث عن ظروف إنشاء مطبعة عربية في فلاشيا، فيقول: إن الأمير استجاب لطلبه وأسس مطبعة عربية وأمر القس أنتيموس إيفير وهو مطبعي ماهر يعمل عنده بطبع كتب دينية باللغتين العربية والإغريقية، ووفر له الأموال اللازمة لحفر الحروف العربية بكل دقة(١).

ب- المطبعي أنتيموس إيفير الكرجي:

هو كاهن من بلاد الكرج (جيورجيا)، درس الأدب الإغريقي والروماني والتركي، ثم اشتغل بورشة طباعة ببوخاريست(٢) وفي سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م غادر هذه المدينة مصطحبًا معه آلات الطباعة والقوالب والطوابع للأحرف ليستقر في دير سناغوفو الموجود في جزيرة تقع على بعد ثلاثين كيلومترًا شمالي بوخاريست. وقد قام بطبع كتابين عربيين بأمر من الأمير برانكوفيانول بعد أن توصل إلى حفر حروف عربية، وكانت خشنة وغير دقيقة. ولم تكن عملية تنضيد النصوص العربية جيدة فقد ارتكب أغلاطًا كثيرة. ويعترف أنتيموس الكرجي بهذا النقص فيقول في خاتمة كتابه الثاني:

(٣) مقدمة كتاب القدسات الثلاثة الإلهية الذي طبع في بوخاريست سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م.

(١) Picot, « Notice…op.cit., » p.518.

" أيها الإخوة المكرمين الذين تطالعون في هذا الكتاب المبارك أسألكم وأتضرع إليكم، أنا الفقير صانع هذا الطبع أن تسامحوني عن جميع ما صدر فيه من الغلط وعدم التقويم بما أني غريب من (كذا) اللغة العربية"(١).

وجد هذا المطبعي صعوبة كبيرة في حفر الحروف العربية وفي عملية التنضيد رغم تعاونه مع البطريرك أثناسيوس الثالث، وهذا الأخير هو الذي راجع النصوص العربية. وكانت البداية دائمًا عسيرة في عملية النشر عامة. أما إذا كانت تخص الحروف العربية فهي أصعب، مثلما حدث ذلك في روما وباريس وأكسفورد وغيرها من المدن الأوروبية، نظرًا للمشاكل التقنية لحرف الطباعة العربي ولجهل المطبعيين في الغالب للغة العربية. فهل استفاد العرب من هذه التجارب؟ هذا ما سنعرفه فيما بعد عند التعرف إلى تجارب مطابع الشام وإستانبول.

١.٢.٣- محتوى المنشورات العربية في مطبعة سناغوفو (رومانيا):

لم تصدر مطبعة سناغوفو سوى كتابين مسيحيين، هما القدسات الثلاثة الإلهية في سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م، والألرولوجيون في سنة ١١١٤هـ/١٧٠٢م(٢)، وذلك على يد المطبعي أنتيموس وبإشراف بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث، كما ذكر على صفحتي عنوان هذين الكتابين.

أ- كتابان دينيان:

(٢) كتاب الأورولوجيون.

(١) يضيف بعض المؤلفين كتابًا ثالثًا، هو "الكتاب المقدس" وأنه طبع في سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م، إلا أن شنورر يفند هذا الرأي انظر: نصر الله، الأب يوسف. "مطابع الملكيين منذ ظهور الطباعة إلى أواخر القرن ١٨" في المسرة، ١٩٤٨ ص ٤٤٠، انظر أيضًا إدلبي، **البطريرك** ... ص.١١٥.

- **"كتاب القدسات الثلاثة الإلهية مع بعض احتياجات أخرى ضرورية للصلوات الأرثوذكسية"**، طبع هذا الكتاب باللغتين اليونانية والعربية حتى يصل إلى أكبر عدد من الكهان ورجال الدين الأرثوذكس الذين يحذقون على الأقل إحدى اللغتين(١).
- **"كتاب الأورولوجيون"**(٢) طبع أيضًا باللغتين العربية واليونانية، ويذكر أثناسيوس أنه يهدي الكتابين إلى حاكم بلاد الفلاخ.

طبع الكتاب الثاني حسب النص الذي راجعه عبد الكريم كرمي، ثم أعاد مراجعته أثناسيوس دباس، وقد تمت إعادة طبعه في الشوير عدة مرات أي في الأعوام١٧٦٣ و١٧٨٧ و١٨٥٢ و١٨٧٩م. إن في إصدار هذا الكتاب الديني عند انطلاق مطبعة بوخاريست دلالة مهمة، إذا علمنا أن كنيسة روما قد رفضت طبعه رغم النداءات المتكررة من بطريركي أنطاكية كرمي ومكار زعيم. فمجمع نشر الإيمان بروما اشترط مراجعة هذا الكتاب وغيره حسب النص اللاتيني قبل طبعه. وكذلك اعتناق بطريرك أنطاكية للمذهب الكاثوليكي، ولذلك حرص الأرثوذكس الملكيون على الدفاع عن مذهبهم من كل "تحريف" والحفاظ على استقلالية كنيستهم وطائفتهم من كل "تدخل أجنبي" في شؤونها، فكان أن توجهوا إلى إخوانهم الأرثوذكس برومانيا لطبع كتبهم وإنقاذها من التشويه.

ب- التوزيع:

يتحدث البطريرك أثناسيوس عن وجهة هذين الكتابين فيقول: "*ليوزعوها* هبة على الكهنة الورعين الأرثوذكسيين قاطنين (كذا) البلاد العربية"(٣). ويؤكد بذلك أنها موجهة إلى رجال الدين في الكنيسة الأرثوذكسية الملكية وليس لكل

(٢) يذكر أثناسيوس هذا السبب الذي دفعه لاستعمال اللغتين في مقدمة الكتاب الأول.

(٣) يوجد بالمكتبة الوطنية بباريس تحت عدد: ١٥٨١.

(١) مقدمة كتاب الأورولوجيون، ورقة ١٢.

أبناء الطائفة، خاصة أن عدد المتعلمين من هؤلاء ضعيف جدًا، وأن الأولوية ستعطى للكنائس والأديرة لسد النقص الفادح في المخطوطات.

ومن ناحية صدى هذه المنشورات في بلاد الشام، أعرب الملكيون عن موقفهم الإيجابي الذي نقله لنا أحد مؤرخي رومانيا المعاصر لتلك الفترة بقوله: إن البطريرك أثناسيوس الثالث وزع المنشورات العربية لسيناغوفو في كنائس بطريركية أنطاكية، وأنها وجدت قبولاً حسنًا لدى أبناء الطائفة الأرثوذكسية الذين أعجبوا بهذه الكتب المطبوعة التي لم يروا مثلها من قبل وتوجهوا بالشكر إلى أمير بلاد الفلاخ واعترفوا بجميله عليهم(١).

إلا أن مطبعة سيناغوفو سرعان ما توقفت بعد إصدار هذين الكتابين. إن رحيل البطريرك أثناسيوس الثالث إلى قبرص، للقيام ببعض المهام الدينية، كان سببًا مباشرًا في تعطل الورشة. أضف إلى ذلك صعوبة الاتصال بين بوخاريست وبلاد الشام وعدم وجود معاونين عرب للعمل مع المطبعي أنتيموس ومراقبة عملية النشر العربي وإصلاح الأخطاء.

تكمن أهمية مطبعة سيناغوفو في أنها مهدت الطريق للأرثوذكس العرب لإقامة مشاريع مماثلة ببلدهم(٢). فالدعم المادي والفني من رومانيا ممكن جدًا ونجاح ورواج منشوراتها لدى أبناء الطائفة واكتساب البطريرك وهو أعلى سلطة في كنيسة أنطاكية للخبرة الفنية الكافية، علاوة على تحمسه للمطبعة.

---

(٢) هذا ما ذكره أحد المؤرخين الرومانيين مجهولي الاسم. انظر: Dan Simonescu, « Impressions… » op.cit., p.59.

(١) يرى فرجيل كانديا أن العلاقات بين رومانيا وبلاد الشام شجعت الأرثوذكس الملكيين على انتهاج سياسة ثقافية مستقلة.

Candea, Virgil, « Une politique culturelle commune roumano arabe dans la première moitié du XVIII siècle » in : **Bulletin de l’Association Internationale d’Etudes du Sud-Est Europeen, Bucarest**, 1965, n°1, p.51.

كل ذلك أسهم في القيام بأول تجربة بسوريا تتمثل في تأسيس مطبعة عربية بحلب.

١.٣- المطبعة العربية بحلب:

١.٣.١- تأسيس المطبعة:

أ- مؤسس المطبعة:

تتفق المصادر التاريخية على ذكر مؤسس أول مطبعة عربية بالمشرق، وهو البطريرك أثناسيوس الثالث دباس، الذي ذكر في أهم مصدر أصلي، وهو الكتاب الثاني الذي طبع في حلب وهو الإنجيل سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م، متحدثًا عن دوره في طباعة هذا الكتاب: "فشرعت حينئذ بطبعه بعد أن حررته على اللغة اليونانية بوضعه جملة فجملة وأصلحت إعرابه لفظة بلفظة"[١]. يتبين من هذه الفقرة أن بطريرك أنطاكية أشرف على طبع الكتاب، وأنه سخر كل خبرته التي اكتسبها في سناغوفو ببوخاريست لدفع مطبعة حلب الجديدة. ونجد ذكرًا للشخص نفسه في مقدمة آخر كتاب تصدره المطبعة:

"إن كيركير أثناسيوس البطريرك الأنطاكي الأفخم والهمام النبيل المعظم لما باشر مشارفة طبع هذا الكتاب الجلي الواضح المباني..."[٢].

ويدل هذا على أن البطريرك أثناسيوس الثالث هو الذي أشرف على عملية طبع كل الكتب التي نشرت في حلب، أي من عام ١١١٨هـ/١٧٠٦م إلى عام ١١٢٣هـ/١٧١١م، سنة توقفها، أي أنه واكب كل مراحل حياة المطبعة التي لم تعمر طويلاً. والأهم من ذلك أنه هو صاحب المشروع من أوله، فهو الذي قام بالمبادرة منذ أن تحول إلى بوخاريست لاستصدار كتب عربية هناك. وما مطبعة سيناغوفو إلا مرحلة أولى من مشروعه الرامي إلى إقامة مطبعة عربية

(٢) كتاب الإنجيل، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م، ورقة ٢.

(٣) كتاب المواعظ، حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م، ورقة ٢.

مسيحية في بلاد الشام فلم يبق مكتوف الأيدي بعد توقف مطبعة بوخاريست العربية في سنة ١١١٤هـ/١٧٠٢م عن العمل، إذ سعى منذ عودته إلى حلب بعد سنتين من ذلك إلى تأسيس مطبعة، وتمكن من الحصول على مساعدة مادية هامة من حاكم بلاد الفلاخ لتنفيذ مشروعه. ورغم أننا لا نملك -حسب معلوماتنا الحالية- تفاصيل دقيقة حول هذه المساعدة المادية، فهل هي تتمثل في أموال أو تجهيزات أو غيرها، إلا أن من المؤكد أن هذه الإعانة مهمة جدًا، الأمر الذي دفع أثناسيوس الثالث إلى إهداء أول كتاب تصدره مطبعة حلب إلى الأمير الروماني قسطنطين بسرابا برانكوفيانول، وقد قال البطريرك في نص الإهداء:

"فرح عظيم شمل المسيحيين لما ظهر قسطنطين العظيم..حين كانت المؤمنون قبله مضنوكين (كذا) من الاضطهادات اليونانية، ثم أصبحوا بغتة ظافرين مؤيدين، أكثر منه يشمل اليوم الفرح الكلي بل الأكمل كافة المؤمنين حين ظهرت يا أيها الهمام النبيل حاملاً يديك تلك الغيرة الروحانية الواصلة منك نحو المؤمنين المقيمين في البلاد العربية"(١).

إن الدعم الذي قدمه أمير بلاد الفلاخ لتأسيس المطبعة، لا ينبغي أن يطمس دور البطريرك أثناسيوس الثالث دباس في هذا المشروع، ويمكن عدّه مؤسس مطبعة حلب ومديرها. وأن الخبرة الفنية التي اكتسبها في مطبعة بوخاريست أهّلته للقيام بدور المطبعي في حلب، ولم تكن المؤهلات الفكرية والأدبية لتنقصه. فهو من رجال الأدب البارزين في الطائفة، إذ قام بتأليف جملة من الكتب والرسائل وبترجمة نصوص دينية من اليونانية إلى العربية، علاوة على مراجعة وتصحيح مخطوطات أخرى كان قد ترجمها سابقوه وساعده في ذلك حذقه للغتين العربية واليونانية. فمثلاً ألف **"رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة"**، وقام بطبعها في حلب سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م. كما ترجم **"كتاب الدر**

(١) نص الإهداء في كتاب المزامير، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م.

المنتخب" من اليونانية إلى العربية، وطبعه سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م، وتولى مراجعة كتاب الإنجيل والباركليتي قبل طبعهما[١].

ب- تمويل المطبعة:

إلى جانب الأموال التي أرسلها أمير بلاد الفلاخ قسطنطين برانكوفان لمساعدة البطريرك على تنفيذ مشروعه، لجأ أثناسيوس الثالث أيضًا إلى الأغنياء الأرثوذكس الملكيين وإلى بعض المؤسسات الخيرية للحصول على المال. وإذا استخدمت مساعدات أمير رومانيا لتمويل المطبعة عند انطلاقتها، فإن المساعدات الأخرى مكنت من استمرار العمل بها حتى توقفت في سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م. وهناك وثائق أصلية تتحدث عن إعانات أبناء الطائفة مثل مقدمة آخر كتاب يطبع في حلب حيث توجه البطريرك بالشكر إلى كل من ساهم في تمويل المطبعة: "فلم نشح بموازرة الباري تعالى بالمساعدة للمسيحيين على حسب الإمكان من مصروف القبر الكلي القداسة، بل من صدقات المسيحيين ولذلك بذلنا المجهود في طبع هذه المواعظ... من أجل خلاص أنفس وأجساد المسيحيين الأرثوذكسيين الذين بواسطة صدقاتهم، أمكنا أن نطبع هذا الكتاب"[٢].

أسهم الأغنياء إذن من أبناء الطائفة الأرثوذكسية الملكية إلى جانب البطاركة في تمويل المطبعة. وقد ذكرت أسماء أبرز المحسنين الذين صرفوا الأموال اللازمة لطبع إحدى الكتب مثل جان مازبا (Jean Mazeppa) قائد جيش الانكشارية في بلاد الفلاخ الذي مول طبعة **"الإنجيل"** في سنة ١١١٩هـ/١٧٠٨م، وخريسطوس (Chrysanthe) بطريرك بيت المقدس الذي مول طبعة كتاب **"المواعظ الشريف"** سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م، وكذلك كيرلس

(١) Karalevsky, « Antioche…op.cit., » col.645-697.

(٢) مقدمة كتاب المواعظ، ورقة ٥-٦.

الخامس منافس أثناسيوس الثالث الذي مول **"كتاب الباراكليتيكي"** أي المعزّي(١) سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م. وقد ذكرت هذه الأسماء في مقدمة الكتب المطبوعة نفسها. أما عن مقر المطبعة فهو أبرشية الأرثوذكس اليونانية الموجودة حاليًا بحي الجديدة بحلب(٢).

١.٢.٣- المشاكل الفنية للنشر العربي:

أ- مصدر آلات الطباعة:

إذا لم يكن هناك شك حول اسم مؤسس المطبعة، فإن الاختلاف حصل بين المؤرخين حول مصدر آلات الطباعة وحروفها؛ فشنورر(٣) يرى أن الحروف التي استعملت بحلب هي الحروف نفسها التي استخدمت في سيناغوفو، وبالتالي فهي قادمة من بلاد الفلاخ وذهب بعض المؤرخين المعاصرين إلى الرأي نفسه(٤). بل أضافوا أيضًا أن آلات الطباعة هي كذلك قادمة من سيناغوفو، ورأوا أنه في وجود ختم أمير بلاد الفلاخ على أول صفحة لكتاب المزامير الصادر بحلب مثلما هو الحال للكتابين اللذين صدرا بسيناغوفو، وهذا دليل كاف على أن آلات الطباعة وحروفها مصدرها بوخاريست. وقد عارض المستشرق الفرنسي دي ساسي هذا الرأي. فبعد أن قارن حجم وشكل حروف مطبعة سيناغوفو مع حروف حلب، لاحظ أن هناك فرقًا واضحًا بين كلتا الكتابتين(٥).

---

(١) **كتاب المعزّي أو الباركليتي:** هو كتاب الألحان الثمانية المسيحية او كتاب الابتهال. اسمه الشائع هو المعزّي مع أن الطابع الغالب عليه هو الاستعطاف وليس التعزية.

(٢) هذا ما أكده لنا نيوفيطوس إدلبي رئيس أساقفة الكاثوليك بحلب عند زيارتنا له بحلب في أبريل ١٩٨١م.

(٣) Schnurrer, **Bibliotheca…op.cit**, p.270.

(٤) Karalevsky, Histoire…op.cit, T III, p169 ; Dan Simonescu, « Impressions…op.cit., p.59. Candea, Virgil« Dialogue…op.cit., pp.286-287.

(٥) Sacy, Sylvestre, Bibliothèque…op.cit ; T1, p.289.

ومن الواضح بعد مقارنة دقيقة بين الخط العربي في كلتا الطبعتين أن الفرق بينهما كبير هام؛ مما لا يدعو للشك إلى أنهما من مصدرين مختلفين فحروف مطبعة سيناغوفو خشنة، بينما حروف حلب دقيقة، وهذا مما يؤكد أنه حصل في الأثناء تطور فني. وإذا ما أخطأ شنورر في حكمه فذلك يعود أساسًا إلى عدم تمكنه من القيام بمثل هذه المقارنة بسبب عدم حصوله على نسخ من كتب بوخاريست وحلب؛ نظرًا لندرتها.

إلا أن هذا التأكيد لا يمنع من احتمال لجوء أثناسيوس إلى أخذ حروف عربية من سيناغوفو لتكون نموذجًا للحفارين بحلب، عند إعداد قوالب وطوابع للحروف العربية. وقد يكون البطريرك وجد بعض صناع المعادن الماهرين لحفر الحروف تحت إشرافه، وهو الذي تعلم هذا الفن في بلاد الفلاخ. ولا يمكن له أن يستدعي أنتيموس إيفير الكرجي من سيناغوفو، كما ذهب إليه الأب شيخو[1]، أولاً: لأن هذا المطبعي غادر ورشة الطباعة سنة ١١١٧هـ/١٧٠٥م، لتقلد كرسي الأساقفة في ريمنيك[2]، ثانيًا: لأن حروف حلب أكثر جودة من حروف بوخاريست ويستبعد من أنتيموس أن يقدم عملاً أحسن من قبل. هذا إذا أضفنا أن العرب قادرون على القيام بهذا العمل بدقة. ويكفي التذكير بأن سافاري دي براف قد أمر بإعداد الحروف العربية باستانبول في بداية القرن ١٧م، ثم استعملها فيما بعد، في مطبعته بروما وباريس.

بقي أن نشير إلى أن مصدرًا آخر يشير إلى أن الشماس عبد الله الزاخر هو الذي أعد الأحرف العربية، وهذا ما ذكره أحد تلاميذ هذا العالم الأرثوذكسي الملكي ويدعى يواكيم مطران (١١٠٨-١١٨٠هـ/ ١٦٩٦-١٧٦٦م)، والذي قال

---

(١) المشرق رقم ٣، ١٩٠٠م، ص ٣٥٥.

(٢) Picot, « Notice… » op.cit., p.519.

في ترجمة أستاذه عبد الله الزاخر: إنه "اصطنع مطبعة في حلب بمساعدة أخيه وعملا آباتها وأماتها (كذا) وأحرفها وجميع آلاتها، وطبعا جملة كتب بدون أن يشاهدوا المطابع، وبغير أن يرشدهما أحد إلى هذا العمل"(١) .

ولئن كان الأب نصر الله يرى أن هذه الترجمة حقيقية وأنه يصعب ردّها، إلا أننا نلاحظ أنها رواية جد مبالغ فيها. فكاتبها هو تلميذ عبد الله الزاخر أراد تمجيد أعمال أستاذه، ويمكن أن تنطبق هذه الشهادة فعلاً على مطبعة الشوير، أما على مطبعة حلب فهذا أمر جد مستبعد، خاصة أن المصادر الأولية تؤكد أن أثناسيوس الثالث هو مؤسس المطبعة ومديرها. أضف الى ذلك أنه لا يمكن لعبد الله الزاخر أن يقوم بمثل هذا المشروع دون أي دعم مادي من أي طرف بل دون أن تكون له فكرة عن فن الطباعة. إلا أن من المحتمل أن يكون عبد الله الزاخر قد أسهم مع البطريرك وفنيين آخرين في إعداد الأحرف وهذا أمر وارد جدًا؛ لأن أثناسيوس الثالث يعترف أنه عمل مع مجموعة من الأشخاص حيث يقول "أنه (الله) وفقنا إلى عمل طبع الحرف العربي"(٢)،لأنه تعاون تعاونًا وثيقًا مع عبد الله الزاخر إلى حد سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، وهو العالم المسيحي الكبير - كما سنرى فيما بعد - والفنان البارع في مجال النقش والحفر على الخشب والمعادن(٣).

وقد أخذت الأحرف العربية ثلاثة أحجام منقوشة على الخشب، الحجم الأول كان خشنًا واستعمل في طبع كتاب المزامير والإنجيل وكتاب النبوات

(١) مخطوط حريصا، في **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٣٨٧.

(٢) مقدمة كتاب المزامير، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م.

(٣) البستاني، فؤاد أفرام، الشماس عبد الله الزاخر في: المسرة، ١٩٤٨م، ص ٤٠٠، انظر أيضًا نصر الله، "مطابع الملكيين في: المسرة. ١٩٤٨م، ص ٤٥٠. نلاحظ أن نصر الله يتناقض في تحليله في هذا المقال؛ إذ بعد أن يقر بأن البطريرك أثناسيوس هو منشئ المطبعة (ص٤٤٨)، إذا به يقدم عبد الله الزاخر على أنه منشئ المطبعة نفسها (ص ٥٤٣).

والرسائل. أما الحجمان الآخران فيشبهان الخط النسخي وطبع بهما كتاب المواعظ والباراكليتي والتوبة(١).

أما عن نوعية الكتابة العربية فقد نقل الحافرون الحروف الجميلة للكتاب النسخي التي رسمها ناسخ مسيحي من عائلة لبّاد بحماه(٢). وبخصوص آلات الطباعة التي يصعب صنعها في بلاد الشام في تلك الفترة، فيمكن أن تكون استقدمت من الخارج، وعلى الأرجح من بوخاريست، وهو ما يمكن أن يفسر طبيعة المساعدة المادية التي قدمها حاكم بلاد الفلاخ للملكيين(٣).

ب- مشكلة إعداد أحرف الطباعة العربية:

واجه المطبعيون بحلب الصعوبات الفنية نفسها التي اعترضت سبل زملائهم بأوروبا في القرنين ١٠ و١١هـ / ١٦ و١٧م. فهؤلاء فشلوا في البداية حين عملوا على تطبيق مبدأ الفصل بين الحروف العربية في كتابة الكلمات والجمل مثلما هو الحال في الهجائية اللاتينية، إذ طبعوا نصوصًا عربية غير واضحة، وهذا ما حدث لجيستنيانوس الذي طبع كتاب المزامير في جنوة سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، والمستشرق بوستال الذي طبع كتاب النحو العربي بباريس سنة ٩٤٩هـ/١٥٤٣م، وغيرهما؛ إذ لم يستخدما الأشرطة الرابطة بين الأحرف، وسرعان ما انصرف الأوروبيون عن هذه الطريقة، وسعوا إلى تطويع المطبعة

---

(٤) Nasrallah, L’imprimerie…op.cit., p.21.

(١) حاج، أثناسيوس، **الرهبانية الباسيلية الشويرية**، جونية. مطبعة الكريم، ١٩٧٣م، ج ١، ص ٥٤٣.

(٢) صابات، خليل، **تاريخ** ... ص ٢٩، حتي، فيليب. **تاريخ** ... ج٢، ص ٣٤٢.

للكتابة العربية المخطوطة عوضًا عن تطويع هذه الكتابة للمطبعة(١)، الأمر الذي تسبب في مشاكل فنية عدة(٢):

١- أن الحرف العربي يأخذ عدة أشكال حسب موقعه في الكلمة، أي إذا كان في بداية الكلمة أو وسطها أو في آخرها، فمثلاً حرف الباء يأخذ شكلاً أولاً "بـ" وثانيًا "ـبـ" وثالثًا "ب" ورابعًا "ـب"، وهذا يستدعي إعداد قوالب عدة لكل شكل من أشكال الحرف الواحد الأمر الذي لا تتطلبه الهجائية اللاتينية، حيث يأخذ كل حرف شكلاً واحدًا، أضف إلى هذا قوالب العلامات والحركات على كل حرف مما يستدعي مجهودًا إضافيًا كبيرًا(٣) .

٢- تطبيقًا لمبدأ الطبع وفق كتابة المخطوطات العربية، أي عدم الفصل بين أحرف الكلمة الواحدة وجب إعداد الأشرطة الرابطة.

---

(٣) مثل قرانجون وإليانو ولوبي وكرستان وأربنيوس الذين وفقوا في إعداد حروف عربية جيدة.

(٤) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، اللجنة الفنية لدراسة الأحرف العربية، القاهرة، ١٩٧١م، انظر أيضًا:

Sauvaget, Jean, « Suggestions pour une réforme de la typographie arabe » in : **Revue des Etudes Islamiques**, 1951, p.127-132 ; Hamzaoui, R, **L'académie de la langue arabe du Caire**, Tunis : Université, 1975,pp.211-246.

(١) يعدّد المطبعي الفرنسي فيتراي على سبيل المثال عدد الحروف والقوالب التي كان يستعملها لكل حجم من أحجام الحروف "العربي الصغير" ٤٤٥حرفًا، "الحرف العربي الكبير" ٣٢٤حرفًا، "الحرف العربي المتوسط" ٣٢٤حرفًا. إلا أن المطابع الهولاندية والإيطالية والألمانية كانت تستعمل حروفًا أقل لا تتجاوز ١٥٠ قالبًا لأنها لم تستخدم العلامات والأشرطة الرابطة بالقدر نفسه الذي استخدمته مطبعة باريس. انظر:

De Guignes, **Principes de composition typographique pour diriger un compositeur dans l'usage des caractères orientaux de l'imprimerie royale,** Paris, 1790.

٣- في الكتابة العربية هناك أحرف ترتفع إلى فوق السطر مثل أ، ط، ظ، ك وأخرى تنزل إلى أسفل السطر مثل ع، س، ق، وغيرها وهذا يتطلب مساحة أكبر في النص العربي.

أما عن نتائج هذا الوضع فتتخلص فيما يلي:

١- يضيع العمال وقتًا طويلاً للبحث عن الحروف العربية في صندوق الحروف ولوضع الحركات والعلامات عليها بما أن عددها مرتفع جدًا بالمقارنة مع الحروف اللاتينية، وهذا ما لاحظه الرحالة الفرنسي فولني الذي زار مطبعة الشوير سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م حيث ذكر "أنه ينبغي سبك عدد من الأحرف المضاعفة، وهذا ينتج عنه مضاعفة عدد صناديق الأحرف التي تصبح في غير متناول يد المطبعي المصفف الذي يضطر إلى التنقل أمام منضدة يبلغ طولها ١٨ قدمًا والبحث عن الأحرف في قرابة ٨٠٠ عين للأحرف، وينتج عن ذلك خسارة كبيرة للوقت تجعل المطابع العربية غير قادرة على مضاهاة مطابعنا"(١).

٢- يصعب استخدام أحجام صغيرة للحروف وتضييق المسافة بين الأسطر نظرًا لطبيعة الكتابة العربية وهذا لا يسمح بتوفير مساحة للنص العربي كما هو الحال بالنسبة للنص اللاتيني مما يؤدي إلى خسارة كبيرة في الورق، وإذا أضفنا إلى كل هذا أن المطبعيين بحلب يواجهون هذه المشاكل بالجملة لأول مرة في تاريخ المشرق ومطالبون بإيجاد حلول لها علمنا صعوبة المهمة التي تعهدوا بها، خاصة أنهم لم يستفيدوا من تجارب أوربا التي سبقتهم في هذا المجال بحكم خلافاتهم مع كنيسة روما. بالإضافة إلى هذا المشكل الفني اعترضت أثناسيوس الثالث مشكلة مادية انعكست على عملية إعداد الأحرف تمثلت في عجزه عن

(١) Volney, Voyage…op.cit.,pp.293-294.

شراء المعدن الخاص بالقوالب والطوابع فاضطر العمال إلى نقش الأحرف على الخشب مستعملين في ذلك أدوات النجارة البسيطة مثل الإزميل والمطرقة. ذلك لأن سبك الحروف على المعادن يتطلب أدوات متطورة ودقيقة.

ج- صعوبة النشر العربي في حلب:

يقوم المطبعي في القرن ١٢هـ/١٨م بدور "الناشر العلمي" علاوة على دوره التقني المهني الأصلي ذلك لأنه مطالب بتتبع كل "مراحل النشر" من اختيار المخطوط ومراجعته ثم تنضيده وإصلاح التجارب إلى حد السحب، وفي كل مرحلة تعترضه صعوبات جمة خاصة عند مراجعة المخطوطات وبالذات المخطوطات القديمة التي تداول الوراقون عبر العصور على نسخها إذ كان لابد من القيام بعملية "تحقيق" للتثبت من مطابقة النسخة للنص الأصلي قبل الشروع في عملية الطبع. وفي جل الأحيان تتسرب الأخطاء في النسخ نتيجة إهمال الناسخين وتتراكم حتى تبتعد النسخة عن النص الأصلي، وهذه الأخطاء تتنوع وتبدأ من أخطاء الرسم إلى أخطاء النحو، فالجمل الناقصة، فالألفاظ المتحولة عن موضعها الأصلي، فالألفاظ المستبدلة بألفاظ أخرى، وغيرها؛ حتى يصير النص بمرور الزمن مشوهًا ومحرّفًا.

وقد تولى مهمة الناشر بحلب البطريرك أثناسيوس الثالث إذ تعهد باختيار المخطوطات ومراجعتها قبل طبعها. وحرص في كل طبعة على طمأنة القارئ على صحة النص المطبوع ومطابقته للنص الأصلي. وكان يعدد الأعمال التي قام بها للوصول إلى نص خال من الأخطاء، ففي كتاب المواعظ ذكر أثناسيوس أنه عند طبع هذا الكتاب "رأى أنه مع تمادي الأيام وتخالف عقول الناسخين وعدم معرفتهم بمعاني الكتب وقوانين اللغة العربية قد وَهِيَ تركيبه وتقوضت مبانيه وأزيد ما لا احتياج إليه ونقص ما تدعو الضرورة إليه، فتلافاه حينئذ بحسب الإمكان، وحذف منه ما زاد عن الواجب من الإعادات المملة، وأثبت ما

وجب إثباته لنيل الإفادة، فحصل مصحقًا عري(كذا) من التحريف مفيدًا بوضوحه لمن قصر فهمه عن مطالعة الأسفار العميقة"(١). ولم يكن البطريرك وحيدًا في عمله، إذ أسهم معه بعض العلماء الآخرين من أمثال منافسه كيريل الخامس بطريرك أنطاكية وفرحات جرمانوس(٢) وأيضًا كريسانت نوتاراس بطريرك بيت المقدس.

اختار أثناسيوس الثالث للطبع الكتب المقدسة المسيحية وكتب الأخلاق والزهد، وهي إما كتب ترجمت إلى العربية عن اليونانية أو تم تأليفها في ذلك العصر، أو تم تجميعها من نصوص عدة. ومن جملة الكتب المقدسة يوجد الزبور والإنجيل وكتاب النبوات، أما عن كتب الزهد فتتضمن المواعظ، وجل هذه الكتب قديمة وقد حرفت وشوهت بمرور الزمن. ويؤكد أثناسيوس أنه راجع مع

زملائه كل الكتب التي طبعت بحلب، وأنه قام بإصلاح كل الأخطاء الموجودة بالنسخة العربية. وكان في كل مرة يطمئن القارئ إلى دقة النص المطبوع ووفائه لجوهر أفكار المؤلف وأنه في بعض الأحيان اضطر إلى تغيير بعض الجمل التي كتبها المؤلف ويمكن أن يعزو ذلك إلى عدم حذق العلماء المسيحيين سواء مترجمين أو مؤلفين للغة العربية الفصحى، التي كما رأينا عوّضت السريانية والإغريقية في كتابة نصوصهم الدينية(٣). لهذا فعلى القارئ-حسب رأيه- ألا يعوّل إلا على الكتاب المطبوع وإهمال المخطوط منه. هذا ما توجه به إلى القارئ في أحد كتبه، إذ قال: "إياك يا هذا أن تعتقده محرّفًا إذا ما رأيته لأصله مخالفًا بل اتخذه عين الصواب، إن كنت منصفًا، واعلم أن كل كتاب يوجد منه منسوخًا غير مطبوع، فهو من الغلط موسوع (كذا)، وأمّا ما وجد منه

(١) تنبيه القارئ في كتاب المواعظ، حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م، ورقة ٧.

(٢) ساهم فرحات جرمانوس في مراجعة كتاب الدر المنتخب الذي طبع بحلب، ١١١٩هـ/١٧٠٧م.

(١) إن من المهم لو تتم مقارنة بين نص الكتاب المقدس الذي طبعه أثناسيوس والنسخة العربية لعبد الله بن الفضل للتعرف على مدى دقة عمل البطريرك، إلا أن هذا العمل يتجاوز نطاق دراستنا.

طبعًا (كذا) فإنه محكم الإنشا وضعًا، فلا يجب الاعتماد إلا عليه ولا يحسن الميل إلا إليه"(١).

١.٤ - إسهام النشر العربي في حلب في تنشيط الحياة الدينية والثقافية عند المسيحيين في بلاد الشام:

نشرت المطبعة ثمانية كتب من بينها طبعتان معادتان وذلك من سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م إلى سنة توقفها ١١٢٣هـ/١٧١١م، وهي كلها كتب دينية(٢)، ولنا أن نتساءل ما سبب اختيار أصحاب المطبعة لهذه الكتب؟ وما مشاغلهم واهتماماتهم الرئيسية وهم ينشرون كتبًا عربية لأول مرة في المشرق؟ هل يمكن التعرف إلى المفهوم الذي حملوه عن دور المطبعة في حياة طائفتهم؟ ما صدى هذه الكتب في بلاد الشام؟ وما مدى إسهامها في تنشيط الحياة الدينية والثقافية والعلمية لدى الطائفة الأرثوذكسية ولدى بقية الطوائف(٣)؟

١.٤.١ - محتوى الكتب المطبوعة:

طبعت هذه الكتب الدينية بغرض استخدامها في كنائس الطائفة الأرثوذكسية الملكية. وقد اختيرت بالنسبة للكتب المقدسة الترجمات العربية المعتمدة عندهم،

(٢) كتاب المواعظ، ورقة ٧.

(٣) هذه الكتب كالآتي:
- الزبور، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م، أعيد طبعه بعد ثلاث سنوات.
- الإنجيل، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م، وأعيد طبعه بعد سنتين.
- كتاب الدر المنتخب، حلب، ١١١٩هـ/١٧٠٧م.
- كتاب النبوات، حلب، ١١٢٠هـ/١٧٠٨م.
- كتاب الرسائل، حلب، ١١٢٠هـ/١٧٠٨م.
- كتاب الباركليتي، حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م.
- كتاب المواعظ الشريف، حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م.
- رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة، حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م.

(١) إن هذه الدراسة ستكون محدودة نظرًا لعدم تمكننا من الاطلاع إلا على كتابين فقط من إنتاج المطبعة بسبب ندرة الكتب، وهما: الإنجيل والمواعظ.

والتي أعدها عبد الله بن الفضل الأنطاكي منذ القرن ٢هـ/٨م. وتولى مراجعتها أثناسيوس الثالث، أما كتب الأخلاق والزهد فقد اختيرت من بين المؤلفات الإغريقية القديمة وترجمت إلى العربية من طرف البطريرك، فكتاب **"المواعظ"** للقديس يوحنا المطبوع سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م هو جملة من المواعظ وعددها أربع وثلاثون، تولى جمعها وترجمتها إلى العربية أثناسيوس الثالث، كما أن **"رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة"** المطبوعة أيضًا سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م وهي منتخبات من كتب إغريقية، جمعها وترجمها كذلك البطريرك نفسه، وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب **"المواعظ الشريف"** للأب أثناسيوس بطريرك بيت المقدس الذي ألفه في القرن ٩هـ/١٥م وطبع سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م، وهذه الكتب كانت مهملة ولا يعرفها إلا القليل حتى من رجال الدين. لذلك بادرت المطبعة بنشر ترجمتها العربية؛ للتعريف بها لدى الأرثوذكس، ثم لتسهيل قراءتها لأنها باللغة العربية التي أصبح يتكلمها كل أبناء الطائفة، ولتقدير مجهود العلماء منهم الذين بذلوا جهدًا كبيرًا منذ القرن ١١هـ/١٧م لمراجعة المخطوطات وترجمة بعض الكتب مثل عبد الكريم كرمي ومكار الثالث زعيم وأثناسيوس الثالث دباس وغيرهم، وهذا في وقت ندرت فيه المخطوطات وارتفع ثمنها رغم أنها مليئة بالأخطاء. ولكن كيف يبرر هؤلاء اختيارهم لهذه الكتب دون غيرها؟

ذكرت أسباب ذلك في مقدمات بعض الكتب، إلا أنها اقتصرت على إشارات غامضة. فمثلاً في **"كتاب الإنجيل"** ذكر في المقدمة أنه طبع " قصدًا بذلك أن تستفيد من تعاليمه الساطعة". كما وردت إشارة أخرى في مقدمة كتاب المواعظ عن الدوافع التي كانت وراء طبعه "لما تأملنا من النفع العام الذي نرجوه أن يحصل من هذا المصحف السمي".

لم يفسر أصحاب المطبعة الألفاظ التي أوردوها مثل "النفع العام"، إلا أنه من الواضح أن المسألة تتعلق بالفوائد الدينية التي تعود على الملكيين عند استعمالهم

لهذه الكتب من فهم بعض التعاليم المسيحية والاتعاظ بأفعال السابقين وغير ذلك.

يقول أيضًا كريسانت نوثاراس بطريرك بيت المقدس (١١١٩-١١٤٤هـ/١٧٠٧-١٧٣١م)، الذي موّل وأشرف على عملية نشر آخر كتاب بحلب وعنوانه **"مواعظ أثناسيوس"**[١]. متحدثًا عن فائدة الكتاب:

"وجدنا هذا الكتاب الرفيع المحل المشتمل على أقوال خلاصية نافعة تتلا (كذا) على مدار السنة في الحدود والأعياد، وهو منتمي لأثناسيوس بطريرك أورشليم... لكننا عرفنا يقينًا من المطّلعين على هذه اللغة ضرورية هذا السفر الشريف ونفعه وخاصة من بطركي مدينة الله العظمى (أنطاكية) الجليلين الكليين لطوبا أي كيركيرللس المتقلد البطريكية يرحمه الله تعالى وكيراتاناسيوس البطريرك السابق الفايق الغبطة أخوينا الحبيبين... بما أنهما متعمقان في فقه اللغة العربية"[٢]. يرى بطريركا أنطاكية وبيت المقدس، أنه ينبغي أن تستأثر المواضيع الدينية بنصيب الأسد في منشورات حلب لذلك توجهت مطبعة حلب توجهًا دينيًا بعدّها تعمل تحت إشراف رجال الدين الذين يريدون تسخيرها لخدمة المذهب الأرثوذكسي الملكي. أما عن إهمالهم للموضوعات العلمية والأدبية في هذه المنشورات فيمكن أن تعزا إلى أن المخطوطات التي تتناول هذه الموضوعات متوافرة بالسوق على عكس المخطوطات الدينية المسيحية التي هي نادرة. لذلك حرصت كنيسة أنطاكية على توفير الكتب الدينية بأعداد كبيرة حتى يجتمع كل أبناء الطائفة حول نصوص دينية موحدة، خالية من الأخطاء ومترجمة إلى العربية حسب الأصل اليوناني. كذلك لم يهمل أثناسيوس الثالث ورفاقه الفائدة الثقافية من هذه المنشورات. فالنصوص مزدوجة اللغة عربية ويونانية، مما يمكن القراء من

---

(١) هي مواعظ أثناسيوس بطريرك القدس (١٤٦٠-١٤٦٨م).

(٢) كتاب المواعظ، ورقة ٥.

تعلم العربية الفصحى بالاستعانة بالنص اليوناني الموجود مقابل كل صفحة عربية، والتدرب على مطالعة كتب عربية في أسلوب متوسط لا غير وبنية نحوية متماسكة نوعًا ما.

هذا الأمر جديد بالنسبة للمتعلمين الأرثوذكس بسوريا وعددهم في الحقيقة قليل. وأقل منه عدد أولئك الذين تعلموا العربية الفصحى، كانت بعض الكتب المطبوعة في الوقت نفسه، عبارة عن كتب مدرسية للأطفال. فمثلاً يعتبر **"كتاب الزبور"**، علاوة على قيمته الدينية، بمثابة كتاب لتعليم العربية للأطفال، وهذا هو سبب إعادة طبعه مرة أخرى في حلب، لتوزيعه على أكبر عدد من الأرثوذكس، وهو في حجم صغير ليسهل مسكه واستعماله، إذن كان لمنشورات حلب دور ثقافي وتربوي إلى جانب دورها الديني، ولنا أن نتساءل الآن هل فكر أصحاب مطبعة حلب في تنظيم حملة لمواجهة الكتب الكاثوليكية القادمة من روما مثلما ذهب إليه كميل أبو صوان(١)؟

من خلال محتوى هذه الكتب يتبين أنها لا تضم كتبًا جدلية ضد الكاثوليكية أو لتعليم المذهب الأرثوذكسي، إذا استثنينا الكتاب الأخير وهو "المواعظ"، حيث تضمن تقديم الكتاب هجومًا ضد أعداء الأرثوذكسية من "ذوي الهرطقات الذين يريدون بث أفكار هدّامة"(٢)، دون تحديد هوية هؤلاء "المارقين عن الدين" هل هم الكاثوليكيون أم البروتستانت أم غيرهم؟ إن كاتب هذا التقديم هو خريسطوس نوتاراس وهو بطريرك بيت المقدس سنة (١١١٩-١١٤٤هـ/ ١٧٠٧-١٧٣١م) الذي عرف بدفاعه عن الأرثوذكسية ضد الكاثوليكية متابعًا في ذلك منهج عمه دوسيتوس Dosithee (١٠٨٠-١١١٩هـ/ ١٦٦٩-١٧٠٧م)

---

(١) Abousouan, C, « Une étape importante dans les relations Orient-Occident : la naissance de l'imprimerie arabe en Europe occidentale et balkanique » in : Actes du colloque international de civilisations balkaniques, Bucarest, 1962.

(١) المواعظ، ورقة ٤.

الذي تهجم على الكاثوليكية وفنّدها في كتبه(١). وإذا استثنينا هذه الإشارة في تقديم الكتاب لا توجد كتب أخرى مطبوعة بحلب تهاجم المذهب الكاثوليكي أو أعضاء الطائفة الملكية الذين انضموا إلى الحزب الكاثوليكي، أو تجيب عن الكتب الجدلية العربية التي طبعها مجمع نشر الإيمان بروما، إذ إن أكبر مشاغل أثناسيوس الثالث وزملائه هو توفير كتب الأناشيد والطقوس الدينية التي تحتاج إليها كنائسهم أشد الحاجة. وهذه النصوص قادرة على جمع شتات كل أعضاء الطائفة حول أناشيد واحدة ورواية واحدة للإنجيل، بعد ما اختلفوا حول تراجم الكتب المقدسة الكثير، واختلفوا حتى عند قراءة المخطوطات نظرًا للتحريف والتشويه الذي أصابها وهذا ما أمكن تفاديه حسب البطريرك أثناسيوس دباس وأصحابه الذين سعوا إلى إصدار كتب مترجمة من اليونانية إلى العربية بعد مراجعة وتفحص دقيق للمحتوى والشكل، ويرون كذلك أن هذه المنشورات مدعوّة لتعويض المخطوطات تدريجيًا. وهذا ما يفسر النداء الذي توجهوا به إلى القارئ في آخر كتاب أصدروه بألا يعتمدوا إلى على هذا الكتاب المطبوع، وألا يلتفتوا إلى النسخ المخطوطة منه(٢)، إن المخطوط هو مصدر الأخطاء والمشاكل التي تقسم أبناء الطائفة، لذلك وجب إقصاؤه واستعمال الكتاب المطبوع فقط.

هدفت المطبعة إلى إفادة جميع أبناء الطائفة، بما فيهم "المنشقّون" الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي، ولهذا لم تسع إلى إصدار كتب جدلية عدا تلك الإشارة التي وردت في آخر كتاب لها. لقد حرص أثناسيوس الثالث مؤسس المطبعة ومديرها مع مساعديه على طبع أكبر عدد ممكن من الكتب الدينية

---

(٢) يقول خريسطوس في مقدمة كتاب المواعظ ورقة ٥، متحدثًا عن عمه دوسيتوس: "ويود إشهار قبح الآراء الفاسدة المزمعة الحدوث بمكاتبات منه مخصوصية صحبة مكاتبات رجال متفلسفين التي عما قليل كان قد دثرها طول الزمان فجمعها من كل ناحية بتفتيش بليغ لتكون للجميع أسلحة كافية لكي بها يقاومون الآراء المفندة لحسن الإيمان التي ستحدث".

(٣) كتاب المواعظ، ورقة٧.

الضرورية لكنائس الطائفة، ولكن الأمر تغيّر فيما بعد، أي نحو سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، حيث أعلن البطريرك الحرب على عبد الله الزاخر الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي، وكان لهذه الحادثة تأثير على تاريخ الطباعة العربية؛ إذ كانت من بين أسباب تأسيس مطبعة الشوير.

١.٤.٢- توزيع الكتب المطبوعة في حلب:

قرر أثناسيوس الثالث توزيع منشورات حلب مجانًا على رجال الكنيسة الملكية الأرثوذكسية، وذلك لتشجيع القراءة، خاصة أن هذه الكتب قد طبعت بفضل المساعدات التي قدمها أمير رومانيا وأغنياء الطائفة. ولم يكن الغرض إذن الحصول على أرباح أو تغطية المصاريف من خلال بيعها. وقد تحدث خريسطوس عن وجهة هذه المنشورات فقال: " لكي يفرقوا مجانًا في كنائس العرب الأرثوذكسيين لكي يقروهم (كذا) في محل اجتماعهم. ولذلك نلتمس من كافة الذين يحصلون عليهم بل ننصحهم نصيحة أباوية، أن لا يجتهدوا في تحصيل هذا الكتاب فقط، بل وأن يستمروا على قراءته (كذا) مواضبين على ما يأمرهم به من التعليم الخلاصي المفيد، لا سيما الكهنة والمتقدمين في الكنائس، فإياهم أن يتهاملوا به (كذا) كدين واجب عليهم يقروه في وقت اجتماع المؤمنين بمسمع الكافة جليًا ويحتوهم (كذا) على سماعه والعمل بموجبه"(١).

وجهت هذه المطبوعات إذن بالدرجة الأولى إلى رجال الدين الأرثوذكس، وهم يحسنون القراءة والكتابة وقادرون بالتالي على قراءة هذه الكتب على أسماع الأرثوذكس الأمّيين. ونظرًا إلى أن عدد المتعلمين يكاد ينحصر في الكهان والأساقفة، فإن الكتاب يبقى في الكنيسة للقراءة الجماعية(٢) ويدعو

(١) كتاب المواعظ، ورقة ٦-٧.

(١) لم تصلنا الأرقام حول نسبة طَبْع نُسَخ من الكتب، إلا أنه يعتقد أن عدد النسخ لم يكن مرتفعًا لأن رقم النُسَخ يخضع لعامل السوق وسخاء بعض الأغنياء من رعاة الأدب والعلم؛ لذلك اقتصر توزيعها على الكنائس فحسب.

خريسطوس رجال الدين إلى الإكثار من قراءة فقرات من الكتب الصادرة بحلب أثناء الصلوات بالكنيسة والأعياد حتى يطلع المؤمنون على النصوص العربية الجديدة المترجمة عن اليونانية، ويسهل عليهم حفظ الأناشيد وفقرات من الكتب المقدسة، وذلك باللغة المتداولة عندهم عوضًا عن اللغات المقدسة التي لم تعد مستعملة في حياتهم اليومية.

يمكن أن نفسر سبب حرص أصحاب مطبعة حلب على إيداع كتبهم في الكنائس والأديرة فقط دون تشجيع الأرثوذكس على تداولها خاصة في الأماكن العمومية، بحذرهم الشديد من أن تتسبب في استفزاز "المسلمين" الذين لا يقبلون بسهولة الكتب العربية المطبوعة، علاوة على أنها مسيحية، هذا بالنسبة لعامة المسلمين. أما السلطات العثمانية، فإن الوثائق لا تشير إلى أنها كانت مطلعة على أخبار مطبعة حلب، إلا أنه يبدو أن موقفها أصبح متسامحًا مع مطلع القرن ١٢هـ/١٨م إزاء فن الطباعة بالحرف العربي، خاصة أن الباب العالي كان بصدد الإعداد لقرار يسمح بإدخال أول مطبعة إسلامية إلى إستانبول، وربما كان هذا العامل مشجعًا للبطريرك أثناسيوس الثالث ولأمير بلاد الفلاخ قسطنطين برنكوفيانول، لإقامة مطبعتين على الأراضي العثمانية ونشر وتوزيع كتب عربية في ثلاث بطريركات أرثوذكسية هي أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية.

١.٤.٣- توقف مطبعة حلب:

أصدرت مطبعة حلب كتابًا أخيرًا لها في سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م ثم توقفت، ولا ندري إن كان هذا التوقف وقتيًا أم نهائيًا. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الورشة انطلقت من جديد سنة ١١٣٤هـ/١٧٢١م؛ لتطبع كتابين الأول **"صخرة**

الشك" سنة ١١٣٤هـ/١٧٢١م، والثاني **القنداق**[١] سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م. لا يزال الكتاب الأول محفوظًا في المكتبات الكبرى في العالم، وهو كتاب جدلي كتبه أحد الأرثوذكس اليونانيين ويدعى إلياس منياتاس (١٠٨٠-١١٢٦هـ/ ١٦٦٩-١٧١٤م)، وترجمه أثناسيوس الثالث إلى العربية، إلا أنه حصل اختلاف حول اسم المطبعة التي نشرت الكتاب، فشنورر ونصر الله يعتقدان أن الترجمة العربية صدرت في لندن وليس في حلب[٢] أما لوانك فيرى أن هناك طبعتين واحدة بحلب وأخرى بلندن[٣]. جاء في آخر كتاب "صخرة الشك": "تم ذلك وبرز باللغة العربية في مدينة حلب المحمية بهمة الأب المكرم أثناسيوس البطريرك الأنطاكي في سنة ١٧٢١". نفهم من هذا أن الترجمة أعدت بحلب وليست الطبعة. فقد اعتاد صاحب مطبعة حلب على استعمال هذه العبارة على صفحات منشوراته: " قد طبع حديثًا بمحروسة حلب المحمية"، وأنه ليس من باب الإهمال أن يغفل البطريرك عن ذكر هذه العبارة التقليدية. فهل تم فعلاً طبع الكتاب بلندن وفي هذه الحالة نتساءل كيف نفسر اتصال أثناسيوس بالبروتستانت لطبع كتب بإنجلترا؟

يبدو أن عنصر الاتصال هنا كان أحد التلاميذ الذي أرسله أثناسيوس الثالث نفسه للدراسة في أوربا ويدعى سليمان الأسود (توفي ١١٤٢هـ/١٧٢٩م) الذي عرف باسمه اللاتيني Salomon Negri [٤] وكان قد استقر في باريس ثم في هال وأخيرًا في لندن. حيث كلفته مؤسسة إنجليزية متخصصة في نشر الكتب

(١) **القنداق:** نمط شعري كتبت فيه التسابيح والأناشيد للكنيسة باليونانية في القرنين السادس والسابع، يعتمد على السرد القصصي.

(٢) Schnurrer, n°274 ; Nasrallah, Histoire…op.cit., vol IV, p.142.

(٣) Levenq, « Athanase…op.cit » ; col 1373-1374 ; voir aussi Ellis, A.G ; Catalogue…op.cit., T1, col 328.

(١) Biographie universelle, Paris, Michaud, 1822 T31, article NEGRI.

المقدسة بمراجعة الكتب التي طبعها أثناسيوس الثالث بحلب بغرض إعادة طبعها وقام بإصدار ثلاثة كتب في لندن: **المزامير** سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م و**الإنجيل** سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٧م، وكذلك كتاب **صخرة الشك** الذي ترجمه بطريرك أنطاكية. وهذا ما تؤكده شهادة أصلية لفرحات جرمانوس الذي كان معاصرًا لأثناسيوس دباس، حيث قال: "ونقل أيضًا أثناسيوس المذكور كتابًا آخر يسمى صخرة الشك مملوءًا قذفًا وشكًا ضد الإيمان المقدس، وأرسل فطبع هذا الكتاب النجس الدجّالي في بلد الإنكليز وتكلف على طبعه من ماله"(١).

وإذا تأكدنا من أن هذا الكتاب لم يطبع بحلب، فإنه بقي كتاب آخر يزعم أنه طبع في هذه المدينة وهو **"القنداق"** إلا أنه لا توجد أي نسخة منه في المكتبات الكبرى في العالم و لا نجد له ذكرًا إلا في وثيقة تعود إلى القرن ١٣هـ/١٩م، وهي رسالة من الخوري أوغسطينوس مقصود الذي دخل الرهبانية الشويرية سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م، وتعرف على مطبعة الشوير، وكان قد بعث هذه الرسالة سنة ١٢٥٧هـ/١٨٤١م إلى الراهب الشويري مكسيموس مظلوم، ذكر فيها أن البطريرك سيلفستروس القبرصي (١١٣٧-١١٧٩هـ/ ١٧٢٤-١٧٦٦م) قد طبع كتاب القنداق في المطبعة التي هجرها سلفه أثناسيوس في حلب سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م(٢).

هذه الوثيقة تبقى غامضة، فعلاوة على أنها غير معاصرة للحدث فإنها لا توضّح كيف تم إحياء مطبعة حلب بعد أن هجرت وأهملت منذ أربع عشرة سنة، وبما أنه توجد طبعة لكتاب القنداق بالعربية في سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م صدرت في رومانيا وأشرف عليها سلفستروس بالذات، والأرجح أن

---

(٢) نصر الله، مطابع الملكيين، ص ٤٥١.

(٣) حاج، **الرهبانية**، ج ١، ص ٥٥٠.

أوغسطينوس مقصود يقصد في رسالته هذه الطبعة لا غير[١]. ومما يدعم رأينا أن مطبعة حلب لم تشتغل قط بعد توقفها سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م تلك المساعي التي قام بها الأرثوذكس الملكيون لتجديد طلبهم لدى "مجمع نشر الايمان بروما" لطبع كتابي الأورولوجيون والصلوات، وكان ذلك في سنة ١١٢٨هـ/١٧١٦م[٢]، وذلك بعد ما تبين أن تجهيزات مطبعة حلب لم تعد صالحة للاشتغال من جديد نظرا للحالة الرديئة التي أصبحت عليها الآلات والحروف.

لقد تقدم البطريرك كيريليس الخامس بهذا الطلب إلى المجمع رغم ما أبدته هذه المؤسسة من رفض لمطالب مماثلة كان قد تقدم بها كرمي وزعيم في القرن ١١هـ/١٧م، وأعيد الطلب مرة أخرى في سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م من طرف التلاميذ الملكيين بروما، وتمسك "مجمع نشر الإيمان" بموقفه وشروطه التي رأيناها سابقًا. إن إعادة التوجه نحو روما يؤكد عجز الأرثوذكس عن إحياء مطبعة حلب من جديد أو القيام بمشروع جديد. أما عن أسباب انقطاع المطبعة فلا تزال غامضة ولا شك أن العامل المادي قد ساهم في تعطيل العمل، فالمطبعة مرتبطة تمام الارتباط بالمساعدات التي تقدم إليها ولا تملك مصادر مالية خاصة بها، فهي لا تبيع الكتب ووجب عليها في الآن نفسه مجابهة المصاريف الكبيرة التي تتطلبها كل طبعة، الشيء الذي أزعج كثيرا أثناسيوس الثالث حسب شهادة الخوري يعقوب صاجاتي الحلبي أحد المعاصرين لعبد الله الزاخر[٣]. كما كان في رحيل هذا الأخير عنها، وهو أبرز المطبعيين فيها، الأثر السلبي في سير الورشة.

(١) طبع "القنداق" بالعربية واليونانية في المطبعة الجديدة برومانيا التي أسسها حاكم بلاد الفلاخ إيوان مروكردات . ولنا عودة إلى هذه المطبعة في الفصل التالي.

(٢) Nasrallah, Notes…op.cit., T1, p.103.

(٣) حاج، الرهبانية ...،ج١، ص ٥٤٠.

أمـا عـن مصـير تجهيـزات المطبعـة فهـو غـامض إذ لـم يبـق أثـر لـلآلات والأدوات الأخرى، وقد ذهب المؤرخ معلوف إلى أن أدوات المطبعة نقلت من حلب إلى دير سيدة البلمند، ثم إلى دير الشوير، مشيرًا إلى أنه عثر علـى بعض القطع الخشبية من مطبعة حلب في دير البلمند(١) إلا أن هذه الشهادة غيـر كافيـة في غياب مصادر أولية لمعرفة مصير مطبعة حلب وعلاقتها بمطبعة الشوير.

الخلاصة:

كـان للأرثـوذكس فـي حلـب الفضـل فـي إدخـال أول مطبعـة عربيـة إلـى بـلاد المشرق منذ القرن ١٢هـ/١٨م. وقد أسهمت عدة عوامل في اختيـار مدينـة حلـب لتكون مقرًا لهذه الورشـة، منهـا وزنهـا فـي التجـارة الدوليـة وتـأثرهـا بـالحضـور الأوروبي المتمثل فـي التجـار والمبشـرين، ممـا أدخـل حركيـة جديدة فـي الحيـاة الدينية والثقافية للطوائف المسيحية، تمثلت بالخصوص في ترجمة الكتب الدينية مـن الإغريقيـة إلــى العربيــة، ومراجعــة مخطوطــات دينيــة كثيــرة واتصــالها بمنشـورات أوروبـا، ممـا دفـع بـالأرثوذكس إلـى الـتحمس للاسـتفادة مـن فـن الطباعة.

وقد توجه بطريرك أنطاكيـة اثناسيوس الثالـث إلـى الأرثـوذكس ببوخاريسـت لطبع كتب دينية باللغة العربية، بعدما رفض "مجمع نشـر الايمـان برومـا" طبـع كتب الطائفة الأرثوذكسية الملكية. ثم أقـام البطريـرك مطبعـة بحلـب نجحـت فـي إصدار ثمانيـة كتـب مـن ١١١٨هـ/١٧٠٦م إلـى ١١٢٣هـ/١٧١١م. وقد تهجم بطاركــة الطائفــة الأرثوذكسـية الملكيــة علــى المخطـوط والناسـخ، فوعــاء المعلومـات التقليـدي ينقـل أخطـاء النحـو والرسـم الكثيـرة، وخاصـةً أنـه ينقـل نصوصًا دينية محرّفة ومشوّهة بسبب جهل الناسـخين وإهمـالهم. وعلاوة علـى ذلك فإن المخطوط نادر وباهظ الثمن. أما عن فوائد المطبعة كما يراها بطاركـة

(١) Dan Simonescu, « Impression…op.cit., » p.58.

كنيسة أنطاكية، فتتمثل في أنها أداة لمضاعفة عدد الكتب الدينية التي ترجمت إلى العربية لتعويض النصوص اليونانية والسريانية التي لم تعد مفهومة من طرف غالبية أبناء الطائفة. الكتاب المطبوع في نظرهم سيكون في خدمة الكنيسة وأبناء الطائفة، وسيسهم في جمع شملهم حول نصوص دينية موحّدة ولم يفكروا في طباعة الكتب العلمية والأدبية العربية، لأنها غير مطلوبة بكثرة من طرف طائفتهم ولأنها متوفرة لدى الورّاقين المسلمين.

لم تهدف منشورات حلب لإثارة جدال ديني ضد الكاثوليكيين وبقية المذاهب المسيحية الأخرى، فقد كانت بصفة عامة بعيدة عن الصراعات العقائدية التي أثارها المبشرون والكاثوليكيون العرب بحلب. ولم تعمّر مطبعة حلب طويلاً؛ إذ لم تدم سوى ست سنوات فقط. ولم تكن هذه الفترة كافية للحكم على مدى تأثيرها على الحياة الثقافية والدينية لدى المسيحيين بسوريا. إلا أنها قدمت فائدة للمطابع التي ظهرت من بعد، مثل الشوير وبيروت، إذ كانت نموذجًا لها، وأعدت مطبعيين وحفارين ذهبوا للعمل بجبل لبنان. وبذلك يكون فن الطباعة قد تركز ببلاد الشام بفضل هذه المطبعة.

٢ - المطبعة العربية بالشوير ١١٤٧هـ/١٧٣٤م:

توقفت حركة النشر لمدة ثلاث وعشرين سنة بعد تعطل مطبعة الأرثوذكس الملكيين بحلب، قبل أن تظهر مطبعة ثانية لدى المسيحيين. وكانت هذه المرة بالشوير بجبل لبنان وبمبادرة من الملكيين الكاثوليكيين. ولنا أن نتساءل هل كان لهؤلاء المفهوم نفسه عن المطبعة مثل الذي كان للأرثوذكس بحلب؟ هل تم تسخيرها لخدمة المذهب الكاثوليكي؟ وهل أثرت في مجرى الحياة الثقافية بسوريا، خاصة أن ورشة الطباعة بالشوير عمّرت طويلاً، رغم المصاعب التي اعترضتها (١١٤٧-١٣١٤هـ/ ١٧٣٤-١٨٩٩م)؟

٢.١ - الصراعات بين المسيحيين بحلب:

سنحاول دراسة وضعية المسيحيين بحلب في القرن ١٢هـ/١٨م والتي ساهمت في احتدام الصراعات المذهبية بينهم، مما دفع ببعضهم إلى الهجرة إلى الشوير، ثم تأسيس مطبعة فيها.

٢.١.١- حملة الاضطهاد في حلب:

انتشرت الكاثوليكية بسرعة في أوساط الأرثوذكس الملكيين في حلب كنتيجة للنشاط الكثيف الذي قام به المبشرون الذين أرسلتهم روما وباريس. وكما رأينا فإن عددهم وصل إلى ٤٠٠٠ كاثوليكي من جملة ٤٠.٠٠٠ مسيحي. وقدا قاومت الكنائس الشرقية هذه الحركة، وسلكت طريقتين في ذلك: الإقناع بواسطة الحوار والكتابات الجدلية، أو الردع والقمع. وقد وجدت في الباب العالي خير سند في مهمتها. فمورست ضغوطات قوية على كل من اعتنق المذهب الكاثوليكي إلى حد أنها وصلت للتعذيب البدني وللتصفية الجسدية . وكل ذلك كان بأوامر من البطاركة والباشاوات. فقد شن الأرثوذكس بقيادة البطريرك كيريلس الخامس، حملة عنيفة ضد كل مراكز الكاثوليكية ببلاد الشام(١). وكذلك لم يتردد أثناسيوس الثالث الذي اعتلى كرسي البطريركية عام ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، بعد تراجعه عن الكاثوليكية، من شن حملة الاضطهاد ضد كل الكاثوليكيين واللاتينيين، وذلك بعد حصوله من السلطان على فرمان عام ١١٢٥هـ/١٧٢٢م، لمنع الأرثوذكس الملكيين من اتباع مذهب البابا بروما "أو حتى الاتصال بالمبشرين بسوريا"(٢). وأمام هذا التهديد لم يجد الكاثوليكيون بدًا من الفرار إلى جبل لبنان المنيع، إلا أنهم لم يكتفوا بالتحصن به، بل عملوا على تنظيم صفوفهم ورد هذه الهجمات بشتى الوسائل ومن بينها استخدام فن الطباعة لنشر المذهب الكاثوليكي. إن أمر المطابع لم يعد يخفى على أحد،

---

(١) Bacel, P, « Abdallah Zakher » in : Echos d'Orient, n°11, 1908, p.219.

(٢) Levenq, « Athanase… »op.cit., col 1371.

خاصة بعدما تأسست أول مطبعة إسلامية بإستانبول وبقرار من السلطة العثمانية التي أبدت اقتناعها بضرورتها وفوائدها. وقد أراد الملكيون الكاثوليكيون الاستفادة من هذا الفن بعدما انضم إلى صفوفهم أحد العناصر الخبيرة في هذا المجال وهو عبد الله الزاخر.

٢.١.٢- عبد الله الزاخر (١٠٩٠-١١٦٠هـ/ ١٦٨٠-١٧٤٨م):

نتوقف عند حياة عبد الله الزاخر، وهو من أبرز مؤسسي مطبعة الشوير، وهو الذي واكب نمو الطائفة الكاثوليكية والتطور الذي حصل له في القرن ١٢هـ/١٨م. وكان أبواه أصلاً كاثوليكيين من حماة[١]، التي تعلم فيها العربية العامية وكذلك مهنة أبيه، الصياغة[٢]، ثم غادر حماة سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م، للاستقرار بحلب صحبة ابن عمه نيقولا الصائغ، حيث درسا الآداب العربية لدى العالم المسلم الشيخ سليمان الحلبي النحوي. ثم درسا الفلسفة والعلوم الدينية المسيحية لدى الأب يوحنا بجع[٣]. وعلى غرار عبد الله الزاخر وابن عمه، كان الشباب النصراني في القرن ١٢هـ/١٨م يتعلم العربية الفصحى لدى العلماء المسلمين، ثم يتابعون دروسًا في المسيحية. وقد علم الأب بجع مبادئ هذه الديانة لهؤلاء التلاميذ، الذين أصبحوا فيما بعد من أشهر العلماء والمؤلفين

---

(١) كان أبوه زكريا قد هرب مع أخيه نعمة الله من حلب عند بداية حملة الاضطهاد ضد الكاثوليكيين، وكان والدهما موسى الصايغ قد قتل من قبل في حماة. Bacel, « Abdallah…op.cit »., p.219.

(٢) عرف بالزاخر لوفرة علمه وكثرة مواهبه، وكان يحذق عدة صناعات إلى جانب الصياغة، منها صناعة التصوير "ترجمة حياة الفيلسوف الشماس عبد الله الزاخر" في: المسرة، ١٩٤٨م، ص ٣٨٧.

نلاحظ أن الأب باسل يعتمد على ترجمة ذاتية لعبد الله الزاخر إلا أن نصر الله يشكك في وجود هذه الوثيقة؛ إذ لم يعثر لها على أي أثر في أرشيف الأب باسل الذي تحتفظ به مكتبة حريصا. لذلك فقد فضلنا الاعتماد على ترجمة أخرى كتبها أحد تلاميذ الزاخر ونشرت بمجلة المسرة.

(٣) يوحنا بجع : هو تلميذ عبد الكريم كرمي، ساهم في مراجعة الكتاب الدينية مع أستاذه وفي ترجمة الكتاب المقدس المسيحي، له خبرة كبيرة في مجال التعليم وفي المسائل الدينية انظر:..Nasrallah, Notes…op.cit., T1, pp.139-141.

المسيحيين مثل الزاخر وابن عمه ومكريدج الكسيح ومكسيموس الحكيم وغيرهم. وقد تعلم عبدالله الزاخر اللغة العربية الفصحى، وحذق قواعدها وهي اللغة التي دخلت في تقاليد الحزب الكاثوليكي. كما أنه أقام علاقات طيبة في حلب مع المبشرين اللاتينيين، الذين لا يحذقون العربية، وكان يصلح لهم ترجماتهم إلى العربية، ويساعدهم على نسخ المخطوطات، وتعامل بالخصوص مع رئيس بعثة اليسوعيين في سوريا الأب بيار فروماج، حيث راجع كتبه المترجمة إلى العربية[١]، مثلما تعامل من قبل مع البطريرك أثناسيوس الثالث في طبع الكتب بحلب وخاصة في حفر الحروف العربية ومراقبة المنشورات. إلا أن علاقاته مع البطريرك تدهورت في حدود سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م بسبب الحملة الجدلية التي استعرت بين الأرثوذكس والكاثوليك.

٢.١.٣- المناظرات الجدلية بين الأرثوذكس والكاثوليك:

وقد تطور الجدال الديني بين المسيحيين بحلب في تلك الفترة إلى حد أن "الأمر أصبح عاديًا" حسب تعبير أحد الأرمنيين[٢]. فقد كثر عدد المناظرات الجدلية بين رجال الدين النصرانيين وكذلك الكتب التي تتناول هذا المجال. وقد كتب المبشرون أنفسهم رسائل جدلية ضد الأرثوذكس قبل أن يوكلوا المهمة فيما بعد إلى تلاميذهم من الملكيين الكاثوليكيين للرد بدورهم على الأرثوذكس[٣]، ومن جملة الكتب الجدلية نذكر أولاً نماذج من تلك التي كتبها الأرثوذكس:

---

(١) Bacel, « Abdallah…op.cit., » p.224.

(٢) رسالة من الأرمني مكريدج في ١٧٣٣م منشورة في : Echos d’Orient, n°11, 1908, p.222.

(٣) يشير فولني إلى هذا الموضوع فيقول بأن اليسوعيين أسسوا بمدينة حلب مدرسة لتعليم الأطفال المسيحيين الديانة الرومانية والمحاورات الجدلية بسبب تطور الجدل الديني بين مختلف المذاهب المسيحية بالشرق، ولم يتأخر اللاتينيون بحلب في الدخول في هذه المجادلات ضد اليونانيين. Volnet, Voyage…op.cit., p.292.

١ - **"السيف القاطع"**[١]**:** كتبه أحد الأرثوذكس ليبرهن على أن كنيسة فوسيوس[٢] على حق، وليست كنيسة البابا وذلك في شكل سؤال وجواب.

٢ - **"القضايا الثلاث":** من تأليف غابريال دي فيلادلفي، وترجمة أثناسيوس الثالث وشارمان[٣] إلى العربية؛ لرفض سلطة البابا والرد على كتب تعليم المسيحية لبلارمان وبوسيفان.

٣ - **"صخرة الشك:** "ألفه إلياس مانياتس وترجمه إلى العربية أثناسيوس الثالث وفيه يحمل المؤلف رجال كنيسة روما مسؤولية الانشقاق الذي حصل بين الكنائس الشرقية من جهة وكنيسة روما بسبب حرصهم على السيطرة على كل المسيحيين[٤].

وكان رد فعل الملكيين الكاثوليكيين على هذه الكتابات عنيفًا، خاصة من طرف عبد الله الزاخر الذي كان يتقن "فن الجدل"، فألف بعض الكتب نذكر منها:

٤ - **"الترياق الشافي من سم الفيلادلفي"** : كتبه سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م ردًا على كتاب القضايا الثلاث للفيلادلفي[٥].

٥ - **التفنيد للمجمع العنيد" :** وفيه يرد الزاخر على القرارات التي اتخذها مجمع القسطنطينية في سنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢[٦].

---

(٤) Bacel, p. « Abdallah…op.cit. », pp.221.

(٥) فوسيوس: هو رجل دين بيزنطي، بطريرك القسطنطينية عام ٨٥٨م كان من دعاة الأرثوذكسية.

(٦) Nasrallah, Histoire…op.cit., T IV, pp.141-142.

(١) Levenq, « Athanase…op.cit »., col 1371.

(٢) Bacel , « Abdallah…op.cit., p267.

(٣) المصدر السابق، ص٤١١.

٦- **"كتاب البرهان اليقين على فساد المنشقين" :** ألفه عبد الله الزاخر في سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م لتفنيد كل مبادئ الأرثوذكسية التي حددها مجمع القسطنطينية الذي اجتمع في سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م والتي حرص على نشرها بطريرك أنطاكية الجديد سيلفستروس(١).

٧- **"الدحض الخطير لإنكار الذبيحة الإلهية":** فهو جواب على كتاب أستراتوس أرجانتس، وهذ الكتاب الأخير طبعه البطريرك سيلفستروس برومانيا سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٧م.

٨- كان الجدل ساخنًا بين الطرفين إلى درجة أنه تجاوز نطاق النقاش الفكري لينقلب إلى حملة اضطهاد يقودها بطريرك أنطاكية ضد الكاثوليكيين، فأثناسيوس الثالث اطلع على كتاب الزاخر: "الترياق الشافي" قبل تحوله إلى القسطنطينية لحضور المجمع الذي انتظم بها في ١١٣٤هـ/١٧٢٢م، واستطاع أن يحصل من الصدر الأعظم على خط شريف يسمح له بتتبع كل الكاثوليكيين و"بقطع رأس" عبد الله الزاخر(٢). وحين علم الزاخر بذلك، سارع بالفرار إلى جبل لبنان، حيث قضى بضع سنوات متنقلاً بين عدة أديرة هي الشوير وزوق ميكايل وعين طورا(٣). ثم تفرغ بعد ذلك لطباعة الكتب في مطبعة جديدة أقيمت بالشوير.

٢.٢- تأسيس مطبعة الشوير:

---

(٤) المصدر السابق، ص٤١١. Bacel, Abdallah…op.cit., pp.368-369.

كانت لعبد الله الزاخر مناظرات مع البروتستانت والمسلمين وآثار فلسفية وتاريخية ورسائل إلى أصدقائه وأشعار.

(١) Volney, Voyage…op.cit., p.292.

(٢) حاج، **الرهبانية** ... ج ١، ص ٥٢٥.

١.٢.٢- مؤسس المطبعة:

لا تتفق الوثائق على ذكر اسم المؤسس الحقيقي للمطبعة، فهناك وثائق تقدم اليسوعيين على أنهم هم المؤسسون، وأخرى تقدم عبد الله الزاخر. ففي رسالة للأب اليسوعي فروماج إلى السيد ترويهيلي وهو تاجر فرنسي بصيدا مكتوبة بعين طورا سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م. وقد ذكر له فيها أنه مشغول بتركيبة قطع مطبعة، كان قد استقدمها من أوروبا. بعد أن أشرف على حفر حروف عربية شبيهة بتلك المستعملة بمجمع نشر الإيمان بروما، وأنه أرسل في طلب مجموعة من المطبعيين الماهرين من أوربا(١)، إذن نسب الأب اليسوعي لنفسه، حسب هذه الرسالة، تأسيس المطبعة فهو يؤكد أنه هو الذي أحضر آلات الطباعة من أوروبا، كما أنه عمل على إعداد أحرف الطباعة العربية دون أن يقدم توضيحات عن جنسية الحفارين الذين قاموا بالعمل وفيما إذا قدموا من أوروبا أم من بلاد الشام، وكذلك طريقة عملهم.

وهناك وثيقة أخرى وهي رسالة كتبها رحالة فرنسي يدعى دي لاروك في ١١٤٨هـ/١٧٣٥م يؤكد فيها ما قاله الأب فروماج، ويذكر أن هذا الأخير هو مؤسس المطبعة، وقد يكون استورد الأحرف العربية من روما(٢) إلا أنه يتبين أن دي لاروك استقى معلوماته من ترويهيلي الذي تلقى الرسالة الأولى. إذن فهذا الرحالة لا يقدم جديدًا لبحثنا.

تتناقض المصادر فيما بينها حول هذه النقطة، ففي رسالة للأب فروماج موجهة لعبد الله الزاخر في ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، تفيد أنه ليس هو مؤسس

---

(٣) هذه الرسالة محفوظة في أرشيف الرهبانية الباسيلية الشويرية، وقام بترجمتها إلى الفرنسية الأب باسل في صدى الشرق. .Echos d'Orient, 1908, p.284

(١) البستاني، **الشماس** ...، ص ٤٠١، نشرت هذه الرسالة لأول مرة في مجلة:

Le Mercure, mai 1736 ; voir De Sacy, Bibliothèque…op.cit., T1 PP.412-413.

المطبعة، إذ يقول: "إني أعرف كثيرًا من الأشخاص بأوربا، فإذا بعثوا لي بمساعدات لمطبعتكم، فهل تسمحوا لي باستعمالها لفائدة الأعمال الطيبة ولتوزيع الكتب الدينية"(١). وهذا اعتراف من الأب اليسوعي بأن صاحب المطبعة هو الزاخر وذلك باستعماله ضمير الجمع في عبارة "مطبعتكم" في خطابه. وهذا يبين بأن الزاخر هو الشخص الوحيد المؤهل لاتخاذ قرار بقبول المساعدات أو رفضها. أما الأب فروماج فدوره ثانوي في هذا المشروع ويقتصر على جمع الأموال من الأوروبيين.

يردّد الأب اليسوعي العبارة نفسها والاعتراف نفسه في رسائل أخرى، ولم ينسب لنفسه البتة شرف تأسيس المطبعة، باستثناء ما أورده في الرسالة الأولى، وأيضًا عندما تدهورت علاقاته مع عبد الله الزاخر بداية من سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م بسبب قضية "العابدات" فهو يقول له: "ومطبعتك التي تعتاش منها أنت وسواك من هم الذين ساعدوك على تحقيقها أليسوا اليسوعيين"(٢). وهنا يشير إلى المساعدات المالية التي قدمها اليسوعيون لإقامة المطبعة والتي لم تكن هامة كما سنرى فيما بعد. إذن يتبين من خلال مراسلات الأب فروماج نفسه أنه تراجع فيما ذهب إليه في رسالته الأولى للتاجر الفرنسي من أنه مؤسس المطبعة ويعترف بأن عبد الله الزاخر هو مؤسس المطبعة ومديرها، وأن دوره اقتصر على جمع المساعدات المالية من المحسنين لفائدة المشروع، ولا يمكن تفسير الرواية التي ذهب إليها في خطابه الموجه لترويهيلي، إلا في هذا الإطار أي لحثّ هذا الأخير على الإسهام في تمويل المطبعة لا غير.

---

(٢) Echos d'Orient, n°11, 1980, p.285.

(١) نصر الله، **مطابع الملكيين**، ص ٤٥٦.

وبعد تجاوز هذا الإشكال الذي طرحه خطاب فروماج إلى التاجر الفرنسي باعتراف اليسوعي نفسه في خطاباته الموالية، بأن عبد الله الزاخر هو صاحب مطبعة الشوير، فإن بقية المصادر الأصلية تسير في السياق نفسه، وتقدم تفاصيل عن ظروف تأسيس المطبعة من طرف الزاخر. من ذلك ما ذكره أحد تلاميذ عبدالله الزاخر في ترجمة حياة أستاذه:

"فسكن إحدى القرى في كسروان وهناك ابتدأ بعمل مطبعة أخرى متقنة في الغاية، مع أنه لم يكن يوجد له آلات تلزم هذا العمل ولا مكان مناسب ولا من يعرف مهنة غير الفلاحة سوى رجل صايغ كان يسعفه بتقدمة بعض آلات ومساعدته في بعض أعمال خفيفة. فبهذا المكان المقفر الخالي من المعونة البشرية والإسعاف اللازم، باشر هذا العمل العظيم وأتى به إلى دير مار يوحنا الشوير. وهناك كمل جميع اللوازم والآلات وشغل المطبعة بطبع كتب كثيرة مفيدة جدًا"(١).

تبين هذه الترجمة أن الزاخر هو الذي أقام المطبعة بالشوير بفضل نشاطه وخبرته، حيث وفق إلى ذلك رغم صعوبة الظروف التي عمل فيها وافتقاده للمساعدة من يد عاملة وأموال وأدوات وغير ذلك. ولم تذكر البتة أنه استقدم آلات من مطبعة حلب. كما نجد وثيقة أصلية أخرى تقدم تفاصيل أخرى عن ظروف نشأة المطبعة وعن مؤسسها وهي حوليات الرهبانية الحلبية الشويرية التي تذكر:

"السنة ١٧٣١: مضى (عبد الله الزاخر) إلى الزوق وشرع في عمل المطبعة واشتغل فيها كثيرًا. وإذ رجع إلى ماري يوحنا اصطحب الجميع معه

(٢) **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٣٨٨، ذكر نصر الله أن عبد الله الزاخر كتب رسالة إلى أحد أصدقائه في حلب يصف الطريقة الجديدة التي اخترعها لرسم حروف الطباعة وحفرها وسكبها وذكر من ساعده على ذلك إلا أن المؤلف لم يوفق في الحصول على هذه الوثيقة النفيسة .- **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٤١٩.

وشرع في إتمام البقية ودفع له الأب نيقولاوس (أي نيقولاوس الصائغ) الوكيل العام أحد الإخوة ليتعلم منه ويساعده وهو يواكيم بن المطران البعلبكي حين كان مبتدئا..."السنة ١٧٣٣: في هذه الأيام ابتدأ شغل المطبعة العربية في دير ماري يوحنا بيد الشماس عبد الله الزاخر الحلبي وقد كان هيأها وأتقنها بصنعة يديه وحذاقة عقله وهو في زوق مكايل حينما كان ماري يوحنا مأخوذا بيد المشاقين والإخوة نازحون. ولما عادوا إليه عاد المذكور وأخذ في عملها حتى أتمها وابتدأ بطبع كتاب ميزان الزمان عدد ٨٠٠ (أي طبع منه ثماني مائة نسخة)"[١].

تؤكد هذه الوثيقة الثمينة مكانة عبد الله الزاخر كمؤسس للمطبعة وفيها تقدير لجهده المتميز في مواصلة مشروع إقامة المطبعة رغم الصعوبات التي اعترضته، وخاصة ما يتعلق باحتدام الصراع المذهبي بين المسيحيين العرب، وخاصة ما لقيه الروم الكاثوليك من "اضطهاد" على يد الأرثوذكس وفرار أعضاء الرهبنة الشويرية الناشئة من دير مار يوحنا، لما اقتحمه الأرثوذكس، وهم يلاحقون عبد الله الزاخر، العدو اللدود لبطاركة أنطاكية، ويزداد في فترة "الاضطهاد" هذه إصرار الزاخر على تنفيذ مشروعه لاستخدام فن الطباعة للرد على هجوم الأرثوذكس، وجعل المطبعة في خدمة الحزب الكاثوليكي في المشرق. إن حوليات الرهبانية الشويرية تقدم حقائق دقيقة عن ظروف عمل الزاخر وعن توظيفه لخبرته في فن الطباعة ونقش الحروف[٢]. مما لا يدع مجالاً للشك في أنه وقف على كل مراحل إقامة المطبعة، بل أكثر من ذلك أنه تابع العمل بها إلى حد وفاته سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م. وهنا نجد وثيقة أصلية تبين أنه بقي المتصرف الوحيد في المطبعة وتجهيزاتها إلى نهاية حياته، وهذه الوثيقة هي وصيته بتاريخ ٢٩ أوت/أغسطس ١٧٤٨م/ ١١٦١هـ التي أوصى

(١) المصدر السابق، ص ٣٨٨.

(١) المصدر السابق، ص ٤١٩.

فيها بأن تكون مطبعته وكل تجهيزاتها ملكًا للرهبانية الباسيلية بالشوير، على أن يديرها تلميذه سليمان قطان وأن توزع بعض النسخ من كل كتاب يطبع مجانًا، وأن يتسلم ابن أخيه ثلاث أو أربع نسخ[١]. وهذه الوصية لم يعترض عليها أي أحد، فلو كان لليسوعيين حق في ملكية هذه المطبعة لكانوا قد طالبوا به واحتجوا على هذه الوصية.

وأخيرًا نورد وثيقة أصلية أوروبية في السياق نفسه، وهي للرحالة الفرنسي فولني الذي زار دير الشوير سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، وقضى هناك ثمانية أشهر، وتحدث عن هذه المطبعة وهي المطبعة العربية المسيحية الوحيدة التي بقيت تعمل في تلك الفترة، وبما أنه استقى معلوماته من الرهبانية الشويرية، فإن شهادته لا تختلف كثيرًا عن حوليات الرهبانية التي تعرفنا إليها سابقًا[٢]. يؤكد الرحالة الفرنسي بدوره أن الزاخر هو مؤسس المطبعة بما أنه خطط للمشروع ونفذه ثم بين الأسباب التي دفعته إلى ذلك: "عندما غادر بلده لم يهمل أفكاره الإصلاحية، بل صمم أكثر من ذي قبل على نشرها، ورأى أنه لا يستطيع القيام بذلك إلا بواسطة الكتابات، وأن المخطوطات غير كافية لتبليغها[٣]". نلاحظ أن فولني مقتنع بالمفهوم الذي توصل إليه الأوروبيون حول دور المطبعة، أي أنها وسيلة لبث الأفكار الإصلاحية الجديدة ونشر الآراء التي ستحدث ثورة في كل مكان، ويرى أن هذا المفهوم هو الذي يحمله أصحاب المطابع بالمشرق. فما

---

(٢) وصية عبد الله الزاخر، **المسرة**، ١٩٤٨م، ٤٦٣.

(٣) هناك شهادة أخرى تبين أن الزاخر هو مؤسس المطبعة وقد أوردها المستشرق الفرنسي دي ساسي نقلًا عن نص مكتوب بخط اليد في القرن ١٢هـ/١٨م على أول ورقة من كتاب الزبور الذي طبع بالشوير سنة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م ذكر فيه: "هذا الزبور العربي طبعه أحد السوريين الذي تولى صب أحرف الطباعة وتأسيس مطبعة في بداية القرن ١٢هـ/١٨م"، هذه الوثيقة لم تتحدث البتة عن اليسوعيين إنما ذكرت أحد السوريين الذي لا يمكن أن يكون إلا عبد الله الزاخر.

(١) Volney, Voyage…op.cit., pp.292-293.

حقيقة الأمر عن مطبعة الشوير؟ هذا ما سنتعرف إليه عند دراسة محتوى مطبوعاتها؟

٢.٢.٢- آلات الطباعة بالشوير:

إذا توصل عبد الله الزاخر إلى إعداد الأحرف العربية فإنه لم يكن قادرًا على صنع آلات الطباعة نظرًا لتشعّبها، وافتقاده للأدوات والمادة الأولية لذلك، هذا علاوة على غياب مساعدين من ذوي الكفاءات لمساعدته في صنع الآلات، ولم تتعرض الوثائق إلى هذا الأمر بالذات، إلا ذلك الخطاب الذي أرسله الأب فروماج إلى التاجر ترويهلي والذي ذكر فيه أنه بصدد تركيب قطع مطبعة كان قد استحضرها من أوروبا، ويقصد بلفظ مطبعة آلات الطباعة، لأنه تحدث فيما بعد عن الحروف العربية التي سيتولى إعدادها حسب قوله حفارون قادمون من أوروبا، وعلى ضوء هذه الرسالة لا يستبعد أن يكون اليسوعيون قد ساهموا في مشروع الزاخر بتقديم آلة الطباعة التي جلبوها من أوربا علاوة على الأموال التي جمعوها لفائدته، بقي أن نتساءل : ما البلد الأوربي الذي جلبت منه المطبعة؟ وهنا يرى لويس شيخو أن هذا البلد هو فرنسا(١)، وهذا الاحتمال يبقى واردًا نظرًا للعلاقة الوطيدة التي تربط الأب فروماج بالتجار الفرنسيين.

لقد كان الملكيون الكاثوليكيون مقتنعين بفوائد إقامة مطبعة ببلاد الشام، ولم يترددوا في طلب المساعدة من الأوربيين، وخاصة من المبشرين اليسوعيين الذين شجعوا المبادرة، ورأوا فيها إحياء لمشروع قديم كان قد فكر فيه كما رأينا الأب الكبوشي جوزيف سنة ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م، لإقامة مطبعة بجبل لبنان إلا أنه فشل في ذلك، وإذا ما رفض مجمع نشر الإيمان بروما قبل مائة عام مثل هذا المشروع فإنه لم يعارض مشروع الزاخر، بل قدم له مساعدة غير مباشرة عن طريق اليسوعيين، وكان يرى فيه فوائد كبيرة للبابوية، فالمبادرة هنا تعود

(٢) شيخو، لويس، تاريخ فن الطباعة، **المشرق**، رقم ٣، ١٩٠٠م، ص ٤٦٠.

لأبناء المشرق من الكاثوليكيين الذين أسسوا حزبًا لهم ونادوا إلى الاتحاد مع روما رغم معارضة واضطهاد بطاركة أنطاكية، ولذا فإن مجمع نشر الإيمان كان يرى في عبد الله الزاخر والمبشرين والرهبانية الشويرية خير مدافعين عن أهداف كنيسة روما.

٣.٢.٢- تمويل مطبعة الشوير:

تمكن عبد الله الزاخر من تأسيس مطبعة بفضل آلة الطباعة التي جاءته من أوروبا وكذلك المساعدات المالية التي تلقاها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق المبشرين اليسوعيين، وهؤلاء جمعوا مبالغ مالية من التجار الأوروبيين المقيمين بالمشرق على غرار الفرنسي ترويهلي الذي كتب إليه الأب فروماج في الخطاب نفسه الذي رأيناه سابقًا يطلب منه الإسهام في تمويل المطبعة "نحن لا نزال في البداية والموارد المالية تعوزنا...إننا نعوّل على عناية ومساعدة الكرماء لأن مثل هذه المشاريع باهظة الثمن"(١). وكان نتيجة هذا الطلب أن أرسل إليه التاجر الفرنسي ستين قرشًا(٢).

ما التكلفة الإجمالية لإقامة المطبعة؟ يجيب عن هذا السؤال مؤسسها في خطاب له أرسله إلى الأب فروماج سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م.

"إن المطبعة التي تدعي أنه بإسعافكم لي هذا المبلغ كان قيامها ووجودها قد تكلفت قبل أن تطبع ورقة واحدة نحو ألف قرش، وإلى الآن تكلفت نحو ألف وخمسمائة قرش فماذا إذًا يكون مبلغك الذي هو مقدار ثمانية وسبعين قرشًا بالنسبة إلى الألف، وما الذي يحصل عنه بهذا العمل من الإسعاف وماذا يصدر عن عدمه من التعطيل والتعويق"(٣).

---

(١) Bacel, « Abdallah…op.cit., » p.284.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(١) **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٤٥٦-٤٥٧.

إن تكاليف إقامة المطبعة باهظة ولم يساهم اليسوعيون فيها إلا بمبلغ ضئيل لا يساوي عشر التكلفة، ولهذا عبر الزاخر عن ضآلة المبلغ وأنه كان بإمكانه الاستغناء عن هذه المساهمة دون أن تضر بمشروعه. ويبدو أن ثمن آلة الطباعة التي جلبها اليسوعيون من أوروبا غير مضمّن في مبلغ الثمانية والسبعين قرشًا التي قدمها المبشرون، إما لأن عبد الله الزاخر قد دفع ثمنها على حدة، أو لأنها قدمت بعنوان هدية. ولنا أن نتساءل: كيف جمع مؤسس المطبعة مبلغ ألف قرش؟ ويبدو أنه تولى جمعه هو وأعضاء الرهبنة الشويرية مباشرة من أغنياء الكاثوليكيين العرب، وقد يكون أضاف إليه من ماله الخاص الذي ورثه من أبيه الصائغ.

٢.٢.٤ - مقر المطبعة:

أقيمت المطبعة بدير مار يوحنا بالشوير منذ ١١٤٤هـ/١٧٣١م، قبل أن تستكمل كل معداتها، وكان الزاخر قد بدأ مشروعه في قرية زوق ميكايل حسب حوليات الرهبانية الشويرية قبل أن ينتقل إلى الشوير، فما أسباب اختيار دير الشوير كمقر للمطبعة؟ يقول الأب فروماج في خطابه نفسه إلى التاجر ترويهلي إنه حاول إقامة هذه المطبعة في ديرهم الجديد في عين طورا إلا أنه نظرًا لضيق المكان اضطر إلى اختيار دير مار يوحنا في الشوير(١). يبدو هنا أن الأب فروماج يريد أن يبرر فشل اليسوعيين في إقامة المطبعة لحسابهم الخاص أكثر من أن يقدم الأسباب الحقيقة لاختيار دير الشوير. عبد الله الزاخر الذي كان يبحث عن مكان منعزل لم يفكر في عين طورا، بل في الشوير التي تضم ديرًا جديدًا أقامته الرهبانية الباسيلية الناشئة التي لم يكن رئيسها سوى ابن عمه نيكولا الصائغ الذي دعاه وشجعه للإقامة بالدير وساعده في عمله(٢). كذلك إن موقع الدير في جبل كسروان قرب الخنشارة يجعله بعيدًا عن أنظار

(٢) Bacel, « Abdallah…op.cit., » p.284.

(١) Volney, Voyage…op.cit., p.293.

السلطات العثمانية[1] وبطاركة أنطاكية، وقد شجع الزاخر على الإقامة هناك النشاط الأدبي الحثيث الذي عرفه الدير[2].

لا يزال مبنى المطبعة موجودًا ومحافظًا على شكله الهندسي الأول بعد ترميمه ويتكون من ثلاث قاعات واحدة للتنضيد وتضم صناديق الحروف وأخرى للطباعة وتضم آلات الطبع، وثالثة لسبك الرصاص وإعداد الحبر وتضم الأدوات اللازمة لهاتين العمليتين[3].

٢.٣- تنظيم العمل ومشاكل النشر:

حفر عبد الله الزاخر حروفًا عربية حسب الخط الكنسي الذي استخدمته عائلة اللباد، وقد حصل على حروف رقيقة وجميلة أفضل من الحروف الخشنة التي طبع بها في حلب، وقد حفر الحروف والقوالب على معدن، مستعينًا في ذلك بالأدوات اللازمة من أحد الصائغين بزوق ميكايل[4]، وأعد كذلك الحبر الأسود، ولم يستورد من أوربا إلا الآلات والورق.

٢.٣.١- تنظيم العمل:

في البداية لم يستنجد الزاخر إلا برجل يعمل صائغًا في زوق ميكايل لمساعدته في عمله، لأنه لم يكن يوجد هناك سوى الفلاحين، وبعد ذلك أي في سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م لما استقر بالشوير انتدبت الرهبانية الباسيلية شابًا يدعى

(٢) يتحدث فولني عن مقر المطبعة، ويؤكد على الجانب الأمني في اختياره فيقول: "لو أن الجزار (باشا عكا) علم بذلك لحطم مطبعتهم. المصدر السابق، ص ٣٩٧.

(٣) توجد بالدير مكتبة هامة، المصدر السابق، ص ٢٩٤.

(٤) Nasrallah, L’imprimerie…op.cit., p.31.

(٥) **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٣٨٨.

لا يزال دير الشوير يحتفظ إلى اليوم بلوحات من الفضة والنحاس وبالحروف.

يواكيم ابن المطران(١١١١-١١٨٠هـ /١٦٩٦-١٧٦٦م) لمساعدته في عمله[١]، ثم التحق بهما تلميذ الزاخر سليمان قطان (توفي ١١٩٢هـ/١٧٧٨م)[٢]، وكذلك بعض الرهبان من الطائفة، وقد خلف قطان أستاذه بعد وفاته سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م، وأصبح يدير المطبعة حسب رغبة الزاخر في وصيته.

وقد وصلتنا معلومات عن تشكيل الفريق الذي عمل مع سليمان قطان حسب وثيقة تعود إلى ١١٩٠هـ/١٧٧٦م، ويتكون من سبعة أشخاص، منهم ثلاثة رهبان يشتغلون في الطباعة، واثنين في التصفيف، وواحد في سكب الحروف، وواحد لتعليم السكب، وهو موسى ابن أخي سليمان قطان الذي كان يشتغل في الوقت نفسه في التصفيف[٣].

وقد قام سليمان بتجديد بعض آلات المطبعة على حسابه الخاص، وأعاد سكب بعض الحروف العربية[٤]. إلا أنه رغم ذلك وجهت إليه تهمة إتلاف إحدى الآلات، وهي المسبكة التي تسببت في إيقاف العمل لمدة سنتين. ونشب من جراء ذلك خلاف بينه وبين الرهبانية الشويرية سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م[٥]. وعرفت المطبعة منذ ذلك الحين صعوبات وتدهورت أحوالها، وانخفض إنتاج

---

(١) يواكيم بن المطران : ولد في بعلبك، دخل الرهبانية الباسيلية سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، درس النحو العربي والمنطق والفلسفة، ألف زهاء عشرين كتابًا في الديانة المسيحية والجدل والفلسفة والمواعظ. انظر: نصر الله، يوسف، "تلاميذ عبد الله الزاخر وآثارهم الأدبية" في : **المسرة**، ١٩٤٨م، ص٤٣١-٤٣٥.

(٢) سليمان قطان : أصيل زوق ميكايل، تعرف على الزاخر سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، وعمل معه، له كتب في الجدل.

(٣) Nouvelles bases de travail entre Suleiman Qattan et l'Ordre Chouérite. Document publié par Nasrallah, **L'imprimerie…op.cit.**, pp.148-150.

(٤) وصية سليمان قطان أوردها نصر الله في كتابه عن المطبعة في لبنان، ص ١٤٧-١٤٨.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤٦-١٤٧. لم تنشر المطبعة بالفعل أي كتاب فيما بين ١١٧٨هـ/١٧٦٤م و ١١٨١هـ/١٧٦٧م.

الكتب فيها ونقص كذلك عدد العاملين بها، ولم يجد الرحالة فولني لما زارها سوى أربعة رهبان(١).

وكما أوقف الزاخر في وصيته المطبعة لفائدة دير الشوير، فإن سليمان قطان خليفته فعل بالمثل بالنسبة للآلات والحروف الجديدة التي جددها أو اشتراها حسب وصيته سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م(٢) وكان رؤساء الرهبانية هم الذين يتولون الإشراف العام على المطبعة فهم يسيِّرون ويراقبون عملية النشر ويدفعون أجور العمال(٣).

أجور العمال:

ذكرت بعض الوثائق الأصلية معلومات حول أجور العمال بالمطبعة، من ذلك أن سليمان قطان كان يتقاضى مبلغ مائة قرش في السنة في حياة الزاخر. ثم لما كلف بإدارة الورشة تضاعف له الأجر(٤). وكان موسى ابن أخي سليمان قطان يتقاضى بدوره مائة قرش منذ عام ١١٩٠هـ/١٧٧٦م. أما بقية العمال فلم يكونوا يتقاضون أجرًا باعتبارهم من الرهبان. ويعيشون مثل سائر أعضاء الرهبانية الشويرية حياة تقشف وزهد(٥). ورغم هذا العمل المجاني من طرف الرهبان، فإن المطبعة عرفت صعوبات مادية مما تسبب في غلقها طيلة خمس سنوات من ١٢١١هـ/١٧٩٧م إلى ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، لأن تكاليف الطباعة كانت باهظة والورق يستورد من أوربا واليد العاملة بطيئة(٦).

(١) Volney, Voyage…op.cit., p.296.

(٢) Nasrallah, L'imprimerie…op.cit., pp.147-148.

(٣) ورد نص فتوى الأب يوسف بابيلا حول الخلاف الحاصل بين سليمان القطان والرهبانية الشويرية حول المطبعة في كتاب نصر الله، المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق، ص ١٥١.

(٦) Volney, Voyage…op.cit., p.293.

٢.٣.٢ - مشاكل النشر بمطبعة الشوير:

أ- الناشرون:

قام بمهمة اختيار المخطوطات ومراجعتها ومراقبة عملية الطبع كل من رؤساء الرهبانية الباسيلية الشويرية ومديري المطبعة، ونذكر خاصة كل من عبد الله الزاخر وسليمان قطان.

وقد ورد ذكر رؤساء الرهبانية في كل آخر صفحة من الكتب المطبوعة بداية من سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، حسب هذه العبارة التي كانت تتردد في كل مرة وهي: "قد طبع هذا الكتاب بأمر الرؤساء في دير القديس يوحنا الصائغ الملقب بالشوير من جبل كسروان بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية سنة...".

وكان رؤساء الباسيلية حريصين على متابعة عملية النشر إلى جانب مؤسس المطبعة الزاخر، ولكن لم يرد ذكر هذا الأخير البتة في الكتب المطبوعة بصفته ناشرًا أو مطبعيًا رغم أنه سخر جهده في مراجعة الكتب ومراقبة النشر. إلا أن اسمه ورد في بعض الكتب باعتباره مؤلفًا أو مراجعًا للترجمات(١). إن من المهم دراسة طريقة مراجعة الكتب قبل طبعها، ذلك أن الناشرين كانوا يميزون بين ثلاثة أصناف من النصوص: كتب لمؤلفين معاصرين، وكتب لمبشرين وهي مترجمة للعربية، ونصوص مسيحية مقدسة.

ب- مراجعة كتب لمؤلفين معاصرين:

يندرج ضمن هذا الصنف كتاب واحد من تأليف عبد الله الزاخر وعنوانه "البرهان الصريح في حقيقة سر دين المسيح"، طبع بعد وفاة صاحبه سنة

(١) نذكر على سبيل المثال "تفسير سبعة مزمورات من مزامير داود"، الذي طبع سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، حيث ذكر في الكتاب ما يلي": المنسوب إلى الأب العالم المحقق والرسول اللاهوتي المدقق البادري بطرس الأرنودي اليسوعي والمهذب والمعرب من المعلم الفاضل والفيلسوف الكامل الشماس عبد الله الزاخر الحلبي ". والملاحظ أن الزاخر كان يجهل اللغات الأجنبية واقتصر دوره على مراجعة الترجمات وتنقيح بعض العبارات المعربة فحسب.

١١٧٨هـ/١٧٦٤م[١]. لم يشكل هذا الكتاب أي عقبة عند طباعته فقد كتب من طرف مؤلف يحذق العربية، والمخطوط لم يقع له أي تشويه من طرف الناسخين وهذا على عكس الصنفين الآخرين من المخطوطات اللذين طرحا مشاكل عدة عند مراجعتهما.

ج- مراجعة كتب المبشرين:

بلغ عدد كتب المبشرين أحد عشر كتابًا من ضمن تسعة عشر كتابًا طبعت في الفترة من ١١٤٧هـ/١٧٣٤م إلى ١٢٠١هـ١٧٨٧م. هؤلاء المبشرون هم من اليسوعيين والكارم والفرانسيسكان، الذين ألفوا هذه الكتب في القرنين ١٠ و١١هـ/١٦ و١٧م. وقد تمت ترجمة بعض الكتب إلى العربية لأول مرة من طرف المشرفين على المطبعة، فيما اقتصر الأمر على مراجعة الترجمات الموجودة لبعض الكتب الأخرى. ويعتبر الأب فروماج أبرز المترجمين في هذا المجال، حيث تولى لوحده ترجمة خمسة كتب[٢]. أما البقية فهي موزعة على مبشرين آخرين[٣]، وكذلك على بعض رجال الكنائس الشرقية[٤]. وقد تعهد بمراجعة هذه الترجمات عبد الله الزاخر والرهبان الباسيليون بالشوير، ولم يكن الزاخر عارفًا باللغتين اللاتينية والفرنسية، إلا أنه قام بمراجعة النصوص التي ترجمها المبشرون إلى العربية، وهؤلاء لم يكونوا بارعين في

(١) ألف الزاخر هذا الكتاب بحلب سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م، وذلك بطلب من أحد المسيحيين الذي أراد "معرفة أسرار المسيحية"، إلا أنه لم ينشر إلا بعد أربع وأربعين سنة من ذلك التاريخ.

(٢) هذه الكتب هي: ميزان الزمان، كتاب مرشد الخاطئ، كتاب مرشد المسيحي، كتاب إيضاح التعليم المسيحي.

(٣) ترجم فيناتايول كورجاد كتاب احتقار أباطيل العالم، أما الأب سانت ليدوين فقد ترجم كتاب الاقتداء بالمسيح، والملاحظ أن المترجم الثاني هو مبشر من الكارم عمل بجبل لبنان، وهو شقيق الهولندي يعقوب غوليوس.

(٤) مثل يوسف بن جرجيس الحلبي الذي ترجم كتاب تأملات جهنم المريعة، وكذلك ميخائيل مزراق الذي ترجم كتاب قوت النفس. بقيت ثلاثة كتب مجهولة المؤلف هي: تأملات روحية لأيام الأسبوع، ومختصر التعليم المسيحي، وتفسير سبعة مزمورات التوبة.

هذه اللغة، كلّ هذا يفسر بعض الأخطاء والغموض الذي ظهر في بعض الترجمات.

هناك ظاهرة أخرى في هذا المجال وهي إعادة ترجمة بعض المؤلفات القديمة نتيجة الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها المترجمون، ومن بعدهم الناسخون؛ من ذلك كتاب **ميزان الزمان** لصاحبه اليسوعي الأسباني نيرامبرك (٩٩٩ - ١٠٦٩هـ/١٥٩٠-١٦٥٨م)، وهو أول كتاب تصدره مطبعة الشوير، وقد تولى إعادة ترجمته الأب فروماج الذي ذكر في المقدمة:

"واعلم أن هذه النسخة قد استخرجت جديدًا من اللغة الإيطاليانية إلى هذه اللغة العربية استخراجًا مضبوط النقل بالتدقيق، مطابق الأصل على التحقيق، فلا اعتماد على تلك النسخة الأولى المكتتبة المشحونة من التحريف والغلط والتبديل والشطط".

د- مراجعة كتب الطقوس والنصوص المقدسة:

اعتمدت مطبعة الشوير في طبعها لهذه الكتب على ترجمة العهد القديم والعهد الجديد لعبد الله بن الفضل الأنطاكي، وعلى ترجمة كتب الطقوس لعبد الكريم كرمي. وقد تمت مراجعتها حسب منشورات بوخاريست وحلب التي قام بها أثناسيوس الثالث دباس. إن عمل هذا البطريرك رغم جو المشاحنات والصراع الدائر بين الأرثوذكس والملكيين، كان محل تقدير من طرف ناشري الشوير(١). وكان هؤلاء حريصين على مراجعة الترجمات العربية قبل إعطاء الإذن بطبعها نظرًا للأخطاء الكثيرة التي ارتكبها الناسخون عند نسخ

---

(١) على سبيل المثال نجد في مقدمة كتاب الأكطويخوس المطبوع بالشوير سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٧م ما يلي: "جردنا العناية والاهتمام بأمر الروسا وحثهم على طبع حسب النسخة المحررة في كتاب المعزي المستخرج والمصحح والمطبوع عربيًا في مدينة حلب باهتمام البطريرك أثناسيوس والتماس البطريرك كيرلس المعاصرين الذين [كذا] حرضهما على ذلك حصول كثرة الغلط في النسخة القديمة التي غالتها أقلام الكتبة بالتحريف وانقلاب المعاني المستقيمة".

المخطوطات المسيحية وكانوا يؤكدون على هذا الجانب في جل الكتب المطبوعة من هذا الصنف ويتهمون الناسخين بالجهل واللامبالاة عند أداء عملهم، وهذا على غرار النقد اللاذع الذي وجهه إبراهيم متفرقة بالنسبة للناسخين المسلمين، ونجد صدى لهذا الاتهام على سبيل المثال في **"كتاب الرسائل"** المطبوع سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م، حيث ذكر في المقدمة:

"ثم اعلم أنه إذا كانت نسخة الرسائل العربية مع كثرة الأيام والأعوام قد أدخل بها جهل الكتبة من العوام بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها فحرروها بالغلط وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها فصحفوها بنقل الحروف والنقط...".

يتضمن هذا النص إشارة إلى جهل الناسخين لقواعد اللغة العربية التي دخلت الكنيسة الشرقية حديثًا وعدم حذقهم لها علاوة على عقلية اللامبالاة وعدم التحري في نقل النص. إلا أن الناشرين بالشوير أخفوا نقطة هامة وهي أن المتهم الرئيسي في ارتكاب الأخطاء هو المترجم الذي كان يخل بالمعنى أحيانًا، وهذا ما يفسر لجوء الناشرين إلى القيام بعملية تحقيق الكتاب الديني العربي على الأصل اليوناني. وهذه العملية بالذات جديرة بالاهتمام لأنها تختلف حسب الكتب. فتحقيق **"كتاب السنوات الكنائسي"** كان على الشكل الآتي:

"لذلك جمعنا كتبًا يونانية كثيرة، وقابلنا النسخة العربية على تلك النسخ المستعملة في كنايس الروم مقابلة مضبوطة بغاية التدقيق على يد من هو متمكن بمعرفة اللغتين اليونانية والعربية، فلا تنسبن ما تراه متغيرًا عن النسخة العربية القديمة إلى التحريف والغلط، وما لا يتغير إلى السهو والشطط إذا كنت لا

تعرف قواعد هاتين اللغتين، لأن من عرف ذلك يمدح هذا العمل ويبريه من شوايب الزلل"(١).

اختيرت النصوص المقدسة المسيحية التي طبعت بالشوير، من بين تلك المستعملة في الكنائس الشرقية، وليست تلك المتداولة في كنيسة روما، وهذا خلافًا لما حصل للمارونيين - كما رأينا - الذين اتصلوا بكتب الإنجيل من روما مطبوعة حسب النص اللاتيني، إن الكتاب المطبوع بالشوير لم يعمل على "رومنة" الطقوس والكتابات الدينية الموجودة عند الطائفة الملكية، بل سعى إلى المحافظة على طابعها الشرقي، وذلك بتوفير أكبر عدد من النسخ من النصوص الدينية العربية المحققة حسب الأصل اليوناني.

هناك طريقة أخرى في التحقيق ليست صارمة، بل اتسمت بالتساهل في نقل النصوص إلى العربية دون التشدد في تغيير كل الألفاظ والتعابير. والسبب في ذلك كما ذكره الناشرون هو:

"فجمعنا نسخًا يونانية كثيرة فرأيناها تختلف عن بعضها اختلافًا باللفظ عرضيًا لا اختلافًا بالمعنى جوهريًا، فأثبتنا ما وجدنا له أصلاً في بعض النسخ

---

(١) كتاب **النبوات الكنائسي**، الشوير، ١١٨٩هـ/١٧٧٥م ورقة ٤، نجد إشارة كذلك لطريقة تحقيق نص المزامير في مقدمة هذا الكتاب الذي طبع سنة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م ورقة ٧: "ثم اعلم أنه إذا كانت نسخة الزبور العربية الأصلية قد أدخل بها جهل الكتبة بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها، فلذلك طبع هذا الكتاب على نسخة قد قوبلت = = على أصلها اليوناني بغاية التدقيق وتصححت حسب قراءتها وفهمها من الآباء القديسين والعلماء المفسرين بغاية التحقيق وذلك على يد أناس ذوي خبرة باللغتين اليونانية المستخرج منها والعربية المنقول إليها، فلا تنسبن إذا ما تراه مغايرًا بها عن الحال الأصلي إلى التغليط والتحريف فتضل وتخدع بل تحقق أنه عين الحق حسب الأصل اليوناني فتستفيد وتنتفع".

اليونانية أو عند بعض الآباء المفسرين وإن لم يوجد في جميعها وذلك مراعاة للنسخة العربية التي قد اندرجت على أسماع الناس وألسنتهم..."[1].

كانت مطبعة الشوير حريصة على عدم التسبب في صدم شعور المسيحيين وتقاليدهم وعاداتهم في قراءة النصوص الدينية حسب النص العربي القديم. وهذا في كل مرة لا يتسبب فيها التعبير القديم في تحريف المعنى الأصلي، فالغرض من الكتاب المطبوع ليس إحداث ثورة في الطقوس والقراءات المسيحية، بل ضمان الاستمرارية في هذه الطقوس حتى يتآلف ويتقارب ويتحد كل أبناء الطائفة الملكية حول نصوص موحدة.

لقد تصرف رؤساء الرهبانية الشويرية بكل حرية عند مراجعة الكتب الدينية دون أن تمارس عليهم أية ضغوطات من أية جهة كانت، بما في ذلك كنيسة روما، وقد وجهوا منشوراتهم إلى الطائفة الملكية التي كانت تعتمد على النصوص اليونانية وليست اللاتينية، وهذا بالرغم من وجود حزب يوناني كاثوليكي متحد مع روما، إذ بقي محافظًا على توجهه الشرقي، وحرصت المطبعة على أن تكون منشوراتها في خدمة كل أبناء الطائفة الملكية، الكاثوليكيون منهم والأرثوذكس، ولم يلتجئ أصحابها إلى إصلاح المخطوطات إلا إذا كان النص مشوهًا والمعنى محرفًا. لقد صمم الكتاب المطبوع للتعريف بالترجمات العربية للكتب المسيحية المقدسة ونشرها لدى أوساط الطائفة المسيحية، فالهدف إذن ديني ثقافي.

(١) كتاب الرسايل، الشوير، ١١٩٣هـ/١٧٧٩م، ورقة ٣. ليس في نية المشرفين على مطبعة الشوير تغيير كل النصوص الدينية العربية ومقابلتها على الأصل اليوناني طالما كانت تؤدي المعنى تقريبًا والسبب، كما ورد في مقدمة كتاب الأورولوجيون المطبوع في ١١٧٧هـ/م ورقة : "ليل (كذا) تعثر الألسن المعتادة على تلاوته بالاختلاف والتغيير إذ كان لا يوجد اختلاف بالمعنى يوجب العنا".

إن من الملاحظ أن الأسلوب اللغوي المستعمل في الكتب المطبوعة بالشوير ضعيف وغير متماسك، وأحيانًا توجد جمل وفقرات غامضة المعنى وقريبة من العربية العامية، وبالمقابل وبالرغم من أن اللغة العربية الفصحى، لا يعرفها إلا النفر القليل من أبناء الطائفة فإن رجال الدين كانوا كثيرًا ما يستعملون ألفاظًا صعبة وغير متداولة الأمر الذي يجعل الكتاب عسير الفهم على القارئ.

٢ـ٤ - إسهام منشورات الشوير في تطوير الحياة الفكرية والثقافية:

أصدرت مطبعة الشوير فيما بين ١١٤٧هـ/١٧٣٤م- ١٢٠١هـ/١٧٨٧م، تسعة عشر كتابًا، من بينها أحد عشر كتابًا أعيد طبعها. وقد أعيد طبع بعض الكتب مثل : **المزامير** (خمس مرات) **الرسائل** (ثلاث مرات) **الأورولوجيون** (مرتين) **الأكطويخوس** (مرة واحدة). إن معدل نشر الكتب في الفترة التي ندرسها هو كتاب واحد لكل سنتين. إلا أن درجة التواتر تختلف فهناك سنوات طبع فيها أكثر من كتابين مثل سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م التي شهدت صدور ثلاث كتب (**المزامير واحتقار أباطيل العالم والاقتداء بالمسيح**)، أما سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م فقد شهدت صدور كتابين (**المزامير، البرهان الصريح**). وهنا نشير أنه في هاتين السنتين أعيد طبع كتاب المزامير، وهي عملية فنية يسيرة فهي لا تتطلب تصفيف الحروف من جديد فالنص جاهز وهو محفور على المعدن. وقد شهدت بعض الفترات انقطاعًا عن النشر مثل الفترة الممتدة بين سنتي ١١٥٣هـ/١٧٤٠م و١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م، وهذا بسبب - على ما يبدو - القطيعة بين الرهبان الشويريين واليسوعيين وبسبب قضية العابدات أثناء الفترة الممتدة فيما بين ١١٧٨هـ/١٧٦٤م و ١١٨١هـ/١٧٦٧م وأيضًا ١١٨٦هـ/١٧٧٢م و١١٨٩هـ/١٧٧٥م، وسبب توقف المطبعة يعود إلى الخلاف الذي حصل بين مدير المطبعة سليمان قطان ورؤساء الرهبانية الشويرية. إلا أن كل هذه المشاكل لم تمنع مطبعة الشوير من مواصلة نشاطها

رغم موت مؤسسها إلى أن تفاقمت مشاكلها المالية، وقد توقفت لمدة طويلة في بداية القرن ١٣هـ أو أواخر القرن ١٨م.

٢.٤.١- محتوى منشورات الشوير:

تعالج جميع الكتب الصادرة بالشوير مواضيع دينية موزعة بين أجزاء من الكتب المسيحية المقدسة ومن الطقوس والأخلاق والزهد والتصوف والدفاع عن المسيحية. ويمكن تفسير هذا الاختيار مباشرة بتوجه رجال الدين الذين أشرفوا على هذه المطبعة والتي يوجد مقرها في دير للرهبان لخدمة الدين المسيحي أساسًا. وإن كان الناشرون يذكرون أسباب اختيارهم لهذه الكتب دون غيرها على غرار الناشرين بحلب بعبارات عامة وغامضة مثل: النفع العام، وكتب ضرورية وعامة وللتعليم، فقد صدرت كتب الشوير عمومًا لتقديم النفع للطائفة الملكية؛ ولكن بأي شكل وكيف كان ذلك؟

أ- النصوص المسيحية المقدسة:

هناك أجزاء من الإنجيل والتوراة طبعت حسب الترتيب الذي وضعه رجال الكنيسة الشرقية مثل المزامير والإنجيل والرسائل وكتاب النبوات. وفي كل مرة تذكر فوائد الكتاب في مقدمته، من ذلك ما ورد في مقدمة المزامير طبعة ١٤٤٨هـ/١٧٣٥م من أن هذا السفر يعتبر "ينبوع الحياة والخلاص" وأنه يشفي الروح، وكذلك ما ورد في كتاب الإنجيل (١١٩٠هـ/١٧٧٦م): "فلذلك اعتنينا بطبعه ليسهل اقتناؤه لجميع الأنام وتشمل إفادته الخاص والعام" كما وردت تفاصيل أكثر حول فوائد هذه الكتب، من ذلك ما ذكر في مقدمة كتاب الأورولوجيون (طبعة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م):

" فمن ثم إذ رأى مجمع رهبان مار يوحنا الروم الباسيليين القانونيين احتياج الكهنة والعوام إلى هذا الكتاب الذي يتعسر حصوله خطًا (أي في شكل

مخطوط) على الطلاب قدموه مطبوعًا للكنيسة المذكورة لتسهيل العبادة وتعميم الإفادة".

هذه الكتب كانت موجهة للروم الكاثوليك والأرثوذكس على حد سواء بما أنها أجزاء من الكتب المسيحية المقدسة، وما حرص مطبعة الشوير على طبعها إلا لتوفيرها بأعداد وافرة لأبناء الطائفة حتى تحصل لهم "الفائدة"، وهذا بعد أن وقفت على حاجة رجال الكنيسة الشرقية وأيضًا عامة المسيحيين العرب لها، خاصة أنه يتعذر عليهم اقتناؤها مخطوطة نظرًا لندرتها أو غلاء سعرها، وبالخصوص نظرًا لاحتواء المخطوط منها على أخطاء كثيرة سببها جهل الناسخين واختلاف الروايات الدينية. فكانت مطبعة الشوير تحرص على دعوة القراء إلى اعتماد الكتب المطبوعة فحسب دون المخطوطة منها[١].

وعلاوة على ذلك، كان للكتاب المطبوع هدف آخر إلى جانب هدفه الديني وهو هدف تربوي تعليمي، فقد دعت مطبعة الشوير على سبيل المثال وعلى غرار مطبعة حلب إلى اعتماد كتابي المزامير والرسائل ككتب مدرسية لتعليم الأطفال. وقد ركزت مقدمات هذين الكتابين على هذا الجانب، فبالنسبة لكتاب المزامير (طبعة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م) ورد ما يلي:

"فقد طبع الآن حديثًا ليسهل اقتناؤه على الجميع ولا يعتذر أحد عن عدم اهتمامه بتعليم أولاده القراءة بمقولة لا أستطيع...ثم اعلم أنه إذا كان هذا الزبور الإلهي يستعمله المؤمنون لتعليم الأولاد القراءة (كذا) العربية لم نرد أن نحذف من الأفعال المعتلة حالة الجزم وعدم الإسناد إلى الضمائر المتصلة ما يوجد فيها من أحرف العلة بل استثنينا هذه الأحرف في الحالة المذكورة حسب العادة الجارية من الكتبة الذين لا يفهمون اصطلاحات اللغة العربية، وذلك لكي لا

---

(١) قول الأب فروماج على سبيل المثال في مقدمة كتاب ميزان الزمان: "فلا اعتماد على تلك النسخة الأولى المكتتبة المشحونة من التحريف والغلط والتبديل والشطط".

تتعسر قراءة هذه الأفعال على الأولاد المتعلمين ولا على غيرهم من الذين لا يحسنون النطق بها في حال حذف هذه الحروف من المعلمين، لا سيما أن إثبات هذه الحروف في حالة الجزم قد سمع في لغات العرب فلا تنسبن ذلك إلى الجهل المشين بل اعتده تنازلاً ومراعاة لعدم فهم الذين لا يحسنون قراءتها إذ تكون على حرف واحد أو على حرفين".

لقد استعملت الحركات والعلامات في كتابة نص المزامير لتوضيح الكلمات العربية وتسهيلاً لقراءتها، هذا بالرغم من الصعوبات الفنية لطباعة نص عربي بهذا الشكل، وقد عدّه المطبعيون بالشوير كتابًا للنحو العربي يمكّن من فهم بعض القواعد النحوية، فأبقوا على بعض الأخطاء النحوية ليفهم القارئ أصل الكلمة قبل إدغامها. إن كتاب المزامير كان جد مطلوب من طرف القراء للأسباب التي سبق ذكرها، وهذا ما يفسر إعادة طبعه خمس مرات في القرن ١٢هـ/١٨م، وحتى شكله المادي يسهل استعماله، فقد طبع في حجم صغير (طوله١٦.٥سنتيمتر وعرضه ١٠.٥سنتيمتر وسمكه ٣ سنتيمترات) وهذا من شأنه أن يسهل استخدامه من طرف القارئ الصغير على عكس شكل المجلدات الكبيرة.

يتم تعليم اللغة العربية عبر كتاب المزامير وأيضًا الرسائل(١)، ولكن هذا لا يكفي، بل وجب على كل من يريد حذق هذه اللغة، أن يكمل تعلمه باستخدام كتب النحو العربي والدراسة بمدارس اسلامية. وقد وقف الناشرون بكسروان على خطورة الوضع الثقافي الناجم عن نقص المدارس، ففيه إضرار فادح

(١) ورد في مقدمة كتاب الرسائل، ورقة ٣ ما يلي: "ومن ليس له وقت للقراءة فقد أمره القديس المذكور أن يواظب الكنيسة حيث تقرأ الرسايل ليسمع قراءتها فمن ثم لهذا السبب نفسه رأينا ضروريًا أن نقدم للمؤمنين هذا الكتاب... متوسط الحجم ليسهل نقله على الأولاد الضروري أن يتعلموه كما يتعلمون المزامير ليحسنوا قراءته في الكنايس".

بالطوائف المسيحية، لأن الجهال من العوام يمكنهم أن يضلوا عن الدين، كما ورد ذلك على لسان عبد الله الزاخر الذي قال في أحد كتبه:

"إن أكثر مسيحيي عصرنا هذا يجهلون هذه المعرفة وذلك لفقر اللغة العربية وعدم المدارس اللاهوتية(كذا)، فهم مسيحيون حقًا يقينًا، لكن بالتسليم فقط دون المعرفة فلا يستطيعون أن يتكلموا أو يوضحوا حق إيمانهم بدون خطر الضلال والغلط"[١].

يعد الجهل والضلال الديني أمرين متلازمين حسب الزاخر، والمتعلم فقط هو القادر على فهم دينه فهمًا صحيحًا ويتبين أن دور المطبعة والكتاب الديني، لا يكتمل لدى الطائفة إلا إذا توفرت المدارس لتعليم الأطفال وتخريج أفواج من المتعلمين القادرين على قراءة الكتب. لذلك شعر المشرفون على مطبعة الشوير بهذه الثغرة التي تعيق إشعاع مطبعتهم، فعدد القراء ضعيف ولا يشجع على سحب عدد كبير من النسخ في كل طبعة، وبالتالي فإن المبيعات لا تغطي حتى مصاريف الطباعة كما سنرى فيما بعد.

ب- كتب الأخلاق والزهد والدفاع عن الدين المسيحي:

أغلب هذه الكتب هي من إنتاج المبشرين، وهي مخصصة لتوجيه أبناء الطائفة[٢] وإصلاح الأخطاء والضلالات الموجودة. يقول عبد الله الزاخر حول كتابه الذي طبع سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م: "إنه من المعلوم اليقيني أن جميع البدع

(٢) الزاخر، عبد الله، **البرهان الصريح**، ص ٣-٤.

(١) كان المبشرون يختارون الكتب التي ينوون ترجمتها ثم طباعتها ويبينون فوائدها على غرار هذا الكتاب الذي قال عنه الأب بطرس فروماج: "إنني فيما كنت أمعن النظر في كتب العلماء الأقدمين وأجيل طرفي في دساتير الآباء المتأخرين رأيت في خزانة بيعة الله درة يتيمة تعز عن (كذا) تعادلها قيمة وهي الكتاب المؤلف من الأنبابولس سينيري اليسوعي المدعو مرشد الكاهن". مقدمة مرشد الكاهن، ورقة ٢.

ما ظهرت إلا لأن أصحابها إما أنهم جهلوا معرفة هذين السّريّن أم لأنهم لم يؤمنوا بهما كما يحق لهما"(١).

الكتاب المطبوع مخصص - حسب الزاخر - إذن للقضاء على الضلالات وإنارة السبيل أمام أبناء الطائفة الذين إما أنهم نسوا أو أهملوا مبادئ دينهم. إن هذا المفهوم الذي يحمله عبد الله الزاخر عن دور الكتاب المطبوع يتكرر ويتأكد في عدد من الكتب الصادرة بالشوير، وإن كان ذلك بأسلوب مختلف، إذ يقع التعرض إلى مفهوم الكتاب المطبوع لدى المشرفين عن المطبعة، وهو أن الكتاب الديني جاء ليصلح الأخطاء الواردة في المخطوطات والمتمثلة في بعض الانحرافات الدينية، وكذلك لينشر المسيحية حسب المذهب الكاثوليكي، هذا علاوة على دوره التربوي والتعليمي، خاصة لتعليم اللغة العربية الفصحى ولتقريب بعض المفاهيم الدينية للقراء بشكل يسير كأن يأخذ الكتاب شكل حوار فيه أسئلة وأجوبة(٢)، وهذه طريقة تربوية اعتمدها المبشرون في كتاباتهم وهم أهل خبرة في مجال التعليم بما أنهم يشرفون على مدارس في المشرق لتعليم المذهب الكاثوليكي إلى العوام والكهان.

أصدرت مطبعة الشوير كتبًا في الدفاع عن الدين المسيحي وكتب الأخلاق والزهد وهي من تأليف المبشرين من يسوعيين وكبوشيين وفرانسيسكان لنشر مبادئ الكاثوليكية، وقد اختار المشرفون على المطبعة هذه الكتب المعاصرة - خلافًا لمطبعة حلب التي اختارت المؤلفات اليونانية القديم- وذلك للتعريف بالمذهب الكاثوليكي ونشره بين أبناء الطائفة الملكية الشرقية وتكريس حركة

(٢) الزاخر، **البرهان** ... ص ٤.

(٣) جاء في مقدمة كتاب إيضاح التعليم المسيحي المطبوع سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م توضيح عن أسباب اختيار هذا الكتاب: فهذا كتاب جزيل المعاني، سديد الأركان والمباني، ينطوي على إيضاح قواعد الدين المسيحي...مع ما يحتاج إلى معرفة مسايله جميع المؤمنين، صغارًا وكبارًا، كهنة وعوامًا، رجالاً ونساء، أغنيا وفقرا، من كل ذي رتبة كانت من بني المعمودية، مما ألفه أحد خوارنة مدينة باريس العظمى العلية، ورتبه على سؤال وجواب ليسهل حفظ معانيه".

الاتحاد بين كنائس الشرق وروما، ولم يكن لها أي توجه نحو خدمة العلوم والثقافة والتعريف بالمعارف الحديثة التي ظهرت بأوروبا إلا إذا استثنينا توجهها بصفة غير مباشرة نحو نشر اللغة العربية لدى أبناء الطائفة.

٢.٤.٢ - توزيع كتب الشوير:

وجهت مطبعة الزاخر كتبها المطبوعة بصفة عامة نحو كل القراء النصارى بدون تمييز في المذاهب فهي تحث في كثير من المناسبات المسيحيين العرب من رجال الكنيسة والعوام على اقتناء كتبها والاطلاع عليها حتى يتفادوا الوقوع في الضلالات، فحرصت على توزيعها على أكبر عدد ممكن من القراء:

"فهذا الايمان المقدس إذ قد حصلت حقايقه (كذا) مجهولة من كثيرين الجأتنا الضرورة أن نجرد عمله العناية (كذا) والاهتمام بطبع هذا البرهان المختصر لتمكن مطالعته بتكريم ليفهم القارئ معانيه ويسهل على كل غني وفقير أن يقتنيه"(١).

لم يوزع أصحاب مطبعة الشوير منشوراتهم مجانًا، بل إنهم باعوها بثمن يعدّونه زهيدًا بما أنهم كما يقولون يريدون أن يقتنيها الغني والفقير وهذا على عكس مطبعة حلب التي وزعت كتبها مجانًا. فقد ذكر عن طبعة **"ميزان الزمان"** الصادرة سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م أنها :"طبعت بعد ضبط إعرابها لتمتد إفادتها إلى الجميع ويسهل اقتناؤها على كل ذي قدر ووضيع"(٢).

---

(١) **كتاب البرهان الصريح**، ص ٦.

(١) جاء كذلك في مقدمة كتاب **إيضاح التعليم المسيحي**، ورقة (١) ما يلي: "فلما رأى مجمع رهبان مار يوحنا القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكيين عظيم فايدة هذا الكتاب الفريد حركتهم الغيرة القوية والمحبة الأخوية إلى طبعه لامتداد إفادته ونفعه، ويحصل عليه جميع المسيحيين الراغبين من مثرين ومقترين".

سلكت مطبعة الشوير في مجال التوزيع مسلكًا توفيقيًا بين عدم توزيع الكتب مجانًا وعدم بيعها بأسعار باهظة، والسبب في عدم إهدائها للكتب يكمن على ما يبدو في عدم حصولها على مساعدات مالية، مثل تلك التي حصلت عليها مطبعة حلب. فكنيسة روما والبعثات التبشيرية لم تقدم مساعدات ذات بال لمطبعة الزاخر(١)، عكس ما حصلت عليه مطبعة أثناسيوس الدباس في حلب من أموال من حاكم بلاد الفلاخ وبعض أغنياء الطائفة الأرثوذكسية، لقد كانت مطبعة الشوير مستقلة ماديًا وكانت تمول مشاريعها بنفسها بفضل العائدات المتأتية من مبيعات كتبها، وبذلك كانت تتمتع بحرية في تسيير المطبعة واختيار مواضيع كتبها.

كانت مطبعة الشوير تؤكد في كل مطبوع أن أسعار كتبها زهيدة وتبرر توجهها نحو بيع الكتب وليس إهدائها بأن ثمن مطبوعاتها في متناول الغني والفقير، مقارنة بالمخطوطات التي كان ثمنها جد مرتفع، هذا علاوة على أنها مليئة بالأخطاء فقد ذكر في مقدمة كتاب النبوات الذي طبع سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م ما يلي:

"ثم بعد هذا التعب والضبط على قواعد لغة العرب، استصوبنا أن نحرره بالمطبعة لامتداد الخير وزيادة المنفعة، ولكي ينحفظ من غلط الكاتبين ويسهل ثمنه على الطالبين".

ولنا أن نتساءل ماذا عن حقيقة هذه الأثمان فهل هي حقًا في متناول الجميع؟ لقد حفظت لنا أرشيفات الرهبانية الشويرية بعض الأرقام عن هذه الأسعار. ففي الرسالة التي بعثها عبد الله الزاخر إلى الأب فروماج سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م وردت بعض الأرقام:

- كتاب **ميزان الزمان**، سعره ثلاثة قروش.

(٣) باستثناء ما حصلت عليه المطبعة من مساعدات عند انطلاقتها.

- كتاب **المزامير**، سعره قرش ونصف.

- كتاب **تأملات الأسبوع**، سعره قرش ونصف(١).

ويتبين أن أسعار الكتب تتراوح بين قرش ونصف وثلاثة قروش، أي ما يعادل آنذاك أجرة عامل يعمل فيما بين أربعين يومًا وثلاثة وتسعين يومًا(٢). هذه الأرقام تبين عمومًا أن أثمان الكتب مرتفعة. إلا أن بعضها يبقى في متناول عدد كبير من أبناء الطائفة، خاصة بالنسبة لكتاب المزامير الذي وجد إقبالاً أكثر من غيره من الكتب، لأنه يستعمل عندهم لتعليم الأطفال(٣) مما يفسر إعادة طبعه خمس مرات كما رأينا. كذلك هناك كتب أخرى أعيد طبعها نظرًا لنفاد الطبعة الأولى، وحتى بعض أجزاء من الكتاب المقدس أو الطقوس مثل الرسائل والأرولوجيون والأكطويخوس.

وجدت منشورات الشوير إقبالاً عند انطلاق المطبعة، حتى أن أعداء عبد الله الزاخر لم يترددوا في اقتنائها، حيث إنهم وجدوها جميلة وخالية من الأخطاء على حد تعبير الرحالة فولني(٤)، وعلاوة على بيع الكتب كان الزاخر يهدي بعضها إلى الأوربيين. وذلك اعترافًا منه بمساعداتهم التي قدموها عند تأسيس المطبعة، فكان أن أهدى منشوراته إلى المبشرين من يسوعيين وكبوشيين، وأيضًا إلى التجار الفرنسيين، وحتى إلى قنصل فرنسا بصيدا وطرابلس لبنان(٥). أما عن مراكز التوزيع، فقد كان لمطبعة الشوير ممثلون في بعض المراكز مثل بعلبك ودير

---

(١) Bacel, « Abdallah…op.cit »., p.287.

(٢) أبو نهرا، جوزيف، "عبد الله الزاخر رائد الطباعة العربية في لبنان في العهد العثماني "أعمال مقدمة إلى المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول: الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان - مؤسسة التميمي - الحمامات (تونس)، ١٥-٢٠ مارس ١٩٩٠م.

(٣) Volney, Voyage…op.cit., p.293.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٣.

(١) Bacel, « Abdallah…op.cit., » p.287.

القمر وطرابلس (لبنان) ودمشق وحلب وحمص والقاهرة والإسكندرية وعكا، وأيضًا في مدينة روما التي كانت إلى جانب مصر وحلب أهم مراكز التوزيع[١].

تراجع نشاط المطبعة شيئًا فشيئًا بعد موت مؤسسها سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٨م، وتقلص عدد الكتب المطبوعة بعد ذلك التاريخ، نظرًا للصعوبات المالية التي كانت تعوق السير الطبيعي للمطبعة. فالأرباح ضئيلة لأن الكتب المطبوعة بها لا تباع إلا قليلاً. وبالمقابل كانت المصاريف باهظة إلى حد أن المطبعة التجأت إلى التداين لشراء الورق، قبل أن تتوقف تمامًا عن العمل للسبب نفسه سنة ١٢١١هـ/١٧٩٧م[٢].

٢.٤.٣- نتائج نشاط مطبعة الشوير:

ما نتائج نشاط مطبعة الشوير وتأثيرها على محيطها الثقافي؟ وما دور الكتاب المطبوع عند الطائفة الملكية؟ وما مفهوم المطبعة لديهم؟

بما أن مطبعة الزاخر كانت تقوم بإصدار النصوص الدينية بأعداد وافرة، فإنه لا يوجد نظريًا نقص في الكتب لدى الطائفة الملكية، وهذه المنشورات كانت موجهة نحو الفقراء والأغنياء على حد سواء بما أن أسعارها كانت نسبيًا في متناولهم. ولكن هل كان باستطاعة كل الملكيين الروم قراءة هذه النصوص؟ خاصة وكما رأينا فإن الأمية كانت منتشرة في الأوساط الشعبية ولا يوجد إلا عدد قليل من المتعلمين ومن الأطفال الذين يرتادون المدارس القليلة التي أنشأها المبشرون خاصة. وجل هؤلاء المتعلمين من رجال الدين ممن درسوا في مدارس روما أو مدارس المبشرين ببلاد الشام وانضموا إلى كنيسة الروم الملكيين. أما عن الأميين فقد فكرت مطبعة الشوير في وضعيتهم فكانت تدعوهم

---

(٢) أبو نهرا، "عبد الله... المصدر نفسه".

(٣) Volney, Voyage…op.cit., p.293.

Browne, **Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie**, …trad. J. Castra, Paris, Deutre, 1800, T11, p.245.

إلى حضور القراءة الجماعية للنصوص الدينية المطبوعة التي تنظم بالكنائس، وأيضًا إلى شراء كتاب المزامير: لتعليم أبنائهم القراءة من خلال النص الديني.

حرص عبد الله الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية على تشجيع القراءة، وذلك بنشرهم كتبًا مكتوبة بخط جميل واضح، وأحيانًا توجد ببعض الكتب الحركات والعلامات على الحروف العربية. استعمل الحبر الأحمر والأسود لمزيد الوضوح، وحرصت المطبعة على تسفير هذه الكتب ووضع الأختام المذهّبة عليها لتعطيها رونقًا وجمالاً أكثر، هذا من حيث الشكل. أما من حيث المحتوى فالنصوص الدينية تمت مراجعتها سواء منها الكتب المقدسة التي وقع تحقيقها حسب الأصل اليوناني أو النصوص الحديثة التي تمت مراجعة ترجمتها وإصلاح الأخطاء اللغوية والنحوية من طرف بعض الكفاءات. والهدف هو دفع الطائفة إلى اعتماد هذه الكتب المطبوعة دون المخطوط منها، الذي لم يعد قادرًا على مضاهاتها لا من حيث الشكل ولا من حيث دقة المحتوى.

وكان من نتائج عمل المطبعة، أن أقبل المسيحيون على اقتناء مطبوعاتها منصرفين بذلك تدريجيًا عن المخطوط، وهذه النتيجة أقرّها الرحالة الفرنسي فولني الذي زار جبل كسروان حيث قال : "إن تأثير المطبعة كان ناجحًا حيث إن مؤسسة مار يوحنا رغم نقائصها أحدثت تغييرًا ملحوظًا، ذلك أن فن القراءة والكتابة وحتى نوع من المعرفة منتشرًا اليوم أكثر ما كان عليه الحال قبل ثلاثين سنة"(١).

لاحظ الرحالة الفرنسي هنا نوعًا ما من التقدم الثقافي بفضل عمل الشوير التي دفعت بالمسيحيين إلى القراءة والاهتمام بالكتاب، ولكن ما مدى أهمية هذا التحول إذا كان عدد القراء قليلاً، وبالتالي فإن "العرض" كان يفوق "الطلب"

(١) Volney, Voyage, p.396…

مما يجعل إشعاع المطبعة محدودًا. أضف إلى ذلك توجهها نحو طبع الكتب الدينية فقط، ويرى الرحالة الفرنسي فولني أن مطبعة الشوير أساءت الاختيار عندما اقتصرت على طبع الكتب الدينية فحسب والتي من شأنها أن تنفر الناس من العلوم، ولم تنشر بالتالي كتب الآداب والفنون التي تنهض بالعقول والأذواق. ويشبه فولني هذا التوجّه بالسياسة التي انتهجتها المطابع الأوروبية في بداية عملها، خاصة بانجلترا وألمانيا وفرنسا، حيث أصدرت كتب الإنجيل والطقوس المسيحية التي أدت إلى الانقسامات والفوضى السياسية، وتسببت - حسب رأيه - في تأخر العقول، ويضيف فولني : "لو أن مطبعة الشوير نشرت كتبًا لها فوائد اجتماعية لقدّمت خدمات جليلة لسكان كسروان والدروز وكل بلاد الشام وأدت إلى تغيير النظام السائد هناك"(١).

لقد أشار فولني إلى مطبعة الشوير عندما أثار قضية "أسباب جهل الشرقيين"(٢)، حيث ذكر أن أهم سبب هو قلة الكتب وغياب المطبعة، وأن مطبعة الشوير لم تؤد إلى الإشعاع الثقافي عند العرب، حيث إنها لم تهتم بنشر كتب الآداب والعلوم التي تثقف الناس وتنهض بالعقول. كان الرحالة فولني متأثرًا بالأفكار الرائجة ببلده قبل الثورة الفرنسية. وكان يرى الشرق بمنظار علماني غربي يندد بالانقسامات الدينية بأوربا التي سببها ظهور البروتستانتية وردود فعل كنيسة روما العنيفة عليها، والتي أدت إلى حروب دينية هناك، مما أدى إلى تخلف الناس وانتشار الجهالة، ومن هنا كان هجوم الرحالة الفرنسي عنيفًا على الخطة التي انتهجتها الشوير. فهو يرى أنها تغذي الصراعات الدينية وتؤذن بحصول المآسي نفسها التي حدثت بأوروبا، وهو يقترح في الآن نفسه

(١) المصدر السابق، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٨٩-٣٩٨، انظر أيضًا:

Laurens, Henri, « Les origines intellectuelles de l’Expédition d’Egypte... op.cit, pp.305-398

على هذه المطبعة أن تتجه نحو طبع كتب العلوم حتى تساهم في نشر المعارف الأوروبية الجديدة وتثقيف الناس، وتنمية الأفكار ونشر الوعي لدى أبناء المشرق، ويتغير النظام السياسي عندهم على غرار ما كان يقع إعداده في فرنسا.

يريد الرحالة الفرنسي نشر الكتب على نطاق واسع حتى تسهم في إحداث التحولات الاجتماعية والسياسية في المشرق. والمطبعة حسب رأيه هي "المحرك الحقيقي للثورات"(١)، وهي الأمل الوحيد الذي ينشده أهل الشرق لنيل الحرية والتخلص من سلطة الحكام العثمانيين، مثل الجزار باشا حاكم عكا في ذلك العهد.

لم تكن الرهبانية الشويرية ترى الرأي نفسه، فالمطبعة بالنسبة لها ليست وسيلة لإحداث الانقسامات بل على العكس هي أداة ناجعة للقضاء على الضلالات والفتن الدينية المنتشرة لدى مسيحيي المشرق والتي روّجتها المخطوطات الدينية. هذه المطبعة حسب اعتقاد الرهبانية الشويرية ستؤدي دور "المحرك الحقيقي للوحدة المسيحية"، حيث إنها تسعى إلى جمع كل المسيحيين بالمشرق حول نصوص دينية موحدة، وبالتالي فإنها ستدعم الروابط الروحية بين أبناء الطوائف المسيحية بالشرق من جهة وبين هؤلاء وإخوانهم المسيحيين المنتمين لكنيسة روما من جهة أخرى.

إن منشورات الشوير لن تؤدي حسب مفهوم الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية إلى تأخر العقول، بل إلى تقدمها وإنارتها، إذ ستدفعها نحو "معرفة الطريق الصحيح للعبادة"، ولا تكمن فائدة النص المطبوع في نشر المؤلفات غير الدينية، بل في التعريف بالكتب الدينية التي "تحضر النفوس للحياة الأبدية"، وهذا المفهوم هو الذي كان سببًا في توجه مطبعة الشوير توجهًا دينيًا بحتًا.

---

(١) Volney, Voyage…op.cit., p.396.

٣ - المطبعة العربية ببيروت:

لا يعرف عن هذه المطبعة إلا النزر القليل، لأنها اختفت مع وثائقها بعد مدة قصيرة من نشأتها تحت أنقاض المبنى الذي كان يئويها والكنيسة المجاورة لها "القديس جيورجيوش" في ١١٨١هـ/١٧٦٧م. إن منشوراتها قليلة ونادرة جدًا في المكتبات الكبرى في العالم، وأندر من ذلك الدراسات والبحوث الحديثة المتعلقة بها، ولم نتمكن إلا من جمع بعض المعلومات عنها من مصادر تعود إلى القرنين ١٣و١٤هـ/١٩و٢٠م.

٣.١ - حالة المسيحيين ببيروت في منتصف القرن ١٢هـ/١٨م:

كانت بيروت المدينة الثانية على ساحل جبل لبنان بعد طرابلس من حيث عدد السكان[١]. ويعد المارونيون، وهم تحت رعاية الأمراء الدروز، أهم طائفة تقطن المدينة. وكانوا قد استقروا بأعداد غفيرة بها منذ الحملات الصليبية[٢]. أما الروم الأرثوذكس فيأتون في المرتبة الثانية من حيث العدد وكانوا قد أسسوا بعض الأديرة ببيروت، وقد شملت الدعاية الكاثوليكية هذه المدينة في بداية القرن ١٢هـ/١٨م[٣].

تعد بيروت من المدن التجارية المهمة، وقد ازدهرت خاصة في عهد الأمير الدرزي فخر الدين الثاني. وقد استقر بها التجار الأوروبيون، وخاصة من البندقية، حيث أسسوا بها مصارف، وقد استغل المارونيون والروم الأرثوذكس هذه الوضعية، وكما هو الشأن بحلب، لتوسيع تجارتهم. إلا أن المدينة عرفت فترة ركود بعد وفاة فخر الدين حتى مجيء الأمير ملحم شهاب، الذي استقر بها نهائيًا سنة ١١٦٨هـ/١٧٥٤م وحرص على النهوض بها. وقد ازدهرت التجارة بها من جديد، خاصة عندما قررت الحجرة التجارية بمرسيليا إقامة مصارف بها. وبدأ التجار

(١) Encycl, Islam, nou. Ed. T1, p.1172 article BAYRUT.

(٢) Karalevsky, Beyrouth in D.H.G.E., T V III, col 1319.

(٣) المصدر السابق، سنة ١٣٠٩م.

الفرنسيون الذين انزعجوا من تصرفات باشاوات عكا وصيدا بمغادرة هاتين المدينتين للاستقرار ببيروت[1].

وفي هذه الفترة بالذات عرفت المدينة حدثًا ثقافيًا هامًا تمثل في إنشاء ثالث مطبعة عربية مسيحية ببلاد الشام. وكانت نقطة بداية لحركة نشر عريقة ونشيطة جعلت من بيروت أكبر مركز للنشر في البلاد العربية إلى جانب القاهرة إلى هذا اليوم. إن ظروف نشأة المطبعة ببيروت كانت مشابهة لظروف تأسيس مطبعة حلب، إذ إن بطريرك أنطاكية تحول إلى رومانيا لطبع كتب دينية قبل أن يتوصل إلى تأسيس مطبعة جديدة في جبل لبنان، وذلك بفضل مساعدة بعض الأغنياء ببيروت. هذا البطريرك يدعى سلفستروس القبرصي.

٢.٣ - أصل مطبعة بيروت: مطبعة جاسي في بلاد الفلاخ (رومانيا):

١.٢.٣ - البطريرك سلفستروس:

خلف البطريرك سلفستروس القبرصي أثناسيوس الثالث دباس على كرسي البطريركية فيما بين سنتي ١١٣٧هـ/١٧٢٤م و١١٨٠هـ/١٧٦٦م. وقد ولد سلفستروس سنة ١١٠٨هـ/١٦٩٦م بقبرص، وتتلمذ على يد أثناسيوس، ثم عين راهبًا في دير جبل طوس[2] قبل أن يصبح بطريركًا لأنطاكية بقرار من بطريرك القسطنطينية، وهذا الأخير كان يرمي من تعيين هذا الأرثوذكسي المتصلب إلى منع ازدياد عدد الملكيين الكاثوليكيين ببلاد الشام.

تحول سلفستروس إلى رومانيا سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، حيث مكث بها مدة أربع سنوات واستقر بالتحديد في جاسي قرب بوخاريست. وقد لقي ترحيبًا كبيرًا من حاكم بلاد البغدان الأمير قسطنطين بن نيقولا بك، الذي ساعده هناك على طبع كتب عربية. فعمل على إعداد حروف عربية في دير القديس سابا في

(٤) Gaulmier, « Commentaires » in Volney, Voyage…op.cit., p.290, note 4.

(١) Dan Simonescu, « impressions…op.cit., »

بوخاريست، ثم في مدينة حلب بمساعدة اثنين من المطبعيين السوريين هما الشماس جرجس الحلبي والراهب ميخائيل بازي من قرط الذهب بلبنان. وقد نشرت ورشة الطباعة بجاسي خمسة كتب دينية على الأقل بين كتب الطقوس والجدال.

٣.٢.٢- الكتب الطقسية :

- كتاب **"القنداق" (ليترجكون)** : طبع سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م. وفي المقدمة يذكر البطريرك أنه راجع كل النص، وأصلح الأخطاء اللغوية والنحوية التي تسربت إلى الطبعة الأولى التي أشرف على إصدارها البطريرك السابق أثناسيوس في بوخاريست سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م.
- **"كتاب الزبور الشريف"**: صدر سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، ويتحدث سيلفستروس في المقدمة عن مجهوده في بلاد البغدان للحصول على كتب عربية لفائدة المسيحيين، وأنه أصدر كتاب الزبور لتمكين الأطفال من التعلم وتوفير الكتب المقدسة بسعر زهيد في متناول الفقراء(١).

٣.٢.٣- كتب الجدال:

- كتاب **"أعمال المجمعين الكنسيين الملتئمين في القسطنطينية"**: نشر سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م (٢). هذا الكتاب يتضمن خمس رسائل جدلية ضد الكنيسة الرومانية، وهي بمثابة الرد على التغييرات الخمسة التي أدخلها الكاثوليكيون على المذهب المسيحي، ويتضمن الكتاب دستورًا للكنيسة الشرقية(٣) .

---

(١) لم نتمكن من العثور على هذا الكتاب إلا أننا رجعنا إلى نص مقدمته في ببليوغرافية شنورر:
Schnurer, Bibliotheca…op.cit., p.515.

(٢) عقد المجمع الكنسي الأول سنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢م برئاسة البطريرك جيرمي، والثاني سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٧م برئاسة بابوزيوس.

(٣) نصر الله، **مطابع الملكيين**، ص ٤٤٠-٤٤١.

Dan Simonescu, « impressions… »op.cit., p.6.

- كتاب "**العشاء الرباني**" طبع سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، وهو ترجمة عربية لكتاب الطبيب أنستراتيوس أرجنتس، قام بها مسعد نشو.
- كتاب "**قضاء الحق ونقل الصدق**": صدر سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م كتاب لبطريرك بيت المقدس نكتاريوس كتب باليونانية للرد على الكاثوليكيين، ترجمه إلى العربية سلفستروس وفيه ملحق "ضد عصمة بابا روما" كتبه أنستراسيوس أرجنتس وترجمه إلى العربية أيضًا مسعود نشو. وقد ذكر المؤلف في المقدمة أن البابا سعى إلى نشر "الضلالات" في أوساط المسيحيين العرب عن طريق تلاميذ "مضللين" قدموا إليهم "لهدم" ديانة الأرثوذكس، ونشر التفرقة بين الناس، وأن المؤلف قرر الرد على هذه الآراء ودحض هذا المذهب، ليستفيد بذلك كل الأرثوذكس ويتجنبوا الوقوع في الشك والحيرة.

ومن خلال هذا النص يتبين توجه هذه المطبعة الجدلي للرد على الكاثوليكيين وتفنيد مذهبهم. وهذا التوجه رسمه البطريرك سلفستروس لتسير عليه مطبعة جاسي برومانيا. إلا أنها سرعان ما توقفت عن النشاط إثر عودة البطريرك إلى سوريا سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م.

٣.٣- مطبعة القديس جيورجيوس ببيروت:

٣.٣.١- تأسيس المطبعة:

هناك روايتان مختلفتان حول ظروف تأسيس مطبعة بيروت، وخاصة حول مؤسسها. فالرواية الأولى تتحدث عن سلفستروس على أنه مؤسس المطبعة. والثانية تذكر اسمًا ثانيًا وهو أبو عسكر، أحد الروم الأرثوذكس، فمن هو المؤسس الحقيقي للمطبعة؟

أ- دور سلفستروس:

الرواية التي تتحدث عن بداية مطبعة بيروت هي لمؤلف غير معاصر لتلك الفترة وهو الخوري أغسطينوس مقصود، ويعود تاريخ رسالته إلى سنة ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م ويقول فيها:

" اتجد في مدينة بيروت أوايل مطبعة، والمظنة أنها هي مطبعة حلب(كذا) فلما حضر سلفستروس مثيرًا اضطهادًا قويًا... حضر إلى بيروت وأرسل جاب المطبعة من حلب ودورها في بيروت والفقير اطلعت على كتاب الزبور من مطبعة بيروت ومختصر سواعيه...وبعد حين انطوت في انطوش جماعة الروم الغير الكاثوليك"(١).

يقدم صاحب الرسالة معلومات غير دقيقة وغير متأكدة حول تأسيس المطبعة فهو لم يواكب تلك الفترة وينطلق من افتراض ليبين مصدر آلات مطبعة بيروت، حيث يفترض أنها جاءت من حلب. إلا أنه لو بقيت أحرف وآلات مطبعة أثناسيوس بحلب صالحة للاستعمال بعد أن هجرت منذ أربعين سنة لكان سلفستروس قد استخدمها بحلب نفسها عوض أن يتوجه إلى بلاد الفلاخ ثم إلى بيروت لطبع كتب جديدة. لذلك نستبعد فرضية أغسطينوس مقصود ونرى أن تجهيزات مطبعة بيروت جديدة، وأنها أحدثت خصيصًا لها. أما عن مؤسس المطبعة سلفستروس حسب مقصود وهذا ما تعارضه رواية ثانية تقدم أبا عسكر على أنه مؤسس المطبعة.

ب- دور أبي عسكر:

تتحدث الرواية الثانية للأب لويس شيخو(٢) عن شخص ثان هو الشيخ يونس بن نيقولا الجبيلي المعروف بأبي عسكر، وهو أحد أعيان الروم الأرثوذكس، وله علاقة متينة بحاكم عكا. وهذا الأخير عيّنه عاملاً لاستخلاص المعاليم في

(١) حاج، **الرهبانية ...**، ج ١ ، ص ٥٥٠.

(٢) شيخو، تاريخ .. **المشرق** ٣، ١٩٠٠، ص ٥٠١-٥٠٢.

قمارق (جمارك) بيروت، وكلفه بتنظيم الشرطة هناك. وقد كان رجلاً ثريًا إلى درجة أنه سعى إلى تمكين طائفته من مطبعة ومن كنيسة. وفعلاً بنى كنيسة سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م، إلا أنها انهارت بعد سنتين فقط. ومات تحت أنقاضها كثير من الناس، وقام أبو عسكر بإعادة بنائها سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م. وقد خامرته فكرة إنشاء مطبعة بعدما وقف على فوائد هذه المؤسسة من خلال تجربة الشوير(١)، فموّل على حسابه الخاص مشروع المطبعة، وكلف بعض المتخصصين بإعداد حروف عربية حسب نماذج حروف الشوير.

هذه الرواية لا تذكر البتة اسم البطريرك سلفستروس، ولا أي دور قد أداه في تأسيس مطبعة بيروت، وتقتصر فقط على تقديم أبي عسكر على أنه مؤسس هذه المطبعة. لئن بدت كلتا الروايتين مختلفتين، فإن ذلك لا يمنع حسب رأينا من أن تكونا متكاملتين، إذ يبدو أن كلاً من الرجلين قد أدى دورًا معينًا في تأسيس المطبعة. فالبطريرك سلفستروس هو الذي أعدّ المشروع منذ أن كان في بوخاريست، ولكنه لم يتمكن من تنفيذه إلا بفضل المساعدة المالية التي قدمها أغنياء الطائفة الأرثوذكسية ببيروت، وخاصة أبا عسكر الذي يتمتع بنفوذ واسع لدى أبناء طائفته، وأيضًا لدى السلطات العثمانية. كان دور أغنياء الأرثوذكس في إصدار المنشورات العربية كبيرًا، فهم الذين ساهموا -كما رأينا- في صرف الأموال اللازمة لطبع بعض كتب حلب، ويبدو أن إخوانهم ببيروت قد ساروا على نهجهم وهم الذين استفادوا بدورهم من التجارة الدولية التي أصبح لها في بيروت مركزًا جديدًا، فشاركوا في تحقيق بعض المشاريع الدينية والاجتماعية والثقافية لفائدة طائفتهم. ويمكن القول إذن إن البطريرك سلفستروس هو الذي قام بالدور الأساسي في تأسيس مطبعة بيروت مع الاستفادة من مساعدة أبي عسكر المالية، وكان له من الخبرة العلمية والفنية ومن النفوذ الديني ما يؤهله لتنفيذ المشروع.

---

(١) المصدر السابق، ص ٥٠١.

بالنسبة لاختيار مدينة بيروت لاحتضان هذه المطبعة لا توجد كذلك مصادر أصلية توضح هذه النقطة وتعطي تفاصيل ضافية عن أسباب هذا الاختيار خاصة وأن حلب مؤهلة أكثر من غيرها لاحتضان هذه المطبعة بعد أن اكتسبت تجربة وخبرة في مجال الطباعة. ويذكر مقصود في رسالته المذكورة سابقًا أن البطريرك سلفستروس تحول إلى بيروت لاضطهاد الروم الكاثوليكيين الذين ازداد عددهم وأصبحوا مصدر إزعاج له. ويمكن أن نستخلص من هذه المعلومة بأن سلفستروس قد يكون وقع اختياره على بيروت لهذا السبب، أي الاستفادة من خدمات مطبعة جديدة هناك للرد على كتابات الكاثوليكيين والمبشرين. ويبدو أن الهدف الذي حدده سلفستروس لمطبعة بيروت هو هدف جدلي على غرار التوجه الذي اختاره قبل ذلك بالنسبة لمطبعة جاسي. ولكن ما محتوى الكتب المطبوعة بيروت؟

٢.٣.٣ - محتوى منشورات بيروت:

لا نعرف عن منشورات هذه المطبعة سوى كتابين هما **المزامير** الذي طبع سنة ١١٦٥هـ/١٧٥١م، وأعيد طبعه سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٣م[١]، وكتاب **"السواعي"** (الأورولوجيون)، اقتصرت المطبعة إذن على إصدار كتب دينية وطقسية مطلوبة بكثرة وكانت مطبعتا حلب والشوير قد سبقتا بيروت إلى طبعهما مرات كثيرة، ولم تتح الفرصة لسلفستروس لنشر كتب جدلية، إذ توقفت المطبعة على ما يبدو دون أن تصدر كتبًا أخرى، وقبل انهيار كنيسة القديس جيورجيوس بوقت طويل[٢]. فهل توقفت المطبعة لأسباب مالية أو بسبب رحيل البطريرك عن بيروت أو لأسباب أخرى؟ هناك تساؤلات أخرى كثيرة تبقى

---

(١) Schnurrer, Bibliotheca…op.cit., n°534.

(٢) حسب مذكرات حنانيا المنير التاريخية : "لأنه في ٢٦ شباط ١٧٦٦ وقعت في بيروت كنيسة الروم فقتل بها مقدار مائة نفس أغلبهم غرباء". حاج، **الرهبانية**... ج ١، ص ٥٥٠.

دون جواب، ونأمل أن تكتشف وثائق أصلية تلقي مزيدًا من الأضواء على هذه المطبعة.

خاتمة الفصل الثالث:

لم تنشر المطبعة العربية لدى الطوائف المسيحية بالمشرق سوى النصوص الدينية ولم تنقل في القرن ١٢هـ/١٨م الأفكار الجديدة المنادية بالحرية، والتي انتشرت بأوروبا، أو المعارف الحديثة التي ظهرت بها منذ عصر النهضة. لم تسهم منشورات بلاد الشام حسب رأي فولني في تحريك الهمم لتغيير الوضع السياسي والتشجيع لمقاومة السلطة العثمانية وبالخصوص للاستفادة من الوضع الاقتصادي الجديد في حلب وجبل لبنان، والذي يمكن المسيحيين ماديًا من تأسيس المدارس ونشر المعرفة على نطاق واسع ونشر العلوم الحديثة.

عملت المطابع الثلاث بحلب والشوير وبيروت، بما أن مؤسسيها هم من رجال الدين المسيحي، على إنتاج الكتب الدينية لفائدة الطائفة الملكية الأرثوذكسية، وذلك لإثبات هويتهم وبلورة شعورهم الطائفي، ولذلك توجهت توجهًا دينيًا بحتًا. وإذا ما سعت إلى نشر النصوص المسيحية المقدسة حسب النصوص العربية المعتمدة لدى كنيسة الروم الأرثوذكس، فإنها لم تخف رغبتها في توظيف المطبعة في الجدل الديني القائم بين الأرثوذكس والكاثوليكيين. فكان أن عملت مطبعة الشوير أولاً على نشر المذهب الكاثوليكي. وكان رد فعل الأرثوذكس سريعًا ومباشرًا إذ أصدروا في مرحلة أولى كتبًا جدلية انطلاقًا من جاسي، على أن تتبعها إصدارات أخرى في مرحلة ثانية انطلاقًا من بيروت. إلا أن مطبعة بيروت لم تعمر طويلاً حتى تسهم في التصدي لتسرب المذهب الكاثوليكي.

ورغم هذا الصراع المذهبي الذي ساهمت في تغذيته هذه المطابع، فإنها كانت متفقة على هدف واحد، وهو مقاومة الضلالات الدينية والانحرافات، لكن كل واحدة حسب طريقتها الخاصة، وكانت متفقة أيضًا على التهجم على

المخطوط الذي تسبب في تحريف النصوص الدينية وفي نشر الضلالات والتفرقة بين الكنائس الشرقية. ومن وراء المخطوط الناسخون، وهم من الرهبان الجاهلين والمهملين، الذين نسخوا مخطوطات مليئة بالأخطاء، والتي كانت على نوعين:

أخطاء لغوية، وأخرى عقائدية. وبالإضافة إلى ذلك فإن الناسخين حسب بطاركة أنطاكية ورؤساء الرهبانية الشويرية، هم خمولون لا يبذلون المجهود الكافي لنسخ عدد كبير من المخطوطات، مما جعل هذه الأوعية نادرة وباهظة الثمن. ونظرًا لكل هذه النقائص، دعى المطبعيون القراء إلى ترك الوعاء القديم للمعلومات مصدر الانشقاق والخطأ وتعويضه بالكتاب المطبوع. وهذا الأخير مدعو لتقديم نصوص دينية سليمة من الأخطاء بكل أنواعها ولإرشاد المسيحيين إلى دينهم.

ظهور المطبعة يعني بداية عهد جديد حسب رأي أصحاب المطابع، عهد يقظة الطائفة الملكية الأرثوذكسية وتدعيم هويتها حسب بعض الباحثين وعهد نهاية الانشقاق وبداية الاتحاد مع كنيسة روما حسب بعضهم الآخر. نتائج نشاط المطابع الثلاث لم تكن على الدرجة نفسها من الأهمية، ذلك أن تأثير ورشتي حلب وبيروت في الحياة الدينية والثقافية، كان محدودًا لأنهما لم تعمّرا طويلاً، إذ توقفتا بعد بضع سنوات من تأسيسهما، في حين أن مطبعة الشوير تمكنت من التغلب على المصاعب الفنية والمالية وواصلت نشاطها إلى نهاية القرن ١٣هـ/١٩م، وحققت بعض النتائج الإيجابية؛ إذ طبعت في ظرف نصف قرن تسعة وعشرين كتابًا عربيًا مسيحيًا، وساهمت في تنمية الرغبة في المطالعة، إذ طبعت ووفرت الكتب للمتعلمين بأسعار مناسبة.

وبالرغم من محدودية نشاط هذه المطابع، فإنه لا ينبغي إغفال مساهمتها في إدخال حركية جديدة في الحياة الثقافية. فعملية إقامة مطابع تعتبر في حد ذاتها تحولاً هامًا في المسار الثقافي للمسيحيين العرب، الذين وقفوا على مزايا هذه الأداة الثقافية الجديدة لمضاعفة إنتاج الكتب ونشر المعرفة وتنمية المطالعة،

وبذلك يكونون قد وضعوا الركيزة الأساسية لحركة النهضة الأدبية التي شهدها القرن التالي، إذ غرست تقاليد جدية لدى المتعلمين المسيحيين، وتتمثل في التعامل مع الأدوات الثقافية الحديثة التي ستسمح لهم فيما بعد في مواكبة التطور العلمي الذي حققته أوروبا.

الفصل الرابع

المطبعة الإسلامية في إستانبول

المقدمة:

كان الحوار الذي دار بين المسلمين المصلحين منهم والمحافظين طويلاً وشاقًا، لأنه جمع بين فريق صغير من العلماء المتفتحين على الاكتشافات الأوروبية وقاعدة واسعة من المتعلمين والعلماء المعارضين أو غير المتحمسين لاستخدام هذه التقنيات والاختراعات التي من بينها المطبعة. ولم يفض هذا الحوار إلى نتائج حاسمة إلا بفضل تدخل السلطات العثمانية لإيجاد حل مناسب يعاضد من جهة أنصار فن الكتابة الجديد دون إثارة حفيظة المحافظين. هذا الدعم السياسي الكبير للمجددين جاء في ظروف تاريخية ملائمة لاستعارة بعض الاكتشافات الغربية. فما هذه العوامل التي ساعدت أنصار المطبعة على الحصول على ترخيص من السلطان العثماني لتأسيس أول مطبعة إسلامية؟ وهل ساهمت هذه العوامل في تواصل عمل أول مطبعة بإستانبول بعد وفاة أحمد الثالث؟ وهل شجعت على إقامة مشاريع مماثلة في الولايات العثمانية؟ كذلك هل نجح المطبعيون المسلمون الأوائل في تخطي الصعوبات الفنية والمادية؟ وهل مهدوا الطريق لغيرهم للنسج على منوالهم؟ بقي السؤال الأهم في هذا الموضوع، وهو : ماذا قدمت مطبعة إستانبول للمجتمع الإسلامي في القرن ١٢هـ/١٨م؟ هل ساهمت في تطور الحياة العلمية والثقافية وبقية المجالات؟ وما صدى تأسيسها ونشاطها داخل العالم الإسلامي؟ وما موقف

المسلمين من الكتاب المطبوع؟ وكيف تعاملوا معه؟ وهل حقق هذا الوعاء الجديد للمعلومات الفوائد التي تحدث عنها إبراهيم متفرقة في رسالته؟

١- "لالي دوري" أو"عصر الخزامى" في إستانبول وتأثير الغرب (١١٢٩-١١٤٣هـ/ ١٧١٧-١٧٣٠م):

أخذ الباب العالي المبادرة وتحمل مسؤولية إدخال فن الطباعة بالحرف العربي داخل الإمبراطورية العثمانية. وهذه المبادرة الجدية هي الأولى من نوعها، لأن السلاطين الذين حكموا قبل أحمد الثالث لم يحاولوا الاستفادة من المطبعة العربية[١]. رغم علمهم بوجودها بأوروبا، ولدى الأقليات الدينية داخل الإمبراطورية كما سبق أن رأينا ذلك. تميّزت المدة التي حكم فيها السلطان أحمد الثالث (١١١٥-١١٤٣هـ/ ١٧٠٣-١٧٣٠م)، ووزيره الأكبر إبراهيم باشا داماد (١١٢٩-١١٤٣/١٧١٧-١٧٣٠م)، برغبة متزايدة لدى الباب العالي في إدخال بعض الإصلاحات على أجهزة الدولة، وداخل المجتمع أيضًا، ولم يتردد الحكام في الانفتاح على الغرب المسيحي لاستعارة بعض التقنيات والاكتشافات الحديثة التي كان من ضمنها آلة الطباعة.

١.١- الحاجة إلى الإصلاحات:

منذ القرن ١١هـ/١٧م، نادى بعض المفكرين ورجال السياسة العثمانيين بضرورة إصلاح المؤسسات الإدارية والعسكرية والثقافية، وتناولوا بالتحليل أسباب ضعف الدولة منذ نهاية القرن ١٠هـ/١٦م، وعلى سبيل المثال كتب لطفي باشا[٢] الوزير السابق في عهد سليمان القانوني **رسالة "أسف نامة" أو "مرآة الوزراء"**، ذكر فيها أسباب تدهور الوضع داخل الخلافة العثمانية. وكذلك الأمر بالنسبة لمؤرخ البلاط، علي، الذي كتب سنة ١٠٠٣هـ/١٥٩٥م

(١) هذا ما ذكره في إبراهيم متفرقة، "رسالة وسيلة الطباعة". انظر الفصل الثاني من دراستنا الحالية.

(٢) Encyclopédie de l’Islam. 1ére éd. Vol 3, pp.56-58, article Lutfi Pasha.

رسالة حول الوسائل الناجعة التي يقترحها لإصلاح الدولة(١). أما الألباني كوشي باي(٢)، والذي يعرف في أوروبا بمونتسكيو الشرق، فقد كتب رسالة سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م إلى مراد الرابع لإبراز مشاكل الإدارة والحكم. أما كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة فقد كتب سنة ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م **"دستور العمل في إصلاح الخلل"**، حيث تناول فيه بالتحليل أسباب إفلاس الدولة ماليًا، واقترح جملة من الإصلاحات. ويعدّ حاجي خليفة أول عالم مسلم يدعو إلى الاستفادة من العلوم الموجودة في الغرب(٣).

أما حسين هزرفن، خزندار الدولة، فقد كتب سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٩م **"تلخيص البيان في قوانين آل عثمان"**، وفيه يتحدث عن تنظيم هياكل الدولة وينقد سياسة السلاطين وظاهرة الرشوة لدى الوزراء. ويعدّ هزرفن أول مسؤول عثماني ربط علاقات صداقة متينة مع بعض رجال الفكر والعلم الأوروبيين(٤). فقد التقى بالمستشرق الفرنسي قالان والإيطالي مارسيغلي، كما استفاد هزرفن عند تأليفه لكتاب عن تاريخ العالم بمصادر يونانية ولاتينية معتمدًا في ذلك على مترجمي السرايا. وهناك مؤرخ آخر استخدم هذه المصادر الأجنبية وهو إبراهيم باشوي(٥). هذه النزعة الجديدة المتمثلة في التوجه نحو الغرب، قد تدعمت لدى المفكرين العثمانيين في بداية القرن ١٢هـ/١٨م الذين أصبحوا ينادون بإصلاح الجيش والإدارة. فمنذ هزيمته سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م، أمام جيوش روسيا والنمسا وتوقيع معاهدة سلام في كارلويز، أفاق الباب العالي من سباته، وأدرك مدى الضعف الذي كان عليه جيشه وتجهيزاته العسكرية، بالقياس مع جيوش أعدائه المتفوقين عليه من حيث

---

(٣) Bombaci, Histoire…op., p.333

(٤) Encycl. Islam 1ére ed. vol II, p.16, article Koci Bey, voir aussi Bombaci, Histoire…op., p.330.

(١) Bombaci, Histoire…op., p.309 ; Adnan, La science…op.cit,.pp93-107.

(٢) Encycl. Islam, 2éme éd.vol, III p.644 article Husayn Hezafenn, voir également Bombaci, Histoire. P.309.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٣٥.

التنظيم والعتاد، وأصبح يعي أهمية الإصلاحات التي أدخلها قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي استفاد بدوره من مساعدة أوروبا الغربية له، واستطاع أن يجعل من روسيا دولة قوية. وقد أراد الباب العالي أن ينسج على منوال بطرس الأكبر بعدما عاش في عزلة عما يحدث بأوروبا من تطور وتقدم منذ عصر النهضة التي عرفتها. بل إن المجتمع الإسلامي عمومًا انطوى على ثقافته وآدابه ولم يرتبط بصلات ثقافية بالغرب، ولم يسع إلى التفاعل حضاريًا مع مجتمعات أخرى مثلما فعل المسلمون الأوائل. ومع مجيء السلطان أحمد الثالث، الذي كان متفتحًا على أوروبا، ظهرت إنجازات كثيرة في مختلف المجالات وخاصة في المجال الثقافي.

١.٢- التوجهات السياسية الجديدة لأحمد الثالث ووزيره:

١.٢.١- أحمد الثالث (١١١٥-١١٤٣هـ/ ١٧٠٣-١٧٣٠م):

كان أحمد الثالث سلطانًا مسالمًا، وقد اختار عقد اتفاقيات سلام على إثر الهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش العثمانية أمام القوات الروسية والنمساوية، وبسبب المصروفات الباهظة التي يتطلبها تجهيز الجيوش في وقت كانت خزينة الدولة تعاني عجزًا ماليًا. وقد مكنت مدة السلم هذه الباب العالي من الاهتمام بالعلوم والثقافة الغربية، فشجع السلطان أحمد الثالث العلوم والآداب، وأغدق على العلماء ورجال الفكر. وكان بدوره شاعرًا وخطاطًا ومولعًا بكتابة الرسائل. وقد عمل على إحاطة نفسه برجال مثقفين، فأمر بتعويض "الدوشير"(١) بمسلمين أحرار في المناصب الإدارية والعسكرية المهمة. وهؤلاء كانوا مولعين بالمعارف الحديثة. كما عيّن في سنة

(١) Encycl. Islam, 2éme éd., T. 1, p.278 article Ahmed III.

الدوشير: هم موظفون سامون من أصل مسيحي، تولى الباب العالي تربيتهم منذ صغر سنهم.

١١٣٠هـ/١٧١٨م رجلاً متفتحًا على حضارة أوروبا في منصب الصدر الأعظم.

١.٢.٢- الصدر الأعظم إبراهيم باشا وعصر الخزامى:

ولد هذا الوزير في نوشير سنة ١٠٧٣هـ/١٦٦٢م، ومات مقتولاً إثر ثورة الانكشارية سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م. وكان أحد مخططي "سياسة السلام" التي سلكها الباب العالي(١). إذ إنه افتتح وزارته بإمضاء أبرز اتفاقية سلام في ذلك الوقت والتي عقدها في باساروفيتش سنة ١١٣٠هـ/١٧١٨م مع النمسا والبندقية.

كرّس هذا الوزير جهده لإعادة بناء الاقتصاد والجيش(٢)، وعمل على إدخال حركية جديدة في مجال الثقافة. فأسس أول مكتبة عمومية(٣)، وأنشأ لجنة تضمّ خمسة وعشرين عالمًا، لترجمة المؤلفات الهامة من العربية واليونانية إلى اللغة التركية العثمانية(٤). كما أنه كان يتابع باستمرار النشاط العلمي بأوروبا من خلال مجلة العلماء (Journal des scavans)، وشجع العلماء على اتباع السلوك نفسه، وقد بلغ عدد الأدباء والشعراء لدى الباب العالي في فترة وزارته أكثر من مائة(٥). كما أن عدد المؤلفات العلمية وخاصة منها الطبية والرياضية قد ازداد بشكل ملحوظ(٦). كما ظهرت ثلاث مكتبات كبيرة هي: مكتبة أحمد

---

(١) Note du P.Holdeman en 1731 in « Encycl. Islam, bib ; 1926 p.8 voir Encycl. Islam 2ème éd. T3 p.1027 article Ibrahim Pasha Nevshehirli.

(٢) أمر الوزير مثلاً بصنع باخرة كبيرة وطلب من أحد الضباط الفرنسيين وهو دي روشفور إعداد مشروع تكوين مهندسين في خدمة الباب العالي، انظر: Berkes N, The developpement of secularism in Turkey, Montréal, Mc Gill University, 1964, p.31.

(٣) Toderini, De la Littérature…op.cit., p.20.

(٤) مثل ترجمة عقد الجمان لبدر الدين العيني وحبيب السيار. انظر Adnan, La Science…op.cit., p.126.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٦) مثل كتاب جواهر الفريد في الطب الجديد لعمر سيفاي (توفي سنة ١١٥٤هـ/١٧٤٢م)، الذي ترجم أيضًا كتاب لبركليز، أما عالم الرياضيات خليل فايض (توفي سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م) فقد ألف بعض الكتب في الرياضيات والفلك. انظر: Adnan, La Sience…op.cit pp 127-128

الثالث داخل القصر، وفي الجامع الجديد (يكي جامع)، ومكتبة الشهيد علي باشا في حي وفا[١].

وقد وفر الصدر الأعظم إبراهيم باشا في هذه الفترة جوًا شاعريًا منعشًا أطلق عليه اسم إحدى الأزهار وهو **"لالي دوري" أي "عصر الخزامى"**، وهذه الزنبقة كان قد جلبها من هولندا السفير بيسباك[٢]، ووجدت إقبالا لا نظير له من طرف سكان إستانبول، الذين غرسوها في حدائقهم ووشّوا بها شرفات منازلهم. كما أن الصدر الأعظم شجع غرس هذه الأزهار وخصص مكافآت لذلك. وقد ظهر نمط عيش راق في العاصمة العثمانية وازدهر في تلك الفترة، من ذلك أقيمت المآدب الفاخرة، وأقبل الأغنياء على ارتداء الملابس الرقيقة، ومنها ثياب الفرو، وكذلك التحلي بالجواهر الثمينة. كما كانت النساء تقوم بفسحات على ضفاف البوسفور في الحدائق الجديدة والأكشاك والحنفيات، وقد عبر الشاعر أحمد نديم (توفي ١١٤٣هـ/١٧٣٠م)، عن هذا الجو الشاعري بقوله:

"لنضحك ولنمرح ولنتمتع بالدنيا، تعال إلى شجر السّرو، لنتوجه نحو سعد آباد"[٣].

ويقول الشاعر سيد وهبي : "افتح (الصنبور) بالبسملة واشرب الماء وادع لأحمد خان"[٤].

---

(٧) سليم نزهت، **تاريخ الطباعة** ... مصدر سابق، ص ٣١.

(١) Bombaci, Histoire…op.cit, p.323.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٣، ظهر في تلك الفترة من تأليف السيدة مونتافي زوجة سفير إنجلترا بإستانبول يتحدث عن حياة الدعة والبذخ، وفيه وصف للحمامات والحدائق والسرايا وغير ذلك. عنوان الكتاب الذي أعيد طبعه:

Montagu, M, L'Islam au péril des femmes : une anglaise en Turquie au XVIII° siècle, Paris, Maspero, 1981 (La découverte) 1er éd. 1757, p.281.

(٢) سليم نزهت، **تاريخ الطباعة ...** مصدر سابق، ص ٢٨

هذا النمط الجديد من العيش استوحاه سكان إستانبول من مشاهدات سفير الباب العالي إلى باريس سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠-١٧٢١م، وقد وصف حياة الرفاهية لدى الفرنسيين، وبعض مظاهر التقدم الحضاري لديهم في كتاب عن رحلته هذه. لم تكن لدى الباب العالي معلومات كافية عن التطور الثقافي والفني بأوروبا، فحرص على إرسال سفراء إلى فيينا وباريس، لينقلوا إليه مظاهر هذا الازدهار. وإذا لم يوفق سفير الباب العالي إلى فينا في مهمته، فإن سفيره إلى باريس قد نجح في نقل صورة حية عن مشاهداته، مما أسهم نوعًا ما في تأثر العثمانيين بنمط الحياة الغربية، وخاصة في الاستفادة ببعض الاكتشافات ومظاهر التقدم العلمي عندهم. وسنحاول تحليل التأثير المباشر لسفارة باريس في إدخال المطبعة إلى إستانبول.

١.٣- مطبعة إستانبول: رسالة السفير العثماني بباريس:

١.٣.١- مهمة السفير العثماني:

أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا مبعوثًا إلى ملك فرنسا والوصي على العرش دوق أورليان، لإطلاعهما على نتائج إصلاح كنيسة القديس Saint Sépulcre ببيت المقدس(١)، وليقترح عليه تجديد معاهدة "الامتيازات"(٢). إلا أن هذه الأسباب الرسمية كانت تخفي وراءها الهدف الأصلي الذي يرمي إليه الوزير والمتمثل في "الاطلاع على كل ما هو عجيب بالمملكة الفرنسية والاستفادة منه في تسيير شؤون الإمبراطورية"(٣).

---

(١) Lettre du Grand Seigneur Ahmed III au Régent in : « Archives du Ministère des Affaires Etrangères Paris » (M.D.Turquie) voir, F.218.

(٢) يضيف المؤرخ مينو أن الهدف الأساسي هو تقديم طلب للملك لوضع حد لقراصنة فرسان مالطة ضد الوحدات البحرية العثمانية.

Mignot, Abbé Vincent, **Histoire de l'Empire Ottoman**, Paris, Le clerc, 1771, vol IV, p.254.

(٣) Lettre de De Bonnac, l'Ambassadeur de France à Constantinople » In Efendi, Mehmed, **Le paradis des infidèles : un ambassadeur ottoman en France sous la Régence,** Paris, Maspero, 1981, p.28, 1ére ed. 1757.

كـان الصـدر الأعظـم يريـد مـن سـفيره وصـف نمـط الحيـاة الأوروبـي، وبالخصوص تقديم تحليل دقيق لكل مظاهر الحضارة والتربية الحديثة فيه، وما يمكن أن يستعيره المسلمون بما يتلاءم ونهضة مجتمعهم(١). ونظرًا لدقة هذه المهمة، فقد كلف الصدر الأعظم أحد الرجال الأوفياء له لتأديتها وهو ضابط بارز داخل السرايا.

١.٣.٢- السفير العثماني:

هـو يرمسـكز جلبـي محمـد أفنـدي (محمـد جلبـي)الـذي سـبق أن قـام بمهـام دبلوماسية وإدارية في أعلى مستوى، إذ أشرف على المفاوضات التي أدت إلى توقيع اتفاقية باساروفيتش(٢)، كما شغل منصب خزندار(٣). وكان رجلاً متعلمًا ذا ثقافية عالية ومولعًا بالآداب العربية والتركية والفارسية(٤). وقد زار فرنسا في مهمة دبيلوماسية سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠-١٧٢١م حيث تجول في كامل البلاد الفرنسية قبل أن يستقر بباريس لمدة أربعة أشهر. وكتب كتابًا حول رحلته إلى فرنسا وصف فيها أهم مشاهداته، خاصة كل ما هو فريد وغريب في هذا البلد.

١.٣.٣- رسالة حول الرحلة:

ذكـر محمـد أفنـدي يرمسـكز كـل مراحـل رحلتـه ولقاءاتـه مـع ملـك فرنسـا والوصـي علـى العـرش والأمـراء وبعض كبـار الشخصـيات فـي الدولـة. وقـد وصف بدقة بعض المعالم الهامة مثل قنال لانجدوك ومرصد باريس وقصري فرساي وفونتانبلو ومصانع النسيج ومعمل السكر، كما تحدث عن فن صقل المرآة، وعن تدريب الجنود الفرنسيين والسويسريين في سهل سابلون. كما نقل

---

(٤) المصدر السابق، ص ٢٦.

(١) Lettre du Grand Seigneur Ahmed op.cit., p.218.

(٢) لقب هذا الضابط بيرمسكز التي تعني بالتركية ثمان وعشرون نسبة إلى عدد الوحدة العسكرية التي يعمل بها.

(٣) « Lettre de De Bonnac au bibliothécaire du Roi, le 30 septembre 1720 » Bib. Nat. Ms.Fr.

كل النشاط الثقافي الذي قام به بباريس من ذلك زيارته لجامعة السوربون ولمكتبة الملك(١)، وكذلك حضوره للعروض التي قدمت على مسرح الأوبرا وقاعة الألعاب في الماري. وعمومًا يعطي كتابه فكرة عن المجتمع الفرنسي وعن التقدم الذي حققته أوروبا في كل الميادين. وتعتبر رحلته اكتشافًا لعالم جديد وعجيب، وهذا ما يفسر أهميتها في التعريف بالغرب لدى الشرقيين(٢). وقد جلب هذا الكتاب كل إعجاب وتقدير لصاحبه في إستانبول، سواء لدى السرايا أو الفئات الغنية بها، والتي استعارت بعض أنماط الحياة الباريسية التي وردت في الكتاب: مثل البناءات الحديثة والحدائق والحنفيات وغيرها.

١.٣.٤ - زيارة مطبعة باريسية:

لم يتحدث السفير العثماني في رحلته عن المطبعة التي زارها بباريس رغم أن سان سيمون يؤكد ذلك في مذكراته، حيث قال:

"اهتم (السفير) بالآلات والمصانع، وخاصة الميداليات والمطبعة، كما شاهد بارتياح كبير مخططات لساحات الملك ومكتبته، حيث تبين أنه يعرف جيدًا التاريخ والكتب القيّمة. وقد كان صديقًا حميمًا للصدر الأعظم، فاقترح عليه إقامة مطبعة بإستانبول ومكتبة رغم معارضة الأتراك وقد نجح في ذلك"(٣).

شهادة سان سيمون هي شهادة أصلية، إذ إنه التقى بالسفير أثناء تواجده بفرنسا. وإلى جانب هذه الشهادة الأوروبية هناك شهادة إسلامية معاصرة

(٤) دار حوار أثناء زيارته للمكتبة بينه وبين أمين المكتبة بينيون وتناول موضوعات تتعلق بالفنون والعلوم المزدهرة بفرنسا.

Nouvelle description de Constantinople op.cit., p.240.

(١) يرى بعض المستشرقين أن هذا الكتاب له قيمة كبيرة في تأثر تركيا بالغرب انظر:

Berkes, The developpement op.cit., pp.33-34 ; Lewis, B, The emergency of modern Turkey, London, New-York, Oxford University Press, 1961.

(٢) Saint-Simon, Louis de Rouvaroy, De, **Mémoires Complets et authentiques…sur le siècle de Louis XIV et la Régence,** Paris, A. Sautelet, 1829, Vol 18, p.382.

للأحداث وهي لمؤرخ السرايا جلبي زادة الذي يؤكد زيارة يرمسكز لمطبعة بباريس(١)، وقد نقلها جودت في تاريخه(٢).

وأمام هذا التأكيد من طرف مؤرخين معاصرين للسفير يصبح من الصعب تفسير موقف يرمسكز محمد أفندي الذي تحاشى الحديث عن المطبعة، ولم يفردها بوصف دقيق على غرار ما فعله في مشاهداته الأخرى، خاصة أن باريس ليست غريبة عن المطبعة العربية(٣). فهل يمكن تفسير هذا الموقف بتخوفه من معارضة المحافظين أم أنه تحاشى إثارة الموضوع في كتابه حرصًا منه على إخفاء مشروع إقامة مطبعة كان بصدد إعداده مع ابنه الذي رافقه في الرحلة، حتى يضمن نجاحه، ذلك لأن أحد العلماء الفرنسيين الذي التقى بالسفير، ذكر بأن يرمسكز كانت له مشاريع كثيرة أفضى بها عند عودته إلى إستانبول إلى الصدر الأعظم، واقترح عليه إنجاز بعضها مما يتلاءم وذوق الوزير(٤). ومهما كان موقف السفير من المطبعة فإن ابنه سعيد جلبي قد تحمس لإعداد مشروع إقامة المطبعة.

١.٣.٥- سعيد جلبي:

اشتغل كاتبًا لدى سفارة والده بباريس، ثم أصبح بدوره سفيرًا للباب العالي في السويد سنة ١١٤٦هـ/١٧٣٣م، ثم فرنسا سنة ١١٥٣هـ/١٧٤١م(٥). وعند

---

(٣) تاريخ جلبي (١١٣٣/١٧٢١هـ -١١٤١/١٧٢٨م)، القسطنطينية ١٧٤٠م، ورقة ٤٩.

(٤) تاريخ جودت.

(١) أهملت المطبعة العربية بباريس بعد موت فيتراي في منتصف القرن ١١هـ/١٧م ولم يقع استعمال حروف سافاري إلا في نهاية القرن ١٢هـ/١٨م « Guignes, De « Essai…op.cit., p.XXX

(٢) Rapport de Bonnac en septembre 1722 in : Le paradis…op.cit., p.50.

(٣) أرسل إلى باريس لعقد اتفاقية مشتركة عثمانية فرنسية للتصدي لروسيا وأثناء إقامته هناك مدة ١٦ شهرًا التقى بعدد من المفكرين الفرنسيين مثل روسو ومونتسكيو وفولتير. انظر: Berkes, The developpement…op.cit., pp.35-36.

عودته سمي نيشانجي باشا، وهذا اللقب يسند للموظفين السامين بالسرايا، ثم أصبح صدرًا أعظم سنة ١١٦٨هـ/١٧٥٥م، قبل أن يعزل وينفى مثل والده(١).

لم يكن يبلغ من العمر عندما رافق والده إلى باريس سوى خمس وعشرين سنة. وكان رجلا متفتحًا ومعجبًا بأجواء الحرية السائدة بفرنسا(٢). وقد حصل له أن خرج يتفسح بباريس دون رفقة أبيه، فشاهد معمل السكر وعروضًا بمسرح الأوبرا(٣)، وزار أيضًا ورشات الرسم والطباعة، واندهش من آلة الطباعة التي تخرج بسهولة عددًا كبيرًا من الكتب(٤). ومنذ ذلك الحين فكر وربما بالتعاون مع أبيه، في إدخال فن الطباعة بالحرف العربي إلى إستانبول، وقد وجدت الفكرة القبول الحسن من طرف الصدر الأعظم الذي كلفه بإعداد مشروع بالتعاون مع إبراهيم متفرقة لتقديمه إلى السلطان.

ويتبين هنا أن الباب العالي لم يكن موافقًا فحسب على استخدام آلة الطباعة؛ بل إنه تحمّس لإعداد مشروع بهذا الغرض. فالمناخ الثقافي السائد في "عصر الخزامى" كان ملائمًا لتنفيذ مثل هذه المشاريع العلمية والثقافية. أضف إلى ذلك إطلاع المسلمين على ما يحدث في أوروبا، وخاصة بفرنسا من تقدم في المجالات الثقافية والعسكرية. ولم يكن كتاب يرمسكز سوى حافز لدفع العقول المتفتحة لاستعارة بعض التقنيات والاكتشافات. ووجد أنصار المطبعة في سياسة التفتح على الغرب التي كان يسلكها الباب العالي فرصة سانحة لإقامة أول ورشة للطباعة بالحرف العربي بإستانبول وتحقيق الأمل الذي كان يحدو بعض الأوساط الإسلامية المثقفة.

---

(٤) نفي والده إلى قبرص بعد ثورة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م. المصدر السابق، ص ٣٥.

(٥) Lettre du chancelier de l'ambassade Peyssonnal au bibliothécaire du Roi. Constantinople le 24 janvier 1739, (BN. Ms.nouv. acq. Fr. 6834 Fol. 91-94.

(١) Veinstein, G, in le Paradis…op.cit., p.41.

(٢) Toderini, De la littérature…op.cit., T3 pp.8-9.

٤.١ - إبراهيم متفرقة:

يعتبر إبراهيم متفرقة وهو رجل أدب وعلم ودبلوماسي، من أبرز رواد حركة الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن ١٢هـ/١٨م. وهو عالم من أصل مجري ولد في كولوز فار (تعرف اليوم بكليج بالمجر) سنة ١٠٨٥هـ/١٦٧٥م من أبوين مسيحيين، درس في معهد مسيحي، وفي عام ١١٠٣هـ/١٦٩٢م وقع أسيرًا في قبضة الأتراك، وعندها اعتنق الإسلام[١] وسمي إبراهيم. كان رجلاً عالمًا ذكيًا يحذق اللغات التركية والعربية والفارسية واللاتينية[٢]، علاوة على لغته الأم، أي المجرية[٣]، وقد درس الرياضيات والعلوم والفنون، وسرعان ما أصبح متبحرًا في العلوم والآداب، ولقب عند ذلك بمتفرقة أي متعدد المواهب. وهو لقب يطلق على رجال الفكر والعلم بالسرايا ممن بلغ درجة عالية من المعرفة. تقلد مناصب مختلفة بالإدارة العثمانية، حتى كلفه الباب العالي بمهام سياسية ودبلوماسية سامية وأصبح مستشارًا ومبعوثًا خاصًا للسلطان. وأجرى مفاوضات مع النمسا وروسيا سنة ١١٢٧هـ/١٧١٥-١٧١٦م[٤] وفي سنة ١١٣٢هـ/١٧٢٠م، عين ضابط اتصال ومترجمًا لدى الأمير

---

(٣) Encycl. Islam 2 éd. T3 pp.1021-1022 article Ibrahim Mutafarrika, voir aussi Saussure, Czézamak, De lettres de Turquie (1730-1739) Budapest, 1909 p.94.

(١) إن حذقه للغة اللاتينية مكنته كما يقول في كتابه أصول الحكم من الاطلاع على الكتب الأوروبية التي تتناول موضوع فنون الحرب وتنظيم الجيوش وكذلك كتب التاريخ والجغرافيا.

(٢) « Note du P.Holderman sur les débuts de l'imprimerie à Constantinople » 1730 in Rev. Bib 36, 1926 p.8 ; voir aussi Mutafarrika, Traité de tactique ou Méthode artificielle pour l'ordonnance des troupes, trad. De Reviczki, Vienne, 1769 p.XXXIX.

(٣) Encycl.Islam 2éd. T3 p.1022.

المجري راكوزي[١]، ثم اشترك مع أحمد باشا بونفال في إعداد مشروع تحالف عثماني سويدي ضد روسيا سنة ١١٥٦هـ/١٧٤٣م.

كتب بالتركية **"رسالة إسلامية"** دافع فيها عن القرآن وفسّر سبب اعتناقه الإسلام. كما فنّد في رسالته المذهب الكاثوليكي. وأكد أن النصر النهائي سيكون للإسلام. بما أن هذا الدين تنبأ به سيدنا عيسى عليه السلام على أنّه دين العالمين[٢]. كما كتب كتابًا هامًا يقترح فيه القيام بإصلاحات عسكرية للنهوض بالدولة العثمانية عنوانه : "أصول الحكم في نظام الأمم"، ويعتبر هذا الكتاب امتدادًا لكتابات كوشي باي وحاجي خليفة، التي تحدثت عن أسباب عدم الاستقرار والفوضى داخل الإمبراطورية والهزائم العسكرية والإصلاحات اللازمة للنهوض بالأمة. وكان إبراهيم متفرقة يعطي الأولوية لإصلاح الجيش حسب النمط الأوروبي، ولم يخف إعجابه بالتجارب الغربية. وقد استشار عند تحرير كتابه بعض الخبراء الأوروبيين في المجال العسكري[٣]. وكان على دراية كبيرة بالتقدم الذي حققته أوروبا في عدة ميادين فنية وعلمية. وكان كذلك متحمسًا لإدخال بعض الاكتشافات الجديدة إلى الإمبراطورية العثمانية مؤكدًا على أنه يجب التمييز بين الديانة المسيحية التي لا تفيد المجتمع الإسلامي وبين العلوم الحديثة بأوروبا التي ستعود بالنفع على المسلمين، وأنه لا تعارض بين العلم والإسلام. وبهذا الفكر التحرري المتفتح على أوروبا اهتم إبراهيم متفرقة بمشروع إقامة مطبعة بالحرف العربي بإستانبول. وقد خامرته فكرة تنفيذه قبل سفارة يرمسكز إلى باريس، وهذا حسب شهادة أصلية لأحد الدبلوماسيين الفرنسيين الذين اشتغلوا بالسفارة الفرنسية بإستانبول في ذلك العصر، حيث

---

(٤) راكوزي : ملك المجر (١٠٨٧-١١٤٨هـ/ ١٦٧٦-١٧٣٥م) وقع أسيرًا لدى النمساويين، لكنه فر إلى فرنسا ثم إلى إستانبول طالبًا المساعدة من الباب العالي لاسترجاع ملكه إلا أنه توفي في منفاه برودوستو.

(٥) Encycl. Islam 2 éd. T3 p.102.

(١) Reviczki, Traité…op.cit., p.XXXVI.

ذكر أن متفرقة عرض مشروعه على بعض الوزراء، الذين وإن كانوا اقتنعوا بجدواه فقد رأوا أنه صعب التحقيق في ذلك الظرف، إلى أن أتيحت له الفرصة في السنوات الأخيرة من وزارة الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد. وكان من المقربين إليه حيث حصل على موافقته. ووجد كل تشجيع من لدنه لإتمام مشروعه(١). وتعدّ هذه الوثيقة الأوروبية مهمة بعد ما عرف عن هذا العالم المجري من مناقب وكفاءة عالية في مجال العلم والسياسة. وما رسالته حول "وسيلة الطباعة" التي تعرضنا إليها في الفصل الثاني من الجزء الأول، إلا دليل آخر على عمق تفكيره وقدرته على الإقناع وتبحره في العلوم والآداب. إلا أن الدبلوماسي الأوروبي غفل عن ذكر شخص ثان اشترك مع متفرقة في إعداد المشروع وهو سعيد جلبي.

لم يسع إبراهيم متفرقة - كما يقول في رسالته- إلا لإخراج مشروع إقامة مطبعة بالحرف العربي لدى المسلمين من طي النسيان، بعدما تمت مناقشة المبدأ منذ أكثر من قرن. واعترف الجميع - بما فيهم المحافظون - بفوائد فن الطباعة، ولم يكتف العالم المجري بهذا العمل النظري، بل عمل على تنزيله على أرض الواقع وقام بتنفيذ كل مراحل مشروعه بالتعاون مع زميله، مما يؤكد اقتناعه بضرورة اقتران الجانب النظري في تفكيره بالجانب العملي التطبيقي. ونتساءل هنا كيف تمكن متفرقة من التعرف بدقة على فن الطباعة والظهور بمظهر "الدماغ المفكر" لأكبر مشروع ثقافي علمي عرفته الدولة العثمانية في القرن ١٢هـ/١٨م؟

إن اطلاعه الواسع على ما يحدث بأوروبا من خلال قراءاته واتصالاته بالدبلوماسيين والمستشرقين والتجار الأوروبيين الذين يعملون بالعاصمة العثمانية، وكذلك صداقته الحميمة بسعيد جلبي الذي رافق أباه في سفارته إلى

---

(٢) « Biographie de Mutafarrika par le Grand en 1742 » in Rev. Bib, 1895 p.229.

باريس، مكناه من أخذ فكرة واضحة عن فن الكتابة الجديد. ولا يستبعد أن يكون قد زار مطابع الأقليات الدينية بإستانبول. كما أن رحلاته الرسمية لدى بعض البلدان بأوروبا الوسطى، قد تكون أيضًا ساهمت في تعميق معرفته بهذا الاكتشاف.

٢ - تأسيس مطبعة إستانبول:

٢.١ - المساعي الرسمية:

أعدّ إبراهيم متفرقة بالتعاون مع سعيد جلبي مشروعًا لتأسيس أول مطبعة إسلامية بالحرف العربي في العالم ويكون مقرها إستانبول، هذا بالإضافة إلى "رسالة وسيلة الطباعة"[١]. وقد عرضا في مشروعهما الإجراءات العملية لإقامة المطبعة[٢]. وقد قدّما بالإضافة إلى نص المشروع، بعض العيّنات من النصوص المطبوعة بالحرف العربي[٣] للصدر الأعظم الذي استحسن الفكرة ونقل كل الوثائق إلى شيخ الإسلام وبعض العلماء المقرّبين للسرايا، وهؤلاء وافقوا على المشروع وكتبوا تقاريظ على **"رسالة وسيلة الطباعة"**، كما أصدر شيخ الإسلام عبد الله أفندي فتوى يجيز فيها طبع الكتب، ما عدا تلك المتعلقة بالشريعة والفقه الإسلامي. وهذه الفتوى كانت أكبر سند قانوني للمشروع عند عرضه على أنظار السلطان أحمد الثالث، الذي وافق عليه وأصدر "خط همايون" بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م يرخص فيه لإبراهيم متفرقة وسعيد جلبي بإقامة مطبعة بالحرف العربي في إستانبول، وقد أرفق هذا الأمر بنص فتوى شيخ الإسلام حرصًا منه على اتخاذ كل الاحتياطيات اللازمة

---

(١) قام إبراهيم متفرقة بتأليف "رسالة وسيلة الطباعة" بمفرده كما يبين ذلك في المقدمة أما مشروع إقامة مطبعة فقد أعده مع سعيد جلبي.

(٢) سليم نزهت، **تاريخ الطباعة ...** مصدر سابق، ص٤٢-٤٤.

(٣) Gercek, S.N ; Turk matbaaciligi, Istanbul Devletetbasimevi, 1939, p.4.

لإبـراز موافقـة علمـاء الإسـلام علـى اسـتعمال هـذا الاكتشـاف وإقنـاع الرعايـا بمزاياه وخاصـة المحافظين منهم، وكذلك فعل صـاحبا المطبعـة الـذين نشـرا فـي أول كتـاب يصـدرانه، نصـوص خـط همـايون والفتـوى ورسـالة وسـيلة الطباعـة وتقاريظ العلماء عليها(١). وبهذا الإجراء ضمن الباب العالي كل ظروف النجاح للمشروع، إذ إن الفقهاء والعلمـاء والسلطان أيدوا هذا الاكتشـاف ووافقوا علـى استخدامه، وتفادى في الوقت نفسه كل معارضـة من طـرف المحـافظين، مثلمـا حدث ذلك فـي سنـة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م عنـد محاولـة بيـع كتـب أوروبيـة مطبوعـة بالعربية.

٢.١.٢ - إدارة المطبعة:

لمن عهدت إدارة هذه المطبعة؟ فهل تحملها كل من متفرقة وجلبي أم أحدهما فقط؟ إننا نطرح هذا السؤال نظرًا لتضارب المصادر حول هذه النقطـة بالذات، والتي كانت تذكر في الغالب أحد الرجلين فقط، وسعيد منهما خاصة(٢).

مـن خـلال خـط الهمـايون، يتبـين أن السـلطان يـرخص لكـلا الـرجلين بتنفيـذ المشروع دون التمييز بينهما ودون تعيين أحدهما لإدارة المطبعة. إذن يفهم من هذا أن ورشة الطباعة تم تأسيسها بمجهودهما المشترك، وأن إدارة المطبعـة قد تعهّدا بها في البداية معًا، إلا أن هذا التعـاون لـم يـدم طـويلاً، إذ سـرعان مـا أخـذ العالم المجري كل المسؤولية علـى عاتقـه. واسـتغنى بـذلك عن خـدمات صـديقه

(١) سنتعرف على مقتطفات من هذه التقاريض في فقرة لاحقة.

(٢) هناك مصادر غربية تذكر أحيانًا متفرقة وأحيانًا أخرى سعيد جلبي، فمثلاً في دفاتر أكاديمية الآداب الفرنسية سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م ورد ما يلي: أقام السلطان الأكبر مطبعة هنا باللغة العربية والتركية وكلف سعيد آغا بإدارتها. كما ذكر فيلنوف سفير فرنسا بإستانبول في رسالته بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٧٢٩م. إن إبراهيم متفرقة هو مدير المطبعة ويبدو أن الفرنسيين باستثناء السفير يعرفون سعيد جلبي أكثر من متفرقة بما أنه زارهم صحبة والده سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، مما جعلهم يقتصرون على ذكر اسمه دون شريكه (توجد الوثائق الفرنسية المذكورة في:
Rev. Bib, n°5,1895 pp.186-187

سعيد جلبي. وهذا ما يؤكده مصدر أصلي للمبشر اليسوعي الأب هولدرمان الذي عمل مع متفرقة في المطبعة لإصدار كتاب له باللغتين التركية والفرنسية وعنوانه **"النحو التركي"**، وذلك سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، حيث ذكر في مقدمة هذا الكتاب أن إبراهيم متفرقة اشترك في البداية مع سعيد آغا، إلا أنه لم يتفق معه فانفرد لوحده بإدارة شؤون المطبعة(١). وكذلك هناك مصادر أخرى تؤكد شهادة هولدرمان، وهي الكتب ذاتها المطبوعة بالحرف العربي في إستانبول التي كانت تذكر في خاتمتها معلومات ثمينة عن شؤون المطبعة. فقد ورد في ثالث كتاب مطبوع اسم المسئول عن الطباعة:

"تم الكتاب بعون الملك الوهّاب على يد الحقير والفقير إبراهيم بن متفرقة كان دركاه على يد المأمور بعمل الطبع بدار الطباعة المعمورة في البلدة الطيبة قسطنطينية دامت عمارتها إلى دامان القيامة".

وبعد صدور الكتابين الأولين اللذين لم يرد فيهما اسم المشرف على المطبعة، أصبح يذكر باستمرار اسم متفرقة على أنه هو الذي يشرف على عملية الطباعة إلى حد وفاته سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٦م(٢). وهذا ما يؤيد ما ذهب إليه الأب هولدرمان من أن متفرقة تفرد بعد فترة وجيزة، بمهمة الطبع، وبعد ذلك خلفه في إدارة المطبعة تلميذه إبراهيم أفندي القاضي إلى سنة ١١٧٠هـ/١٧٤٦م. وبعد إعادة فتح الورشة سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م تعهد بالتسيير عالمان هما أحمد واصف ومحمد راشد أفندي. إن مهمة مدير المطبعة لم تكن واضحة المعالم في البداية، إلا أنها تبلورت بمرور الزمن حتى أصبحت تشمل

(١) «Note du P.Holderman » in Rev bib, 1926 p.8.

(٢) يقول المستشرق وايل: "كان إبراهيم متفرقة ولاشك أبرز الرجلين فهو في الآن نفسه جغرافي وفيزيائي ومترجم ومطبعي وقد بقي إلى حد وفاته المدير الوحيد للمطبعة" انظر: Well, G, « Die erste Drucke » trad. Fr. in IBLA, n°69, 1955, p.10.

الإدارة والتصرف في شؤون المطبعة إلى غاية السحب والتوزيع. هذه المهمة متعددة ومعقدة خاصة بالنسبة للمبتدئين، وهنا تشير المصادر الى أن متفرقة كان له من الخبرة والمعرفة ما أهّله ليقوم بمهام النشر المختلفة فهو الذي يختار الكتب التي سيطبعها ويترجم بعضها ويعدّ المقدمات والخواتم والملاحق والفهارس وينجز الخرائط وينحت الحروف ويقوم بالأعمال الفنية بنفسه[١]. إلا أنه مع ذلك احتاج الى الاستعانة بعمّال أكفاء من ذوي الخبرة.

٢.١.٣- العمّال:

هل استعان متفرقة منذ البداية بعمال أتراك أم أنه استدعى عمالاً أجانب؟ نجد جزءاً من الإجابة لدى ثلاثة من المؤرخين الأوروبيين من القرن ١٢هـ/١٨م الذين ذكروا أن أعوان المطبعة كانوا أجانب قدموا من أوروبا. إلا أن رواياتهم تضاربت حول أصل هؤلاء، فهناك من أورد بأنهم قدموا من ألمانيا[٢]، وآخر من النمسا[٣]، وآخر من فرنسا[٤]، إلا أن هؤلاء المؤرخين اتفقوا على أن هؤلاء العمال اضطروا إلى مغادرة إستانبول إما بسبب ثورة سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م أو بسبب معارضة العلماء أو الناسخين[٥]. ويمكن رغم هذا

(١) صابان، سهيل، **ابراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة ...** مصدر سابق، ص١٥٧.

(٢) "ذكر سليسيوس في تاريخ المكتبة الملكية بستوكهولم أنه تم جلب عمال ماهرين من ألمانيا إلا أنهم فروا عند قيام الثورة وبقي إبراهيم مع أبنائه الخمسة يعملون لوحدهم في المطبعة" انظر: Toderini, De la littérature …op.cit., p.21.

(٣) ذكر سوسير أن الحفارين والمطبعيين قدموا من فيينا إلا أنهم انسحبوا بسبب معارضة الأفنديين Saussure, Lettres. Op.cit., p.94.

(٤) يقول مينو "اصطحب محمد أفندي (السفير) معه من فرنسا، وهو من هواة الأدب، بعض المطبعيين الذين قاموا بطبع القرآن في القسطنطينية وكتابًا للسنة وآخر للنحو التركي. ولكن هؤلاء العمال الذين كانوا سيفيدون شعبًا في حاجة إلى العلم والنور. قد اضطروا إلى الفرار تحت ضغط سبعة أو ثمانية آلاف ناسخ Mignot, Histoire…op.cit., T IV, p.254
سنعود إلى هذا الموضوع: "معارضة الناسخين".

(١) سنعود إلى هذا الموضوع عند دراسة أسباب توقف المطبعة.

التضارب الإقرار بأن متفرقة استعان بعمال أجانب من ذوي الخبرة للقيام بأعمال الطباعة في البداية إلا أن هذه المساعدة لم تدم طويلاً، إذ غادر هؤلاء الأعوان الورشة تاركين مكانهم لعمال أتراك قد يكونون تعلموا على أيديهم واكتسبوا بذلك تجربة في مجال الطباعة، ولم يكن هؤلاء الخبراء الوحيدين الذين عملوا بمطبعة إستانبول، بل أسهم إلى جانبهم أفراد من الأقليات الدينية والبعثات التبشيرية العاملة بالإمبراطورية، فقد سبق أن رأينا أن الأب اليسوعي هولدرمان قد عمل إلى جانب متفرقة في إصدار كتابه، وكذلك أحد اليهود، ويدعى يونس الذي كان ماهرًا في فن الطباعة(١).

كانت مشاركة الأوروبيين والأقليات الدينية في عملية الطباعة ظرفية في انتظار تدريب عمال مسلمين على استخدام فنون الطباعة. إلا أن هؤلاء الأخيرين لم يبدوا انضباطًا كبيرًا وتفانيًا في عملهم إلى درجة أن السلطان عبد الحميد الأول تهجم عليهم وعلى طريقة انتدابهم حيث ذكر في نص "خط همايون" عام ١١٩٨هـ/١٧٨٤م:

"أنه من الضروري ألا يقع قبول أناس جاهلين وحمقى بالمطبعة، أو دون أن تكون لهم أية دراية بالعلوم والفنون الجميلة، ويجب أن ينتدب المصففون والناظرون وكل العمال بعد استشارة واختيار المطبعيين، وأن يمنع دخول الجاهلين والعاجزين إليها بطريق ملتوية بتجنب التدخلات والوساطات"(٢).

هذا المصدر ثري بالمعلومات المتعلقة بالعمال الذين اشتغلوا بورشة الطباعة مع متفرقة أو خليفته. وقد أثير هذا الموضوع عندما تقرر إعادة فتح المطبعة، أي بعد أن توقفت لمدة ثمانٍ وعشرين سنة، وذلك لتفادي أخطاء الماضي. كانت شهادة السلطان عبد الحميد الأول شديدة اللهجة، ولا تعترف

---

(٢) « Note de Holderman » in Rev. Bib., 1626, p.8.

(٣) Cité in : Toderini, De la littérature…op.cit., T3, p.230

بالعمل الهائل والبديع الذي أنجزه عمال المطبعة والذي بقيت بعض النماذج من الكتب المطبوعة شاهدًا على كفاءة عالية وخبرة متميزة في هذا المجال، من ذلك كتاب الجغرافيا **"جهان نما"** الذي نشر سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م، والذي احتوى على خرائط بديعة، ومهما يكن من أمر فإن شهادة عبد الحميد الأول مبالغ فيها، ولا تعدو أن تكون من تحرير العالمين اللذين طلبا إعادة فتح المطبعة وتحاملا فيها على عمل أسلافهما.

ويمكن استشفاف طريقة العمل المعتمدة بالمطبعة والتي ترتكز على توزيع المهام بين المطبعيين والناظرين والمصففين والمراجعين والمكلفين بصب الحروف والحفارين. وقد وصلتنا أسماء بعض المتخصصين العاملين بالمطبعة، فإلى جانب اليهودي يونس وهو أبرز معاوني متفرقة واليسوعي هولدرمان، الذي أشرف على صب الحروف اللاتينية(١)، توجد أسماء الحفارين الذين ساهموا في إعداد خرائط كتاب الجغرافيا، وقد حفروها على لوحات من نحاس، وأدرجوا أسماءهم في زاوية من زواياها، مثل أحمد الكريمي وميجرديز غلاطيا وإبراهيم طوفاني. ولا يعرف العدد الجملي لعمال المطبعة في بدايتها، إلا أن الرحالة ميشو الذي زار الورشة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م، يذكر عشرة عمال، منهم اثنان من المراجعين، وستة من المصففين، واثنان من المطبعيين(٢).

٢.١.٤ - لجنة المراقبة:

إن خط الهمايون الذي أصدره أحمد الثالث بشأن المطبعة، وكذلك فتوى شيخ الإسلام في هذه المسألة يشترطان مراقبة المطبوعات ومراجعة النصوص بدقة

(١) ساهم هذا اليسوعي بصفة عرضية في طبع كتاب واحد، ولا يمكن اعتباره بالتالي ضمن فريق متفرقة.

(٢) Michaud, Poujoulat, Correspondance d’Orient, Paris, Ducollet, 1833-1835 T.3 p.56-57.

قبل سحبها، حتى لا تتسرب إليها الأخطاء اللغوية والنحوية، ولا "الأفكار الهدامة". وبمقتضى ذلك عين أحمد الثالث لجنة مراقبة مكونة من أربعة علماء، هم: إسحاق أفندي قاضي الأستانة سابقًا، وبيري زاده أفندي قاضي سالونيك سابقًا، وأسعد أفندي اليانيلي قاضي غلاطيا، وموسى أفندي شيخ مولوية قاسم باشا(١). وقد اختارهم الباب العالي لكفاءتهم وقدرتهم على أداء هذه المهمة(٢) والمتمثلة في اختيار المخطوطات الصالحة للنشر وتفادى بالخصوص إصدار أي كتاب يتعلق بالشريعة والفقه الإسلامي، وكذلك يتولى الحكماء الأربعة تحقيق المخطوطات ويتابعون أيضًا عملية مراجعة التجارب المطبعية إلى حد صدور الكتاب، وهذا ما تم فعلا حسب شهادة المؤرخ تودوريني الذي ذكر على سبيل المثال أن لجنة المراقبة اكتشفت أخطاء كثيرة في التجارب المطبعية لمعجم صحاح الجوهري وأدّى ذلك إلى تأخّر صدوره(٣). "إن الحكماء الأربعة هم بمثابة العين الساهرة للباب العالي على شؤون المطبعة، إذ يطلعونه على مشاريع النشر ويحصلون على موافقته على طبع كتاب. وهذا الإجراء هو شبيه بما يعرف في أوروبا "بامتياز الطبع Privilège d’imprimer"، حيث إن كل صاحب مطبعة مطالب بالحصول على هذه الرخصة التي تساعد السلطات الأوروبية على مراقبة محتوى النشر وتحمي بالمقابل صاحب المطبعة من مزاحمة المتطفلين على المهنة. ويمارس إجراء شبيه به في إستانبول، إذ إن الباب العالي يمنح لكل كتاب رخصة على حدة، وهذا نموذج من طلب هذه الرخصة الذي كان يقدمه متفرقة:

"إلى معالي الصدر الأعظم حفظه الله إني ألتمس منكم الترخيص لي في طبع هذا الكتاب الذي أعرضه بين أيديكم، وهو ترجمة لكتاب سياح أو غزو الأفغان

(١) انظر خط همايون أحمد الثالث في : Rev. Bib, 1895., p.192

(٢) Adnan, La science…op.cit., p.126.

(٣) Toderini, De la littérature…op.cit, T.3, p.25.

وقضاؤهم على إمبراطورية الفرس. إن في طباعته ستحصل فائدة للجمهور... العبد الفقير إلى ربه إبراهيم"(١).

٢.١.٥ - تمويل المطبعة:

من قام بتمويل المطبعة في بدايتها؟ ومن استثمرها؟ فهل دفع الباب العالي المصاريف اللازمة لتأسيس المطبعة وشراء تجهيزاتها وصرف مستحقات العمال؟ أم أن المؤسسة كانت تعمل بكل استقلالية؟ تضاربت المصادر حول هذا الموضوع، فخط الهمايون الذي أصدره أحمد الثالث يقضي بتكفل إبراهيم متفرقة وسعيد جلبي بكل مصاريف المطبعة. إلا أن الوثيقة الثانية وهي خط الهمايون الذي أصدره عبد الحميد الأول، يذكر بأن خزينة الدولة تولت صرف أجور العمال عند انطلاقة المطبعة. ويفهم من هذه المعلومة أن المصاريف الأخرى تعهد بها المشرفان على المطبعة والمتعلقة بإيجاد مبنى خاص بها، وبشراء التجهيزات، وهناك وثيقتان تؤيدان ذلك، الأولى للرحالة سوسير الذي أفاد بأنه أمام الصعوبات المادية التي اعترضت المطبعة اضطر متفرقة إلى ترك المبنى الأول والانتقال إلى بيته الذي حوّله إلى ورشة طباعة(٢)، وهذا المقر ظلّ يأوي المطبعة إلى سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، حيث تحوّلت المطبعة إلى مبنى جديد.

أما الوثيقة الثانية وهي قرار السلطان عبد الحميد الأول، الذي يقضي بأن يتصل المسؤولان الجديدان عن المطبعة محمد راشد وأحمد واصف بأرملة قاضي إبراهيم، الذي كان قد خلف إبراهيم متفرقة على رأس المطبعة لشراء حروف الطباعة وآلاتها، وهذا ما يدل على أن هذه الحروف ليست ملكًا للباب العالي، بل هي على ملك المشرفين على الورشة. إن هذه الحروف والتجهيزات

---

(٤) طبع كتاب تاريخ سياح فعلاً سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م.

(١) Saussure, Lettres…op.cit., p.95.

تحولت بعد وفاة متفرقة إلى قاضي إبراهيم، ثم بقيت عند أرملة هذا الأخير، ولا يستبعد أن يكون متفرقة قد أعدها أو اشتراها لحسابه الشخصي، خاصة أنه رجل ثري إذ يمتلك ضيعات كثيرة، ويتقاضى أجرًا مرتفعًا من الباب العالي(١).

إن إسهام الباب العالي في تمويل المطبعة كان جزئيًا وظرفيًا بدليل الصعوبات التي اعترضت صاحب المطبعة، ويضاف إلى مساعدة السرايا مساعدة أخرى مهمة مصدرها الأوقاف، وسخاء بعض الأثرياء ممن يرعون ويشجعون العلم والعلماء. وهذا المصدر كان ضروريًا لإخراج طبعات للكتب في حلة أنيقة وفي مظهر خلاب والتي تتطلب مصاريف باهظة سواء لتصفيف الحروف أو لشراء الورق أو لحفر الخرائط على لوحات معدنية أو تنميق الكتب وغير ذلك.

بقي أن نذكر المصدر المالي الأخير لإدارة المطبعة وهو مداخيل الكتب التي تباع في السوق، وتبين أنها لا تغطي المبالغ المالية التي صرفت في النشر، خاصة أن أسعار الكتب كانت زهيدة، وقد حددت من طرف لجنة المراقبة لتشجيع الإقبال عليها، وهذا ليس من شأنه أن يوفر أرباحًا كبيرة لفائدة خزينة المطبعة.

إن الصعوبات المادية التي اعترضت الورشة جعلت الباب العالي لا يقدم على مطالبتها برسوم الأداءات إلى حد سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، حيث تقرر منذ ذلك التاريخ أن تدفع المطبعة على كل كراس مبلغ قرش واحد(٢). لقد أصبحت الورشة في نظر الباب العالي بعد مرحلة تجريبية مؤسسة مستقلة ماديًا وبإمكانها تسيير شؤونها اعتمادًا على المداخيل التي تغنمها بعد أن اكتسبت

---

(٢) يمتلك متفرقة ضيعة كبيرة ويتقاضى ٩٩ قرشًا كل يوم، انظر: Ohsson, M, Tableau…op.cit., p.301.

(١) قرار عبد الحميد الأول في : Toderini, De la littérature…op.cit., p.228.

سمعة، وهذا ما يفسر قرار عبد الحميد الأول الذي طالب المطبعيين الجدد بتحمل كل النفقات اللازمة لإعادة فتح المطبعة من جديد. من ذلك البحث عن مبنى جديد ودفع أجرة العمال، وكل المصاريف المتعلقة بشراء الحبر والورق ودفع الأداءات، وبالمقابل يحصل راشد أفندي وأحمد واصف على امتياز حق التصرف في مطبعة إستانبول.

٢.١.٦- المبنى:

ذكر في آخر كل كتاب مطبوع بإستانبول أنه طبع "بدار الطباعة المعمورة...في البلدة الطيبة قسطنطينية صانها الله عن الآفات والبليّة". إن الصفة التي أسندت للورشة إلى جانب غموضها لا تتماشى مع المبنى غير المناسب المخصص لها، وهو بيت مديرها الأول إبراهيم متفرقة، ولم نعثر على معلومات تحدد الفترة التي بقي فيها بيت متفرقة يأوي ورشة الطباعة، ومهما كان الأمر، فإنها لا تتجاوز سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، حيث تذكر المصادر أن المطبعة انتقلت من مكانها القديم إلى سكوتاري(١).

ويقدم الرحالة تودريني الذي زار المطبعة إثر إعادة فتحها وصفًا غير دقيق لمكوناتها، فهي تحتوي على أربع قاعات، الأولى: مخصصة للطباعة وتتضمن آلتين للطباعة: والثانية: للتصفيف، والثالثة: لإصلاح التجارب المطبعية، والرابعة: للأرشيف. وفي هذه الأخيرة يذكر تودريني أنه شاهد لوحات من النحاس لطبع خرائط كتاب الجغرافيا(٢). كذلك ذكر الرحالة ميشو الذي زار المطبعة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م، أنها انتقلت إلى مبنى آخر في وسط إستانبول، وهو مبنى ضخم كان عبارة عن حمام عمومي قبل أن تحول إليه آلات الطباعة،

---

(١) Michaud, Correspondance…op.cit., T3, p.56.

(٢) زار الرحالة تودريني المطبعة بعد شهرين من صدور قرار السلطان عبد الحميد، أي في ٤ ماي ١٧٨٤م.

Toderini, De la littérature…op.cit., T3, pp.232-233.

ويصف الرحالة بعض القاعات، ومنها: قاعة الإصلاح، وقاعة التصفيف والطبع، وهذه الأخيرة حسب قول الرحالة بها فضاء رحب وإنارة كافية(١).

٢.٢ - آلات الطباعة:

١.٢.٢ - مصدر الأحرف العربية:

هناك خلاف حول هذا الموضوع، حيث إن المؤرخين الأوروبيين يفترضون أن أحرف المطبعة وآلاتها قد جاءت من فرنسا(٢) أو هولندا(٣)، في حين يذهب بعض المؤرخين إلى أنها صنعت على عين المكان، أي بإستانبول.

وإذا كانت الوثيقتان الأوليان لا تقدمان حججًا عن ذلك، فإن الوثيقة الأخيرة تدعم ما ذهبت إليه بشهادات عن ذلك من المطبعيين أنفسهم وبمصادر تركية. فقد ذكر تودريني أن مترجم سعيد جلبي أثناء سفارته إلى باريس في ١١٥٤هـ/١٧٤٢م، ويدعى لوماكا قد أكد لهذا الرحالة الأوروبي أن الأحرف قد تم إعدادها في إستانبول(٤). كما أن الأب بينيون أمين مكتبة ملك فرنسا أرسل خطابًا سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م إلى سعيد جلبي يقول له فيه: " إن الأحرف التي تم حفرها جيدة جدًا إلى حد أني أصبحت أحسدكم، بعد أن أدركت أن تجاربكم هذه شبيهة بما يمكن أن يقوم به عمالنا الماهرين من أصحاب الخبرة الطويلة"(٥).

تعبّر هذه الشهادة عن إعجاب صاحبها وهو رجل مثقف فرنسي وصديق لسعيد جلبي، وتؤكد في الآن نفسه أن القوالب وأمهات الأحرف قد تم إعدادها

---

(٣) Michaud, Correspondance…op.cit., T3 pp.56-57.

(٤) Mininski, Lexicon arabico persico-turcicum, Vienne, 1780 cité in Toderini, De la littérature…op.cit., T3, p.13.

(٥) « Note de Legrand en 1731 » in Rev. Bib, 1895, p.229; Safadi” Arabic…op.cit.,” p.225.

(١) De la littérature…op.cit., T3 p.14.

(٢) Cité in Omont, Missions…op.cit., T1, pp.444-445.

فـي إسـتانبول ولـيس فـي فرنسـا. وقـد سـبق أن رأينـا الأحـرف العربيـة التـي استخدمها السفير الفرنسي سافاري دي براف في القرن ١١هـ/١٧م بروما قد حفرت كذلك بإستانبول.

هنـاك مصـدر آخـر يستنتج منـه أنـه لم يقع الالتجـاء إلـى أيـة مساعدة أجنبيـة لإعداد أحرف الطباعة، ويتمثل في شهادة الأب اليسوعي هولدرمان الذي عمل مع متفرقة على طبع كتاب النحو التركي بالتركية والفرنسية بعد أربع سنوات فقط من تأسيس المطبعة، حيث إنه يعتذر لدى القراء في مقدمة هذا الكتـاب عن الأخطاء التي تسربت أثناء طباعة النص الفرنسي، نظرًا لجهل العمال الأتراك للغـة الفرنسـية(١). وهذا مـا يبين أن فريـق متفرقـة لـم يحفر الأحـرف العربيـة، فحسب بل وكذلك الأحرف اللاتينية(٢). ويتناول الأب اليسوعي هذه المسألة من جديـد فـي مذكراتـه، فيقـول إن إبـراهيم متفرقـة " كلـف عمـالاً لصـب الأحـرف التركية، وبدأ في طبع الكتب"(٣) ثم يشير هولدرمان إلى دوره في طباعة كتابه:

"إنـي كلفت بعض العمال بصب أمهات الحروف (اللاتينية) فـي ثلاثـة أقسـام، ولم تكن جيدة كما أريد، ولكن بما أن العمال الذين عملوا معـي لا يعرفون البتـة اللغـة الفرنسـية فقد نفد صـبري، وأتمنـى أن يرضـى الجمهور علـى هذا العمل ويصفح عني بعض الأخطاء التي تسربت أثناء الطباعة"(٤).

يؤكد هولـدرمان مـرة أخـرى أن الأحـرف العربيـة واللاتينيـة، قد تـم إعدادها وحفرهـا فـي إسـتانبول. وإذا مـا بـرزت بعض الصـعوبات فـي صـب الأحـرف

(٣) مقدمة كتاب النحو التركي لهولدرمان، القسطنطينية، ١٧٣٠ ورقة ٣.

(٤) يتضمن الكتاب نصًا فرنسيًا مع جمل بالتركية، وقد حرص إبراهيم متفرقة على الحصول على الأحرف اللاتينية من باريس لكن دون جدوى، الأمر الذي دفعه إلى حفر الحروف بمطبعته. انظر:

« Lettre de Maurepas à Villeneuve du 28 juin 1730 » in Omont, Missions op.cit., T1, p.386.

(١) Note de Père Holderman sur les débus de l'imprimerie à Constantinople »

(٢) « Lettre de Père Holderman, Galata 5 août 1730 » in : Rev. Bib, n°36, 1926, p.6.

اللاتينية، فإن الأمر يختلف بالنسبة للأحرف العربية، ويمكن القول إن مجموعة العمل التي أشرف عليها متفرقة كانت تتقن عملها إلى حد أنها استطاعت طبع كتاب بلغة أوروبية.

أخيرًا نشير إلى وثيقة أصلية أخرى تبين أن كل العمل قد تم بإستانبول، وهي لعبد الحميد الأول الذي أشار إلى الدور الذي قام به متفرقة الذي "أعد أحرف الطباعة من الحديد والفولاذ والنحاس والرصاص"(١).

لا تختلف هذه المصادر الأخيرة فيما بينها حول مصدر أحرف المطبعة فهي تؤكد أنها أعدت بإستانبول من طرف عمال أتراك، وهذا أمر طبيعي إذا علمنا أن أصحاب مهن المعادن من المسلمين وخاصة الصائغين منهم، لهم خبرة كبيرة في مجال النقش على المعادن وصب الأشكال المختلفة من المجوهرات، وبالتالي فإن المسلمين قادرون فنيًا على ممارسة فن الطباعة طالما لم تكن هناك عقبات قانونية أو سياسية تمنعهم من ذلك.

٢.٢.٢- آلات المطبعة وتجهيزاتها:

لا تتحدث الوثائق المتوفرة عن مصدر هذه الآلات والتجهيزات، ويمكن افتراض التجاء متفرقة إلى مساعدات أجنبية في هذا المجال.

كان الورق يستورد في البداية من البندقية(٢)، ثم أصبح ينتج محليًا في مصنع للورق في مدينة يالو التابعة لإستانبول. أما آلات الطباعة فلا يستبعد أن يكون متفرقة قد اشتراها من الأقليات الدينية داخل الإمبراطورية، أو أنه

(٣) فرمان السلطان عبد الحميد الأول في : Toderini, De la littérature…op.cit., T3, p.224.

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

استوردها من أوروبا[١]. وكل ما يعرف عن هذه المسألة هو أن المطبعة قد استخدمت في البداية أربع آلات لطبع الكتب واثنتين للخرائط[٢]. ثم تقلص العدد سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥م إلى اثنتين[٣]، ثم ارتفع إلى ستة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م[٤].

٢.٢.٣- إخراج الكتب:

ما يلاحظ في هذا الإطار هو خلوّ منشورات المطبعة في عهد متفرقة من الأخطاء المطبعية خلافًا لما حصل مع خلفه القاضي إبراهيم أفندي، حيث تسربت أخطاء إملائية ومطبعية كثيرة. ومن الخصائص المادية لهذه الكتب استخدام الحروف نفسها في جميع الكتب، ما عدا كتاب (فرهنك شعوري)، واهتمام بتجليد الكتب تجليدًا فاخرًا، واستخدام الألوان في بعض الكتب مثل جهان نما، وحرص على ذكر سنة طباعة الكتاب في آخر كل كتاب[٥].

٣- مساهمة منشورات إستانبول في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بالإمبراطورية العثمانية:

على الرغم من أن عدد الكتب العربية المطبوعة كان ضعيفًا، فإن من المهم تحليل محتوى كل الكتب باعتبار أن مطبعة إستانبول، تعتبر أول تجربة إسلامية في مجال النشر، وأنها استخدمت أبرز اللغات المستعملة من طرف

---

(٢) تم استيراد آلات الطباعة سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م من باريس حسب شهادة الرحالة ميشو؛ مما يدفعنا إلى القول إن الأتراك لم يوفقوا إلى حد ذلك الوقت في صنع الآلات بأنفسهم: Michaud, Correspondance…op.cit., T3, p.56.

(٣) « Note de Holderman » in : Rev.bib, 1926 p.10.

(٤) Toderini, De la littérature…op.cit., T3 p.215.

(٥) Michaud, Correspondance…op.cit., T3 pp.56-57.

(٦) لمزيد التفاصيل انظر: صابان، سهيل، **إبراهيم متفرقة وجهوده ...** مصدر سابق، ص ١٥٨

المسلمين وهي العربية والتركية والفارسية والتي تشترك جميعًا من حيث الرسم في أنها تستخدم الحرف العربي.

ويعتبر من الأهمية بمكان دراسة التوجهات العامة لأول مطبعة إسلامية في مجال النشر وانشغالات المشرفين عليها، وأسباب هذه الاختيارات ومدى مساهمة هذه المنشورات في إعطاء حركية جديدة للعمل الثقافي والعلمي داخل الإمبراطورية.

٣.١ - حجم الإنتاج واللغات:

٣.١.١ - الإنتاج والتوزيع:

أصدرت مطبعة إستانبول عشرين كتابًا منذ ظهورها سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م حتى ارتقاء السلطان سليم الثالث الحكم سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م. وهذه الكتب تتناول موضوعات تاريخية (ثلاثة عشر)، وجغرافية (اثنان)، وعسكرية إصلاحية (واحد)، ولغوية وأدبية (أربعة).

كان معدل النشر حسب السنوات ضعيفًا في هذه المدة الممتدة على إحدى وستين سنة، حيث إن المطبعة تصدر كتابًا واحدًا كل ثلاث سنوات تقريبًا. وهذا المعدل لا يتطابق مع واقع نشاط هذه الورشة التي عرفت عهود نشاط وعهود ركود. ويمكن القول إن هناك ثلاث عهود مهمة في حياة المطبعة، الأول: يمتد من سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٦م إلى ١١٥٨هـ/١٧٤٦م، والثاني : من سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٦م إلى ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، والثالثة: من سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م إلى ١٢٠١هـ/١٧٨٧م.

إن العهد الأول كان مزدهرًا، فقد شهد نمو حركة النشر وبلغت الكتب المطبوعة فيه سبعة عشر كتابًا في ظرف ست عشرة سنة. أما الثاني فلم يعرف منذ موت متفرقة إلا طبعة واحدة في ظرف أربعين سنة، وأخيرًا لم يعرف الثالث سوى ثلاثة كتب.

٣.١.٢ - اللغات:

كانت أغلب الكتب المطبوعة باللغة التركية. أما البقية فكانت موزعة بين العربية والفارسية والفرنسية، وتوجد خمسة كتب ثنائية اللغة، منها اثنان بالتركية - العربية، وواحد بالتركية – الفارسية، وواحد بالتركية - الفرنسية. ومحتوى الكتابين اللذين صدرا بالعربية والتركية كانا يتعلقان باللغة والنحو العربيين. فهناك صحاح الجوهري مع ترجمة تركية لوانقولي الذي نشر سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م، وأعيد طبعه سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م، وهناك أيضًا إعراب الكافية لابن الحاجب مع ترجمة تركية لزاني زادة طبع سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥م.

٣.٢ - محتوى الكتب:

٣.٢.١ - مشكلة الاختيار:

تمّ تحديد الخطوط العريضة فيما يتعلق باختيار الكتب المعدة للطبع منذ سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، وهذا بمقتضى خط همايون السلطان أحمد الثالث الذي سمح لإبراهيم متفرقة وسعيد جلبي بنشر المجلدات الضخمة التي لا يقبل الناسخون على نسخها، وهذا ما جعلها نادرة في السوق. ويوضح نص القرار مضمون هذه الكتب بأنها تلك المتعلقة بالعلوم والآداب، مثل المعاجم وكتب المنطق والفلسفة والفلك وغير ذلك، دون الإشارة إلى القرآن الكريم وكتب الأحاديث والفقه وغيرها، المتعلقة بعلوم الدين، والتي كما رأينا لم يسمح بطبعها لعدة أسباب. إذن كانت مطبعة إستانبول في "عهد الخزامى" موجهة لخدمة الفنون والآداب والعلوم على عكس المطابع العربية المسيحية التي حرصت على خدمة الديانة المسيحية.

كان رجال الباب العالي والعلماء منشغلين بمصير "كتب التراث" التي توشك أن تنقرض، بعد أن أصبحت نادرة، ويرون في فن الطباعة وسيلة عجيبة ومثالية لإنقاذ هذه المؤلفات الثمينة من التلف، وبالتالي للحفاظ على المكاسب

الأساسية للحضارة الإسلامية. كانت المطبعة الإسلامية في القرن ١٢هـ/١٨م موجهة لتوفير الكتب العلمية والأدبية العربية بالخصوص وإثراء المكتبات وتثقيف القراء.

إلا أنه أمام وفرة "كتب التراث" لدى المسلمين، فقد كان من الصعب اختيار الأنسب للطبع، وقد أوكلت هذه المهمة لمدير المطبعة وأعضاء لجنة المراقبة الذين كانوا مطالبين بدراسة مقترحات العلماء(١) ورجال السياسة(٢) وحتى الأوروبيين(٣). وقد كان المطبعيون يتعاونون تعاونًا وثيقًا مع الباب العالي الذي تعود إليه الكلمة الفصل في هذه المسألة، حيث إنه يمنح حق الطبع أو يسحبه حسب رغبته، وقد نجح إبراهيم متفرقة في كل مرة في الحصول على هذا الترخيص، ولم يكن الباب العالي ليرفض له طلبه حتى وإن تعلق الأمر بطبع كتابه المتعلق بالإصلاحات **"أصول الحكم"** في فترة سياسية دقيقة اتسمت بالتوتر إثر ثورة الانكشارية.

٣.٢.٢- كتب التاريخ:

خصص أكثر من نصف الكتب المطبوعة لهذا المجال، وتتمثل في ثمانية كتب تتناول تاريخ العثمانيين، وأربعة كتب تتعلق بتاريخ مصر والفرس وأمريكا وتيمورلنك، وأخيرًا جداول زمنية للتاريخ الإسلامي. إن من المهم التعرف إلى السبب الذي دفع الناشرين إلى طبع هذا العدد الكبيرة من كتب

---

(١) كان المفتي ديماز زادة مثلاً يرغب في طبع كتاب في الجغرافيا يكون بمثابة الجزء الثاني لجهان نما لحاجي خليفة، إلا أن متفرقة الذي وافقه الرأي لم يتمكن من تلبية هذا الطلب لأسباب مالية. انظر: Toderini, De la littérature… op.cit., T3

(٢) سمح الصدر الأعظم إبراهيم باشا لسعيد جلبي وإبراهيم متفرقة باختيار المخطوطات من مكتبة السرايا على أن يطبعا الكتب النادرة .

Gazette de France du 18 janvier 1727, in, Rev bib, 1895, p.186.

(٣) مثلما فعل اليسوعي هولدرمان الذي اقترح طبع كتاب النحو التركي، وقد تمت الاستجابة لطلبه.

التاريخ، دون تخصيص ولو كتاب واحد لمجالات معرفية أخرى مثل الطب والرياضيات والفلسفة وغير ذلك. صدرت كتب خمسة للحوليات العثمانية وكانت من عمل مؤرخي البلاط وهم نعيمة[1]، وراشد[2]، وجلبي زاده[3]، وسامي وشاكر وصبحي[4]، وأخيرًا عزي[5]. وهذه الكتب تغطي حوادث الفترة التاريخية الممتدة من ١٠٠١هـ/١٥٩٢م إلى ١١٦٥هـ/١٧٥١م، أي بداية من حكم السلطان مراد الثالث إلى حكم السلطان محمود الأول[6].

ويتمثل مشروع متفرقة في نشر كامل تاريخ الأسرة العثمانية، ثم بقية التاريخ الإسلامي، ويعلّل سبب اهتمامه بتاريخ الدولة العثمانية بالذات، بحرصه على إبلاغ المسلمين أخبار انتصارات السلاطين العثمانيين على المسيحيين، والتأكيد على شجاعة هؤلاء الأمراء. ويقول في هذا الصدد:

"لا يمكن لأي أحد أن يتجاهل مدى ما وصل إليه سلاطيننا من مجد وشهرة، نتيجة انتصاراتهم العسكرية الساحقة على الأوروبيين. إن هذه البطولات الرائعة هي التي سجلها لهم التاريخ ليبلغها للأجيال القادمة. وهنا يتضح جليًا

---

(١) تاريخ نعيمة (من ١٠٠١هـ/١٥٩٢م إلى ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م)، القسطنطينية، ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، ٢مج.

(٢) تاريخ راشد (من ١٠٧١هـ/١٦٦٠م إلى ١١٣٤هـ/١٧٢١م)، القسطنطينية، ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، ٢مج.

(٣) تاريخ جلبي زاده (من ١١٣٤هـ/١٧٢١م إلى ١١٤١هـ/١٧٢٨م)، القسطنطينية، ١١٥٣هـ/١٧٤٠م.

(٤) تاريخ سامي وشاكر وصبحي (من ١١٤١هـ/١٧٢٨م إلى ١١٥٩هـ/١٧٤٣م)، القسطنطينية، ١١٩٩هـ/١٧٨٤م.

(٥) تاريخ عزي (من ١١٥٩هـ/١٧٤٣م إلى ١١٦٦هـ/١٧٥١م)، القسطنطينية، ١١٩٩هـ/١٧٨٤م.

(٦) Toderini, De la littérature…op.cit., T3 p.213-91.

لدى كل مؤمن مدى الفائدة والمتعة التي تحصل له حين يطلع على أمجاد وانتصارات أمرائه، ويدعو لهم بالثبات والعزة على رعايتهم للمطبعة"(١).

يتضح من خلال هذه الوثيقة، أن من جملة الأسباب التي دعت الباب العالي إلى الترخيص بإقامة مطبعة، هو توظيف فن الكتابة الجديد لتمجيد الدولة العثمانية يمكن اعتبار الحوليات المطبوعة، إلى حد ما، بمثابة وسيلة إعلان سياسية لتدعيم سلطة الأمراء العثمانيين.

وإلى جانب الحوليات توجد كتب تاريخية أخرى سمح بطباعتها، لأنها تسير على المنهج نفسه مثل: "تحفة الكبار في أسفار البحار" لحاجي خليفة، والذي طبع سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م(٢)، ويتحدث فيه مؤلفه عن الحروب البحرية التي خاضها الأتراك في البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي، وكذلك في الأنهار الأوروبية الكبرى مثل الدانوب. ويطنب حاجي خليفة في وصف المعارك البحرية التي انتصرت فيها الأساطيل التركية ومدى التفوق العسكري للعثمانيين الذين يعتبرهم ملوك البحر.

هناك كتاب تاريخي آخر يسرد بطولات الأمراء العثمانيين وانتصاراتهم الباهرة على الألمانيين والنمساويين في ولاية بوسنة، في سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٦م، وعنوانه : **"أحوال غزوات ديار بوسنة"** لعمر أفندي. وقد طبع في سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م(٣)، أي مباشرة بعد انتهاء هذه الحرب وانتهاء مؤلفه من تحريره.

(٧) رسالة وسيلة الطباعة.

(١) تمت ترجمة الكتاب إلى الإنجليزية من طرف: Michel, J, The history of the maritime wars of the Turks, (C.H.I.I.V), London, Murray, 1831.

(٢) صابان، سهيل، **إبراهيم متفرقة وجهوده ...** المصدر نفسه،

Toderini, De la littérature op.cit, T3, pp.78-89.

ولنا أن نتساءل هل اقتصر متفرقة في اختياره على الكتب التاريخية التي تمجد انتصارات السلاطين العثمانيين، أم أنه اختار كتبًا أخرى؟ فضّل إبراهيم متفرقة اختيار حوليات التاريخ العثماني التي تغطي فترة التراجع والضعف في الدولة، والتي بدأت تقريبًا بعد موت سليمان القانوني، وقد انطفأت فيها جذوة الانتصارات التي حققها الأجداد، ولم يتردد مؤرخو البلاط - رغم إشادتهم ببعض أمجاد السلاطين- في التحدث عن تدهور الأوضاع وقيام الثورات وانتشار الرشاوى والفساد والفوضى التي بدأت تعم الدولة، أي عن مظاهر الانحلال داخل الإمبراطورية(١). إن كتب التاريخ التي اختارها الناشرون للطباعة لم تكن تمجد السلطة العثمانية فحسب، بل كانت تتعرض كذلك لمظاهر الضعف في الدولة. وقد تزامن ظهور هذه الكتب كما رأينا مع ظهور رسائل سياسية تتحدث عن انحطاط الدولة وتدعو للإصلاح، ومن أبرز الأمثلة على ذلك نذكر المؤرخ نعيمة الذي تناول بالتحليل في مقدمة كتابه الذي طبع سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، التنظيم السياسي والمالي للدولة العثمانية، اعتمادًا على كتاب حاجي خليفة المتعلق بالإصلاح، وكان المؤرخ الحلبي يتناول المسألة بفكر نقدي ثاقب، محاولاً إيجاد حلول لحالة الانحطاط التي توجد عليها الدولة(٢).

هذه الطريقة تتفق ومفهوم متفرقة للمطبعة التي أراد تسخيرها، لبث بعض الأفكار الإصلاحية. فهو يريد طبع الكتب التاريخية، ليس لتمجيد السلاطين العثمانيين فقط، بل وكذلك لإصلاح الحالة السياسية المتعفنة التي صارت إليها الإمبراطورية بعد ثورة سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م. وهو يبين هدفه من نشر أبرز الأحداث التاريخية التي وقعت في العالم الإسلامي:

(١) تمت ترجمة الكتاب إلى الإنجليزية وإلى الفرنسية.

Fraser, C, history of the war in Bosnia London, 1839. Cardonne “Histoire de la guerre de Bosnie, (B.N.. mss.or.suppl.turc. n°930).

(٢) لم يصل مؤرخو البلاط الذين جاؤوا فيما بعد إلى مرتبة نعيمة نفسها؛ إذ اقتصروا على سرد الوقائع وعرض الوثائق الرسمية.

" كنت أحيانًا أتوقف عند بعض كتب التاريخ وأفكر في النكبات التي حلت بالملوك، وما نتج عنها من زوال ملكهم، ولاحظت أن كل هذه التغييرات والتقلبات والثورات التي حصلت في قصور الأمراء والدول الإسلامية بمشيئة الله تعالى، كان لها أطيب الأثر، بما أنها تسببت في عودة العمل بقوانين الشريعة الإسلامية، ودعمت سلطة الملكية، وأرجعت الحقوق لأصحابها، وأقرت العدل بين الناس ونشرت الطمأنينة والأمن في المجتمع وأجرت إصلاحات دينية داخل الممالك، من أجل تنقية العقيدة من كل الشوائب"(١).

يرى إبراهيم متفرقة أن التاريخ من شأنه أن يعلم الأمير الحكمة حتى تسير أمور الدولة بتبصر وينتشر العدل وبذلك يتفادى الثورات والهزائم العسكرية وينأى بالمملكة عن الهزات والانقلابات. كانت ثورة الانكشارية التي أطاحت بأحمد الثالث ورفعت إلى سدة الحكم محمود الأول، علامة ضعف في الدولة العثمانية وتنذر بسقوطها، وبالتالي، فإن الحل يكمن حسب رأي مدير المطبعة في إعادة تنظيم جهاز الدولة وتبني سياسة إصلاحات. إن جل كتب التاريخ التي طبعت كانت تغطي عهود ضعف الإمبراطورية، ويرمي متفرقة ومن خلفه على رأس المطبعة من وراء ذلك، إلى دعوة الباب العالي إلى التفكير في الوسائل الكفيلة للخروج من حالة التدهور. وقد لجأ المطبعيون لتحقيق هذا الغرض إلى نشر كتب تاريخ الدول المجاورة مثل فارس وكذلك كتب تاريخ فترات مظلمة من التاريخ الإسلامي، مثل حروب تيمورلنك لدفع الأمراء والمسلمين إلى التأمل في مصير الدول الإسلامية السابقة.

طبع الكتاب المتعلق بتاريخ بلاد فارس سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م(٢)، وعنوانه: **"تاريخ سياح"**، كتبه الأب اليسوعي البولوني تادي كريزنسكي(٣)،

---

(٣) متفرقة. **أصول الحكم**، ترجمة ريفسكي .Reviczki, Traité…op.cit., pp. XXXIII-XXXIV

(١) صابان، سهيل، **إبراهيم متفرقة وجهوده** ... المصدر نفسه،

Toderini , De la littérature…op.cit, T3, pp36-43

(٢) قضى هذا المبشر اليسوعي خمس سنوات ببلاد فارس بأصبهان قبل تأليف كتابه باللاتينية.

ويتحدث فيه عن حروب الأفغان مع الفرس وسقوط الدولة الصفوية بفارس بعد حكم طويل دام مئتين وثمان وعشرين سنة. ويدلي المؤلف بآرائه حول تدهور الوضع ببلاط فارس، ويذكر أن السبب في ذلك هو استبداد الملوك الأوائل وتعاطي الرشاوى داخل جهاز الحكم، والصراعات الداخلية بين الأمراء، والتي أدت إلى ضعف الدولة وتقسيمها، ومن الأسباب أيضًا عدم تطبيق قوانين الشريعة، وإباحة شرب الخمر، ومنع القيام بمناسك الحج.

اهتم متفرقة بتاريخ الفرس وهم "ألدّ أعداء العثمانيين"، ونشر هذا الكتاب عند بداية الصراع بين البلدين سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، والذي تسبب في ثورة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، التي أطاحت بالسلطان أحمد الثالث ووزيره. ويلقي هذا الكتاب الأضواء على التحولات السياسية التي حدثت بفارس، الأمر الذي مكّن الباب العالي من مزيد التعرف على "عدوّه التقليدي". ويرى المشرفون على المطبعة أن الكتاب مفيد نظرًا للتحليل الذي قدمه صاحبه حول أسباب سقوط الدولة الصفوية، التي قد تكون عبرة لكل الأمراء في العالم، ويرى متفرقة في الكتاب دعامة أخرى لآرائه الإصلاحية.

أما كتاب **"تاريخ تيمورلنك"** لأحمد بن عربشاه[1]، والذي ترجمه إلى التركية نظمي زاده أفندي وطبعه سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، فلم ينشر لتمجيد أعمال تيمورلنك، ولكن لتشويه سمعة هذا القائد والتنديد ببطشه ووحشيته. فهو الذي أهان كرامة أمراء العائلة العثمانية، إذ سجن السلطان بايزيد الأول الصاعقة (يلدرم). ويحكي المؤلف بعض الروايات عن تيمورلنك التي تخيلها أعداؤه، لإهانته واحتقاره. وهذا الكتاب طبع على ما يبدو لحمل الأمراء العثمانيين إلى الحرص على الحفاظ على المكاسب التي ضحى من أجلها آباؤهم وأجدادهم.

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة بالعربية في مدينة ليدا بهولندا، بإشراف المستشرق غوليوس سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٦م.

وخلاصة القول إنه تم اختيار أكبر عدد ممكن من كتب التاريخ لطبعها لسببين هما: أولاً: لتمجيد أعمال السلاطين العثمانيين، وثانيًا: لمحاولة فهم مظاهر الضعف التي بدأت تدبّ في الدولة العثمانية، والدعوة إلى التفكير في أسباب هذا الانحلال وطريقة معالجته. وفي كلتا الحالتين، فإن المطبعة الإسلامية الأولى، كانت في خدمة السرايا فهي تدعم سلطتها من جهة من خلال هذه "الدّعاية السياسية" المستمدة من شرعيتها التاريخية، وتدعوها إلى الحذر واتخاذ التدابير العاجلة لضمان استمرار الدولة واستقرارها، وقد ذهبت المطبعة أكثر من ذلك، إذ أصدرت كتابا تدعو فيه إلى إجراء إصلاحات عسكرية.

٣.٢.٣- إصلاحات عسكرية:

عنوان هذا الكتاب هو : "أصول الحكم في نظام الأمم"؛ لصاحبه إبراهيم متفرقة الذي طبعه سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م، ويتحدث فيه المؤلف عن ضرورة اتباع الفنون العسكرية الحديثة التي توصل إليها المسيحيون بأوروبا الغربية، وقد أتيحت له فرصة التعرف إلى هذه الفنون من خلال اطلاعه على كتب لاتينية واستشارته لخبراء عسكريين أوروبيين[١] وهو يريد من خلال هذا الكتاب إبلاغ نتائج اتصالاته وقراءاته إلى الجمهور، وعرض آرائه حول الموضوع. إلا أن الكتاب كان موجهًا بالدرجة الأولى، وكما يذكر مؤلفه في المقدمة، إلى السلطان والوزراء والديوان وكبار المسؤولين في الباب العالي بغرض إقناعهم بجدوى آرائه ومخططاته[٢].

تكمن أهمية الكتاب في أنه صدر على إثر ثورة الانكشارية، حيث وجد المؤلف الفرصة ملائمة لأن يصدع بأفكاره الإصلاحية، فهو يقول:

---

(١) أصول الحكم، ترجمة ريفسكي: Reviczki, Traité…op.cit, p.XL.

(٢) المصدر السابق. ص XLII.

"اتجهت عنايتي أثناء هذه الاضطرابات إلى البحث عن أسباب هذه الثورة الفجئية، وحرصت على التعرف عن جذور هذه الآلام، ولم أتردد في إرجاع هذه المصائب إلى سوء تطبيق قوانين الدولة وإلى عدم اكتراث الوزراء وكبار موظفي الدولة التام بشؤون الإمبراطورية وإهمالهم وقلة انضباطهم عند القيام بواجباتهم"(١).

لم يتردد متفرقة في توجيه نقد لاذع للمسؤولين السابقين في الدولة، والذين كان يعمل معهم، ويتجه - من خلال تحليله لأسباب الثورة - إلى القيادة الجديدة في الدولة ليدعوها إلى تفادي أخطاء الماضي، وخاصة ليقترح عليها إجراء إصلاحات عسكرية فورية لاستعادة هيبة الدولة ووضع حد لحالة عدم الاستقرار التي مرت بها الدولة. ويقول متفرقة:

"لقد برز الخلل داخل الجيش في هياكله وتنظيماته، ولم يعد بالإمكان اليوم اتباع هذا النمط، إذ إن الإبقاء على العيوب العديدة التي يتسم بها الجهاز العسكري، سيؤدي إلى الانهيار الكامل للبلاد. وإذا فوتنا الفرصة فلن ينفع الندم بعد ذلك"(٢).

كان التنظيم العسكري التقليدي للعثمانيين قد تجاوزه الزمن وينبغي حسب متفرقة مراجعته وإعادة النظر في هياكله حسب النموذج الأوروبي الغربي. ومن هنا انطلق المؤلف يستعرض في كتابه مختلف النظم التي تتبعها الجيوش الأوروبية والقوانين التي تنظمها. وقد ألح المؤلف منذ البداية على ضرورة تحلي كل الجنود بالانضباط والتفاني لما في ذلك من فوائد عظمى(٣).

---

(٣) المصدر السابق. ص XXXII.

(١) المصدر السابق، ص ٥٨.

(٢) يقول متفرقة في "أصول الحكم"، ص ٥٨ : " إن نقص النظام وانعدام الانضباط في جيوش الملوك والأمراء في الماضي كان سببًا في ثورات عارمة ومصاريف باهظة، بل إن ذلك تسبب في كثير من الأحيان في إفراغ خزينة الدولة".

كان إبراهيم متفرقة داعية للإصلاح السياسي ووجد في الكتاب المطبوع، أداة أساسية للتعريف بأفكاره وتبليغها بالخصوص إلى الباب العالي. وقد أذن السلطان الجديد محمود الأول بطبع كتاب **"أصول الحكم في نظام الأمم"**، الذي قد يكون دعامة نظرية لإعادة تنظيم فرق الانكشارية التي عرفت اضطرابا كبيرًا وغليانًا متزايدًا أديا في النهاية إلى الانتفاضة وعزل السلطان أحمد الثالث. استخدمت المطبعة لتبليغ سياسة الباب العالي، وكانت بمثابة منبر يتحدث منه بعض كبار المسؤولين في الدولة، وأداة دعاية سياسية لتمجيد أعمال الأمراء العثمانيين، أو إعادة تنظيم الدولة وإصلاحها حرصًا على استمرار حكم أمراء آل عثمان(١).

٣.٢.٤ - كتب الجغرافيا:

أصدرت مطبعة إستانبول كتابًا في الجغرافيا لحاجي خليفة عنوانه: جهان نما (أي : مرآة العالم)، ويعتبر تحفة فنية رائعة لمطبعة إستانبول التي أصدرته سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م(٢). ويحتوي هذا الكتاب على وصف لقارة آسيا إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية العثمانية. إلا أن مؤلفه لم يكمله بعد أن بدأ تأليفه منذ سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م. وكان حاجي خليفة قد اطلع قبل ذلك على أطلس مينور للكاتب مركاتور، وجغرافية إبراهيم أورتيليوس. واستعان ببعض الكتب الجغرافية الأوروبية لكتابة جهان نما(٣). وتولى متفرقة تنقيحه ومراجعته قبل طبعه بطلب من محمود الأول الذي أراد التعرف بدقة إلى ممتلكاته الشاسعة(٤).

---

(٣) أصدرت مطبعة إستانبول أيضًا كتابًا آخر في التاريخ عنوانه: **"تاريخ هند غربي** (أي تاريخ أمريكا)، طبع باللغة التركية سنة ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، ويهدي مؤلفه الكتاب إلى مراد الثالث الذي مات سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٣م، وقد يكون هذا المؤلف محمد بن عامر الحسن المسعودي. انظر:

Adnan, La science…op.cit., p.74.

(١) يحتوي هذا الكتاب على أربعين خريطة.

(٢) Adnan, la science…op.cit, p.110.

(٣) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة...المصدر نفسه**.

وتم طبعه من طرف جغرافيين خبراء في تحديد الأماكن ورسم الخرائط بكل دقة(١).

يهدف الكتاب إلى إعلام رعايا الدولة، وأيضًا جيرانها وأعداءها بمدى اتساع رقعة الإمبراطورية، إلا أن متفرقة لا يرمي فحسب إلى الوصول إلى هذا الهدف، بل إن له هدفًا آخر ذكره عند حديثه عن الجغرافيا في كتابه **"أصول الحكم في نظام الأمم"**، حيث إنه بدأ بتعريف الجغرافيا على أنها علم معرفة الأرض والرجال والعادات والأمم ومواقع البلدان وحدود الأماكن(٢). ويضيف متفرقة فيقول بأنها ضرورية لجهاز الجيش، لأنها تمكن القواد من معرفة بلاد العدو وشبكة الطرقات، الأمر الذي يمكن القوات من التدخل بسرعة وأخذ الأماكن الاستراتيجية في الجبهة(٣). كذلك الجغرافيا مفيدة، حسب العالم المجري، للأسفار البرية منها والبحرية، إذ تتفادى القوافل المسالك الوعرة والعقبات والفخاخ. أما السفن فبالاستعانة بالخرائط وكتب الملاحة يمكنها أن تشق أعسر الطرق البحرية(٤). وهذا العلم، أي الجغرافيا، يمكّن من الحصول على معلومات عن الشعوب الإسلامية الأخرى خارج الإمبراطورية العثمانية(٥). وتمكن المسلمون من الوقوف على ضعفهم وتفرقهم فيسعون إلى توحيد صفوفهم والجهاد ضد العدو المسيحي(٦). لقد قدمت الجغرافيا خدمات

(٤) صابان، سهيل، **إبراهيم متفرقة وجهوده ...** المصدر نفسه،

Toderini, De la littérature…op.cit., p.126.

(٥) متفرقة، أصول "ترجمة ريفيسكي"، ص ٩٣.

(١) المصدر السابق، ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٩٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٠٧.

جليلة للأوروبيين الذين استقروا بالعالم الجديد، وتمكنوا أيضًا من التنقل بحرية وسهولة عبر البحار والبراري(١).

ويفسر متفرقة كذلك العلاقة الموجودة بين عنوان كتاب حاجي خليفة "مرآة العالم" والمفهوم الذي يحمله عن الجغرافيا، فيقول:

"إن الجغرافيا في الحقيقة مرآة مصقولة نستطيع من خلالها أن نرى بوضوح كل الشعوب والأمم المنتشرة على الكرة الأرضية وكذلك أحوالهم ودياناتهم"(٢).

ويبين كذلك التكامل بين التاريخ "الدليل الوفي للعقل"، والجغرافيا التي تعدّ أساس دراسة التاريخ، إذ إنها توفر الوسائل وتذلل الصعوبات للوصول إلى هذه المعرفة.

يؤكد إبراهيم متفرقة ضرورة الاستعانة بخرائط دقيقة يتولى إعدادها جغرافيون عارفون بسكان تلك الأقاليم، ولهذا فقد أعدّ وحده كثيرًا من الخرائط الجيدة لكتاب **جهان نما** الذي نمّقه وزيّنه بكثير من الخرائط، وأضاف إليه معلومات كثيرة منها تعريف بنظام كوبرنيك في مقدمة الكتاب والنظرية الفلكية الحديثة لادموند بورشو(٣).

---

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٧، يسعى متفرقة إلى إقناع الأتراك بضرورة الاهتمام بعلم الجغرافيا للاستفادة منه، نظرًا لجهلهم لأبسط المعلومات الجغرافية من ذلك هذه القصة الطريفة التي أوردها البارون دي توت والتي لا تخلو من مبالغة: " دعا الأميرال التركي سفير البندقية لزيارته على ظهر الباخرة، وأثناء الحديث سأل الأميرال ضيفه إن كانت جمهورية البندقية مجاورة لروسيا فأجابه الدبلوماسي: نعم ولا توجد بينهما سوى الإمبراطورية العثمانية" ! !

partie p.10. De Tott , le Baron, **Mémoires sur les Turcs et Tartares**, Amsterdam,1785, 3ème

(٦) متفرقة "أصول الحكم"، المصدر نفسه، ص ١٠٠-١٠١.

(١) Adnan, **La science…op.cit.**, pp.133-134.

إن المطبعة بهذا الأسلوب وحسب المشرفين عليها، تمكنت من نشر العلوم الحديثة وخاصة تلك التي توصل إليها المسيحيون بأوروبا الغربية، وبالتالي فهي تثقف وتعلم المسلمين على أوسع نطاق.

بقي أن نشير إلى كتاب آخر له علاقة بالجغرافيا وعنوانه **فيوصات مغناطيسي** حول استعمال البوصلة، وقد طبع سنة ١١٤٤هـ/١٧٣١م(١)، وهو عبارة عن منتخبات من كتب لاتينية جمعها متفرقة ويتحدث فيها عن البوصلة وفائدتها للسفن والبواخر التي تنير سبيلهم في البحر وتمنع البحارة من أن يضلّوا الطريق.

٣.٢.٥ - النحو واللغة:

أصدرت مطبعة إستانبول أربعة كتب نحوية وتتمثل في معجمين لغويين، الأول عربي – تركي، والثاني فارسي – تركي، وكتابين في النحو : الأول عربي – تركي، والثاني تركي - فرنسي.

كان **معجم صحاح الجوهري**، بترجمته التركية التي قام بها مصطفى الواني المعروف بوانقولي - أول كتاب يصدر بإستانبول: سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م(٢)، ويعاد طبعه سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م. ويحتوي الكتاب في البداية على رسالة في النحو العربي ثم المعجم العربي – التركي، وفيه تفسير لكل الكلمات العربية بالتركية، ثم استشهاد بأبيات شعرية وأقوال وحكم لأبرز المؤلفين العرب. ويعتبر معجم الجوهري من أبرز المعاجم العربية؛ مما جعل الأتراك يقدمون على ترجمته ثم طبعه مبكّرًا(٣). فكان أن قام وانقولي (توفي سنة

---

(٢) Toderini, **De la littérature…op.cit**., T3, pp.112-118.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٣.

(١) اعتمد المستشرق الهولندي يعقوب غوليوس أيضًا على هذا المعجم لإعداد معجمه العربي اللاتيني الذي طبع في ليدا سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م.

١٠٠٠هـ/١٥٩٢م) بترجمته إلى التركية[١]، وحرص المشرفون على مطبعة إستانبول على تدشين هذه المؤسسة بإصدار هذا الكتاب القيّم الذي أعيد طبعه بعد ذلك[٢]. وقد كان من جملة أهداف المطبعة وضع أدوات العمل الرئيسية لدراسة الأدب واللغة على ذمة المتعلمين والعلماء، فكان هذا المعجم الضخم، وكذلك رسالة في النحو عنوانها **إعراب الكافية** لابن الحاجب التي طبعت مع ترجمتها التركية لزاني زاده في سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م[٣]. كما صدر معجم لغوي فارسي تركي "فرهنك شوري" ومؤلفه مجهول في سنة ١١٥٥هـ/١٧٤٢م. وهذه الكتب كلها جيدة وتساعد العلماء على الكتابة باللغة التركية التي كانت تحتوي على كثير من الألفاظ استعارتها من العربية والفارسية. كانت اللغة العربية محل تقدير من طرف العلماء الأتراك والباب العالي، نظرًا إلى أنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وهي كذلك لغة التعليم الديني في المدارس، ولأن أغلب كتب التراث الإسلامي مدوّن باللغة العربية، وهذا ما يبرّر حرص المشرفين على المطبعة على إصدار معجم لغوي على غاية من الأهمية. ويقول متفرقة في هذا الصدد:

"إن معرفة اللغة العربية ضرورية بالتأكيد لكل من يريد قراءة الكتب الموجودة لدى أمتنا ويستفيد منها. فهي اللغة التي كتب بها كل ما يتعلق بالعلوم والفنون، ولا نستطيع بلوغ هذا الهدف، إلا بالاستعانة بالمعاجم التي يمكن

(٢) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، إستانبول، وكالة المعارف، ١٩٤٣م مجلد٢، ص ١٠٧١ ، مقال صحاح اللغة.

(٣) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة ...** المصدر نفسه.

(٤) Toderini, De la littérature…op.cit., T3 p.240, Schnurrer, Bibliotheca…op.cit., n°124.

نسخها بواسطة الطباعة بأعداد وافرة، هذا بالإضافة إلى امتياز تنفرد به، وهو أنها تصدر بدون أخطاء"(١).

إن كل من يتقن اللغة العربية يستطيع أن يطلع على كل التراث الفكري المكتوب للمسلمين، هذا علاوة على أنها أعارت الكثير من الألفاظ إلى التركية التي هي اللغة الرسمية للإدارة العثمانية. وباستثناء كتب اللغة فإن بقية الكتب التي طبعت في إستانبول في القرن ١٢هـ/١٨م، كانت باللغة التركية. إن المعاجم وكتب النحو العربية منها والفارسية، إنما طبعت لأنها تساعد على حذق ودراسة اللغة التركية التي استعارت في تلك الفترة قرابة نصف ألفاظها من هاتين اللغتين(٢).

بقي أن نشير إلى ظهور كتاب في النحو التركي بالفرنسية والتركية طبع سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، ومؤلفه الأب اليسوعي يوحنا هولدرمان الذي ألف هذا الكتاب لفائدة التجار الفرنسيين، كما ذكر ذلك في المقدمة، ليتعلموا اللغة التركية. ولا شك أن العلاقات الطيبة التي تربط الإمبراطورية بالدولة الفرنسية ساعدت على إنجاز هذا العمل، وكان هولدرمان ينوي إصدار كتاب النحو الأرمني. إلا أن موت الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد، حال دون ذلك. وهذا الوزير كما رأينا كان متفتحًا على الغرب، ولم يتردد مع إبراهيم متفرقة في وضع المطبعة على ذمة الأوروبيين.

خلاصة القول: لئن جاء اختراع المطبعة من الغرب فإن ذلك لم يمنع من استخدامها للتعريف بالعلوم والفنون والاكتشافات العربية، مثل كتاب جهان نما، وفيوصات مغناطيسي، وأصول الحكم في نظام الأمم.

---

(١) متفرقة، رسالة وسيلة الطباعة.

(٢) وردت في بعض مطبوعات إستانبول استشهادات بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة في لغتها الأصلية، أي بالعربية.

لقد خصصت محتويات منشورات مطبعة إستانبول لموضوعات التاريخ والجغرافيا واللغة والإصلاح العسكري، ولم تشمل البتة موضوعات الفقه والشريعة الإسلامية. وقد حصلت كتب التاريخ على نصيب الأسد من جملة هذه المنشورات، وهذا الاختيار يعكس رغبة الباب العالي في التعريف بانتصارات الأمراء العثمانيين وتمجيد إنجازاتهم لتدعيم سلطة الدولة وإبراز شرعية الأسرة الحاكمة. ولئن كان موقف إبراهيم متفرقة يتفق، ولو ظاهريًا، مع الباب العالي في تحقيق هذا الهدف، فإنه كان يرمي إلى استغلال هذه الكتب التي تتحدث عن ضعف الدولة العثمانية وتدهورها أكثر من أن تشير إلى عظمتها، لإقناع الأمراء العثمانيين بضرورة إدخال الإصلاحات اللازمة والعاجلة، وخاصة إعادة تنظيم الجيش والاستفادة من تجربة الغرب في هذا المجال. هذا بالإضافة إلى النهل من علومهم وفنونهم حتى يبقى المسلمون في موقع قوة وفي مستوى المواجهة الحضارية مع أوروبا الغربية.

لقد كانت المطبعة منبرًا للخطباء المصلحين المقرّبين إلى الباب العالي، وكذلك وسيلة إعلام وإشهار سياسي، وقد أنشئت هذه المؤسسة بمبادرة من الباب العالي وكبار المسؤولين السياسيين، وعملت تحت إشراف رجال سياسة لخدمة أغراض سياسية أكثر منها علمية وثقافية. هذا ما يمكن استنتاجه مع خلال دراسة محتوى جل الكتب المطبوعة.

بقي أن نتساءل الآن : كيف تلقى المسلمون هذه المنشورات؟ وكيف كانت ردود فعلهم؟

٣.٣ - صدى منشورات إستانبول:

١.٣.٣ - وجهة هذه المنشورات:

رغب مؤسسو المطبعة في توزيع هذه الكتب في أوساط المسلمين سواء أكانوا رعايا الدولة العثمانية أم لا ، فقد ورد في **رسالة وسيلة الطباعة** أنه ينبغي أن تصل الكتب إلى كل الولايات والأقاليم وكل المدن والقرى داخل العالم الإسلامي، وبفضل وفرة الإنتاج المطبعي، فإن المتعلمين سيتمكنون من اقتناء الكتب بأسعار زهيدة وستؤسس مكتبات عمومية في كل المدن لتقريب الكتاب المطبوع إلى عامة الناس، وبذلك يبتعد هؤلاء عن ظلمات الجهل(١).
كان مدير مطبعة إستانبول ينظر إلى مشروعه على أنه عنوان الرقي والتقدم العلمي والثقافي، لأن المطبعة ستنمّي ذوق القراء وتدفع بأفواج جديدة للمطالعة، وتضع حدًا لنقص الكتب. ولكن ماذا عن حقيقة الأمر على أرض الواقع؟ وهل وصل أصحاب المطبعة إلى مبتغاهم السامي؟ وما نسبة توزيع الكتب المطبوعة بإستانبول في أوساط المتعلمين؟ وما صدى المطبعة عندهم؟

٣.٢.٣- توزيع الكتب:

من الضروري التعرف إلى بعض الأرقام المتعلقة بعدد النسخ التي سحبت بالمطبعة وعن أثمانها. وقد أورد نعيمة في تاريخه أرقامًا عن عملية السحب بالنسبة لاثني عشر كتابًا فقط(٢). فقد وقع سحب ألف نسخة بالنسبة "لصحاح الجوهري" و"تحفة الكبار في أسفار البحار". في حين عرف كتاب "تاريخ سياح" أكبر عملية سحب، إذ طبعت منه ألف ومائتا نسخة. وبعد هذه الانطلاقة الجيدة انخفضت نسبة السحب إلى النصف، حيث طبعت خمسمائة نسخة فقط من كل كتاب من جملة الكتب التسعة الأخرى، وهي: تاريخ هند غربي و"تاريخ تيمورلنك و"تاريخ مصر"، و"كلشان خلفاء" و"النحو التركي"، و"أصول الحكم"، و"فيوصات مغناطيسي"، و"جهان نما"، و"تقويم التواريخ"، و"تاريخ نعيمة".

---

(١) رسالة وسيلة الطباعة.

(٢) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة ...** المصدر نفسه،ص٦٨.

و لا نمتلك معلومات حول أسباب هذا الانخفاض في أرقام السحب، خاصة أن المطبعة لا تزال في بدايتها، وأنها تطمح إلى تلبية حاجيات كل المسلمين من الكتب الأساسية. إن عدد ألف ومائتي نسخة عن كل كتاب يعتبر قريبًا من الأعداد المتعامل بها في المطابع الأوروبية في الفترة نفسها. إلا أن انخفاض نسبة السحب يعتبر مؤشرًا لصعوبات اعترضت المطبعة.

أما عن أثمان هذه المنشورات فلم تصلنا معلومات إلا عن الكتب الثمانية الأولى. فمعجم الجوهري في مجلدين ضخمين ثمنه ثلاثون قرشًا. في حين أن السبعة الكتب الأخرى كان سعرها موحدًا وهو ثلاثة قروش(١). وعلى سبيل المقارنة كان معجم الصحاح يباع مخطوطًا بثلاثمائة قرش(٢) ويعني ذلك أن هذا المعجم يباع مطبوعا بعشر ثمنه مخطوطًا. وهذا لا يدع سبيلاً للمقارنة بين أسعار الكتب المخطوطة منها والمطبوعة(٣). وهذا من شأنه أن يدفع القراء للإقبال على إنتاج المطبعة. إن انخفاض الأسعار بهذا الشكل، كان ثمرة استخدام فنيات الطباعة التي أنتجت عددًا كبيرًا من الكتب. إلا أن العمل بهذه الأسعار المنخفضة، لم يدم طويلاً، إذ اضطر متفرقة، نتيجة الصعوبات المادية التي لاقاها، إلى رفع الثمن. وقد تعرض الرحالة سوسير في سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م، إلى هذه النقطة حيث أشار إلى :

"إن عدد الكتب التي باعها إبراهيم أفندي ضئيل، وهذا الأمر ليس غريبًا إذا علمنا أن الأتراك الذين يجيدون القراءة غير كثيرين، وأن غالبيتهم لا يرغبون

---

(١) « Note du P.Holderman, 1731 » in : **Rev.bib**, n°36 1926, p.6 et 9.

(٢) « Nouvelles de Constantinople du 15 mars 1729 » in : **Rev.bib**, 1895.

(٣) ذكر السلطان عبد الحميد الأول أنه يمكن شراء كتب مطبوعة بعشرين أو ثلاثين قرشًا في حين أن الكتب نفسها تباع مخطوطة بثلاثمائة قرش. قرار السلطان سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، ترجمة تودريني، ص ٢٢٤-٢٢٥.

في المطالعة، ولا يميلون البتة إلى الكتب، وهذا ما أجبر إبراهيم على بيع كتبه بأسعار جد باهظة. وقد اشتريت نسخة من كتاب النحو التركي الفرنسي بمبلغ سوكين واحد فندقي أو ديكات واحدة، ولم يكن ليساوي عشرين صولاً لو أنه طبع بفرنسا أو هولندا"(١).

أما السبب في غلاء المنشورات حسب هذه الشهادة فيعود إلى قلة المبيعات وبقاء الكتب متراكمة في مخزن المطبعة، فكان أول إجراء أخذه مدير المطبعة هو رفع الأسعار لتغطية العجز في ميزانية المؤسسة، فالمطبعة تتطلب رأس مال كبير؛ إذ إن مشروع النشر يستدعي صرف أموال كثيرة لشراء التجهيزات ودفع أجور العمال وفتح نقاط بيع في أماكن مختلفة لمزاحمة المخطوط. ولهذا لم يقدر على تسيير المطابع بأوروبا إلا البورجوازيون، وهم فئة اجتماعية ثرية وصاعدة. ولكن تبين أن مطبعة إستانبول لم تسع إلى توزيع كتبها خارج حدود العاصمة ولم تفكر في جني أرباح طائلة من وراء إنتاجها. بل إنها لم تحرص حتى على تغطية النفقات. فالرجلان اللذان أسسا المطبعة وهما إبراهيم متفرقة وسعيد جلبي لم يكونا من الأثرياء، بل كانا موظفين ساميين في الدولة العثمانية، توليا إقامة المطبعة بمساعدة الباب العالي. وهذه المساعدة كانت غير دائمة ومستمرة، إذ كانت تخضع لأهواء ومشاغل كل سلطان، ولئن وجدا الدعم الكامل من طرف أحمد الثالث ووزيره فإن الأمر تبدل بعد ثورة الإنكشارية، إذ انصرف السلطان إلى حل المشاكل المطروحة بحدة على الدولة، ولم يعر أهمية كبيرة للمطبعة، وهنا يمكن تفسير الحالة المالية المتردية لهذه المؤسسة. ولم يكن كتاب النحو التركي المثال الوحيد الذي تحدثت عنه المصادر، بل لا يمكن اعتباره معيارا لضبط النزعة الجديدة نحو رفع أسعار المنشورات التي سلكها متفرقة خاصة أن هذا الكتاب موجه إلى صنف خاص من القراء وهم التجار الفرنسيون، وبالتالي فإن المسلمين لا يعنيهم هذا الكتاب، لذلك لم يقبلوا على

(١) De Saussure, **Lettres…op.cit.,** p.95.

شرائه. وهناك مثال آخر عن كتاب موجه إلى القارئ المسلم ورغم ذلك فإن ثمنه باهظ، وهو كتاب الجغرافيا **"جهان نما"** الذي صدر سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م، حيث أشار إلى ذلك سفير فرنسا لدى الباب العالي في رسالته إلى أمين مكتبة ملك فرنسا(١) : وهذا الغلاء في الأسعار يتناقض مع روح القرار الذي أصدره أحمد الثالث لإنشاء المطبعة. وكذلك مع **رسالة وسيلة الطباعة** لمتفرقة، حيث لم يكن الكتاب المطبوع في إستانبول في متناول القراء، الأمر الذي لم يشجعهم على اقتنائه. وكان من نتائج هذا الكساد في البيع انخفاض رقم سحب الكتب التي طبعت فيما بعد. ولكن رغم ذلك فقد تراكمت المطبوعات في المخازن ولم تجد طريقها إلى القراء(٢). فكان أن وجد إبراهيم أفندي القاضي خليفة متفرقة عددًا كبيرا من الكتب غير المباعة(٣).

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذا الكساد في بيع كتب إستانبول رغم ما تتميز به من طباعة أنيقة وخط جميل ودقة في النص الأصلي، واحتوائها على أشكال وخرائط جيدة، وثمن في متناول المتعلم العادي، وكذلك ما صدى هذه المنشورات بين المسلمين؟

٣.٣.٣- صدى المنشورات في إستانبول:

١ - بداية مشجعة: موافقة العلماء:

لقد أقر مبدأ الطباعة من طرف السرايا والعلماء بالعاصمة العثمانية، ولم يعارضه على الأقل كبار العلماء المقربين من الباب العالي. لم ينتج عن تبني

(١) "إني لم أستغرب من غلاء سعر كتاب الخرائط التركية (مرآة العالم) الذي أرسلته إليك والذي صرفك عن إثراء مكتبتك بالكتب الشرقية". رسالة من فيلاناف سفير فرنسا بإستانبول إلى دي غومون أمين مكتبة ملك فرنسا بتاريخ ٢٨ جويلية ١٧٣٥ انظر: **Rev. Bib**, n°36, 1926, p.7. -

(٢) اقترح الأب اليسوعي هولدرمان سنة ١٧٣٠ على وراقين فرنسيين شراء كتب المطبعة وليس فقط كتابه، على أن يحدد السعر بحسب الكمية المطلوبة، إلا أن اقتراحه لم يجد صدى لديهم.

(٣) ذكر سوسير أن كتبًا كثيرة بقيت مكدسة بعد وفاة متفرقة ولم يدر خلفاؤه ما يفعلون بها الأمر الذي أثناهم عن عزيمتهم وصرفهم عن شؤون المطبعة. De Saussure, Lettres…op.,cit., pp.95-86.

فن الطباعة من قبل الأوساط الرسمية إقبال آلي على الكتب المطبوعة من طرف المتعلمين. ويبدو أن هناك تناقضًا واضحًا في المواقف بين الطرفين، أي بين نخبة من العلماء وعامة الشعب، الأمر الذي يدعونا إلى دراسة كل موقف على حدة. هناك مصدر أصلي يبين مدى إقبال ورضا العلماء على استعمال فن الطباعة، وهي وثيقة عنوانها: **"التقاريظ على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة"**، وردت في كتاب " صحاح الجوهري" أول مطبوع في إستانبول. وهذه الشهادة تضمنت آراء ستة عشر عالمًا وقاضيًا حول رسالة وسيلة الطباعة التي كتبها إبراهيم متفرقة. ويمكن اعتماد هذه الآراء كليًا لتحديد مواقف العلماء إزاء هذه المسألة. إلا أن من الضروري التنبيه إلى أن هذا الموقف له حدوده، لعدة أسباب: أولاً: لأن العلماء الذين أيدوا الرسالة انتخبوا من بين أنصار المطبعة والمقربين إلى السلطة، وثانيًا: لأن هذه المواقف تساند رسالة متفرقة التي ذكرت فيها نظريًا فوائد إقامة مطبعة وكذلك تبدي موافقتها المبدئية على استخدام فن الطباعة، بعد اطلاعها على عينة صغيرة من الكتاب المطبوع وليست مجموعة من منشورات المطبعة. لهذا فإن هذه التقاريظ غير كافية لاستنتاج موقف أغلبية العلماء من إقامة مطبعة إستانبول، وحتى أولئك الستة عشر الذين أيدوا المطبعة كانوا قد كتبوا تقاريظهم بلغة متشابهة ولقوا حول المعاني والتعابير نفسها تقريبًا، ليبدوا استحسانهم لفن الطباعة، ويجددوا تمسكهم ومبايعتهم للسلطان أحمد الثالث. إن الأسلوب اللغوي العربي الذي استخدموه في مذكراتهم، كان تقليديًا وفيه تنميق كثير وحرص على انتقاء ألفاظ نادرة قصد إظهار براعتهم في التحرير، وهم الذين يستغلون مثل هذه الفرص للبروز وإظهار جدارتهم للحصول على مناصب عليا في القضاء والإدارة. ويمكن من خلال ثلاث شهادات لهم تلخيص أهم الأفكار التي عبروا عنها في الوثيقة.

- **الشهادة الأولى**: هي للشيخ زاده محمد أفندي : "حسبي الله لا إله سواه وصلى الله على حبيبه ومصطفاه نعمت الصنعة المطبوعة، غير مرئية في

ديارنـا ومسـموعة، فوائـدها مجزومـة مقطوعـة، فيهـا فاكهـة كثيـرة لا مقطوعة و لا ممنوعة، شكر الله سعي صانعها ووفق فيما بعد بأمثالها كان الزمـان بخل بهـا وخباهـا فـي حجلـة الإخفـاء وكشـف عـن وجههـا حجـاب الاستغناء بميامن سلطاننا...الغازي أحمد خان".

- **الشهادة الثانية:** وردت في تقريظ فيض الله أفندي صدر روم سابق فقد وردت فيـه:" لمـا عطفت عنـان النظـر إلـى هذه المقالـة اطلعـت علـى مـا يحويـه مـن عجايب الصناعة: فلله درّ جامعها حيث اخترع بأفكاره العميقة، ما يستحسنه أولو الأنظار الأنيقة، وأبدع بكمال الفراسة، ونهاية الكياسة، ما يستغنى بـه عن مشاق الكتابة".

- **الشـهادة الثالثـة:** جاءت فـي تقريظ آخـر لصـالح أفنـدي أناضـولي سـابق: "نعم الأثر هذه المجلـة مـن حذاقـة الطبـع وغرابـة الصـنعة، ولقد أبـدع فيـه جامعه مجتهدًا ببذل وسعه، جزاه الله تعالى بما يليق بصنعه".

تؤكد هذه الشهادات اقتناع العلمـاء بفوائـد فن الطباعـة وتشـجيعهم لاسـتخدامه مـن طـرف المسـلمين، وهـم يعربـون عـن إعجـابهم بمختـرع هـذا الفـن، وبالخصوص بكاتب رسالة وسيلة الطباعة الذي دعا المسلمين إلـى استخدام فن الكتابة الجديد، بعد أن كان مغمورا رغم أنه اكتشف منذ حقبة طويلة من الزمن. يتبوّأ متفرقة مكانة مرموقة في نظر العلماء لا تقل عن مكانة مخترع الطباعـة. فهـو الـذي دعـا إلـى الاسـتفادة منهـا وحـرص عمليًـا علـى إقامـة أول مطبعـة اسلامية في الدولـة العثمانية.

لـم يـذكر القضـاة والعلمـاء فـي تقـاريظهم، المواقـف السـابقة نحـو هـذا الفـن وخاصة أسباب رفض السلف في البداية له. إلا أنهم أشـاروا إشـارة ضـمنية إلـى أن المواقف تغيرت إزاءه حين ذكروا أن المطبعة هـي اكتشـاف جديد دخل هذه

الربوع التي لم تعرفه قبل حكم السلطان أحمد الثالث الذي يستحق كل مدح وثناء.

كل التقاريظ التي وردت في الوثيقة تعبر عن مساندة أصحابها وعن استبشارهم وثقتهم، بأن فن الطباعة ستكون له فوائد كبيرة في بلاد الإسلام. ولم ترد البتة أية معارضة من طرف هذه النخبة من العلماء المقربين من الباب العالي، والتي لم يكن لها من هدف سوى مباركة قرار السلطان وتجديد مبايعتها له، مما جعل الآراء متطابقة. ولهذا لم يتقدم البحث بنا كثيرًا لمعرفة صدى منشورات إستانبول في أوساط المسلمين. وفي غياب مصادر إسلامية أخرى، فإننا اعتمدنا على شهادات الأوروبيين الذين واكبوا نشاط المطبعة في القرن ١٢هـ/١٧م.

ب- مناهضة المطبعة: محدودية التوزيع:

لقد سبق أن رأينا أن عدد الأتراك المتعلمين ضعيف، ونسبة الأمية بينهم مرتفعة، خاصة في الأرياف والقرى(١). وكان الناس الذين يحسنون القراءة والكتابة محل تقدير وتبجيل من لدن العامة، إلى حد أنهم يعتبرونهم من العلماء. وحتى المدارس التي كانت تؤهل الشباب للعمل بالإدارة أو القضاء أو التدريس كانت قليلة. وكل هذه المعطيات تبين أن المطبعة كانت اكتشافًا معزولاً عن واقع الحياة الفكرية داخل الإمبراطورية. فالسلطان أحمد الثالث وخلفاؤه لم يرسموا سياسة ثقافية وعلمية شاملة تكون فيها المطبعة إحدى الركائز الأساسية إلى جانب المدارس والمكتبات وغير ذلك. كل هذا جعل الكتاب المطبوع لا يجد إقبالاً إلا من طرف الناس المتعلمين الذين لم يكونوا بدورهم من القراء المواظبين. وهنا يذكر الرحالة سوسير بأن العثمانيين لا يميلون كثيرًا للمطالعة، الأمر الذي أكده كذلك الأب اليسوعي هولدرمان حيث قال أن الأتراك لا يتذوقون لذة المطالعة والآداب، وأن الكتب لا تباع عندهم بكثرة(٢).

(١) Saussure, Lettres…op.cit., pp.95-96.

(٢) Rev, bib. N°36, 1926, p.7.

إن عزوف المتعلمين عن القراءة يأخذ بعدًا أكبر لما يتعلق الأمر بالكتاب المطبوع. فلم يتعود المتعلمون على الوعاء الجديد للمعرفة، ولم يدخل في تقاليدهم، وظل التردد والحيرة من المطبعة ومن إنتاجها ينتابهم في كل حين، على الرغم من كل الإجراءات التي اتخذها الباب العالي لتشجيع التعامل مع هذا الاكتشاف الثقافي. وبالمقابل تواصل تعامل المثقفين مع المخطوط دون أن يعيروا أهمية تذكر للكتاب المطبوع الذي بدأ يبرز ويتضاعف إنتاجه. وقد تحدث الرحالة ريفسكي عن صدى مطبوعات متفرقة لدى المسلمين أثناء إقامته بإستانبول في أواسط القرن ١٢هـ/١٨م، وقال:

"هناك سبب آخر يفسر فشل المطبعة وهو أن الأتراك لا يهتمون بالكتب المطبوعة ويميلون إلى شراء الكتب المخطوطة، رغم أن أسعارها مرتفعة، ولأن الطباعة لا تصل إلى مستوى الكتابة التركية أو العربية الجميلة"(١).

لقد بقي المسلمون على موقفهم المعارض تجاه مطبوعات إستانبول، كما هو الشأن بالنسبة للمطبوعات العربية الأوروبية، فهم يفضلون، إذا ما رغبوا في القراءة، شراء المخطوطات على المطبوعات، وهذا بعد اكتشاف غوتنبرغ للمطبعة بثلاثة قرون، الأمر الذي يفند الرأي القائل بأنهم لم يكونوا يشترون الكتب المطبوعة بأوروبا بسبب أنها "إفرنجية"، وأنه يجب الحذر منها. فهذا الموقف اتخذوه أيضًا تجاه الكتب المطبوعة بإستانبول من طرف مطبعيين مسلمين.

إن عجز مطبعة إستانبول في أول عهدها عن تحقيق كل الأهداف التي أنشئت من أجلها، يعود أساسًا - كما رأينا - إلى أنها مؤسسة "منعزلة" عن محيطها الثقافي، حيث لم تبرز ركائز علمية وثقافية حديثة لمساندتها وتطوير نشاطها. وبالمقابل ظلت المؤسسات التقليدية تقوم بدورها الأصلي في تثقيف الناس

---

(١) Reviczki, Traité…op.cit., p.XXIII.

وتعليمهم. من ذلك حوانيت الوراقة حيث واصل الوراقون مهمتهم في نسخ الكتب، ولم تقدر المطبعة على مزاحمتهم، حتى فيما يتعلق بمواضيع الكتب التي تدخل في مشمولاتها، أي الكتب التي لا تتناول موضوعات الشريعة والفقه الإسلامي.

وقد ظهرت في أواخر القرن ١٢هـ/١٨م موسوعة الوراقين بعنوان: " تحفة الخطاطين"(١)، التي تتحدث عن أشهر الناسخين في تلك الفترة وعن أعمالهم الفنية البديعة، وهذا مثال يبرز تواصل تعلق المتعلمين بفن الكتابة العربية بخط اليد، بعد ظهور المطبعة وتشجيعهم للفنانين والوراقين لإبراز مواهبهم وإبداعاتهم في هذا المجال.

لا يمكن للجانب المادي للكتابة العربية أن يكون سببًا رئيسيًا في عدم انتشار الكتاب المطبوع عند المسلمين، فإبراهيم متفرقة نجح في حفر حروف عربية جميلة تضاهي الكتابة المخطوطة، إلا أن محتوى هذه الكتب قد يفسر إعراض المتعلمين عن اقتناء هذه المطبوعات. فالموضوعات التي عالجتها تتعلق كما رأينا بالتاريخ والجغرافيا واللغة والنحو والإصلاحات. وهذا المحتوى يستجيب لرغبة رجال السياسة أكثر من رغبة المتعلمين وحاجيات المستفيدين بصفة عامة. وهؤلاء الأخيرون كان جل اهتمامهم منصبًا نحو كتب الفقه والشريعة، وهذا يعني أنهم لا يجدون ضالتهم إلا في المخطوط.

لقد حاول المشرفون على مطبعة إستانبول تحويل اهتمام القارئ نحو موضوعات جديدة، من شأنها تقديم خدمات جليلة للإسلام. إلا أنهم فشلوا في مهمتهم لأن منشوراتهم ذات الطابع العلمي الجيد كانت محدودة. ويمكن القول إن الشرط الذي وضعه شيخ الإسلام بعدم طبع كتب الشريعة كان عائقًا كبيرًا أمام انتشار الطباعة في بلاد الإسلام.

---

(١) مؤلف الموسوعة هو مستقيم زاده عام ١٢٠٢هـ/١٧٨١م.

Huart, Les calligraphes…op.cit., p.7 ; Browne, Nouveau…op.cit. ; T2, p.268 ; Michaud, Correspondance…op.cit., T3 p.102-104.

ج- صدى المطبوعات خارج إستانبول:

صدى المطبوعات في البلاد الاسلامية:

لم تكن مطبوعات إستانبول بطبيعة الحال مخصصة لقراء العاصمة العثمانية فحسب، بل وكذلك للقراء داخل الإمبراطورية، وحتى جميع أنحاء العالم الاسلامي. بل أكثر من ذلك كان مؤسسو مطبعة إستانبول ينوون، في صورة نجاح مشروعهم الأول، إنشاء مطابع أخرى في الولايات العثمانية لمعاضدة نشاط المطبعة الأولى[1]. إلا أن هذا المشروع الطموح سرعان ما أهمل بعد تعثر ورشة الطباعة بإستانبول، ولم تبرز أية مطبعة بعد ذلك في الدولة العثمانية بمبادرة إسلامية إلا في مطلع القرن ١٣هـ/١٩م. بل أكثر من ذلك اضطرت مطبعة إستانبول إلى تقليص نشاطها، وذلك بالتخفيض في عدد الكتب المطبوعة، وحتى في رقم السحب، حيث إنها توقفت عن العمل تمامًا في عدة فترات، مما جعل إشعاعها في عالم الفكر والمعرفة محدودًا. ولم تقدر بالتالي على مزاحمة المخطوط. ولا تتحدث المصادر عما إذا تم توزيع كتب مطبوعة خارج العاصمة العثمانية، ويبدو أن التوزيع كان أيضًا جد محدود.

لقد كان من المقرر أن لا يقتصر مشروع الطباعة على مطبعة واحدة، بل على جملة من المطابع. وقد بدأ المشروع بمطبعة أولى في إستانبول لتكون نموذجًا وحافزًا لتأسيس ورشات أخرى في الولايات العثمانية، وحتى الاحتياطات القانونية فإنها اتخذت باستصدار فتوى لشيخ الإسلام وفرمان السلطان العثماني لإضفاء الشرعية على المشروع. كذلك تمت معالجة الجانب الفني للمشروع والتغلب على مشكلة إعداد الحروف العربية وتدريب العمال. ورغم ذلك فقد تعثر المشروع وتوقف عند مطبعة متفرقة، ولئن كان المشكل

---

(١) "كان سعيد جلبي يرى في صورة نجاح المؤسسة الأولى إقامة مطابع أخرى في المدن الرئيسية بالامبراطورية":

La Gazette de France, 18 janvier 1727, in Rev, bib, 1895, p.186.

المـالي عائقًـا جـديًا، فـإن لا مبـالاة القـارئ المسـلم تجـاه وعـاء الكتابـة الجديـد وانصـرافه عـن منتجـات المطبعـة يعتبـر العـائق الموضـوعي الرئيسـي لفشـل المشروع.

صدى المطبوعات في أوروبا:

كان صدى مطبعة إستانبول في أوروبا أكبر من صداها بالعـالم الإسـلامي. فقد اهتم بهـا منذ نشـأتها المستشرقون والرحالـة والدبلوماسيون الأوربيون من فرنسيين ونمساويين وإنجليز وسويديين وإيطـاليين. فالعلمـاء الفرنسيون بـالذات أعطـوا أهميـة كبيـرة للحـدث، حيث كـانوا يـأملون نشـر المخطوطـات اليونانيـة واللاتينية المحفوظة في مكتبة السرايا، والتي بقيت مجهولـة من طـرف العلمـاء الأوروبيين[1] علـى أسـاس أن مجموعـة المخطوطـات اليونانيـة واللاتينيـة هذه، كان استعمالها محظـورًا علـى العلمـاء الأوروبيين[2] وكـان هؤلاء يعتقدون أن مطبعـة إسـتانبول ستنشـر هـذه الكتـب أي بـالحرف اليونـاني واللاتينـي، ولهـذا حرصـوا علـى متابعـة تطـور نشـاط هـذه المؤسسـة الجديـدة وربطـوا علاقـات صـداقة مـع سـعيد جلبـي الـذي سـبق أن زار بـاريس سـنة ١١٣٣هـ/١٧٢١-١٧٢٢م[3]، وحرصت مكتبتا ملك فرنسا وملك السويد على اقتنـاء كل الكتـب التـي طبعت بالحرف العربي بإستانبول لإثراء مجموعاتها من الكتب الشرقية[4]. كمـا كـان العلمـاء الأوروبيـون يشـترون هـذه الكتـب أثنـاء رحلاتهـم إلـى المشـرق أو بواسـطة الدبلوماسيين. كما تحصلت بلاطات ملوك أوروبا علـى هذه المنشورات علـى سـبيل الإهداء. وكان إبراهيم باشا داماد يرسل بهذه الكتـب هديـة إلـى وزراء لـويس الخـامس

(١) Rev. Bib, 1895, p.186.

(٢) Omont, Missions…op.cit., T1, pp.253-254.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٩٤-٤٠١.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٤٩-٧٥٦.

عشر[1]، ويكلف السفراء العثمانيين بتقديم مثل هذه الهدايا إلى الملوك الأوروبيين[2].

اهتم السفراء الأوروبيون لدى الباب العالي كذلك بمنشورات هذه المطبعة، ورفعوا تقارير عنها إلى رؤسائهم ضمنوها آراءهم وانطباعاتهم حول إصداراتها[3]. كما أن العلماء كانوا يترجمون هذه الكتب إلى لغات أوروبية[4]. إلا أن بعض الترجمات عرفت طريقها إلى النشر في حين بقيت جلها مخطوطة. من ذلك كتاب **"أصول الحكم في نظام الأمم"**، الذي ترجمه إلى الفرنسية المستشرق ريفسكي ونشر سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م، ويبين المترجم أهمية هذا الكتاب التي تكمن في أنها توضح طريقة تفكير الأتراك وآرائهم حول الأساليب الحربية المتبعة من طرف الأوروبيين. وكذلك تكشف عن عيوب التنظيم العسكري ونقائصه في الجيش العثماني، وبصفة عامة يعالج الكتاب مظاهر الانحطاط داخل الدولة العثمانية.

كما كانت بعض كتب مطبعة إستانبول محل درس بعض العلماء الذين استفادوا من المعلومات التي وردت بها، من ذلك كتاب **"جهان نما"**، الذي أخذ منه الجغرافي دي فرينو معلومات جغرافية حول البلدان الآسيوية عند تأليف كتابه في الجغرافيا[5].

---

(٥) Rev. Bib, 1895, p.187.

(٦) Hammer, Histoire…op.cit., T3 p.441.

(٧) Omont, Missons…op.cit., T1, p.472.

(٨) بالنسبة للغة الفرنسية قام بمهمة الترجمة: "شبان اللغات" الذين تعلموا اللغات الشرقية بالمشرق.

(١) يذكر تودريني أسماء أربعة علماء أوروبيين استخدموا كتاب حاجي خليفة وأوصوا كذلك باستعماله. Toderini , De la littérature…op.cit., T3 pp.121-122.

عبر الأوروبيون عن انطباعاتهم حول مطبعة إستانبول، وكانوا متفائلين في البداية، قبل أن يعربوا عن خيبة أملهم بعد أن تبين لهم عجز هذه المنشورات عن تنشيط الحياة الثقافية داخل الإمبراطورية. وعلى سبيل المثال نجد الأب هولدرمان يعبر عن الآمال المعلقة على هذا المشروع في سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م عندما يقول:

" كانت الآداب مهملة منذ عدة قرون في هذه الأماكن، أين ترعرعت وتطورت كثيرًا في الماضي. إن هذه الآداب ستنتعش من جديد وقد عاد الأمل في إحيائها بعد ظهور المطبعة في القسطنطينية. إن المنتوجات الأولى لهذا الفن المفيد للعلماء، ينبغي أن تتجه نحو هذا النوع من المعرفة الذي يوفر لمختلف الشعوب إمكانية تبليغ آرائهم وتكوين "مجتمع الأنوار" أين تتفاعل فيه الاكتشافات والمعارف"(١).

يبسط الأب اليسوعي هنا نظرته نحو المطبعة وما ينتظره منها، فهي ستقيم علاقات ثقافية بين مختلف المجتمعات وتحيي المؤلفات الأدبية القديمة وتنشر المعارف الحديثة داخل الإمبراطورية(٢). ولتحقيق هذه الأهداف يفترض أن تكون المنشورات كثيرة، وأن يغطي التوزيع كل المناطق. إن مفهوم المطبعة حسب هولدرمان يتطابق مع المفهوم الذي عبر عنه متفرقة في رسالته. إلا أنه عند التطبيق برزت صعوبات جمة، وهذا ما يفسر تعثر مطبعة إستانبول في القيام بمهمتها العلمية والحضارية، وتخبطها في مشاكل كثيرة، أدت إلى عدم تمكنها من التأثير بصفة كبيرة في عالم الفكر والثقافة ومن نشر المعارف والأفكار الإصلاحية على مدى واسع(٣). فهي لم تغير أذواق القراء إلا قليلاً في

---

(٢) تقديم كتاب النحو التركي.

(١) يتفق سوسير معه أن المطبعة ستحارب الجهل والأمية لدى الأتراك.

(٢) انظر رسالة سفير فرنسا بإستانبول إلى أمين مكتبة ملك فرنسا، بتاريخ ٢٨ جويلية ١٧٣٥م.

Omont, Missions… op.cit., T2, p.696.

حين بقي أغلب القراء متعلقين بالمخطوط، ولم يتجاوز إشعاع الكتاب المطبوع أوساط المجددين المنفتحين على الغرب واكتشافاته. وهكذا بقي ينظر إلى المطبعة حتى نهاية القرن ١٢هـ/١٨م على أنها اكتشاف يثير إعجاب المثقفين، وخاصة أوساط الفئة الحاكمة، التي جعلت منها وسيلة لدعم نفوذ السرايا، فكان اختيار الكتب يخضع لرغبة الباب العالي. إلا أن ذلك لم يمنع المطبعيين، وهم من المقربين للسلطة العثمانية، من توجيه المطبعة وجهة إصلاحية من خلال نشر كتب تدعو للإصلاح العسكري والسياسي والثقافي. إلا أن طموحات هؤلاء تبخرت مع موت إبراهيم متفرقة، وبقيت المطبعة مرتبطة بأسماء بعض الأشخاص الذين أعطوها حركية كبيرة مثل الوزير إبراهيم باشا داماد وإبراهيم متفرقة وسعيد جلبي. إلا أنه بعد اختفائهم أهملت المطبعة وتوقفت عن النشاط لفترة طويلة، وصلت إلى سبع وعشرين سنة (١١٧٠-١١٩٧هـ/١٧٥٦-١٧٨٣م).

لم يتمكن الكتاب المطبوع بإستانبول من تبليغ الأفكار والمعارف داخل الإمبراطورية، خاصة أن العملية تعهدت بها مطبعة واحدة وهذه الأخيرة وجدت صعوبات كبيرة لتحقيق التواصل المعرفي بين علوم السلف وعلوم الغرب. ولكن ذلك لا يعني أن دور المطبعة في محيطها الثقافي كان منعدمًا، بل إنها أثرت في نطاق معين على مجرى الحياة الأدبية والعلمية تركت بصماتها التي سيكون لها أعمق الأثر على مدى طويل وعلى جميع المستويات. فمجرد قبول فن الكتابة الجديد دلالة على رغبة في التعامل مع أدوات ثقافية حديثة بغرض مواكبة التقدم والرقي الحاصل بأوروبا. وهو في الوقت نفسه رغبة في تطوير التعامل مع التراث الثقافي للأمة الإسلامية الذي سيأخذ شكلاً جديدًا، هو شكل المطبوع. إن سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، هي سنة تحول المسلمين إلى عهد جديد في حضارتهم، هو عهد الحداثة المتميز بالتفتح على الآخرين، وخاصة على الفنون والاكتشافات العربية.

وبالرغم من فشل متفرقة وخلفائه في وضع الكتاب المطبوع في متناول فئات واسعة من المتعلمين فإنهم نجحوا في المقابل في تحقيق بعض المكاسب منها: تخطي كل العقبات القانونية من أجل إدخال فن الطباعة بالحرف العربي عند المسلمين، والشروع في غرس تقاليد جديدة لدى المثقف لاستخدام شكل جديد من أوعية المعلومات، وهو الشكل المطبوع مع التخلي مرحليًا عن المخطوط.

٤ - الصعوبات: الحوار يتواصل:

٤.١ - أسباب توقف المطبعة:

٤.١.١ - خمس وأربعون سنة من التوقف:

تعطلت المطبعة الإسلامية الوحيدة في الإمبراطورية العثمانية في القرن ١٢هـ/١٨م لمدة طويلة وصلت إلى حد خمس وأربعين سنة وكانت هذه المرة موزعة على ثلاث فترات كبيرة، مرة أولى دامت خمس سنوات (١١٤٨-١١٥٣هـ/ ١٧٣٥-١٧٤٠م)، وثانية استمرت ثلاث عشرة سنة (١١٥٥-١١٦٨هـ/١٧٤٢-١٧٥٥م) وثالثة وهي أطول فترة ودامت سبعًا وعشرين سنة (١١٧٠-١١٩٨هـ/١٧٥٦-١٧٨٣م)، ويمكن القول إنه على امتداد الست وخمسين سنة الأولى من حياتها، لم تشتغل المطبعة سوى لمدة إحدى عشرة سنة. وإنه من الضروري البحث عن أسباب هذا الانقطاع الذي بلغ في بعض الأحيان فترات طويلة جدًا والصعوبات التي أعاقت المطبعة على مواصلة مسيرتها بثبات حتى نتمكن من تتبع مختلف مراحل حياة الكتاب المطبوع بحروف عربية في القرن ١٢هـ/١٨م لدى المسلمين العثمانيين.

من الواضح أن المطبعة التي دخلت إلى العالم الإسلامي بعد حوار طويل وتردد كبير من لدن المحافظين لن تنجح من الوهلة الأولى ولوحدها في تغيير العقليات والدخول بقوة بإنتاج مطبعي غزير والقضاء على المخطوط، وكذلك

بما أنها من عمل رجال سياسة مرتبطين بالباب العالي فإن المطبعة بقيت معرضة لهزات السياسة، وبالتالي فهي في وضعية إدارية وتنظيمية غير مستقرة(١). ولدراسة هذا الموضوع، اعتمدنا على مصادر إسلامية وأوروبية هي أساسًا فرمان السلطان عبدالحميد الأول وشهادات الرحالة والدبلوماسيين والمستشرقين الأوروبيين.

٤.١.٢ - اختفاء راعي المطبعة:

بعد الانطلاقة السريعة للمطبعة التي كانت تنبئ بتطور كبير في إنتاجها المطبعي، تراجعت المطبعة شيئًا فشيئًا، بسبب اختفاء راعيها الصدر الأعظم إبراهيم باشا، الذي قتل أثناء ثورة الإنكشارية سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، وعزل السلطان أحمد الثالث(٢)، لقد فشلت سياسة التفتح على الغرب التي سلكها هذان الرجلان، وقضت عليها ثورة الجيش الغاضب الذي هاجم العاصمة وحطم كل شيء أمامه حتى حنفيات سعد آباد، إلا أنه لم يتعرض للمطبعة وهو في ذروة غضبه(٣). وهذه المؤسسة لم تتوقف في تلك الفترة عن العمل، إذ نشرت في تلك السنة كتابين جديدين. وفي السنة الموالية أصدرت أيضًا كتابًا آخر، مما يؤكد أن العاملين بالمطبعة لم يتأثروا كثيرًا بما يجري حولهم، إلا أن جذوة حماسهم الأولى بدأت تنطفئ بعد مقتل الصدر الأعظم، ثم توقفت المطبعة لأول مرة عن العمل عند رحيل مديرها لمدة قصيرة في مهام دبلوماسية. فقد كلف إبراهيم متفرقة من طرف الباب العالي بمأموريات لدى حكام أوروبا سنة

---

(١) "علمنا أن المطبعة تسير بصعوبة وبخطى بطيئة وذلك بسبب جهل مؤسسيها وفقدان الثقة. في: سعيد *جلبي"* رسالة من فورمون مبعوث ملك فرنسا إلى مكتبة السرايا موجهة إلى الوزير موربا بتاريخ ٢٦ مارس ١٧٢٩م. Omont, Missions…op.cit., T1, p.543

(٢) لاحظ سوسير هذا التراجع في نشاط المطبعة منذ ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ويعزي سبب ذلك إلى موت الوزير إبراهيم باشا. Saussure, Lettres…op.cit., p.95.

(١) نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة...** المصدر نفسه.

١١٥٠هـ/١٧٣٧م إلى ١١٥٢هـ/١٧٣٩م(١). إن تعطل المطبعة لمدة خمس سنوات كان نتيجة الصعوبات الأولى التي تنذر بتفاقم وضعية المؤسسة فيما بعد، هذا والحال أن إبراهيم متفرقة كان لا يزال على رأسها.

٣.١.٤- نقص الموارد المالية:

ذكر سوسير الصعوبات المالية التي اعترضت إبراهيم متفرقة والتي أجبرته على الترفيع في أسعار الكتب، ذلك أنه لم يكن بإمكانه مواصلة الاعتماد على مساعدات الأثرياء أو الباب العالي لتغطية النفقات المتزايدة للمؤسسة، وهذا ما تسبب في تأخر صدور بعض الكتب أوإلغائها. من ذلك أن متفرقة كان ينوي - كما رأينا - طبع جزء ثان لكتاب جهان نما. إلا أنه حرص على الحصول على مساعدات بعض الأغنياء من رعاة العلم والأدب قبل الإقدام على تنفيذ المشروع نظرًا لما يتطلب مثل هذا الكتاب من دقة ومهارة في إعداد الخرائط الكثيرة اللازمة له(٢). واضطر أخيرًا، في غياب موارد مالية كافية، إلى إلغاء المشروع وقام بالشيء نفسه لمشاريع أخرى.

لقد أثر العائق المادي كثيرًا في نشاط المطبعة التي لم تجد الدعم اللازم للقيام بمهمتها. فالأغنياء ورجال الفكر لم يسارعوا إلى تقديم المساعدات لها، مما جعلها تعجز عن مواصلة عملها والتوقف سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م، وكان سوسير قد تحسب للأمر قبل ربع قرن من وقوعه حين عبر عن تخوفات بعضهم من تعطل المطبعة بسبب قلة المرابيح التي حصلت عليها وعدم استعداد الأتراك لمساعدتها(٣). لقد خفت نشاط المطبعة بالفعل بعد موت متفرقة فلم

---

(٢) Encycl. Islam, 2éme éd. Article Ibrahim mutafarrika T3, p.1002.

(٣) Toderini De la littérature…op.cit., T3, p.213.

(١) Saussure, Lettres op.cit…, p.95.

تصدر سوى كتاب واحد هو **"معجم الصحاح"** بترجمة وانقولي قبل أن تتوقف طويلاً.

٤.١.٤- غضب الناسخين:

أثار أحد المؤرخين الفرنسيين المعاصرين لتلك المدة قضية "ثورة الناسخين" التي أجبرت الباب العالي على غلق المطبعة. فقد ذكر مينو سنة ١١٨٥هـ/١٧٧١م ما يلي:

"إن هؤلاء العمال (بالمطبعة) الذين كان من المفروض أن يقدموا فائدة لشعب هو في حاجة إلى النور، قد اضطروا إلى الاختفاء أمام غضب سبعة أو ثمانية آلاف ناسخ لم يعد لهم أي عمل بالقسطنطينية وبالمدن الكبرى الأخرى للخروج من البؤس، رغم أن عملهم بطيء ومليء بالأخطاء وغير قادر إلا على تبليغ بعض المعارف التي تتضمن كثيرًا من الخلل"(١).

لم يقدم المؤرخ مينو توضيحات حول طبيعة وقوع الحادثة وزمانها، بل إنه يقدم في فقرة أخرى من كتابه معلومات خاطئة عن هذه المطبعة، حيث يقول مثلاً:" إن كتاب القرآن والسنة قد طبعا في إستانبول"(٢). وهذا الأمر كما رأينا لم يقر شيخ الإسلام بجوازه في ذلك الوقت. كما أن المطبعة لم تقدر على مزاحمة الوراقة والوراقين الذين واصلوا عملهم دون أن يجدوا عناء في ترويج المخطوط، الذي بقي الوعاء الرئيسي كتابيًا، خاصة بالنسبة للقرآن الكريم ولكتب الشريعة والفقه التي تجد إقبالاً واسعًا من طرف جمهور المتعلمين. إن هذه البيانات لا تجعلنا نعتمد على شهادة هذا المؤرخ، بل إن هناك من المؤرخين من فنّد هذه الرواية مثل توديريني، الذي كان مواكبًا لتطور هذه المطبعة حيث كذب بصفة قطعية "الشائعات التي روّجها الأوروبيون حول

---

(٢) Mignot, Abbé de Scellieres, Histoire de l'Empire ottoman, Paris, le Clere, 1771, TIV, p.264.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٥٤.

ثورة الناسخين "الخيالية"(١). وعلى ضوء هذا يمكن القول إن ما ذكره مينو هو مجرد تخمينات استنتجها بعد اطلاعه على بعض كتب المستشرقين والرحالة الأوروبيين، الذين اهتموا في القرن ١١هـ/١٧م بقضية المطبعة وركزوا على الجانب الاجتماعي منها لتفسير تأخر ظهور المطبعة عند المسلمين. ومن بين هؤلاء نجد بيسباك ومارسيغلي وقالان الذين تحدثوا عن الخطر الذي يهدد رزق آلاف الناسخين. فكان أن استنتج في هذا السياق أن إمكانية " ثورة الناسخين" واردة لتفسير غلق المطبعة لفترة معينة.

٤.١.٥ - نقص الكفاءات بالمطبعة:

شكلت الصعوبات الفنية عائقًا جديًا في نشاط المطبعة وهي حسب بعض الأوروبيين السبب الرئيسي لتوقف المطبعة مثل الفارس ريفسكي، الذي لاحظ نقص العاملين الأكفاء بالمطبعة فقال:

"توقفت المطبعة بعد متفرقة ليس كما يدعيه البعض بسبب تذمر أو انتفاضة الناسخين أو لأسباب خيالية أخرى، ولكن بسبب نقص المطبعيين الماهرين(٢).

كان متفرقة بالفعل المحرّك الأساسي للمطبعة، إلا أن الصعوبات التي عرفتها المطبعة كانت قد ظهرت قبل وفاته بكثير، نظرًا إلى أن هذه المؤسسة توقفت عن العمل مرتين وهو لا يزال على قيد الحياة. ولكن الصعوبات تفاقمت بالفعل بعد موت إبراهيم متفرقة؛ مما جعل خليفته وتلميذه القاضي إبراهيم يخفق في القيام بمهمته ولا ينشر سوى كتاب واحد طيلة عشر سنوات، وهذا الأخير لم يجد عمالاً ماهرين لمساعدته في طبع الكتب مما جعله يهمل المطبعة وأدواتها.

٤.١.٦ - انعكاسات الأحداث السياسية:

---

(١) De la littérature…op.cit, T3, p.214.

(٢) Revicski, Traité…op.cit., p.XXIII.

كانت المطبعة مشروعًا سياسيًا؛ إذ تأسست من طرف الباب العالي وبقيت تحت رقابته بصورة أو بأخرى وفي خدمته. وكان لا بد أن تنعكس الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة بداية من سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، على حياة المطبعة فقد حدثت حروب وثورات كثيرة، كما تداول عدد من الوزراء على منصب الصدر الأعظم، منهم من كان متفتحًا على الفنون والآداب، ومنهم من لم يهتم البتة بالنشاط العلمي والثقافي، مما جعل المطبعة تمر بأزمات دون أن يرعاها هؤلاء. فمثلاً شغل سعيد جلبي، صديق ومساعد إبراهيم متفرقة في سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٥م، منصب صدر أعظم، كذلك رجب باشا وزير عثمان الثالث (١١٧٠-١١٧٧هـ/١٧٥٦-١٧٦٣م)(١) الذي كان راعيًا للآداب ورجال الفكر، لكنهما لم يسعيا إلى النهوض بالمطبعة. ثم انصرفت أنظار الباب العالي تمامًا عن هذه المؤسسة؛ إذ شغلته الحروب مع روسيا وبروسيا وبلاد فارس عن أي نشاط علمي(٢). وقد أشار السلطان عبد الحميد الأول إلى هذا الموضوع حيث علل في قراره الصادر سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م سبب توقف المطبعة بالحروب التي خاضتها الدولة العثمانية، مما جعلها لا تهتم بالمطبعة فتشتت عمالها(٣)، وعند موت إبراهيم أفندي القاضي، بقيت آلات الطباعة عند أرملته.

لقد كان لظروف تعطل المطبعة ضلع نسبيًا في هذه الأزمة، إلا أنه لا ينبغي أن تخفي عن الأنظار الأسباب الجوهرية أو الهيكلية الأساسية التي أعاقت نمو

---

(١) رجب باشا رجل آداب له مؤلفاته في الشعر والتاريخ كان معجبًا بالتقدم العلمي بأوروبا ، وقد بنى مكتبة كبيرة.

Encycl. Islam 1er éd. Suppl. pp.194-195 ; Lewis, The emergence…op.cit., p.48; Brown, Voyage…op.cit., T II, p.267.

(٢) انتهى صراع الدولة العثمانية مع روسيا بإمضاء اتفاقية كوشيك كينارج سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م الذي يقضي باستقلال القرم، كما أن الصراع مع الفرس انتهى بفقدان البصرة وقتيًا.

(٣) فرمان عبد الحميد الأول، توجد الترجمة الفرنسية له في كتاب تودوريني ، كما يذكر المستشرق الفرنسي بيانكي الأسباب نفسيًا تقريبًا، أي موت مدير المطبعة والحروب.

Toderini, De la littérature…op.cit., T3, p.225.

Bianchi, Notice…op.cit., p.35.

المطابع وحركة نشر الكتب بالبلاد الإسلامية والتي تتمثل أساسًا في مقاطعة المتعلمين لها، وصعوبة تغيير تقاليد القراء في التعامل مع وعاء جديد للكتابة.

٤.١.٧- تردد القراء:

لقد كان الحوار بين المحافظين والإصلاحيين أبعد ما يكون من أن يفضي في القرن ١٢هـ/١٨م إلى اتفاق حاسم حول قبول فكرة التجديد والإصلاح في أي مجال. وانطلاقًا من هذا الاعتبار وجد المطبعيون صعوبة في إدخال المطبعة والكتاب المطبوع في تقاليد المسلمين، نتيجة تردد القراء في استخدام هذا الوعاء الجديد وعدم إقبالهم على اقتنائه، إذ بقوا متعلقين بالمخطوط، ويمكن عدّ هذا السبب أهم سبب في فشل المطبعة. أما بقية الأسباب التي ذكرت فتعدّ ثانوية بالقياس إلى السبب الجوهري وكان بإمكان تخطيها لو وجدت المطبعة صدى لدى القراء المسلمين.

٤.٢- إعادة فتح المطبعة سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م:

ظهرت مبادرة جديدة لإعادة فتح المطبعة بعد أن تعطلت لمدة تزيد عن ربع قرن، وكانت صادرة عن موظفين سامين بالباب العالي، وبتأثير من الصدر الأعظم خليل حميد باشا.

٤.٢.١- مشروع أحمد واصف ورشيد أفندي:

قام خليل حميد وزير عبد الحميد الأول من ١١٩٧هـ/١٧٨٢م إلى ١١٩٩هـ/١٧٨٥م، بمجهود كبير لإصلاح مؤسسات الدولة(١)، فاستدعى مجموعة من الضباط الفرنسيين لإصلاح فرق المدفعية والبحرية العسكرية، وأسس مدرسة ضباط البحرية، حيث تولى أساتذة فرنسيون تدريس الفنون العسكرية، واستغل الوزير مدة السلم التي عقبت الحروب التي واجه فيها

(١) Berkes, The developpement…op.cit., p.57.

الجيش العثماني الجيش الروسي (١١٨٢-١١٨٨هـ/١٧٦٨-١٧٧٤م) والجيش النمساوي (١١٨٩هـ/١٧٧٥م) والفارسي (١١٨٨هـ/١٧٧٤م) للقيام بدعم من السلطان بمشاريع اجتماعية وثقافية. فأسس مكتبات ومدارس وجوامع وحنفيات ومطاعم شعبية(١) واهتم خصوصًا بالمطبعة بعدما طلب منه محمد رشيد أفندي (١١٦٧-١٢١٠هـ/١٧٥٣-١٧٩٧م) وأحمد واصف (توفي ١٢٢١هـ/١٨٠٧م) إعادة فتح المطبعة(٢)، وكان الأول يعمل رئيسًا للديوان وهو عالم في الجغرافيا والآداب(٣)، أما الثاني فهو مؤرخ البلاط(٤)، وقد بعثا رسالة إلى الصدر الأعظم طالبين فيها الترخيص لهما بإعادة فتح المطبعة، وكان رد خليل حميد إيجابيًا، إذ شجع هذه المبادرة وحرص على الحصول على خط شريف من السلطان عبد الحميد الأول في هذا الغرض.

٤.٢.٢- فرمان عبد الحميد الأول:

صدر هذا الفرمان في ١٨ ربيع الأول ١١٩٨هـ/١٧٨٤م وبدأ بتقديم لمحة تاريخية عن الأسباب التي دفعت أحمد الثالث إلى إدخال المطبعة، وتتمثل في نقص المخطوطات وارتفاع أسعارها، وتعرض بعد ذلك إلى دور متفرقة في تأسيس المطبعة بإستانبول، وذكر الكتب التي طبعت بها، ولاحظ أن هذه المنشورات أصبحت نادرة وباهظة الثمن وأبدى تخوفه من إتلاف آلات الطباعة أو تفرق المطبعيين المتبقين على قيد الحياة ولإنقاذ المطبعة، على حسب تعبيره وتعميم فوائدها لدى رجال الأدب والعلم، فقد قرر تجديد المطبعة وكلف بهذه المهمة عالمين من البلاط هما أحمد واصف ومحمد رشيد، وطلب منهما

(١) Encycl. Islam 2ème éd. T1, p.65 article Abd al-Hamid 1er.

(٢) لم نتمكن من العثور على هذه الرسالة التي تعرض إليها السلطان عبد الحميد الأول في قراره.

(٣) Encycl. Islam, 1éd. TIV. P.1187.

(٤) طبع كتاب تاريخ واصف في إستانبول سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م.

الاتصال بأرملة القاضي إبراهيم أفندي، آخر مدير للمطبعة قبل توقفها، لشراء آلات الطباعة. وذكر بتواصل قرار منع طبع كتب الشريعة الإسلامية واهتم الفرمان في النهاية بالإجراءات العملية لإدارة المطبعة، من ذلك جانب التمويل والأداءات وثمن الكتب واختيار المقر وانتداب العمال ومراقبة المطبوعات. ويتبين من خلال هذا الفرمان أن الأمر يتعلق بإعادة فتح المطبعة القديمة وليس تأسيس مطبعة جديدة، بدليل أنه سيتم إحياء آلات الطباعة القديمة. كذلك يمثل هذا القرار تواصل العمل بقرار أحمد الثالث، فيما يخص محتوى الكتب المرخص بنشرها واستمرار إشراف الدولة عليها.

٤.٢.٣- نشر ثلاثة كتب:

أصدرت المطبعة كتابين في التاريخ وآخر في النحو، وقد نشر الكتابان الأولان في السنة التي أعيد فيها فتح الورشة قبل أن نتوقف في العام التالي. وهذان الكتابان هما عبارة عن حوليات الدولة العثمانية[١]، ويمثلان تواصل الخط الذي رسمه مؤسسو المطبعة عند انطلاقها من الاهتمام بدرجة أولى بتاريخ سلاطين بني عثمان للأسباب التي سبق ذكرها. وكما حدث في السابق، فإن المطبعة تأثرت بالتطورات السياسية للدولة فكان أن توقفت لمدة سنة بسبب مقتل الوزير خليل حميد باشا راعي المطبعة الذي اتهم بالتآمر على السلطان. أما المسؤولان عن المطبعة أحمد واصف ومحمد راشد فقد تم إعفاؤهما من منصبهما[٢] قبل إعادة الأخير إلى وظيفته بعد سنة، وعندها صدر كتاب جديد سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م عنوانه **"الكافية لابن الحاجب"** مع ترجمة تركية لزاني زاده وهو كتاب في النحو العربي صدر باللغتين العربية والتركية.

---

(١) عنوان هذين الكتابين هما: **تاريخ سامي وشاكر وصبحي** (من ١١٤١هـ/١٧٢٨م إلى ١١٥٩هـ/١٧٤٣م) القسطنطينية ١١٩٨هـ/١٧٨٤م. **تاريخ عزي** (من ١١٥٧هـ/١٧٤٤م-١١٦٦هـ/١٧٥١م) القسطنطينية، ١١٩٨هـ/١٧٨٤م.

(٢) Toderini, De la littérature, …op.cit., T3, p.241.

ولم تنج المطبعة من العراقيل والصعوبات التي يعزوها الرحالة ميشو لأسباب مالية(١) إلا أن السبب الأساسي الذي بقي يعوق ازدهار هذه الورشة، فهو - كما رأينا- انصراف القراء عن إنتاجها وقلة تحمسهم للتعامل مع الكتاب المطبوع.

إن أهم تحول حدث في تلك الفترة في هذا المجال، هو تطور موقف العلماء إزاء فن الطباعة واقتناعهم بجدوى طبع كتب الفقه الإسلامي، فسمحوا بذلك باستثناء طبع كتاب القرآن الكريم ذاته(٢)، وبذلك ظهرت كتب الشريعة والفقه بداية من سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م(٣).

كذلك شهدت المدة نفسها ظهور مطبعة جديدة بالحرف العربي في عاصمة الإمبراطورية، إلا أنها كانت مشروعًا أوروبيًا وبالتحديد فرنسيًا. إلا أن له علاقة بالعثمانيين وأنه من المهم التعرف إلى نشاط هذه المطبعة ومدى تفاعلها مع مطبعة الباب العالي، وخاصة تأثيرها في المحيط الثقافي والعلمي الذي نشأت فيه.

٤.٢.٤ - مطبعة سفارة فرنسا ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م:

حاول سفير فرنسا شراء أحرف وقوالب وطوابع الطباعة العربية الموجودة لدى أرملة إبراهيم أفندي القاضي، قبل صدور قرار عبد الحميد الأول، وذلك بغرض إنشاء مطبعة تركية في مقر سفارته، خاصة أن الفرنسيين ساهموا بطريقة غير مباشرة في تأسيس مطبعة متفرقة. فورشات الطباعة الباريسية

(١) Michaud, Correspondance…op.cit., p.T3, p.58.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٩.
(٣) من بين هذه الكتب نذكر:
- شروط برغري، القسطنطينية ١٢١٨هـ/١٨٠٣م.
- شروط الصلاة، القسطنطينية، ١٢١٩هـ/١٨٠٤م.
- جواهر محمدية، القسطنطينية، ١٢١٩هـ/١٨٠٤م.
- فرائد الفوائد، القسطنطينية، ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م.

التي زارها السفير يرمسكز سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م، دفعت الأتراك للنسج على منوالها كما اشتغل أحد الفرنسيين بهذه المطبعة لفترة وجيزة وهو هولدرمان. كما اهتم العلماء الفرنسيون بمسيرة هذه الورشة وتتبعوا نشاطها وحرصوا دومًا على اقتناء منشوراتها. وقد فكروا في إقامة مطبعة تركية بإشرافهم لتوفير كتب الهندسة والأساليب العسكرية لتلاميذ مدارس المهندسين بإستانبول. وهذه المدارس يشرف عليها ضباط وأساتذة فرنسيون قدموا إلى المشرق في نطاق التعاون العثماني الفرنسي في المجال العسكري، وفي نطاق مساهمة فرنسا في إعادة تنظيم الجيش وتدريب الضباط حسب أحدث الطرق العسكرية. ويحتل بعض الفرنسيين مناصب حساسة في الجيش العثماني من ذلك أحمد باشا بونفال(١) والبارون دي توت(٢)، وغيرهم.

وفي سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، وصل إلى إستانبول السفير الفرنسي الجديد شوازول غوفي على رأس بعثة كبيرة مكونة من خبراء وضباط وأساتذة. وكانت مكلفة بتنفيذ المشاريع الإصلاحية للصدر الأعظم خليل حميد في مجال الجيش. وحرصًا منه على توفير الكتب الضرورية للمدارس العسكرية، وخاصة منها الترجمات التركية للكتب الفرنسية، فإن السفير قرر إقامة مطبعة في مقر سفارته فأحضر حروف الطباعة من بال بسويسرا وباريس(٣)، وأصدر مجموعة من الكتب التركية المتعلقة بالفنون العسكرية وبالبحرية والنحو التركي(٤).

---

(١) Encycl. Islam 2éd. ; T1, p.301 article Ahmad Pasha Bonneval.

(٢) Berkes, The development…op.cit., p.58.

(٣) Lettre du Comte De Choiseul à Anisson directeur de l'imptimerie royale de Paris datée de Constantinople le 25 janvier 1786 « in Rev. Bib.1895, p.233-234.

(٤) فوبان، فن لغمي، القسطنطينية، ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م.

- لافيت، فن محاصرة، القسطنطينية، ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م

- تريقات، رسالة في قوانين الملاحة، القسطنطينية ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م.

وتبرز من خلال هذه المنشورات أهمية العلاقات العثمانية الفرنسية في عدة مجالات والتي تترجم من جهة عن رغبة فرنسا في نقل بعض المعارف الحديثة إلى المشرق. وقد حرص العثمانيون على الاطلاع على أحدث الاكتشافات العسكرية واستعمالها. إلا أن تأثير المطبعة على المحيط الثقافي والعلمي كان محدودًا داخل الإمبراطورية، بما أنها اقتصرت على مواضيع معينة موجهة لفئة واحدة من المستفيدين يمكن اعتبار منشوراتها كتبًا مدرسية لمدارس المهندسين.

إلا أن هذا الإسهام الفرنسي سيتطور نتيجة السياسة الإصلاحية التي سلكها فيما بعد سليم الثالث واعتماده على خبراء فرنسيين، وكذلك نتيجة انتشار أفكار الثورة الفرنسية بالمشرق.

٤.٣- الحوار يتواصل:

٤.٣.١- مطبعة إستانبول: نموذج لمشاريع أخرى:

سنحاول التعرف فيما إذا كان لمطبعة إستانبول تأثير مباشر أو غير مباشر على مشاريع أخرى ظهرت في القرن ١٣هـ/١٩م. ونبدأ بدراسة أول مطبعة عربية إسلامية تظهر في مصر[١] في عهد محمد علي باشا، والتي تأسست بحي بولاق بالقاهرة سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م[٢]. وعلاقتها بمطبعة إستانبول.

- Vigueur, Eléments de la langue Turque, Constantinople, 1207/1787,

نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة ...** المصدر نفسه.

voir Bianchi, Notice…op.cit., p.36, Omont, Documents…op.cit., p.236

(١) أنشأ نابليون بونابرت مطبعتين بمصر أثناء حملته عليها سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م إلا أن حروف وتجهيزات هاتين المطبعتين تم إرجاعها إلى فرنسا عند جلاء القوات الفرنسية عن مصر سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م، ولم تصلح هذه المؤسسات الفرنسية كنموذج لمطبعة بولاق. رضوان، **تاريخ ...** المصدر نفسه، ص١٧-٢٤.

(٢) قدم رضوان هذا التاريخ، الذي بقي محل جدل، والذي استقاه من لوحة رخامية وضعت في مدخل مبنى مطبعة بولاق. رضوان، **تاريخ ...** المصدر نفسه، ص ٤٦.

ويوجد رأيان مختلفان في هذه النقطة بالذات. الرأي الأول: للمستشرق رينو الذي يرى أن محمد علي باشا أسس مطبعة بولاق رغبة منه في تقليد مطبعة إستانبول(١). وهنا يرفض أبو الفتوح رضوان هذا الرأي، ويعتقد أن محمد علي لم يكن قبل وصوله إلى مصر، مطلعًا على النشاط العلمي والثقافي الموجود بالعاصمة العثمانية، إذ لم يكن سوى رجل أمي يتعاطى التجارة بألبانيا، موطنه الأصلي قبل أن يلتحق بالجيش ويصل في النهاية إلى منصب والي مصر. ويمضي أبو الفتوح رضوان في تحليله فيقول: "إن رأي رينو " لا يفسر إنشاء المطبعة إذ لا بد من غرض يدفع الوالي إلى محاكاة مطبعة القسطنطينية. أما التقليد في ذاته فلا يمكن أن يكون سببًا"(٢) ويصل في النهاية إلى أن مطبعة بولاق كانت جزءاً من مشروع إصلاحي كبير(٣).

وإذا لم يتأكد التأثير لمطبعة إستانبول على مطبعة بولاق، فإن التأثير غير المباشر واضح. من ذلك أن المصريين كانوا على علم بوجود مطبعة بإستانبول بعد قرن من ظهورها. وكان لإبراهيم متفرقة كما رأينا دور أساسي في تمهيد الطريق لكل المبادرات والمشاريع التي حدثت فيما بعد بالبلاد الإسلامية في هذا المجال. إذ إنه وفر الأرضية القانونية الملائمة لانتشار فن الكتابة الجديد، إذ وفق في الحصول على فتوى من شيخ الإسلام وعلى قرار سياسي من السلطان العثماني يسمحان باستخدام هذا الفن، كما ساهم في تغيير عقلية المحافظين الرافضين لأي تغيير في مجال أوعية الكتابة، ولأي اكتشاف ثقافي أوربي آخر، ونظرًا إلى أن مصر كانت ولاية عثمانية، فما من شك أنها استفادت من هذا العمل التمهيدي الأساسي لإقامة مطابع على أراضيها.

(٣) Reinaud, « De la Gazette arabe et Turque imprimée en Egypte » in :**Journal Asiatique**, série 2, TVIII, 1831, p.238.

(١) رضوان، تاريخ، ص ٢٩ - ٣٠..
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.

هناك ولاية عثمانية تأثرت بمؤسسة متفرقة وهي تونس التي أقامت أول مطبعة إسلامية بالحروف البارزة لها عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٩م. وهذا التأثير على عكس مصر، كان مباشرًا، إذ اقتدى مؤسسو الورشة بمشروع إستانبول. من ذلك أن أحد ضباط باي تونس ويدعى كاليغاريس كتب رسالة شبيهة برسالة وسيلة الطباعة سماها: **" رسالة في منفعة إقامة مطبعة للكتب العربية في محروسة تونس"**(١) ويعدد فيها مؤلفها مزايا استخدام فن الطباعة على غرار رسالة متفرقة. وكان مؤلف الرسالة على علم بمنشورات إستانبول الأولى، وخاصة كتاب الجغرافيا "جهان نما" إذ يقول:

"وقد كانت المطبعة سابقًا في إستانبول طبعوا فيها كارطة الدنيا بالتركي وعدة كتب وغير ذلك ثم بطلت"(٢).

إنه بالرغم من العمل الريادي الذي قام به الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد وسعيد جلبي وإبراهيم متفرقة في سبيل نشر فن الطباعة بالعاصمة العثمانية، وبالولايات العثمانية أيضًا فإنه لم يقع القضاء على كل المعوقات وبالخصوص إقناع فئات عريضة من المتعلمين بتعويض المخطوط بالكتاب المطبوع، إلا بعد وقت طويل، لأنه ليس من السهل تغيير العقليات، وخاصة لدى أمة لها تقاليد راسخة في مجال الكتاب والكتابة. وهنا نشير إلى عامل فني مهم أسهم بقسط وافر في عملية التحول من المخطوط إلى المطبوع وهو "فن الطباعة الحجرية".

٤.٣.٢ - المطبعة الحجرية : "جسر بين الكتاب المخطوط والمطبوع":

(١) Demeerseman, « Une page nouvelle de l'histoire de l'imprimerie en Tunisie » in **IBLA**, n°75, 1956, pp.276-280, 306-309.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

اكتشف الألماني سنفلدر فن طباعة النصوص المكتوبة على الحجارة الكلسية (La lithographie) سنة ١٢٠٩هـ/١٧٩٦م. وسرعان ما انتشر هذا الفن في أوروبا ثم في الشرق.. ويتميز الكتاب المطبوع بهذه الطريقة بشبهه الكبير بالمخطوط وهو لا يمثل بالتالي أي قطيعة مع الماضي ولا يتسبب في أي صدام مع العادات الثقافية، إلا أن فن الطباعة الحجرية مع ذلك أسهم إسهامًا متميزًا في تعويد القراء على قراءة الكتاب المطبوع. ومن هنا كان إقبال المسلمين على الطباعة الحجرية كبيرًا، حيث كانت لها مزايا كثيرة ومهمة ولها علاقة وطيدة بخصوصيات الثقافة العربية الإسلامية.

- مزية تقنية:

تتميز المطبعة الحجرية بقدرتها على استنساخ النصوص والخرائط والرسوم بمرونة، الأمر الذي لا تقدر عليه المطبعة بالحروف البارزة بمثل تلك المهارة والسرعة(١).

- مزية فنية:

للمطبعة الحجرية قدرة كبيرة على نسخ الخط العربي البديع بكل أمانة وسهولة نظرًا إلى أنه يكتب على الحجارة بخط اليد(٢) وبذلك تستجيب لأذواق الشغوفين بالخط العربي، فكانت هذه إحدى الأسباب التي تفسر تواصل طبع مصحف القرآن الكريم بهذه الطريقة إلى اليوم(٣).

- مزية ثقافية:

(١) Demeersman, « Une parente pauvre de l’imprimerie arabe et tunisienne : La lithographie : in : **IBLA,** n°64, 1953, p.351.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٣) مطبعة الأوفيست هي امتداد للمطبعة الحجرية.

لا تسبب الطباعة الحجرية قطيعة مع عادات المتعلمين القرائية ومع استئناسهم بالكتابة بخط اليد(١)، وفي الآن نفسه تنسخ مئات النسخ من الكتب.

- مزية اجتماعية :

تتمثل في قدرة الناسخين على تعاطي هذا الفن الجديد والتحول تدريجيًا من مهنة الناسخ إلى مهنة المطبعي، وبذلك فإن الطباعة الحجرية لا تقضي على مورد رزق صنف الناسخين.

- مزية اقتصادية:

لا تتطلب إقامة المطبعة أموالاً طائلة مثل ما تتطلبه المطبعة بالأحرف المعدنية المنفصلة. ويعتبر المشكل المالي من أكبر المشاكل التي اعترضت المطابع العربية التي أقيمت بحلب والشوير وإستانبول، وتسبب في توقف بعضها لفترات طويلة. تعدّ المطبعة الحجرية بفضل ما تقدمه من فوائد(٢) جسرًا بين المخطوط والكتاب المطبوع، ولا تتسبب في قطيعة مع العادات الثقافية، بل إنها تعمل على إعداد المسلمين نفسانيًا لقبول أحرف الطباعة البارزة المنفصلة(٣). هذا التحول التدريجي من المخطوط إلى المطبوع الذي يحدث بفضل المطبعة الحجرية يتوافق زمنيًا مع احتداد الحوار بين المحافظين والمجددين حول تجديد المجتمع الإسلامي. وهذان التياران استفادا من خدمات فن الطباعة لنشر آرائهما ومشاريعهما، فكان أن ظهرت

---

(٤) Demeersman, « Une parente …op.cit., »p.361.

(١) انظر تفاصيل أكثر في : « La lithographie » in :**Journal asiatique**, 1834, T XIV, p.266

(٢) لا ينبغي أن ننسى أن المطبعة الحجرية لها عدة عيوب، كأن تنسخ كتبًا مليئة بالأخطاء بما أن الناسخ يصعب عليه فنيًا إصلاح كل الأخطاء وكذلك قدرتها على استنساخ الكتب بالعدد نفسه الذي توفره المطبعة بالحروف الناتئة.

الصحف والكتب العلمية والإسلامية والمدرسية وغيرها، وازدهرت في القرن ١٣هـ/١٩م(١).

هذه البداية المحتشمة للمطبعة العربية بالمشرق، كان لا مفر منها؛ إذ وجب المرور بمرحلة تحول صعبة لدفع المتعلمين المسلمين إلى استعمال أدوات عمل ثقافية جديدة. وقبل ذلك لإعدادهم للانفتاح على مجتمعات غير إسلامية واستعارة بعض مكتشفاتها وتفهم آرائها، فكان التردد والحيرة، وكان الحوار الشاق والطويل الذي تواصل بين المصلحين والمحافظين لأكثر من قرن بعد ظهور مطبعة إستانبول حتى يدخل فن الكتابة الجديد في تقاليد المجتمع الإسلامي وعاداته.

خاتمة الفصل الرابع:

عرفت الدولة العثمانية فن الطباعة في فترة انفتاحها على الغرب وعلى تقنياته واكتشافاته، وتعدّ المطبعة أكبر المنجزات العلمية والثقافية للسلاطين العثمانيين في القرن ١٢هـ/١٨م. ففي :"عهد الخزامى" تمكن الإصلاحيون من تحقيق مآربهم وإقناع المحافظين بجدوى هذا الاكتشاف. ويعتبر المصلح إبراهيم متفرقة، في هذا الصدد، أبرز مؤسسي المطبعة؛ إذ ساهم في إقناع كل

---

(٣) ظهرت أول مطبعة بمصر عام ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م، وفي فلسطين عام ١٢٦١هـ/١٨٤٦م، وفي تونس عام ١٨٤٩م، وفي المغرب عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٣م، وفي اليمن عام ١٢٩١هـ/١٨٧٧م، وفي الحجاز عام ١٢٩٦هـ/١٨٨٢م، وظهرت ٢٧٠٠ مجلة ودورية من عام ١٢١٦هـ/١٨٠٠م إلى ١٣٤٩هـ/١٩٢٩م حسب طرازي، فيليب، **تاريخ الصحافة العربية**، بغداد، المثنى ١٩٦٧ ج٤، ص ٤٩٤ .

لقي فن الطباعة صدى واسعًا في القرن ١٣هـ/١٩م، وتحدث الأدباء والشعراء والمفكرون عن مزاياه ونقتصر هنا على تقديم هذا البيت الشعري للشيخ أحمد الأزهري حول الموضوع:

لله مطبعة بحسن طباعها أحيت عظام الكتب وهي رميم

انظر أدبيات المطبعة في كتاب: طرازي، فيليب، **تاريخ الصحافة**، ج ١، ص ٥-٧ وعن فوائد المطبعة الحجرية انظر قصيدة الشاعر التونسي في مجلة إيبلا: **IBLA**, n°64, 1953, p.378

الأطراف القريبة من الباب العالي بأهمية المشروع، قبل أن يصبح مديرًا لأول مطبعة إسلامية بالحرف العربي في الإمبراطورية.

ما هي توجهات مطبعة إستانبول؟

اتجهت المطبعة نحو طبع كتب غير متعلقة بالفقه والشريعة، بناء على فتوى شيخ الإسلام وقرار السلطان أحمد الثالث. فاختارت بضع مجالات معرفية للتركيز عليها، فكان أن نشرت كتبًا في الجغرافيا واللغة وفنون الحرب والتاريخ، وهذا المجال الأخير احتل نصيب الأسد في منشوراتها: ثلاثة عشر كتابًا من جملة عشرين. والغرض من هذا الاختيار هو إبراز أمجاد سلاطين بني عثمان وتدعيم شرعيتهم التاريخية. إلا أنه بالإضافة إلى هذا الهدف رمى المشرفون على المطبعة إلى إقحام بعض الأفكار الإصلاحية ودعوا إلى التفكير في أسباب الهزائم وانقراض الدول السابقة، فكانت المطبعة بمثابة منبر لدعاة الإصلاح للتعريف بآرائهم الإصلاحية والدعوة للتفتح على الغرب. لذلك يمكن اعتبار المطبعة مؤسسة أنشأها ورعاها رجال السياسة لخدمة الباب العالي سياسيًا أكثر من خدمة الرعية ثقافيًا وعلميًا.

ما إسهام منشورات مطبعة إستانبول في تنشيط الحياة الفكرية والعلمية داخل الإمبراطورية؟

نظرًا لعدم توجه المطبعة نحو طبع كتب تتعلق بالشريعة والفقه، فإنها لم تجد إقبالاً من طرف القراء، بل على العكس من ذلك بقي المخطوط الديني رائجًا بدون منازع في أوساط المتعلمين، وبالإضافة إلى محتوى منشورات المطبعة الذي لم يجلب القراء، فإن تردد المتعلمين وعدم تحمسهم لاقتناء الكتاب المطبوع كان سببًا هامًا في عدم رواج هذه المنشورات. فالمسلمون بقوا متعلقين بالكتابة بخط اليد ولم يكن من السهل تغيير عاداتهم القرائية في وقت قصير من طرف مطبعة واحدة مهما بلغ نشاطها. بل إن هذه المطبعة الوحيدة بقيت ظاهرة منعزلة وغريبة عن المناخ الثقافي والعلمي العام للإمبراطورية. إذ لم تصحبها مشاريع أخرى لتحقيق التكامل ولإثراء الحياة الفكرية. من ذلك مثلاً إحداث مدارس عصرية أو مكتبات

أو مطابع أخرى وغيرها من المؤسسات الثقافية والعلمية. ونظرًا لضعف رواج الكتاب المطبوع، فإن المطبعة لم تستطع أن تشع على الحياة الثقافية بالشرق الإسلامي إلا قليلاً. ولم تتمكن من نقل المعارف الحديثة وتبادل الأفكار بل إنها بقيت تتخبط طيلة نصف قرن من انطلاقتها في مشاكل مادية وإدارية معقدة، الأمر الذي تسبب في تعطلها وتوقفها لمدة أطول من المدة التي بقيت فيها مفتوحة.

إلا أن هذا التخبط والاضطراب في حياة أول مطبعة إسلامية بالحرف العربي كان لا مفر منه فقد ظهرت في مجتمع متعلق بالمخطوط وبالتراث المكتوب ومنغلق على نفسه، وإن ظهرت فيه بوادر التفتح على مجتمعات وحضارات أخرى. ومع ذلك فقد وفقت المطبعة تدريجيًا في غرس تقاليد جديدة لدى المتعلمين المسلمين تتمثل في استخدام أدوات العمل الثقافي العصرية آنذاك والتعامل مع الإنتاج الفكري المطبوع. وقد جاء ذلك نتيجة اقتناع وتفهم المستفيدين بأهمية فن الكتابة الجديد في التقدم العلمي والثقافي للمجتمع الإسلامي. كما أنه من أبرز أعمال مؤسسي مطبعة إستانبول نجاحهم في تمهيد الطريق لمشروعات أخرى مماثلة بعد تغلبهم على المعوقات القانونية بحصولهم على موافقة علماء الدين الإسلامي على استخدام فن الطباعة مع بعض الشروط، فظهرت مطابع إسلامية كثيرة بعد قرن من ذلك في بعض الولايات العثمانية. وهذه المطابع ساهمت في ازدهار حركة نشر الكتب والصحف والمجلات، وكلها ساعدت على نقل الآراء والعلوم الحديثة وفي إحياء كتب التراث وفي إدخال حركية جديدة في الحياة العلمية والأدبية في القرن ١٣هـ/١٩م، حتى عرف ذلك العصر " بعصر النهضة".

الخاتمة العامة

يعتبر إدخال المطبعة العربية إلى المشرق علامة انفتاح للإمبراطورية العثمانية على العالم الغربي وبداية تنفيذ مشروع إصلاحي كبير، إلا أن الكتاب المطبوع لم ينجح في نقل الآراء الجديدة ولا في نشر العلوم على نطاق واسع على غرار ما حدث بأوروبا. ذلك أن المسلمين والمسيحيين كان لكل منهم مفهوم خاص لفن الطباعة مثلما كانت لهم نظرة خاصة للمخطوط. فوعاء الكتابة التقليدي كان محل نقد لاذع من قبل الطوائف المسيحية، فهو الذي نقل الأخطاء وحرّف النصوص المسيحية المقدسة وروّج الأضاليل. ويرى المسلمون من جهتهم أن المخطوط قد أضر كثيرًا بالآداب والعلوم فهو لم ينقل المؤلفات الكبرى للعلماء المسلمين، ولم يحافظ عليها؛ مما جعلها تختفي أو تتلف نتيجة للحروب والكوارث الطبيعية. كما أن المخطوط يزخر بالأخطاء النحوية نتيجة إهمال الناسخين وحرصهم على جمع المال الوفير بأقل جهد ممكن.

وإذا ما اقتنع المسيحيون بجدوى الطباعة منذ القرن ١٠هـ/١٦م، ورحّبوا بالكتاب العربي المطبوع بأوروبا، بل وساهموا في عملية النشر العربي هناك وحاولوا إدخال المطبعة إلى المشرق منذ ذلك العهد، فذلك لأن اكتشاف المطبعة جاءهم من حضارة غير غريبة عنهم وهو محل ثقة بالنسبة إليهم، لأن إخوانهم في الدين المسيحي بأوروبا قد استخدموا فن الطباعة واقتنعوا بفوائده، وكذلك لأنهم اكتشفوا بأن الكتاب المطبوع هو أنجع وسيلة لتنشيط الحياة الدينية وإعادة الاعتبار لطوائفهم داخل الإمبراطورية العثمانية.

أما بالنسبة للمسلمين فالمطبعة لم تكن مجرد أسلوب فني جديد لنسخ الكتب بكثرة، بل هي أكثر من ذلك بكثير؛ فهي وسيلة لتغيير نمط حضاري كامل وإدخال روح جديدة للثقافة والعلوم. وفي هذا الإطار دار حوار بين المجددين

والمحافظين حول موضوع الكتاب المطبوع والمخطوط، والمطبعي، والناسخ، حول حروف الطباعة المعدنية والخط العربي الجميل، حول المخطوط بعدّه شاهدًا على نمط حضاري قديم، والكتاب المطبوع بعدّه ممثلاً لنمط حضاري حديث مستنبط من الغرب. وهكذا فإن الحوار دار حول قضية جوهرية تتمثل في سبل إصلاح وتحديث المجتمع الإسلامي لمواكبة التقدم العلمي والنهوض بالأمة والتصدي للتحديات الغربية. ولم تكن الأطراف المتجادلة على قدم المساواة عدديًا. إلا أن المجددين، رغم قلة عددهم ، وجدوا الفرصة سانحة لتنفيذ بعض آرائهم الإصلاحية عندما وجدوا مناخا ملائما اتسم بتفتح الباب العالي على الغرب، في عصر عرف "بعصر الخزامى" وقاموا بإدخال أول مطبعة إسلامية بالحرف العربي إلى إستانبول. وهذا العمل يمثل منعرجا حاسما في التاريخ الإسلامي الحديث إذ أنه يعني إقرار مبدأ إدخال التقنيات والاكتشافات الأوربية في البلاد الإسلامية والتفتح على الغرب، بعد انغلاق تام وحروب دامية عبر العصور المختلفة بين بلاد الإسلام وبلاد المسيحية، وبإقامة مطبعة أصبح من اليسير على الإصلاحيين بث آرائهم الإصلاحية ونشر الفنون والعلوم الحديثة.

وبما أن الشرق والغرب يختلفان في نمط حضارتيهما، فكانت نتائج المطبعة أيضا مختلفة. فنشر الكتب المسيحية ساهم عند الأرثوذكس وكذلك عند المارونيين، في بلورة هوية طوائفهم وتدعيم الروابط الروحية داخل كل طائفة. وفن الطباعة كان وسيلة متميزة لمقاومة الأضاليل والأخطاء الدينية التي نشرها المخطوط في أوساط المسيحيين ببلاد الشام. إلا أن كل مطبعة مسيحية اتخذت موقفًا مختلفًا عن مثيلاتها في الصراع الطائفي. فمطبعة الشوير كانت حليفة كنيسة روما، وقد قامت بنشر كتب للتعريف بالمذهب الكاثوليكي. وللتصدي لهذا التسرب الكاثوليكي قامت مطبعة بيروت برد الفعل فلم يكن بالتالي هناك أي تبادل للأفكار بين هذه الطوائف ولم يحدث أي تواصل معرفي بينهما، إذ لم

تنشر المطابع المسيحية أي كتاب علمي. لأن مفهوم المطبعة عندهم كان يعني تسخير الكتاب المطبوع للتعريف بالمذهب و"بالطريق الصحيح نحو الإيمان".

وتبقى بلاد الشام مدينة للطائفة الملكية، بأنها أول من أسست مطبعة عربية هناك، وتغلبت على كل العقبات وغرست تقاليد جديدة في التعامل مع وعاء الكتابة الجديد. إلا أن هذا العمل لم يكن ليخلو من نقائص. فإشعاع المطابع المسيحية **كان محدودًا جدًا**، إذ لم يقبل المسيحيون على استخدام هذه الكتب إلا نادرًا، وهذا نظرًا لانتشار الأمية بينهم، ونظرًا لأن محتوى المنشورات لم يكن ليسمح بانتشارها على نطاق واسع داخل البلاد الإسلامية. ثم إن هذه المطابع واجهت مشاكل كثيرة ولم تصمد أمامها إلا مطبعة الشوير.

وتختلف مطبعة إستانبول في توجهاتها عن المطابع المسيحية ببلاد الشام، فقد اهتمت فقط بطبع كتب لا تتعلق بالفقه والشريعة الإسلامية، وفقًا لفتوى شيخ الإسلام وقرار السلطان العثماني. وكان اختيارها منصبًا نحو نشر كتب التاريخ بالخصوص لأغراض سياسية، فهي وسيلة لدعم الشرعية التاريخية للسلاطين العثمانيين، وفي الآن نفسه منبرًا للإصلاحيين، إلا أن إشعاع مطبعة إستانبول كان على غرار مطابع بلاد الشام محدودًا. فهي ظاهرة غريبة ومنعزلة في محيطها الثقافي. فلم تجد مؤسسات علمية وثقافية حديثة لمساندتها، هذا بالإضافة إلى مزاحمة المخطوط لها، الذي حافظ على امتياز نقل كتاب القرآن الكريم وكتب الشريعة والفقه. وفي احتفاظ المخطوط بهذه المكانة، امتداد لنمط الحضارة التقليدي.

إن الحوار بين المجددين والمحافظين حول تجديد الحضارة الإسلامية لم يكن لينتهي مع إدخال المطبعة، بل تواصل على امتداد القرون الموالية، ولم تقع استعارة كثير من المكتشفات الأوروبية في القرن ١٢هـ/١٨م، بسبب تردد العلماء والمحافظين بصفة عامة في قبول أي تغيير، أما فن الكتابة الجديد فإنه لم يدخل في تقاليد المسلمين إلا بعد قرن من إقامة أول مطبعة بإستانبول،

وعندها أصبحت المطبعة بمثابة المحرك الرئيسي لحركة النهضة التي ظهرت في القرن ١٣هـ/١٩م. ويمكن القول إن يقظة المجتمع الإسلامي الحديث قد بدأت منذ بداية القرن ١٢هـ/١٨م مع انطلاق الحوار حول تحديث هذا المجتمع، ومع الانفتاح على أوروبا واستعارة مكتشفاتها، والتي من أبرزها أداة الطباعة التي أسهمت فيما بعد، في نشر العلم ونقل الأفكار الإصلاحية. وزاد في تدعيم هذا المسار ظهور حركة دينية إصلاحية في القرن نفسه في شبه الجزيرة العربية بقيادة محمد بن عبد الوهاب، ثم بروز مشروع إصلاحي فيما بعد في مصر بقيادة محمد علي باشا، وفي تونس بقيادة خير الدين باشا وغيرها من المشاريع الإصلاحية. هذا وإن بحوثًا أخرى، على ضوء وثائق ومعلومات جديدة حول المطبعة العربية في القرن ١٢هـ/١٨م، قد تؤكد هذه النتائج.

الرسومات

نماذج من الكتب العربية المطبوعة في إستانبول وبلاد الشام وأوروبا

(طباعة بالحروف البارزة)

الرسم رقم (١)

أول أبجدية عربية ظهرت في كتاب "رحلة إلى الأماكن المقدسة في القدس" لبرايدنباخ طبع في مدينة ماينس سنة ١٤٨٦م، طبع الكتاب بواسطة القوالب الخشبية.

Bernard De Breydenbach, Voyage et Pélerinage d'outer mer du Saint Sépulcer de la cité de Jérusalem; Mayence 1486.



Gim. Gim. Te. Te. Te. Be. Alif

Ra. Dil. Dil. Ha. Ha. Ha. Hae

Quif. Quif. Da. Da. Ta. Ta. Zey.

Nun. Mim. Mim. Mim. Lim. Lim. Quif.

Ay. Ay. Dad. Dad. çad. çad. Nun.

Caf. Fe. Fe. Gay. Gay. Gay. Ay.

He. He. Xin. Xin. çin. çin. Caf.

ye. Lemalif. Lemalif. Lemalif. Guau. He. He.

ye. ye.

Estos son los carateres y nonbres delas letras arauigas, las quales todas se puedē suplir cõ nr̃as letras latinas o castellanas. de manera que pa la comun algarauia no ay necessidad delas saber ni conocer

c iiij

الرسم رقم (٢)

أبجدية عربية ظهرت في كتاب "وسائل تعلم قراءة اللغة العربية ومعرفتها" للعالم بدرو ألكالا طبع في مدينة غرناطة سنة ١٥٠٥م. طبع الكتاب بواسطة القوالب الخشبية

Pedro De Alcala, Arte para ligermente saber la lengua aravica, Granada, 1505.



بسم الله الحي الأزلي

صلاة الساعة التاسعة =
هلموا نسجد ونركع للمسيح
ملكنا و الاهنا
التالت و الخمسون اللهم
باسمك خلصني و بقوتك

الرسم رقم (٣)
(أول كتاب طبع بالعربية في أوروبا)
كتاب صلاة السواعي المطبوع في مدينة فانو (قرب البندقية - إيطاليا) سنة ١٥١٤م.



الرسم رقم (٤)
كتاب المزامير متعدد اللغات المطبوع في مدينة جنوة (إيطاليا) سنة ١٥١٦م

الفن الاول من الكتاب الاول في حد الطب وموضوعاته من الامور الطبيعية يشتمل على ستة تعاليم

الفصل الاول من التعليم الاول من الفن الاول من الكتاب الاول من كتاب القانون

في حد الطب

الرسم رقم (٥)
كتاب القانون الثاني في الطب لابن سيناء المطبوع في مدينة روما (إيطاليا) عند الميدتشي سنة ١٥٩٣م



كل خط مستقيم محدود لنا ان نقسمه قسمة يكون سطحه في احد قسميه كمربع قسمة الاخر

لنكن الخط آب فنرسم عليه مربع آجدب بالشكل السادس والاربعين من الاولى وننصف ضلع آج على نقطة ة بالشكل العاشر من الاولى ونصل ب ة بخط مستقيم فلان زاوية ب آ ة قائمة وهي مع زاوية آب ة اقل من قائمتين بالشكل السابع عشر من الاولى فضلع ب ة من مثلث آب ة اعظم من ضلع آ ة بالشكل التاسع عشر من الاولى ونخرج ة آ في جهة آ على استقامته الى غير النهاية ونفصل منه

الرسم رقم (٦)
كتاب الهندسة لإقليدس المطبوع في مدينة روما (إيطاليا) عند الميدتشي سنة ١٥٩٤م



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه الاعانة ※ الحمد لله رب العالمين

امابعد باني وقفت على الكتاب المسمي بنزهة المشتاق ※ في
اختراق الافاق ※ وتاملت معانيه ومقاصده واستحسنت
مصادره و موارده ※ الا انه اكثر القول واعاد ※ ونقص
من ذكر بعض الاقاليم وزاد ※ على حسب ما احب واراد ※
فاخذت من كلامه ما وافق المراد ※ وما به الحاجة ملجئة الي
معرفة المراسي والبلاد ※ ومن الله عز وجل اسال العون
لا اله الا هو وهو حسبي ونعم الوكيل ※

الكلام علي صورة الارض المسماه بالجغرافيا

فنقول ان الذي تلخص من كلام العلما ※ وجلة الفلاسفة
القدما ※ ان الارض مدورة كتدوير الكرة والما
لاصق بها وراكد عليها والهوا محيط بالما من كل
الجهات ثم اخترم من الهوا ما ماس فلك القمر بسبب
الحركة وانسباح المتماسين فهو النار المحيطة بالهوا
متصاغرة

الرسم رقم (٧)
كتاب نزهة المشتاق للإدريسي المطبوع في مدينة روما (إيطاليا) عند الميدتشي سنة ١٥٩٢م.



تاريخ المسلمين
من
صاحب شريعة الاسلام ابي القاسم
محمد الى الدولة الاتابكية *
تأليف
الشيخ المكين جرجس بن العميد ابي
الياسر بن ابي المكارم بن
ابي الطيب

ASSVR GO PRESSA

ختم في مدينة ليدا بآلات
توماس الاربني

الرسم رقم (٨)
كتاب تاريخ المسلمين للمكين جرجس بن العميد
المطبوع في مدينة ليدا (هولندا) عند توماس الأربني
سنة ١٦٢٥م.



العهد والشروط التى شرطها محمد
رسول الله لاهل الملة
النصرانية

ختم في مدينة باريس علي يد الحقير
انطون ويتراي
سنة الف ستمايه وثلاثين لسيدنا
يسوع المسيح

الرسم رقم (٩)
كتاب العهد والشروط المطبوع في مدينة باريس (فرنسا)
سنة ١٦٣٠م

BREVES
ARABICAE
LINGVAE
INSTITVTIONES.

REV. PATRIS
PHILIPPI GVADAGNOLI
CLERIC. REG. MINORVM
Procuratoris Generalis.



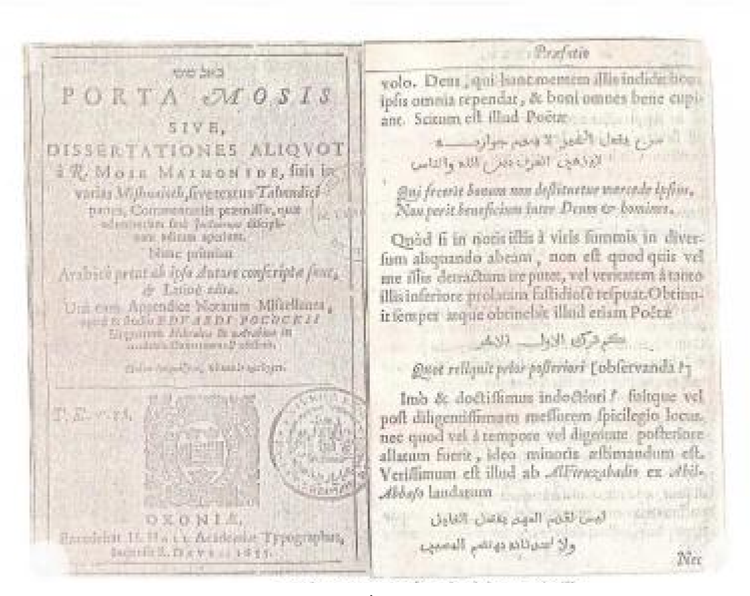
ROMAE,
Ex Typographia Sac. Congregationis de Propaganda Fide.
M. DC. XLII.

طبع هذا الكتاب المبارك على يد الحقير الشماس يوسف البسلوقيتي
من عيلة بيت هلال المرحومين في جبل لبنان المبارك

Excudebat Ioseph Dauid Luna, Maronita.

SVPERIORVM PERMISSV.

الرسم رقم (١٠)
كتاب النحو العربي المطبوع في مدينة روما (إيطاليا) عند مجمع نشر الإيمان سنة ١٦٤٢م



PORTA MOSIS
SIVE,
DISSERTATIONES ALIQVOT
à R. MOSE MAIMONIDE,
Nunc primùm
Arabicè prout ab ipso Autore conscriptae sunt,
& Latinè editae.
OXONIÆ,

Præfatio

volo. Deus, qui hanc mentem illis indidit ipsis omnia rependat, & boni omnes bene cupiant. Scitum est illud Poëtæ

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

Qui fecerit bonum non destituetur mercede ipsius,
Non perit beneficium inter Deum & homines.

Quòd si in notis illis à viris summis in diversum aliquando abeam, non est quod quis vel me illis detractum ire putet, vel veritatem à tanto illis inferiore prolatam fastidiosè respuat. Obtinuit semper æque obtinebit illud etiam Poëtæ

كم ترك الأول للآخر

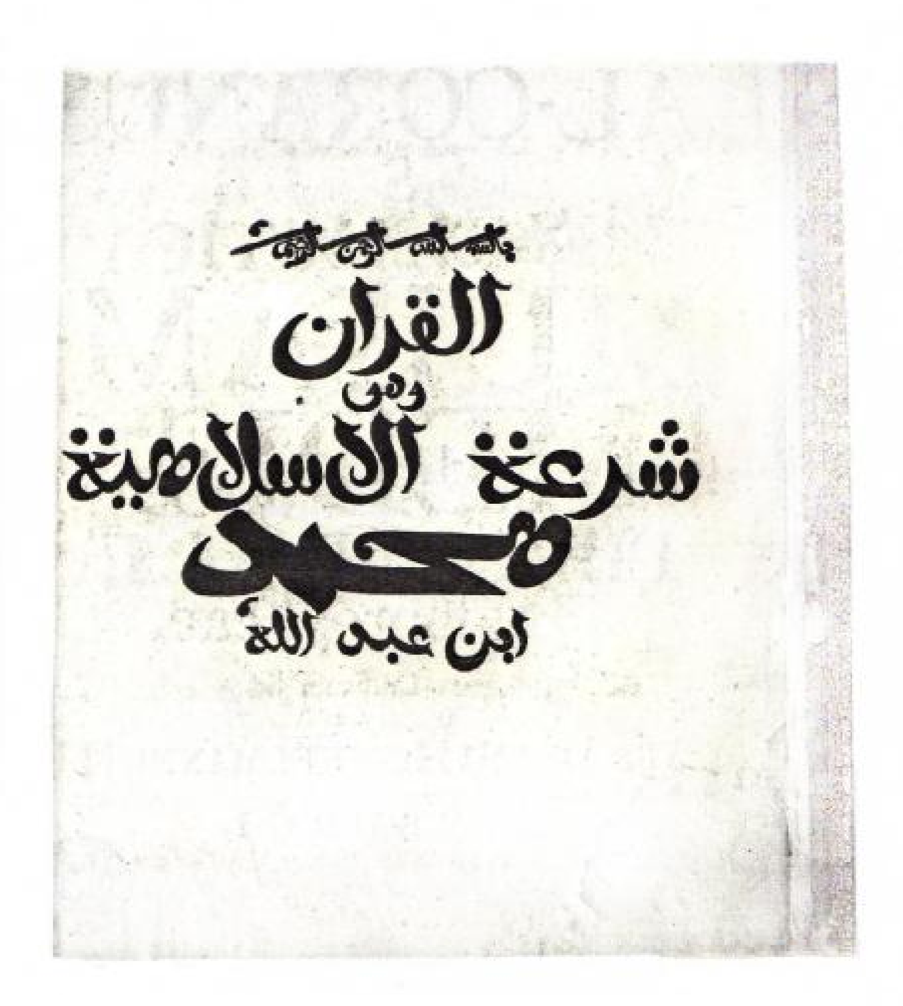
Quot reliquit prior posteriori [observanda!]

Imò & doctissimus indoctiori … vel post diligentissimam messorem spicilegio locus, nec quod vel à tempore vel dignitate posteriore allatum fuerit, ideo minoris æstimandum est. Verissimum est illud ab *AlFirouzabadio* ex *Abil-Abbaso* laudatum

ليس لقديم العهد يفضل القايل
ولا لحديثه يهتضم المصيب

Nec

الرسم رقم (١١)
كتاب ابن ميمون المطبوع في مدينة أكسفورد (إنجلترا) سنة ١٦٥٥م



الرسم رقم (١٢)
كتاب القرآن الكريم المطبوع بمدينة هامبورغ (ألمانيا) سنة ١٦٩٤م



كتاب || الاورولوجيون اى الصلوات المفروضه مع باقي ||
الطقوس المرسومه علي مدار السنه || قد طبع الان حديثا في اللغة
اليونانيه والعربيه || بالتماس ومصارفة الاب الطوباني || كير اثاناسيوس
البطريرك || الانطاكي سابقا ۞ || بعصرن السيد الامجد الرفيع الشان ۞
متقلد || حكم جميع بلاد ونكر وفلاخيا ۞ كير كير يوانو || قسطنطين
باصارابا ويوضا المكرم || في تقليد رياسة كهنوت الاب المطران الكلي ||
الغبطه كير ثاوضوسيوس للبلاد المذكورة اعلا || في بوكرشت المحميه من
بلاد انكروفلاخيا || في سنة الف سبعمايه واثنين مسيحيه || بيد
الكاهن في المتوحدين انثيموس || الكرجي الاصل ۞

الرسم رقم (١٣)
كتاب القدسات الثلاثة الإلهية (الأورولوجيون) المطبوع في مدينة بوخاريست (رومانيا) سنة ١٧٠١م



كتاب
الزبور الشريف المنطوق به من الروح للقدس
على فم النبي والملك داود وعدته مايه وخمسون
مزمورًا ويتلوه عشر تسابيح قد طبع حديثًا
بمحروسة حلب المحميه في سنة
الف وسبعماية وستة
مسيحية

الرسم رقم (١٤)
كتاب الزبور الشريف المطبوع في مدينة حلب
(سورية) سنة ١٧٠٦م

بسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد
الى حضرة ذى الجناب الرفيع والهمام النبيل
السيد المفخم والشريف الجليل كير كير يواني
قوسطنطين فاصار افا برنكوفان المتقلد ولاية
بلاد انكروفلاخيا المعظم وادنا الروحاني الحبيب
الذى من تلقى من الاله الضابط الكل وربنا يسوع
المسيح والروح القدس المعزى الذى اتا
بحلوله الرسل القديسين الاطهار الالهيين

فرح عظيم شمل المسيحيين لما ظهر قسطنطين
العظيم حاملا اشارة الصليب الالهية على قوة الدولة
العظيمة حين كانت المومنون قبله مضنوكين من
الاضطهادات اليونانية • ثم اصبحوا بغتة فائزين
[illegible] • اكثر منه يشمل اليوم الفرح الجلى
بل الاشتمال كافة المومنين • حين ظهرت بايها
الهمام النبيل حاملا [illegible] تلك الغيرة الروحانية
نحو المؤمنين المقيمين في البلاد
العربيه

الرسم رقم (١٥)
صفحة الإهداء لكتاب الزبور الشريف المطبوع في مدينة حلب
(سورية) سنة ١٧٠٦م



كتاب
الزبور الالهي لداود النبي وعدة مزاميره
مئة وخمسون مزمورا منقسمة حسب
ترتيب الآباء القديسين الشرقيين الى
سبعة اسحار معينة لسبعة اسحار السنة
ومنقسمة عشرين كاثزما خشوعية * ثم
يلي الاسحار المذكورة عشر تسابيح
نبوية كما اعتادت الكنيسة ان ترتلها
بعد المزامير في الاسحار * قد طبعت
الان على الترتيب
المذكور
عونك يارب القوات

الرسم رقم (١٦)
كتاب الزبور المطبوع في الشوير (لبنان) سنة ١٧٥٣م



كتاب
الاورولوجيون اي السواعي المشتمل على
صلوات الفرض القانونية وطروباريات
اعياد القديسين وقنداقاتهم في مدار
السنة * مع كلما جرت به العادة ان يوضع
بهذا الكتاب من طروباريات التريودي
والبندكستاري والاوطوكات وفوائد
ومعرفة ايام عيد الفصح وغيرها من
الاعياد والصيامات التي تختلف وقوعها
طبعت الان على الترتيب
الكنايسي
*
عونك يارب القوات
(١)

الرسم رقم (١٧)
كتاب الأورولوجيون المطبوع في الشوير (لبنان) سنة ١٧٦٣م



كتاب
البرهان الصريح في حقيقة سري دين
المسيح . وهما سر التثليث وسر التجسد
* الالهي *
تأليف العالم العامل والفيلسوف الكامل .
فريد عصره . ووحيد مصره . المعتصم
بالايمان الطاهر الشماس عبد الله زاخر
الحلبي نسبا . الكاثوليكي مذهبا . متعه
الله بشرف اجداده . واشركه بثواب
اتعاب جهاده امين * كتبه لاحد
المنفقين اذ التمس منه ان يحرر له
كتابا في حقيقة السرين المذكورين
وذلك في مدينة حلب المحمية سنة ١٧٢١
* مسيحية *

(١)

الرسم رقم (١٨)
كتاب البرهان الصريح في حقيقة سري دين المسيح
لعبدالله زاخر المطبوع في الشوير (لبنان) سنة ١٧٦٤م



كتاب
الانجيل الشريف الطاهر * والمصباح المنير الزاهر * مقسماً
كنايسياً علي مدار السنة حسب ترتيب الابا القديسين الشرقيين *
مضبوطاً علي اللغة اليونانية . وموافقاً النسخة العربية *
من غير تغيير ما اصلاً * على اننا حذفنا التفسير الموضوع
بهذه النسخة اي العربية اقتداءً بالاصل
اليوناني الذي لا يوجد به التفسير
* المذكور كما اوضحنا *
* في فاتحة *
الرسايل
*

(١)

الرسم رقم (١٩)
كتاب الإنجيل المطبوع في الشوير (لبنان) سنة ١٧٧٦م

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة

الرسم رقم (٢٠)
رسالة وسيلة الطباعة لإبراهيم متفرقة.
ملحق في كتاب صحاح الجوهري إستانبول سنة ١٧٢٨م

التقاريض على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة

تقريض حضرت شيخ الاسلام سلمه السلام

هذه مجلاة بل دروهو في بحره مستفرد في سلكه مفرد وروض زخارى النبات وبحر ولكنه عذب فرات فاض ونهر فتبجس منه عيون الاثر حرى بان يكون مسقط الانواء براعة القبول وموقع الانواع تقاريض الفحول فلله در منشيه حيث بين ما بين واحسن البيان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان حرره الفقير اليه سبحانه وتعالى عبد الله مفتيا بالدولة العلية العثمانية ابقاها الله تعالى بالعناية الربانيه

تقريض دامادزاده افندى صدر روم سابق

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد فان هذا الشئ عجاب وامر يستعظمه اولوا الالباب فبالهامن صناعة يستحليها كل ناظر ويستحسنها ذووا البصائر ولقد حق ان يجازى صانعها بالاكرام حيث تمت فوائدها وعظمت منافعها لانها وسيلة الى تكثير الكتب من غير حاجة الى مشقة الكتاب وكلفة الكتابة ولعمرى انها لحقيق بان يحمد اثرها الانام وتعد من حسنات ايام سلطاننا الاعظم مالك ملوك العرب والروم والعجم الا وهو السلطان بن السلطان ابو الفتوحات والمغازى السلطان احمد خان الغازى خلد الله دولته ولا زال الخير بنواصى خيله معقودا والنصر في محرم ايامه قلائد وعقودا حرره الفقير الى كرم مولاه ابو الخير احمد القاضى بعسكر روم ايلى في السابق والشهير بين اترابه بداماد زاده غفر الله له ولاسلافه ولاخلافه ولجميع المؤمنين والمؤمنات امين يا رب العالمين

تقريض ميرزاده افندى صدر روم سابق

الحمد لله حمدا يليق بجلاله والصلوة والسلام على نبيه محمد واله وصحبه الفائزين برؤية جماله اما بعد فان الفطن المحقق لهذه المقالة والماهر المتقن المتمم لنص هذه الرسالة قد ابدع صناعة ابدى فيها البراعة تستغنى جلية حالها من ان تحرر بالبراعة وانها الطبع لطيف يستجيده الطباع ويستهدى به اهل الجداى جدوى وانتفاع اثبت الله تعالى في صحايف اماله رقوم المن والاحسان واجرى في نسخة اعماله اقلام العفو والغفران حرر ته داعيا لمولانا وسيدنا السلطان الاعظم والخاقان المعظم حفظه الله رحمة على العباد وابقاه وحرس وجوده الشريف ووقاه وازاح بسطوته اهل الكفر والفساد واراح برياح معدلته كافة العباد بمنه تعالى وكرمه وانا العبد الفقير ميرزاده شيخ محمد القاضى سابقا بعسكر روم ايلى غفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات

الرسم رقم (٢١)
التقاريظ على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة
ملحق في كتاب صحاح الجوهري إستانبول سنة ١٧٢٨م

صورت خط همايون

موجبنجه عمل اولنه

صورت امر شريف

قدوة الاماجد والاعيان مكتوبى صدر اعظمى خلفاسندن سعيد ودركاه معلام متفرقه لرندن ابراهيم زيد
مجده همانكه توقيع رفيع همايون واصل اولجق معلوم اولا كه چون روابط دوام قيام قوانين دين ودولت وضوابط
قوام نظام ملك وملت وضبط وربط تواريخ واخبار وحفظ وحراست معارف وآثار بثبت وتحرير كتب وصحايف
وقيد وتحرير دواوين لطايف ايله ميسر واشاعت انواع علوم واطارت آثار فنون تكثير كتب ايله مقدر ايدوكى
مسلم ومقرر اولغله طلوع شمس دين محمدى وظهور تباشير صبح ملت احمدى صلى الله تعالى عليه وسلمدن برو
علماء دين مبين وفضلاء محققين كثرهم الله تعالى الى يوم الدين ضبط وحمايت آيات قرآنيه وحفظ وصيانت
احاديث نبويه وساير معارف يقينيه ايچون تدوين صحايف وتسطير كتب علوم ومعارف ايليوب وكذلك لغات
عربيه وفارسيه ومعارف آليه وحكميه وساير فنون جزئيه وقواعد كليه ضبط وافاده وتعلم واستفاده سى دخى
كتب وتحرير وتدوين وتسطير ايله حصول پذير اولمغله نيل اجور دنيويه واخرويه واحراز سعادت ابديه ايچون
تأليف كتب علميه وتدوين صحف معارف جزئيه دن دخى خالى اولميوب لكن مرور ايام واختلافات ادوار واعوام
ايله جنكيز فتنه لرى وهلاكو وقعه لرنده ومملكت اندلسده فرنج استيلاسنده وساير وقايع اولان
حروب وقتال وحريق اثنالرنده اكثر مصنفات عرضه ضياع وتلف اولمغله اليوم ممالك اسلاميه ده قاموس
وجوهرى ولسان العرب ووانقولى وكتب تواريخ ونسخ علوم آليه دن جلد وحجمى كبير اولان نسخ لازمه
نادر وزمره كتاب ومستنسخينك دخى قصور همت وركاوتلرندن ناشى يازمغه رغبت ايتميوب ويازدقلرى
نسخ دخى خبط وخطادن خالى اولمامغله ندرت كتب وسقامت نسخ طلبه علوم ورغبه معارف وفنونك
حسرت ومشقتلرينه باعث وبادى اولوب واعمال صناعيه دن بصمه صنعى وجوه دنانيره سكه حسنه ضربى
ويروى صحيفه نقوش طبعى كبى برنوع كتابتدن عبارت وفن بصمه ده حصول كمال كسب ايلش عبارتى مبانى
وبر جلد كتاب يازلمق زحمتيله بصمه فننده بيك جلد كتب صحيحه حصوله كلمه جكى عيان اولوب قليل المشقه
وكثير المنفعه بر صنعت مرغوبه اولديغى مفهوميني حاوى بر رساله بايعه تأليف وانشا ومنافع كثيره سن تعديد
واحصا وفن مذكورده سرك مهارتكز اولمغله لوازم ومصارفن اشترا كوروب تدارك ايتكز ايله ايام سعادت
اقترانمزده بو صنعت [illegible] ورأى خفادن منصه ظهوره جلوه كر اولمسيله عامه اهل اسلامك الى يوم القيام

الرسم رقم (٢٢)
صورة خط همايون للسلطان أحمد الثالث
ملحق في كتاب صحاح الجوهري إستانبول ١٧٢٨م

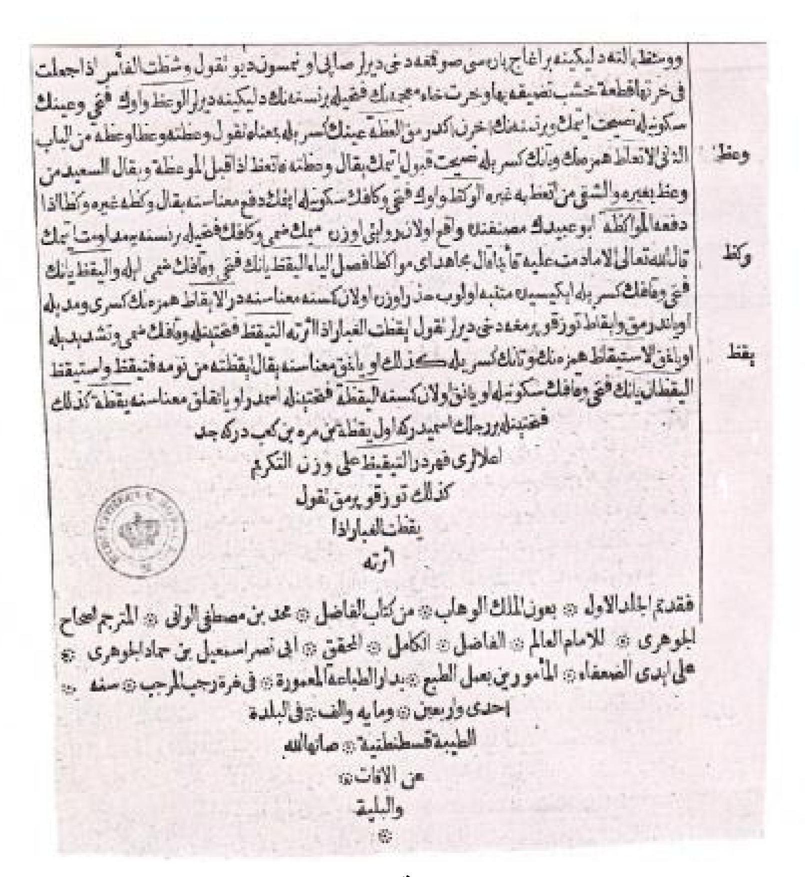
شريفه اعتماده لله سز تحرير اولنمشدر اواسط ذى القعده سنه تسع

وثلثين ومائة والف بمقام المحروسة

قسطنطنيه

صورت فتواى شريفه

الرسم رقم (٢٣)
نهاية خط همايون وبداية نص فتوى شيخ الإسلام
ملحق في كتاب صحاح الجوهري إستانبول ١٧٢٨م



اعلاری فهردر التيقيظ على وزن التكريم
كذلك تورقو يرمق تقول
يقظت الغبار اذا
أرته

فقدتم المجلد الاول ※ بعون الملك الوهاب ※ من كتاب الفاضل ※ محمد بن مصطفى الوانى ※ المترجم لصحاح الجوهرى ※ للامام العالم ※ الفاضل ※ الكامل ※ المحقق ※ ابى نصر اسمعيل بن حماد الجوهرى ※ على ايدى الضعفاء ※ المأمورين بعمل الطبع ※ بدار الطباعة المعمورة ※ فى غرة رجب المرجب ※ سنة
احدى واربعين ※ ومايه والف ※ فى البلدة
الطيبة قسطنطنية ※ صانها الله
عن الافات ※
والبلية
※

الرسم رقم (٢٤)
كتاب صحاح الجوهري : ترجمة محمد بن مصطفى الواني
المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٢٨م



أصول الحكم في نظام الأمم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

حمد وثنا وشكر بى انتها اول مالك الملك والملكوت
صاحب الكبرياء والجبروت تقدس وتعالى دركاهنه
شايان كه تدبير نظام عالم وتنظيم امور بنى آدم انك ارادت
عليه سنه منوط وتعديل وتسويه احوال امم مشيت
ازليه سنه موقوف ومربوطدر ودرود بى پايان اول پيغمبر
آخر زمان دولتپناه اهل ايمان جنابنه شايسته دركه
قانون سياست شرع مبين اصلاح مزاج دولته سند كافى
طب نبوسى اولان سنت سنيه سى تصحيح قواى قواعد دين
وملته دواى وافيدر ورضيه و تعظيم آل واصحاب نصفت
نصابه لايقدر كه مسالك حيث انصافلرنده سلوك تدوم كاركاه
ملكه دستور ابدى وآثار ميمنت احترازلرنه تمسك تمشيت

امور

الرسم رقم (٢٥)
كتاب أصول الحكم في نظام الأمم لإبراهيم متفرقة
المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٣٢م

تاريخ مصر الجديد لسهيلي افندى

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين   اسمع القول بقلب سليم
سيلس بى قياس وفى منتهاى قوى الاساس اول مدرك درك خفاى
اسرار لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار مبدع صنايع بدايع نامحصور وفى
انقضا الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها مالك الملك بى انباز دانای علوم
عالم راز خالق مخلوقات عالم ايجاد وتكوين رازق موجودات سموات وارضين
الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره الا له الخلق والامر تبارك الله
رب العالمين بت خداى خرد بخش روزى رسان پناه فقيران كس بى كسان
حضر المرتبه شايسته وحليق عقول تاريخ دانان دانا كمال ذاتی ادراكنه
عاجز وقاصر وهوش دراك اهل ادراك اسرار هويتی دركنده مدهوش
اومقصردر نعت جلال احديت ووصف كمال صمديت بموجب كلام
فى هنا توتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشا مزاحم ومشاركدن
مبرا درخواقين عظيم الشان واساطين سلاطين جهان مقام عبوديتنده عبد
افقر وشاهان سركشان جليل العنوان تراب استاننده خاك بر سر بلكه ذره دن
احقر وكتر درهمه مجرم وفيض لطفش عميم همه عمد شوذاته اكثر قديم نعت
رسول كزين ودرود كثير الورود وتحيات نامحدود اول مكمل جشم مازاغ
ومهبط وماعلى الرسول الا البلاغ مكمل نركس ازكحل مازاغ منور طلعتش
ازباغ

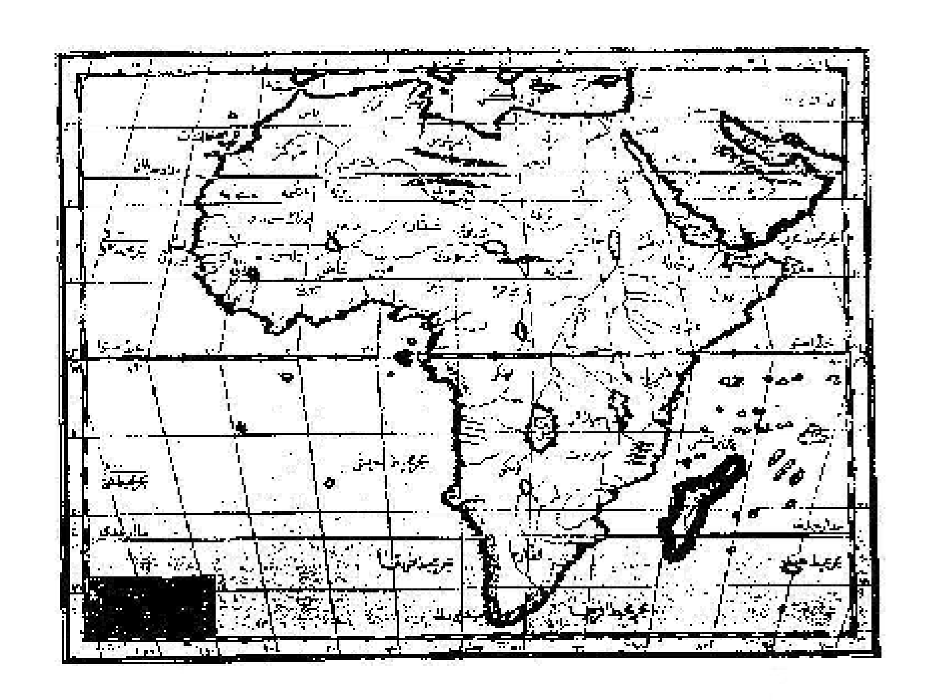
الرسم رقم (٢٦)
كتاب تاريخ مصر الجديد لسهيل أفندي المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٣٠م

تاريخ تيمور كوركان نظمي زاده افندي

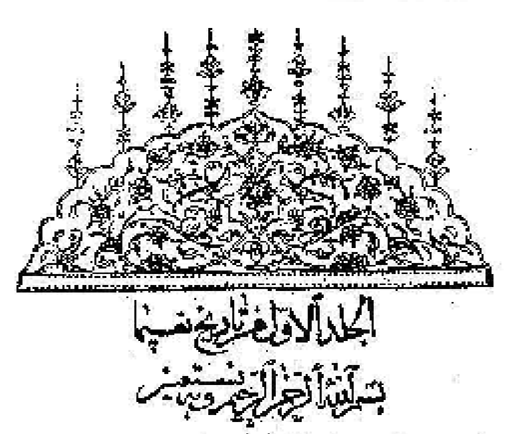
بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد ذي الطول لا اله الا هو العزيز الحميد
لا مذل لمن والاه ولا معز لمن عاداه سبحانه وتعالى من ملك له الحكم والامر تبارك
الله رب العالمين والصلوة والسلام على خير خلقه محمد المصطفى والرسول
المجتبى صاحب اللواء المعقود والحوض المورود وعلى آله واصحابه اركان الاسلام
واصحاب اليقين ثم التابعين لهم باحسان الى يوم الدين اما بعد فنزد ارباب
حل وعقد واصحاب جد وجهده تكون نامه ماضيه وسرامدن تدبير امور
ومشكلات احوال جمهوره دستور العمل معتبر اولوب بوفن تحصيلنه طالب
واستفاده رغبت اولنه جهد قليل ايله [illegible] تاليف وصغر سن ايله قلم
مشقتنه واصل اولدقده بلا استبعاد [illegible] عليه اخبار واعظم آل تيمور
بلا ظهوره احوالنده [illegible] اقطار ارضه استيلا واهلاك حرث و
نسله اجترا [illegible] طوائف عظمى وعشائر وقبائل ما لا يحصى
منهم [illegible] بلاد وسواد وقرى ومزارع معمور منهدم اولمغين تفصيل [illegible]
[illegible] متقدمين وفصحاى سابقيندن عجمي لقب حنفي
مذهب دمشق مولود [illegible] احمد بن عبد الله بن عربشاه لغت عربيه ايله
تصنيف وتاب فصاحت بلاغ ووزن شعر وسجع ونثر [illegible] ادا
[illegible] تاليف

الرسم رقم (٢٧)
كتاب تاريخ تيمور كوركان لأحمد بن عربشاه، المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٢٩م



الرسم رقم (٢٨)
خريطة إفريقيا كما ظهرت في كتاب جهان نما لحاجي خليفة
المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٣٢م



المجلد الاول من تاريخ نعيما

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الرسم رقم (٢٩)
كتاب تاريخ نعيمة المطبوع في مدينة إستانبول سنة ١٧٣٤م



احوال غزوات در دیار بوسنه

بسم الله الرحمن الرحيم

چونکه ارادت علیهٔ ازلیه * زمرهٔ مؤمنین وموحدینه

مبذول عنایات بی غایات غیر مقطوعه‌سی جانب اعلای

واعیان * وسرور کائنات * مفخر موجودات * رسول

خدا * محمد المصطفی * علیه من الصلوات والتحیات

الرسم رقم (٣٠)
كتاب أحوال غزوات در ديار بوسنة المطبوع في مدينة إستانبول
سنة ١٧٤١م

قائمة ببليوجرافية بالكتب المطبوعة بإستانبول وبلاد الشام في القرن ١٢هـ/١٨م[١]

الكتب المطبوعة باستانبول (١١٤٠-١٢٠٢هـ/ ١٧٢٨-١٧٨٧م):

١- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، **صحاح جوهري** مع ترجمة تركية لمحمد بن مصطفى الواني،- القسطنطينية: دار الطباعة المعمورة، ١١٤١هـ/١٧٢٨م، جزءان، ٣٣سم، الجزء ١، ٢٤ص، ٦٦٦ ص- الجزء ٢، ٧٥٦ ص.

يتضمن الكتاب مقدمة لإبراهيم متفرقة يشكر فيها السلطان أحمد الثالث والصدر الأعظم ابراهيم باشا وشيخ الإسلام عبد الله أفندي ويشرح أسباب اختيار هذا الكتاب، ثم يورد نص خط همايون للسلطان أحمد الثالث، ونص فتوى شيخ الإسلام ترخص باستعمال المطبعة، ونص الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة لإبراهيم متفرقة، وتقاريظ العلماء على هذه الرسالة. أعيد طبع الكتاب(عربي- تركي) بالمطبعة نفسها سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م.

٢- حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب جلبي، **تحفة الكبار في أسفار البحار**، القسطنطينية، دار الطباعة المعمورة، ١١٤٢هـ/١٧٢٩م. يتحدث عن تاريخ البحرية العثمانية والمعارك التي خاضها الأسطول العثماني. يحوي الكتاب خمس خرائط ملونة.

٣- كريزنسكي، تادي الأب، **تاريخ سياح**، القسطنطينية، ترجمة إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٢هـ/١٧٢٩م.

(١) تحصر هذه القائمة جميع الكتب التي ذكرت في المصادر التاريخية، والتي أمكن لنا الاطلاع على أغلبها في المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس.

٤ - السعودي، أحمد بن عامر الحسن، **تاريخ هند غربي**، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، ١٨٢ ص، خرائط ورسوم وجداول.

٥ - ابن عربشاه، أحمد، **تاريخ تيمور كوركان**، ترجمة تركية لنظمي زاده، - القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٢هـ/١٧٢٩م.

٦ - سهيلي، أفندي،**تاريخ مصر القديم والجديد**، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، ١٠٢ ص، ١٣٠ ص، ٢٣سم.

٧ - **كلشن خلفا**، ترجمة تركية لنظمي زاده، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٣هـ/١٧٣٠م

يتناول تاريخ العالم الإسلامي بدءاً من انتهاء خلافة بني أمية حتى الخلفاء العثمانيين سنة ١١٣٠هـ

٨ - **HOLDERMAN,** Jean Baptiste P., Grammaire turque ou méthode courte et facile pour apprendre la langue turque, Constantinople, 1143/1730, 194p, 21 cm.

نص فرنسي- تركي.

٩ - متفرقكان، إبراهيم، **أصول الحكم في نظام الأمم**، القسطنطينية، إبراهيم متفركان دركاه عالي الماذون بعمل الطبع بدار الطباعة، ١١٤٤هـ/١٧٣١م، ٩٦ ص، ٢١ سم.

١٠ - متفرقكان، إبراهيم، **فيوصات مغناطيسي**، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٤هـ/١٧٣١م.

يذكر كيفية استفادة السفن من البوصلة ، ويعدّ الكتاب منتخبات من كتب لاتينية جمعها متفرقة.

١١- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، المعروف بكاتب جلبي، **جهان نما**، **القسطنطينية**، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٥هـ/١٧٣٢م، خرائط ملونة.

١٢- حاجي خليفة (مصطفى بن عبدالله، المعروف بكاتب جلبي)، **تقويم تواريخ** القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٨هـ/١٧٣٣م.

١٣- نعيمة، أحمد، **تاريخ نعيمة (حوليات عثمانية من ١٠٠١هـ/١٥٩٢م إلى ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م)**، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٧هـ/١٧٣٤م. جزءان.

١٤- راشد، أفندي، **تاريخ راشد** (حوليات عثمانية من١٠٧٠هـ/١٦٦٠م إلى ١١٣٤هـ/١٧٢١م)، القسطنيطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، جزءان.

١٥- جلبي، زاده، **تاريخ جلبي** (حوليات عثمانية من ١١٣٤هـ/١٧٢١م إلى ١١٤١هـ/١٧٢٨م)، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٥٣هـ/١٧٤٠م.

١٦- عمر، أفندي البوسنوي، **أحوال غزوات ديار بوسنة**، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٥٤هـ/١٧٤١م.

١٧- **لسان العجم المسمى فرهنك شورى** (معجم بالفارسية والتركية)، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٥٥هـ/١٧٤٢م.

١٨- **تاريخ سامي وشاكر وصبحي** (حوليات عثمانية من ١١٤١هـ/١٧٢٨م إلى ١١٥٩هـ/١٧٤٣م)، القسطنطينية، دار الطباعة، ١١٩٩هـ/١٧٨٤م.

١٩- **تاريخ عزي** (حوليات عثمانية من ١١٥٩هـ/١٧٣٤م إلى ١١٦٦هـ/١٧٥١م، القسطنطينية، دار الطباعة، ١١٩٩هـ/١٧٨٤م.

٢٠- ابن الحاجب، **إعراب الكافية**، ترجمة زاني زاده، القسطنطينية، دار الطباعة، ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م.

الكتب المطبوعة بحلب:(١١١٨-١١٢٣هـ/١٧٠٦-١٧١١م):

١- **كتاب الزبور الشريف**، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م- VIII، ٢٧٦ص.

أعيد طبع الكتاب سنة ١١٢١هـ/١٧٠٩م.

٢- **كتاب الانجيل الشريف الطاهر والمصباح المنير الزاهر**، تقديم أثناسيوس البطريرك الأنطاكي، - حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م، ٥٩٠ ص، ٣٠ سم، رسوم. أعيد طبع الكتاب بحلب عام ١١٢٠هـ/١٧٠٨م على نفقة يواني مازابه.

٣- القديس يوحنا فم الذهب، **كتاب الدر المنتخب من مقالات القديس يوحنا فم الذهب**، تقديم أثناسيوس البطريرك الأنطاكي، حلب، ١١١٩هـ/١٧٠٧م، ٥١١ ص.

٤- **كتاب النبوءات**، حلب: طبع باهتمام الأب كير كيرالوس البطريرك الأنطاكي، ١١٢٠هـ/١٧٠٨م، ٢٧٦ ص.

٥- **كتاب الرسائل**، حلب، (١١٢٠هـ/١٧٠٨م).

٦- **كتاب الباركليتكي أي المعزي**، حلب: طبع بسعي الأب كير أثناسيوس البطريرك الأنطاكي، ١١٢٣هـ/١٧١١م، جزءان، جزء ١، ٣١٤ ص، جزء،٢، ٣١٥ ص.

٧- **رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة والاعتراف وفيما يلزم المعترف والمعرف** (أو) **سلك الدر النظيم في سر التوبة والاعتراف القويم**، حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م، ١٧٠ص.

٨ - أثناسيوس، بطريرك أورشليم، **كتاب المواعظ الشريف**،حلب، ١١٢٣هـ/١٧١١م، ١٨ ص - ٣٢١ ص، ٣٠ سم.

نص عربي، يوناني (اليونانية في المقدمة فقط)، طبع الكتاب على نفقة الأب كير خريستطوس البطريرك الأورشليمي.

الكتب المطبوعة بالشوير (١١٤٧-١٢٠٢هـ/١٧٣٤-١٧٨٧م):

١ - نيرامبرك، يوحنا أوسابيوس، **ميزان الزمان وقسطاس أبدية الإنسان**، ترجمة من الإيطالية إلى العربية بطرس فرماج، دير القديس الصابغ الملقب بدير الشوير في جبل الدروز من معاملة صيدا، ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، ٣٦٢ ص، ٢٣ سم.

٢ - **كتاب الزبور الإلهي لداود النبي**، دير القديس ماري يوحنا الصابغ الملقب بالشوير الكاين في جبل كسروان، ١١٤٨هـ/١٧٣٥م، ٣٢٧ ص ،١٧ سم.

أعيد طبع كتاب الزبور بمطبعة الشوير خمس مرات: ١٧٣٩م،١٧٥٣م، ١٧٦٤م، ١٧٧٠م، ١٧٨٠م.

٣ - **كتاب وجيز يشتمل على تأملات روحية لأيام الأسبوع**، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٤٩هـ/١٧٣٦، ١٥٩ ص.

٤ - **أوترمان، كتاب مرشد المسيحي**، ترجمة بطرس فروماج وعبد الله الزاخر، الشوير: دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٥١هـ/١٧٣٨م، ٣٥٧ ص.

٥ - كمبيس، توماس، **الاقتداء بالمسيح**، ترجمة سلسلتين سانت ليدوين، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٥٢هـ/١٧٣٩م.

٦ - ديدكس، ستالة، **كتاب احتقار أباطيل العالم**، ترجمة رفائيل فنتيول وألونصو كيشال كورجاد، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٥٢هـ/١٧٣٩م، جزءان: جزء ١، ٥٧٩ ص، جزء ٢، ٥٨٢ ص.

٧- سينيري، الأنبابولس اليسوعي، **كتاب مرشد الخاطي في سر التوبة والاعتراف**، ترجمة من الايطالية إلى العربية، بطرس فرماج، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٥٩هـ/١٧٤٧م، ١٠ ص - ٢٨٥ص.١٧ سم.

٨- أرنودي، بطرس، **كتاب تفسير سبعة مزمورات التوبة**، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، ٣١١ ص.

٩- **مختصر التعليم المسيحي**، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٦٩هـ/١٧٥٦م، ٤٢ ص.

١٠- **كتاب الرسائل المشتمل على أعمال الرسل القديسين**، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية، ١١٧١هـ/١٧٥٨م، ٨ ص، ٤٠٤ ص، ٢٤ سم.

١١- سينيري، بولس، **كتاب مرشد الكاهن**، ترجمة بطرس فرماج، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٧٣هـ/١٧٦٠م، ٣٠٤ ص.

١٢- **كتاب الأورولوجيون أي السواعي**، الشوير، القديس يوحنا الصابغ، ١١٧٧هـ/١٧٦٣م، ١٢ ص، ٧٥٣ ص، ١٧ سم.

١٣- **الزاخر، عبد الله، كتاب البرهان الصريح في حقيقة سري دين المسيح**، الشوير، دير يوحنا الصابغ، ١١٧٨هـ/١٧٦٤م، ١٢٩ص ،١٨سم.

١٤- **كتاب الأكطويخوس**، الشوير، دير يوحنا الصابغ، ١١٨٠هـ/١٧٦٧م، ٤٧٨ ص.

١٥- **كتاب إيضاح التعليم المسيحي**، ترجمة بطرس فروماج، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٨١هـ/١٧٦٨م، ٣٩٩ ص.

١٦- **كتاب تأملات جهنم المريعة وحماقة الخطاة الفظيعة**، ترجمة يوسف بن جرجيس الحلبي، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٨٢هـ/١٧٦٩م، ١٦٣ ص.

١٧- رينالدي، ف، **كتاب قوت النفس المشتمل على تأملات شهرية**،ترجمة من الإيطالية ميخائيل مزراق، الشوير، دير القديس يوحنا الصابغ، ١١٨٦هـ/١٧٧٢م، ٣٤٥ ص.

١٨- **كتاب النبوات الكنائسي**، الشوير: دير القديس ماري يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طايفة الروم الملكية، ١١٨٨هـ/١٧٧٥م، ٢٢٦ ص، ٣١ سم.

١٩- **كتاب الانجيل الشريف**، الشوير من جبل كسروان، دير مار يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية، ١١٨٩هـ/١٧٧٦م، ٣١٥ ص، رسوم، ٣٢ سم.

الكتب المطبوعة ببيروت (١١٦٤-١١٦٧هـ/١٧٥١-١٧٥٣م)

١- **كتاب الزبور الشريف**، بيروت، دير القديس جيورجوس، ١١٦٤ هـ/١٧٥١م XXX – ٣٦٧ ص.

أعيد طبع كتاب الزبور سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م.

٢- **كتاب الأورولوجيون**، بيروت: دير القديس جيورجوس، ١١٦٧هـ/١٧٥٣م.

الببليوجرافية العربية

- ابن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة ابن خلدون**، مراجعة وتعليق عبد الباقي خريف، تونس: دار الشباب للنشر والتوزيع، سيلدار، ٢٠٠٦م.

- ابن كثير، إسماعيل القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٩م، جزءان

- أبو صوان، كميل،"بيت الكلمة" في: **الكتاب ولبنان**، باريس، اليونسكو، ١٩٨٢م، ص ١١٧-١٢٠

- أبو نهرا، جوزيف، "عبد الله الزاخر رائد الطباعة العربية في لبنان في العهد العثماني"، في:أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول: **الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني**، زغوان - الحمامات (تونس) ١٥-٢٠ مارس ١٩٩٠م، زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ١٩٩٠م، ٣ أجزاء.

- إدلبي، نيوفطوس.- "البطريرك أثناسيوس الثالث دباس" في: **نشرية الكنيسة الأرثودكسية بحلب**، ١٩٨٠. ص.١٠٧-١٣٢.

- أعمال المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول: **الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني**، زغوان- الحمامات (تونس) ١٥-٢٠ مارس ١٩٩٠م . - زغوان: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ١٩٩٠م، ٣ أجزاء.

- **أوائل المطبوعات العربية في العالم حتى نهاية القرن التاسع عشر: وراقية أوائل المطبوعات العربية في الأمريكتين ١٨٨١-١٩٢٠م**، إعداد فوزي تادرس، دبي: مركز جمعة الماجد، أبو ظبي، منشورات

المجمع الثقافي، ١٩٩٦م.

- الباشا، حسن، **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.

- البستاني، فؤاد أفرام.- " الشماس عبد الله زاخر"، في **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٣٩٧-٤٠٥.

- بنتو، أولغا، "الدراسات العربية وفن الطباعة العربية في إيطاليا"، **المشرق**، Le Vante، ع١-٢، ١٩٦٤م، ص ٢-١٩.

- ترجمة حياة الفيلسوف الشماس عبد الله زاخر" كتبها أحد تلاميذه، في: **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٣٨٦-٣٩٦.

- توتل، فرديناند، **وثائق تاريخية عن حلب: أخبار الموارنة وما إليهم من سنة ١٦٠٦ إلى ١٦٤٧**، بيروت، ١٩٥٨م، جزءان.

- حاج، أثناسيوس، **الرهبانية الباسيلية الشويرية**، جونية، مطبعة الكريم، ١٩٧٣م، جزءان.

- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب جلبي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، إستانبول: وكالة معارف، ١٩٤١-١٩٤٣، جزءان.

- حتي، فيليب، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة كامل يازجي وجبور، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، جزءان.

- الحلوجي،عبد الستار، **المخطوط العربي** ،القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢م.

- حمادة، ماهر، **المكتبات في الإسلام، نشأتها وتطورها ومصائرها**، بيروت، الرسالة، ١٩٨١م.

- حمودة، محمود عباس، **تاريخ الكتاب الإسلامي**، القاهرة: مكتبة غريب،

١٩٨٠م.

- دبس، يوسف، **تاريخ سورية**، بيروت، ١٨٩٠-١٩٠٣م، جزءان.

- الرجي،ميخائيل، "سفر المزامير بالسريانية"، **المشرق**، ١٩٣٤م، ص ٣٤٥-٣٥٠.

- رضوان، أبو الفتوح، **تاريخ مطبعة بولاق**.- القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣م.

-رعد، م، **مقام الأمير فخر الدين المعني في الغرب**، بيروت: عين الرمانة، ١٩٨٠م.

- الزيات، حبيب،" الوراقة والوراقون في الإسلام"، **المشرق**، يوليو، ١٩٧٤م.

- الساعاتي، يحيى محمود بن جنيد، "الطباعة في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي"، في: **ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر**، دبي: مركز جمعة الماجد ٢٢-٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٦م، ص٢٤٣- ٢٥٨

- الساعاتي، يحيى محمود بن جنيد، "تاريخ طباعة القرآن الكريم بالعربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين" في: **المجلة المغربية للتوثيق**، عدد ٤، ١٩٨٦م، ص ١٩٥- ٢٠٨

- السامرائي، قاسم،" الطباعة العربية في أوروبا"، في: **ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر**، دبي: مركز جمعة الماجد ٢٢-٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٦م، ص ٤٥-١٠٧.

- ستيبوتشفيتش، ألكسندر، **تاريخ الكتاب**، ترجمة محمد الأرناؤوط، الكويت،

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٣م (عالم المعرفة) جزءان.

- سمايلوفتش، أحمد، **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م.

- السيد، جيهان محمود، **الببليوغرافيا التحليلية: دراسة في أوائل المطبوعات العربية**، الإسكندرية، دار الثقافة العلمية، ٢٠٠٠م.

- شيخو، لويس، **الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية**، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢٣م.

- شيخو، لويس، تاريخ فن الطباعة، **المشرق**، رقم ٣، ١٩٠٠م، ص ٧٨-٨٥، ١٧٤-١٨٠، رقم١٩٠١،٤م ص٨٦-٩٠، رقم ٥، ١٩٠٢م، ص ٦٩-٤٢٣.

- شيخو، لويس،" الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية"، **المشرق**، عدد ١٨، ١٩٢٠م، ص٣٠٣-٣٠٤.

- صابات، خليل، **تاريخ الطباعة في الشرق العربي**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨م.

- صابان، سهيل، **إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية ومطبوعاته**، مراجعة عباس صالح طاشكندي، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٥م.

- ضو، بطرس، **تاريخ الموارنة الديني والحضاري**، بيروت، ١٩٧٠م.

- طاشكندي، عباس صالح، **صناعة الكتاب السعودي المعاصر: دراسة تحليلية**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية،١٩٩٢م.

- طرازي، فيليب، **تاريخ الصحافة العربية**، بغداد، المثنى، ١٩٦٧م، ٤

أجزاء.

- عبد الهادي، محمد فتحي، **الإنتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات ١٩٩٧-٢٠٠٠م**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٣م.
- عبد الهادي، محمد فتحي، **الإنتاج الفكري العربي في مجال المكتبات والمعلومات ٢٠٠١-٢٠٠٤م**، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٧م.
- عبدو، إبراهيم، **تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية**، القاهرة: مكتبة أدب، ١٩٤٩م.
- عبدو،إبراهيم، **تاريخ الوقائع المصرية ١٨٦٨-١٩٤٢م**، القاهرة : المطبعة الأميرية، ١٩٤٢م.
- عزب، خالد؛ منصور، أحمد، **مطبعة بولاق**، الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية،٢٠٠٥م.
- العسكر، فهد، **العناصر الطباعية الإسلامية واستخداماتها التطبيقية في طباعة المصاحف الشريفة**، الرياض: جامعة الامام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٩٩م.
- عطية، جورج، **الكتاب في العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الستار الحلوجي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٣م (عالم المعرفة، ٢٩٧).
- عقيقي، نجيب، **المستشرقون: تاريخ الاستشراق**، القاهرة، ١٩٤٧م، ٤ أجزاء.
- فريد بك، محمد، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٧م.
- القلقشندي،أبو العباس، **صبح الأعشى في صناعة الانشاء**، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩١٠-١٩٢٠م، أعيد طبعه سنة ١٩٦٣م، ١٤ مجلد وكشاف (نشر سنة ١٩٧٢م).

- **الكتب العربية المطبوعة في أوروبا**، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ٢٠٠٤م.

- متفرقة، إبراهيم " رسالة وسيلة الطباعة "، في: **صحاح الجوهري**، استانبول، ١٧٢٨م.

- مشروع معجم الطباعة، مكتب تنسيق التعريب بالرباط في: **اللسان العربي**، مجلد ١٧، جزء ٣، ١٩٧٩م، ص ١٥٥-١٨٨.

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، **اللجنة الفنية لدراسة الحروف العربية**، القاهرة ٢٧ نوفمبر-١٢ ديسمبر ١٩٧١م.

- المنوني، محمد، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، بيروت: دار الغرب الإسلامي،١٩٨٥م، جزءان

- مهدي، محقق، "تاريخ الطباعة العربية في بلاد إيران"، في: **ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر**، دبي: مركز جمعة الماجد ٢٢-٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي، ١٩٩٦م، ص ٢٣١-٢٤٢.

- المهيدي، محمد الصالح، **تاريخ الطباعة والنشر بتونس**، تونس: معهد علي باش حانبة، ١٩٦٥م.

- **ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر، دبي: مركز جمعة الماجد ٢٢-٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م**، أبو ظبي، منشورات المجمع الثقافي،١٩٩٦م.

- نزهت، سليم، **تاريخ الطباعة في تركيا ١٧٢٩-١٩٢٩م**، ترجمة وتعليق سهيل صابان، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٣م.

- نصر الله ،يوسف، "تلاميذ زاخر"، **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٤٣٠-٤٣٦.

- نصر الله، يوسف "مطابع الملكيين منذ ظهور الطباعة إلى أواخر القرن

١٨" في: **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٤٤٠-٤٥٠.

- نصر الله، يوسف، "تلاميذ عبد الله زاخر وآثارهم الأدبية"، في: **المسرة**، ١٩٤٨م ص ٤٣١-٤٣٥.

- نصر الله، يوسف، "عبد الله زاخر وآثاره الأدبية"، **المسرة**، ١٩٤٨، ص ٤٠٦-٤٢٣.

-نصر الله، يوسف، "مطابع الملكيين"، **المسرة**، ١٩٤٨م، ص ٤٣٧-٤٦٢.

- نيوفو، أنجيلا، "ظهور النسخة العربية للقرآن الكريم ١٥٣٧-١٥٣٨".- تقديم د.عبد الجليل التميمي، ترجمة المنجي الردادي في: **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد ٥٣-٥٤، جويلية ١٩٨٩م، ص ١٧٩-٢٠٤، النص الإنجليزي لهذا المقال في العدد نفسه من المجلة، ص ١٢٣-١٤٠.

Bibliographie et archives

الأرشيف

أرشيف المكتبة الوطنية بفرنسا

أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية

- Archives : **الأرشيف**

- Bibliothèque Nationale de Paris :

- **Manuscrits orientaux : Supplément turc** : nous avons consulté en particulier les traductions françaises de livres turcs publiés à Constantinople au XVIIIème siècle.
- **N° 717 :** Relation de Mehmet Effendi, ambassadeur turc à Paris en 1720.
- **N° 838** : Histoire de l’Egypte de Suhayl Efendi. Trad.A. De Beauville.

- **N° 876** : Extrait de Tuhfat al-Kibar fi asfar al-bihar de Haggi khalifa. Trad. J. Galland.

- **N° 877** : Tarikh Suyyah (Histoire des révolutions de Perse). Trad. J.V. Choquet.

- **N° 882 :** 1ère ch. De Tuhfat al-kibar fi asfar al-bihar. Trad.T. Rocques.

- **N° 901 :** Tarih hindi garbi. Trad. J.B. De Fiennes.

- **N° 917 :** Annales Ottomanes (1591-1602) trad. Digeon et Onton.

- **N° 922 :** Histoire du Sultan Bayezid II. Trad. E. Roboly.

- **N° 923 :** Relation de la Révolution arrivée à Constantinople en 1143/1731. Trad. Fonton.

- **N° 925 :** Extraits des Tables chronologiques de Haggi Khalifa. Trad. J. Wiet.

- **N° 930 :** Relation de la dernière guerre en Bosnie (1736-1739). Trad. Cardonne.

Manuscrit occidentaux :

- Mss fr 16153 ff 7-48 : Diffusion de livres protestants au Proche-Orient.

- N.A.F. 4752. ff 2-32. Pièces relatives à l'imprimerie de Constantinople au XVIIIème siècle.

- N.A.F. 8972 ff. 235-236. Correspondance entre Said Salabi et le bibliothécaire du Roi de France.1727.

- N.A.F. 23058. 19 f. Documents relatifs à l'imprimerie de Constantinople au XVIIIème siècle.

- **Ministère des Affaires Etrangères-Paris :**

- Mémoires et documents (M.D) Turquie T.10.

ff. 39-55 : Mémoire pour servir à régler le cérémonial pour la réception de l'ambassadeur turc envoyé à Louis XV en 1720.

ff. 166-284. Principales circonstances de ce que a été et observé pour la réception de Mehmet Effendi ambassadeur turc.. en 1720-1721.

ff. 286-313 : Mémoire pour servir d'éclaircissement et de supplément aux deux relations que Mehmet Effendi a faites en turc de son ambassade en France, 1720.

M.D. Turquie T.12 :

ff.230-299 : Relation de Mehmet Effendi. Trad. Par P.J. Aubert en 1723.

Bibliography

- Abousouan, Camille, « A Grenade et à Gênes au XVIè siècle : les premiers pas de l'imprimerie arabe » in : **Le Livre et le Liban jusqu'à 1900**, Paris : Unesco, Agecoop, 1982, pp.111-119.

- Abousouan, Camille, « Une étape importante dans les relations Orient-Occident : la naissance de l'imprimerie arabe en Europe occidentale et balkanique » in : **Actes du colloque international de civilisations balkaniques**, Bucarest, 1962.

- Adnana, Adivar, **La Science chez les Turcs ottomans**, Paris, Maisonneuve, 1939.

- Aggoula, Basile, « Le livre libanais de 1585 à 1900 » in : **Le Livre et le Liban jusqu'à 1900,** Paris : Unesco, Agecoop, 1982, pp.297-359.

- **Arab islamic bibliography, edited by Grimwood-Hopwood-Pearson.** London, Harvester Press, 1977.

- Ayache, G, « Lapparition de l'imprimerie au Maroc », in : **Hesperis**

Tamuda, vol V, 1964, pp.143-162.

- Bacel, P, « Abdallah Zakher » in : **Echos d'Orient**, n°11, 1908, p.219. et p.284.

- Balagna, Josée, « Le fonds des imprimés arabes à la Bibliothèque Nationale les XVIè, XVIIè et XVIIIè siècles » In, **Bulletin de la Bibliothèque Nationale**, n°2, Juin, 1979 p.65-77 ; n°2 juin 1980,pp. 60-65, n°3 septembre 1980 pp.114-117.

- Balagna, Josée, **Inventaire des livres imprimés arabes (1514-1959),** Paris : Bibliothèque Nationale, 1986.

- Balagna, Josée, **L'Imprimerie Arabe en Occident XVI, XVII et XVIII siècles** Paris, Maisonneuve et Larose, 1984

- Barthold, V.,**La découverte de l'Asie : Histoire de l'orientalisme en Russie,** traduit du russe par B.Nikitine, Paris, Payot, 1974.

- Beldiceanu, Nicoara, **Les actes des premiers sultans conservés dans les manuscrits turcs de la Bibliothèque nationale de Paris**, Paris : La Haye : Mouton, 1960.

- Belleforest, Francois De, **Cosmographie universelle**, Paris, Sonnius, 1575, T11.

- Bestermann, Th, **A World Bibliography of Oriental Bibliographies, Totowa,** New Jersey , Rownan and Littlefield, 1975**.**

- Bianchi, T.X, **Le Nouveau guide de la conversation en français et en turc, suivi de la collection complète des capitulations ou traités de paix entre la France et la Porte ottomane,** Paris : Dondey, 1852

- Bianchi, Thomas-Xavier**, Notice sur le premier ouvrage d'anatomie et de edicine imprimé en turc à Constantinopie en 1820…** suivi du Catalogue des livres turcs, arabes et persans imprimés à Constantinople depuis 1726 jusqu'à 1820, Paris , Cellot, 1821.

- Bibliothèque de Sylvestre De Sacy par Daunou, Paris 1843-1847, T1

- **Bibliothèque orientale d'Herbelot**, Paris, 1697, préface d'Antoine Galland.

- **Biographie universelle ancienne et moderne**, Dir. Michaud, Paris, 1801.

- Blochet, E, **Catalogue des anuscripts turcs de la Bibliothèque Nationale,** Paris, BN, 1932-1933, 2 vol.

- Bombci, A, **Histoire de la littérature turque**, Paris, Klinckreck, 1968

- Bonola, Bey « Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe. » in : **Bulletin de l'Institut Egyptien**, 5 série, T3, 1er Fasc, déc.1909,pp,75-76.

- Bowen.H, **Islamic Society and the West, a Study of the Impact of Western Civilisation on Moslem Culture in the Near East**, Londres, New-york, Toronto, Oxford University press, 1959, T II.

- Breves, Savary De, **Discours abrégé, assurer les moyens d'anéantir et ruiner la monarchie des princes ottomans**, In Cologne, Recueil historique contenant diverses pièces curieuses de ce temps, Van Dyck, 1666.

- Brockelmann, Carl, **Geschichte de Arabischen Litteratur,** Leiden , Brill, 1943-1945, 5 vol.

- Browne, **Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie**, … trad. J. Castra, Paris, Deutre, 1800, T11

- Brunet, Jacques Charles**, Manuel du libraire et de l'amateur de livres,** Paris, Maisonneuve et Larose, 1966, 8 vol, 1ère edition 1865.

- Busbec, O.G.De, **Ambassades et voyages en Turquie et Amasie**, trad.s.A., Gaudon, Paris, David, 1946

- Candea, Virgil, « Dialogue roumano-libanais sur le livre et l'imprimerie » in : **Le Livre et le Liban jusqu'à 1900,** Paris : Unesco, Agecoop, 1982, p.285

- Candea, Virgil, « Une politique culturelle commune roumano arabe dans

la première moitié du XVIII siècle » in : **Bulletin de l'Association Internationale d'Etudes du Sud-Est Europeen, Bucarest**, 1965, n°1, p.51.

- Cantemir, A. D, **Histoire de l'Empire Ottoman,** trad. Joncquieries, Paris Barois, 1743, T1, p.137.

- Carter, H., **History of the Oxford University Press**, Oxford, Clarendon 1975, vol.1,

- Carter, **The invention of printing in China**. New-York, Ronald press, 1955.

- Catalogue Général des Livres imprimés à la Bibliothèque Nationale, Paris, Bibliothèque Nationale, 1897-1982, 231 vol.

- Chardin, Jean, **Voyage de Monsieur le Chevallier Chardin en Perse et autres lieux d'Orient**, Amsterdam, De Lorme, 1711, 2 vol.

- Charon , Karalevsky, **Histoire des patriarcats melkites** ; Rome-Paris 1909-1911, 3T.

- Chauvin, Victor, « Notes pour l'histoire de l'imprimerie à Constantinople » In **Z.B.**, 1907, TXXIV, pp.255-262.

- Chebli, M, **Fakhreddine II Maan,** Beryrouth, 1946

- Chenoufi, Moncef, « Le problème des origines de l'imprimerie et de la presse arabes en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance « Nahda », Paris, Sorbonne, 1970 (Thèse de doctorat d'état dactylographiée)

- Chevallier, Dominique ; Berque, Jacques, **Les arabes par leurs archives ,** Paris, C.N.R.S., 1974

- Chevallier, Dominique. **La société du Mont-liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe,** Paris, Geuthner, 1971.

- Chevillier, A, **L'origine de l'imprimerie de Paris**, Paris, Laulne, 1694.

- Dahl, Svend, **Histoire du Livre,** Paris, Poinat, 1967,

- Dandini, Jérôme, **Voyage du Mont Liban**, Trad.R.Simon, Paris, L Billaine, 1675.

- De Guignes, **Principes de composition typographique pour diriger un compositeur dans l'usage des caractères orientaux de l'imprimerie royale,** Paris, 1790.

- Demeerseman, « Une page nouvelle de l'histoire de l'imprimerie en Tunisie » in **IBLA**, n°75, 1956, pp.276-280, 306-309.

- Demeersemann, "Les données de la controverse autour du problème de l'imprimerie" in **IBLA,** n°65, 1954.

- Demeersman, Père « Une parente pauvre de l'imprimerie arabe et tunisienne : La lithographie : in **IBLA**, n°64, 1953.

- Deschamps, Pierre, **Dictionnaire de géographie ancienne et moderne,** Paris, 1964 (1ère éd.1870)./ L'imprimerie hors d'Europe.- Paris, 1964. (1ère éd.1904).

- Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques (D.H.G.E.)/ Paris : Letouzey, 1912, 17 volumes.

- Dictionnaire de la Bible, publié par F. Vigouroux.- Letouzey, 1935-1972. 15 vol. 3 Tables.

- Duverdier, **Abrégé de l'histoire des Turcs,** Lyon, 1665

- Duverdier, Gérard, « Les caractères de Savary De Brèves », in : **l'Art du livre à l'Imprimerie Nationale**, Paris, Imprimerie nationale, 1973 pp. 69-87.

- Duverdier. Gérard, « Les impressions orientales en Europe et le LIban » In **: Le Livre et le Liban** jusqu'à 1900, Paris : Unesco, Agecoop, 1982, pp.159-175.

- Eche, Y, **Les bibliothèques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen âge**, Damas, Institut Français d'Archéologie, 1967

- Eden,E.M, **State of the poor**, Londres, 1797 in : Mantoux , P, La révolution industrielle au XVIIIè, Paris 1973

- Efendi, Mehmed, **Le paradis des infidèles : un ambassadeur ottoman en France sous la Régence**, Paris, Maspero, 1981, 1ère éd. 1757.

- Ellis, Alexandre George, **Catalogue of editio books in the British Museum.**, London, 1894-1901, 2 vol. 2ème edition 1967.

- Encyclopédia of Library and information Science/ edited by A. Kent and H.Lancour. New-york : Dekker, 1978.

- **Encyclopédie de l'Islam** : dictionnaire géographique ethnographique et biographique des peuples musulmans, Leyde, Brill, Picard et Maison neuve, 1913. 1ère édition : 4 volumes et 1 supplément. 1913-1938. 2ème édition.

- Epistres Françaises des personnages illustres à M.Joseph Juste de la Scala ; Haderwyeq, H. Laurens, 1624, p.376.

- Exposition de ieces et œuvres du fonds arabe de la Bibilothèque Nationale et Universitaire de Strasbourg, 1959 (texte multigraphié).

- Flour, W.M, « The first printing press in Iran in : **Zeits chrift der Deutschen Margenlandischen Gesellscharft**, Band 130, Heft 2, 1980, pp 369-371.

- Gabrielli, G, **Manuale di bibliografia musulmana,** Roma, Manuali coloniali, 1916.

- Geiss, A, « Observations à la suite de la note de Bonola-Bey » in **Bulletin de l'Institut Egyptien**, 5 serie, TIII, 1er fascicule, décembre 1909, p.85.

- Gemayel, N, « Essai de Bibliographie des premiers orientalistes libanais en France » in : **Le Livre et le Liban jusqu'à 1900,** Paris : Unesco, Agecoop, 1982 pp.225-258.

- Gemayel, N… « Les imprimeries libanaises de Rome » in : **Le Livre et le Liban jusqu'à 1900,** Paris : Unesco, Agecoop, 1982**, p.192.**

- Gercek, Selim Nushet, **Turk matbaciligi (L'imprimerie turque)**, Istanbul, Derletbasimerie, 1939,pp.14-16.

- Goyau, Georges, **Un précurseur : François Picquet**, Paris, Geuthner, 1942.

- Graesse, T, **Trésor de livres rares et précieux,** Dresde, Kuntze, 1895. 7 vol.

- Graf, Georg, **Geschichte der christlichen arabischen literatur,** Roma : Bib. Apost. Vaticana, 1944-1953, 4 vol, Tables.

- Guignes, Joseph De, « Essai historique sur la typographie orientale et grecque de l'imprimerie royale » in, **Notices et extraits**, T1, 1887 pp.XI-XII.

- Hammer- Purgstall, J, « Sur un passage curieux de l'Ihatet sur l'art d'imprimer chez les arabes en Espagne » in **Journal Asiatique**, 1852, n°2, 4 série, TXX, pp.252-255.

- Hamzaoui, R, **L'académie de la langue arabe du Caire**, Tunis : Université, 1975.

- Hitti,Philippe. **Précis d'histoire des Arabes**, trad. Palaniol, Paris, Payot, 1950.

- Holderman , P.« Note du P.Holderman, 1731 » in : **Revue des Bibliothèques**, n°36 1926, p.6-9

- Hopp, L, « Ibrahim Muteferriqa : Fondateur de l'imprimerie orque » in : **Acte Orientalia Hung**, n°29, 1975 ; p.108.

- Huart, Clement Imbault, **Les Calligraphes et les miniaturistes de l'Orient musulman,** Paris, Leroux, 1908

- Inalcik, H, **The Ottoman Empire : The Classical Age 1300-1600**, London, Weiden feld, 1973.

- **Index Islamicus** : A Catalogue of Articles on Islamic Subjects in

Périodicals and Other Collective Publications, Compiled by J.D. Pearson, Cambridge, Heffer, 1958. Volumes : 1905-1955 ; 1956-1960 ; 1961-1965 ; 1966-1970 ; 1971-1975 ; Devient : The **Quarterly index islamicus** à partir de 1977 (trimestriel).

- **Jewisch Encyclopédia**.- New-york, Londres : Funk and Wagnalis, 1901-1907. 12vol.

- Jock, T, **Jésuites et Chouérites**, Paris, Geuthner, 1937.

- Klaproth, J.V, **Lettre à M. le Baron A.De Humbtoldt sur l'invention de la boussole**, Paris Dondey- Dupre, 1834,

- Krek, Miroslov, "The Enigma of the rabic book printed from movable types" in **Journal of Near Eastern Studies**, juillet, 1970, vol 38.pp.206-207.

- Labarre, Albert, **Histoire du livre**, Paris, PUF, 1970

- Laurens, Henri, « Les origines intellectuelles de l'Expédition d'Egypte : l'orientalisme islamisant au XVIII° siècle (1698-1798) », Paris IV, Sorbonne, 1981 (Thèse de doctorat de 3ème cycle multigraphiée).

- Le Febvre, Michel Sieu, **L'Etat présent de la Turquie,** Paris, Courterot, 1675.

- Le Febvre, Michel Sieu, **L'Etat présent de la Turquie**, Paris, Courterot, 1675.

- Le Febvre, Michel Sieu, L'Etat présent de la Turquie, Paris, Courterot, 1675, p.199.

- **Le Livre et le Liban jusqu'à 1900,** Paris : Unesco, Agecoop, 1982

- Les navigations, pérégrinations et voyages, faits en la Turquie, Antwerp, 1576, p.246 Cité in LEWIS, Bernard, The Emergency of Modern Turkey, Oxford University Press, 1961, p.42.

- Lewis, Bernard, **The Emergency of Modern Turkey**, Oxford University Press, 1961.

- Mantoux , P**, La révolution industrielle au XVIIIè,** Paris 1973,.

- Mantran, Robert, **Istanbul dans la seconde moitié du XVIIè :Essai d'histoire institutionnelle économique et sociale,** Paris, Maisonneuve, 1961 pp.420-421.

- Marsigli, Le Comte De, **L'Etat militaire Ottoman : ses progrès et sa décadence**, La Haye, Goose, 1732,

- Marsigli, Le Comte De, **L'Etat militaire Ottoman : ses ecadenc et sa ecadence**, La Haye, Goose, 1732.

- Middle East and Islam : ABibliographical introduction/ edited by Diana-Grimwood-jones, London , 1979.

- Mignot, Abbé de Scellieres, **Histoire de l'Empire ottoman**, Paris, le Clerc, 1771, TIV.

- Nasrallah, J, **Histoire du mouvement littéraire dans l'Eglise Melchite** Paris, chez l'auteur, 1979, vol IV.

- Nasrallah, J, **L'imprimerie au Liban**, Beyrouth, Harissa, 1949

- Nasrallah, J, **Notes et documents pour servir à l'histoire du patriarcat melchite d'Antioche** ; Jerusalem 1965 T1, pp.132-133.

- Nouvelle Biographie générale.- Paris : F. Didot, 1857-1866, 46 vol.

- Nouvelle description de Constantinople, Paris, 1721.

- Ohsson, Mouradgea, D', **Tableau eneral de l'Empire Ottoman**, Paris, 1787, 3 vol.

- Omont, Henri. « Documents sur l'imprimerie à Constantinople » publiés par H.Omont, in : **Revue des Bibliothèques**, n°5, 1895, pp.185-200 ; 228-236 ; n°36,1926, pp.1-10.

- Picot, E, « Notice sur l'imprimeur Anthime d'Ivir » in : **Nouveaux mélanges orientaux publies par l'Ecole des Langues Orientales**, Paris, Leroux, 1886 (2 série, TXIX) p.536.

- Pinto , Olga, Studi arabistica e Arte tipografia araba in Italia dal XV al

XX Secolo, In, **Levante** n°1-2,1964,p.2.

- Rabbath, A. **Documents inédits pour servir à l'histoire du Christianisme en Orient,** Beyrouth, 1905-1921, 2 vol.
- Raphael, Pierre, **Le rôle du Collège maronite romain dans l'orientalisme aux XVIè et XVIIIè siècles,** Beyrouth, Université ST.Joseph, 1950 p.24.
- Reinaud, « De la Gazette arabe et Turque imprimée en Egypte » in : **Journal Asiatique,** série 2, TVIII, 1831, p.238.
- Richard, François, « Un Témoignage sur les débuts de l'imprimerie à Nor Jula » in : **Revue des études arméniennes**, T XIV, 1980,pp.483-484.
- Rodinson, M, « Le Monde islamique et l'extension de l'écriture arabe » In, **L'Ecriture et la psychologie des peuples**؛ Paris, Colin, 1963,
- Rossi, J.B, **De Corano Venetinus, Paganini types** : Impressio, Parma 1805.
- Safadi, Y,H, **Arabic printing and book production in : Arabic islamic bibliographie**, London, Harvester, 1977,
- Saint-Olon, Pidou De, **Etat présent de l'Empire du Maroc,** Paris, 1694.
- Saint-Simon, Louis de Rouvaroy, De, **Mémoires Complets et authentiques…sur le siècle de Louis XIV et la Régence,** Paris, A. Sautelet, 1829, Vol 18, p.382.
- Saussure, Cesar De, **Lettres de Turquie (1730-1739),** Budapest, Academie Hongroise des Sciences, 1909,
- Sauvaget, J, **Alep: essai sur le développement d'une grande ville syrienne,** Paris, Geuthner, 1941, T1, p.200.
- Sauvaget, Jean, « Suggestions pour une réforme de la typographie arabe » in **: Revue des Etudes Islamiques**, 1951, p.127-132 ;
- Sauvaget, Jean, **Introduction à l'histoire de l'Orient musulman/** édition refondue et compétée par C.Cahen, Paris, Maisonneuve, 1961.
- Schnurrer, C.R., **Bibliotheca arabica.- Halae : ad-Salam**. 1811.

Réedition Amsterdam Oriental Press, 1968.

- Schwab, M, **Les incunables orientaux et les impressions orientales au commencement du XVIe siècle**, Paris, 1883.

- Secret, « Guillaume Postel et les tudes arabes à ,la Renaissance » In **Arabica**, T9. 1963, p.31.

- Secret, François, **Les Kabbalistes chrétiens de la Renaissance,** Paris, 1936.

- Simonescu, Dan, « Impressions de livres arabes et Karamanlis en Valachie et en Moldavie au XVIII siècle » in : **Studia et Acta Orientalia,** n° 5-6, 1967, pp.50-51.

- Simonescu, Dan, « Impressions de livres arabes et Karamanlis en Valachie et en Moldavie au XVIII siècle » in :**Studia et Acta Orientalia,** n° 5-6, 1967, pp.50-51.

- Spiridonakis, B.G**., Empire Ottoman : Inventaire des mémoires et documents aux archives du ministère des Affaires Etrangères de France**.- Thessaloniki, Institute for Balkan Studies, 1973.

- Stochove, Vincent Sr de Ste Catherine, **Voyage du Levant**, Bruxelles, Velpius, 1650.p.139.

- Thevet, André, **Histoire des plus illustres et savants omes de leurs siècles**, Paris, Manger, 1671

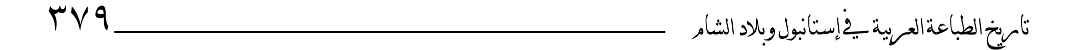
- Toderini ,A.G, **De la littérature des Turcs**, Paris, Poinçot, 1789, ٣T

- Vaumas, G, De, **L'éveil missionnaire de la France**, Lyon, Imprimerie express, 1942,

- Vervliet, H.D.L, **Granjon à Rome 1578-1589 : Notes préliminaires de la typographie romaine à la fin du XVIsiècle**, Amesterdam, Herzberger, 1967

- Vigueur, Eléments de la langue Turque, Constantinople, 1207/1787

- Vitré, Antoine., **Histoire du procès qu'on renouvelle de temps en temps à A.Vitré à cause de l'achat que le roi l'a obligé de faire des poinçons des matrices et des manuscrits turcs, arabes et persans**



que feu M.De Breves avait apporté du Levant, Paris, A. (1656), (Bibliothèque Nationale de Paris, Mss, Latins 1717 pp.28-36).

- Volney (pseudonyme Constantin François Chassebeuf) .- **Voyage en Egypte et en Syrie**/ préf. Jean Gaulmier.- Paris : Mouton et co. La Haye, 1959 . Première édition 1787.
- Weil, G, « Die ersten Drucke der Turken » in Wentralbant Bibliothekewesen (Z.B), Fevrier 1907, T XXIV, pp.49-61.
- Willems, **Les Elzevier,** Nieuwkoop, Graaf , 1962.
- Zenker, J.Th., **Bibliotheca Orientalis : manuel de bibliographie orientale.**, Amsterdam : Oriental Press, 1966. (1ère édition Leipzig 1846).
- Zumthor, P**., La vie quotidienne en Hollande au temps de Rembrandt,** Paris, Hachette, 1959.